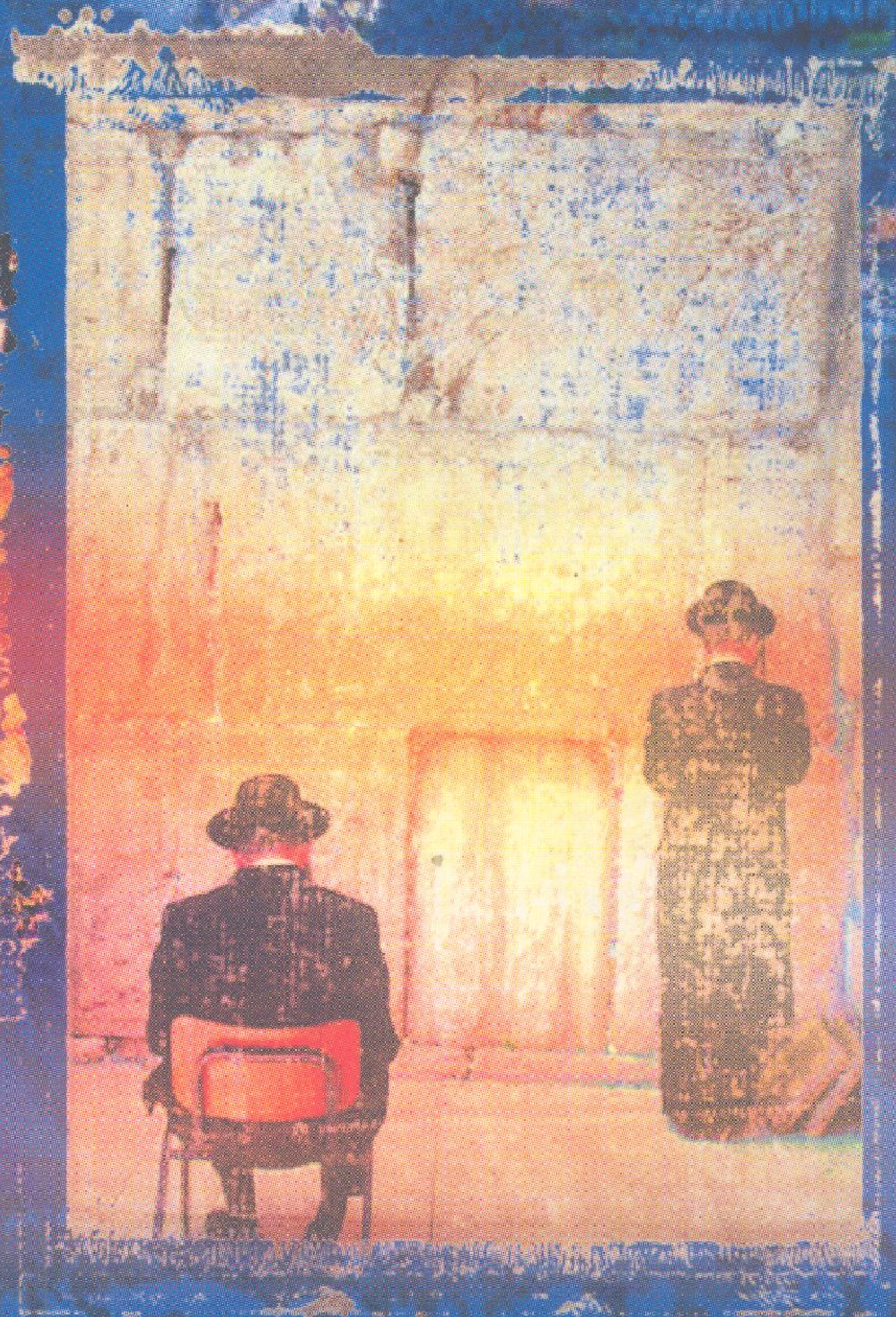
يوسف أيوب حداد

هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين

الجزء الثاني







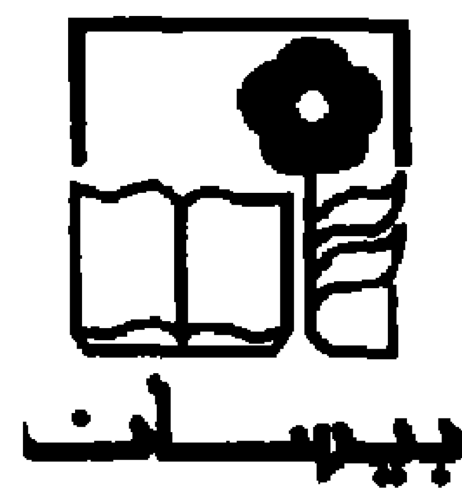
بيسان

هل لليهود
حق ديني أو تاريخي
في فلسطين؟

يوسف أيوب حداد

هل لليهود
حق ديني أو تاريخي
في فلسطين؟

الجزء الثاني



• اسم الكتاب: **هل لليهود حق ديني أو تاريخي في فلسطين؟** - الجزء الثاني
• المؤلف: يوسف أيوب حداد
• الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) 2004م

• الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع والإعلام**
ص. ب: 5261 - 13 بيروت - لبنان
هاتف: 351291 - فاكس: 747089 - 1 - 961
بريد الكتروني: bisanbok@lynx.net.lb

الفصل الثالث

الفــاتيــكــان واليهــود بـــين الماضي الغابر والزمن الحاضر

تباينت مواقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي ترسم اتجاهاتها السلطة البابوية في الڤاتيكان نحو اليهود واليهودية عبر مراحل التاريخ. ويمكن القول على العموم إن الموقف الرسمي لهذه الكنيسة اتصف بالسلبية سحابة قرون مديدة، لاعتبارات لاهوتية، ولعل أهمها تحميل اليهود مسؤولية صلب المسيح «وقالوا (أي اليهود) دمه علينا وعلى أولادنا» (متى 27/ 25)، واضطهادهم للمسيحيين الأوائل، ومقاومتهم لنشر المسيحية، وتمنعهم عن اعتناقها. وقد أدى كل ذلك إلى ردود فعل مسيحية في أوروبا بعد أن قويت شوكة الديانة المسيحية التي أصبحت الديانة الرسمية للأمبراطورية الرومانية، وبذلك تعرض اليهود لمضايقات قبل ظهور حركة الإصلاح الديني البروتستانتية. على أن هذه المضايقات أخذت تخبو تدريجياً منذ قيام الثورة الفرنسية (1789) التي أوجدت تبدلاً ملحوظاً بإصلاحات اجتماعية أزالت أشكال المضايقات كافة، وأصبح اليهود إلى حد كبير يتمتعون بالمساواة في أماكن تواجدهم في غالبية الأقطار الأوروبية.

وقبل عهد الإصلاح الديني البروتستانتي لم يكن في الفكر الكاثوليكي أدنى مكان لاحتمال عودة اليهود إلى فلسطين من منظور لاهوتي، أو لأية فكرة عن وجود أمة يهودية. وكان القساوسة الأوائل يرفضون التفسير الحرفي للتوراة

ويفضلون الأساليب الأخرى للتفسيرات اللاهوتية، وبخاصة التفسيرات المجازية التي أصبحت الأسلوب الرسمي للتفسير التوراتي كما وضعته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وساد الاعتقاد أن الفقرات الواردة في التوراة التي تشير إلى عودة اليهود إلى وطنهم لا تنطبق على اليهود بل على الكنيسة المسيحية مجازاً. أما اليهود، فإنهم طبقاً للعقيدة الكاثوليكية الرسمية، اقترفوا إثماً فطردهم الله من فلسطين إلى منفاهم في بابل. وعندما أنكروا أن عيسى هو المسيح المنتظر نفاهم الله ثانية، وبذلك انتهى ما يسمى «الأمة اليهودية» إلى الأبد، ولذلك ليس لليهود مستقبل قومي جماعي، ولكنهم كأفراد يستطيعون أن يجدوا الخلاص الروحي بارتدادهم إلى المسيحية[1].

والنبوءات المتعلقة بعودة اليهود كانت تؤول على أنها عودة الإسرائيليين من المنفى في بابل. وقد تحقق ذلك في القرن السادس قبل الميلاد حين أعادهم (قورش) إلى فلسطين. أما الفقرات الأخرى التي تتنبأ بمستقبل مشرق لإسرائيل، فإنها كانت تحمل على أنها تنطبق على «إسرائيل الجديدة» أي الكنيسة المسيحية التي كانت تعتبر إسرائيل «الحقيقة» والوريث المباشر للديانة العبرية[2].

أصبحت هذه الطروحات التي وضع أسسها الأب أغسطين في القرن الخامس الميلادي، واستمرت إلى ما بعد نشوء حركة الإصلاح الديني البروتستانتية، هي العقيدة الراسخة للكنيسة الكاثوليكية بعد انتصارها الذي تمثل في تأسيس العرش البابوي في روما، في ظل غريغوري الأكبر سنة590، واتخذ ذلك المسار شكل العقيدة الثابتة الخالصة التي اعتُبر كل ما عداها هرطقة، والتي انبنى منهجها على تجنب التفسيرات الحرفية لنصوص العهد القديم. ووفق منطوق هذه العقيدة، جاء عقاب الله لليهود بسبيهم إلى بابل لفعلهم الشرور في عينيه، وكان العقاب الثاني بسبب إنكارهم للمسيح

---

(1) ريجينا الشريف، مصدر سبق ذكره، ص26 ـ 27.

(2) المصدر السابق، ص27.

الناصري، على يد الرومان الذين دمروا الهيكل الثاني سنة 70م[1].

تبعاً لهذه الطروحات الكاثوليكية، لم يعد هناك مجال للتمسك بحلم مجيء مسيح آتٍ يخلص اليهود ويقيم مملكة الله «مملكة يهوه» على الأرض. فالمسيح الذي بشرت بمجيئه النبوءات الواردة في أسفار العهد القديم قد جاء بالفعل، و«الفداء» الذي تحدثت عنه تلك النبوءات قد حدث بالفعل، ولكن لكل البشر الذين افتداهم الناصري، و«الخلاص» قد بات في متناول كل البشر بما علمهم به. ومملكة الله على الأرض قد قامت ممثلة في الكنيسة الكاثوليكية. وفي الوقت نفسه، لم يعد لليهود ـ بعدما أغضبوا الله عليهم وبعد حكمه عليهم بالشتات ـ أمل أو حق في التشبث بدعوى كونهم أمة تنتظر الفداء والخلاص من الشتات، إذ وضع الله حداً لوجودهم كأمة، ولم يعد أمامهم من سبيل إلى خلاص إلا بالخلاص الفردي، باعتناق المسيحية، إذ لم تعد هناك إسرائيل يتحقق خلاصهم بالعودة إليها إلا إسرائيل الجديدة والحقة، الكنيسة الكاثوليكية[2].

فالكنيسة الكاثوليكية، وقد رأت أن مسيرة التاريخ اكتملت بقيامها مملكة لله على الأرض، رأت أن اليهود تحققت فيما يخصهم نبوءات الفداء والخلاص والعودة عندما مُكِّنوا، في ظل قورش الذي أخطأوا فاعتبروه مسيح الرب (إشعيا 45/ 1) من العودة إلى أورشليم وبناء الهيكل الثاني إثر هزيمة الامبراطورية البابلية على أيدي أعدائها الفرس، لكنهم ضيعوا فرصتهم بإنكارهم نبوة المسيح يسوع الناصري، ولن يمكّنوا ثانية من خلاص أو عودة أو من إعادة بناء الهيكل[3]. وبقي الأمر المسلم به أن هذه العقيدة هي الرأي المسيحي التقليدي في اليهود حتى القرن السادس عشر. ونتيجة لذلك كانت فترة العصور الوسطى تميل إلى الفصل بين اليهود المعاصرين والعبرانيين القدامى[4]. ولم تكن أوروبا

---

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص60 ـ 62.

(2) المصدر السابق، ص62.

(3) المصدر السابق، ص62.

(4) ريجينا الشريف، مصدر سبق ذكره، ص27.

قبل عهد الإصلاح الديني تعتبر اليهود الشعب المختار الذي قدر له أن يعود للأرض المقدسة، وإذ كان اليهودي مختاراً لأمر فإنه اللعنة. وكان اليهود يعتبرون مارقين، ويوصمون بأنهم قتلة المسيح. ولم تكن هناك ذرة من حب عاطفي للمجد القديم للجنس العبري، كما لم تكن هناك بارقة أمل في إعادة بعث اليهود روحياً أو قومياً. ولم تكن هناك أدنى فكرة عن تملك اليهود لفلسطين. كانت الصهيونية غير اليهودية غائبة تماماً عن أوروبا في العصور الوسطى. وكانت إسرائيل تعني مجرد اسم لديانة، بل وديانة دنيا، ولم يكن هناك أية فكرة من الممكن أن تكون «لإسرائيل» صفات قومية[1].

وخلافاً لطروحات حركة الإصلاح الديني البروتستانتية وتشعباتها المناقضة للطروحات الكاثوليكية الأساسية الأولى والتي ترى في قيام إسرائيل المعاصرة تحقيقاً لنبوءات توراتية، فمن الأهمية بمكانة التمييز بين دولة إسرائيل والفكر الصهيوني من جهة، والديانة اليهودية من جهة أخرى. ففي نظر الديانة المسيحية أن اليهودية مرحلة زمنية أولى كان هدفها الإعداد لمجيء السيد المسيح، ومن ثم للديانة المسيحية، وأن نبوءات العهد القديم قد تمت من قبل، أو مع مجيء السيد المسيح. وليس فيه أية إشارة إلى أي زمن تاريخي أو وضع سياسي بعد السيد المسيح. فكل ما جاء فيه في المجال الديني كان رمزاً إلى السيد المسيح. وما الربط الغربي المعاصر لدى الأكثرية البروتستانتية بين دولة إسرائيل المعاصرة والنبوءات التوراتية إلا خروج على مضمون العقيدة المسيحية وعلى معنى الآيات المقدسة، وعلى مضمون الكتاب المقدس العقائدي، وعلى قواعد التفسير الكتابية. وفي حين يحاول هؤلاء المسيحيون الربط بين الكتاب المقدس ودولة إسرائيل، فإننا نجد أكثرية لا يستهان بها في «إسرائيل» لا تؤمن بالكتاب المقدس[2].

---

(1) المصدر السابق، ص29.

(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص522 ـ 532.

الردة الڤاتيكانية

عانى اليهود الكثير من الاضطهاد الأوروبي المسيحي لهم الناجم عن عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، إلا أنه لم يكن نشطاً قبل الحملات الصليبية كما حدث خلالها[1] وبعدها. ففي عام 1555 أقام البابا بول الرابع جيتو آخر في روما لليهود، سبقه قيام جيتو البندقية عام 1516[2]. وفي عام 1581 أصدر البابا غريغوري الثالث عشر حكم الإدانة ضد اليهود[3]. واشتدت وطأة اضطهاد اليهود في أوروبا ولا سيما في أواخر القرن الخامس عشر والسادس عشر عندما لجأ يهود إسبانيا وغيرها هرباً من محاكم التفتيش إلى المغرب العربي حيث قوبلوا بالتسامح ولاقوا المعاملة الإنسانية الكريمة[4].

استمر الموقف الڤاتيكاني السياسي الذي تحكمه العقيدة الأوغسطينية قبل ظهور الحركة الصهيونية اليهودية وبعد ظهورها، رغم جنوح البورتستانتية الغربية إلى اتجاه معاكس. فقد دأبت المواقف الڤاتيكانية على مواقفها السلبية تجاه اليهود. وكان أول من أشار إلى المطامع الصهيونية في فلسطين الرهبان الكاثوليك. وفي هذا المجال نشر الأب هنري لامنس اليسوعي في مجلة «المشرق» عام 1899 مقالاً بعنوان «اليهود في فلسطين ومستعمراتهم»، استعرض فيه شؤون المستعمرات اليهودية وتاريخ إنشائها والجمعيات والأفراد الذين يدعمونها مادياً. وحذّر في ختام مقالته من الأطماع اليهودية في شرقي الأردن[5].

---

(1) ريجينا الشريف، مصدر سبق ذكره، ص28.

(2) د. عبد الوهاب محمد المسيري، مصدر سبق ذكره، ص34.

(3) محمد السماك، مصدر سبق ذكره، ص21.

(4) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط3، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972، ص22 ـ 23.

(5) هنري لامنس، «اليهود في فلسطين ومستعمراتهم» مجلة المشرق، مجلد 2 السنة الثانية 1899 ص1088 ـ 1094.

وهكذا من منطلق عقدي لاهوتي قاومت الفاتيكان المشروع الصهيوني في البداية، لكن هذا الموقف أخذ يتبدل تدريجياً بعد قيام «دولة إسرائيل»، وأخذ الكرسي الرسولي يتخلى عن المرتكزات اللاهوتية الكاثوليكية الأوغسطينية، وعن تراث الفاتيكان العقائدي الذي استمر قروناً. وتتالت اللقاءات بين المسؤولين الرسميين الإسرائيليين وبين المسؤولين بالفاتيكان وعلى رأسهم البابوات، بعد أن فشلت المساعي الصهيونية المبكرة أول الأمر في كسب التأييد الفاتيكاني للمشروع الصهيوني. وفي انقلاب جذري، أقدمت الفاتيكان على الاعتراف الرسمي بإسرائيل متخلية عن جوهر العقيدة الكاثوليكية، وعن المواقف السابقة كافة، وعن الشروط كافة التي طرحتها للقيام بالاعتراف الرسمي[1] بدولة إسرائيل المعاصرة.

مواقف الفاتيكان من الصهيونية قبل قيام دولة إسرائيل

بدأت المطامع الأوروبية تتجه للحصول على مكاسب اقتصادية في أرجاء السلطنة العثمانية منذ القرن السادس عشر بغطاء ديني، من خلال التظاهر في الاهتمام بشؤون الطوائف المسيحية المتواجدة ضمن تلك السلطنة، ومن خلال التظاهر في الاهتمام بالأماكن المقدسة في فلسطين. ولقد تمكن الأوروبيون من الوصول إلى مبتغاهم لتفوقهم على الأتراك ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، فحصلوا على ما يسمى بنظام «الامتيازات الأجنبية» في الامبراطورية العثمانية، وهو في الأصل عبارة عن وثائق معينة تمنح التجار الأوروبيين حقوقاً وامتيازات خاصة[2].

اكتسبت هذه الامتيازات سمة الاتفاقيات الثنائية، ووقعت أول اتفاقية من

(1) Los Angeles Times, 24/10/1993.

(2) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة د. عفيفة البستاني، بيروت، دار الفارابي، 1980، ص20.

Sergio I. Mimerbi, Conflict in the Holy land (1895-1925) Translated by Arnold schwarz, New York- Oxford, Oxford University Press, 1990, (Introduction).

هذا القبيل في عام 1535 بين السلطان سليمان القانوني وفرنسيس الأول ملك فرنسا. وفي عام 1604 عقدت اتفاقية مماثلة مع إنكلترا ومدينة البندقية، ثم منحت حقوق مماثلة لرعايا دول أوروبية أخرى. واتخذت الدول الأوروبية إيفاد المبشرين وإنشاء الإرساليات والمدارس وسيلة للتغلغل في المشرق العربي. وكانت الإرساليات الكاثوليكية للعازريين والجزويت من الأولين الأكثر نشاطاً، وكانت أعمالهم تدار من قبل الڤاتيكان وتحظى بمساندة فرنسية. وافتتحت هذه الإرساليات شبكة واسعة من المدارس والمعاهد الدينية. وفي عام 1846 بعث البابا نظام بطريركية القدس اللاتينية الذي كان قائماً في وقت من الأوقات في عهد الصليبيين.

وظهرت في بيروت، عام 1820، أول إرسالية أميركية، وقبيل عام 1860 أنشأ المرسلون الأميركيون أكثر من ثلاثين مدرسة ودار طباعة. وفي عام 1866 فتحوا الكلية السورية في بيروت التي أصبحت فيما بعد الجامعة الأميركية. وفي عام 1849 أنشأت روسيا في القدس إرسالية تبشيرية لتعزيز نفوذها. ولم تتقاعس إنكلترا وألمانيا عن منافسة بقية الدول الأوروبية، ولقد ساندت إنكلترا البروتستانت وخطط المستعمرين الألمان في فلسطين، وأنشأت في القدس عام 1841 أسقفية إنكليزية ـ بروسية. ومن جهة أخرى شجعت الاستعمار اليهودي في فلسطين[1].

كانت فلسطين حتى بداية الحرب العالمية الأولى تشكل الجزء الجنوبي الغربي من سورية الطبيعية، بيد أنه كان لها مكانة دينية مميزة عن بقية المناطق السورية، ومما زاد في أهميتها موقعها الجغرافي كملتقى للطرق بين قارات العالم القديم الثلاث، خاصة بعد شق قناة السويس. وبسبب هذه الميزات أعيد اكتشافها وتزايد الاهتمام الغربي بها لا سيما بعد ولادة الحركة الصهيونية اليهودية. ومع نهاية القرن التاسع عشر تزعمت كنائس الإرساليات الغربية

---

(1) لوتسكي، المصدر السابق، ص157 ـ 158.

المسيحية قيادة التوسع الثقافي والأيديولوجي في فلسطين من خلال إنشاء المدارس والأديرة والمستشفيات، وإيفاد البعثات التبشيرية التي كانت تقدم خدمات اجتماعية. وكان هذا النشاط المحموم يخفي وراءه أهدافاً سياسية كحكومات الدول الغربية. ومن بين هذه الدول: روسيا القيصرية، وبروسيا الألمانية، وفرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة الأميركية. ولقد اشتدت المنافسة بين هذه الدول على الساحة الفلسطينية، بحيث أصبحت تلك الساحة تغص بالكنائس والأديرة والمدارس والمستشفيات الغربية، وبرجال الدين الأجانب. على أن الكنيسة الكاثوليكية التابعة للفاتيكان ظلت تتمتع بالنفوذ الأكبر، نظراً للدعم الذي كانت تقدمه الدول اللاتينية في عاصمة السلطنة العثمانية للبابوية. وتمكنت الكنيسة الكاثوليكية من التفوق على بقية الكنائس المسيحية الأخرى بكثرة ما أنشأته من أديرة ومدارس ومستشفيات ومياتم. ولقد ساعد التنافس بين كنائس الطوائف المسيحية على تخرج أعداد كثيرة من المسيحيين الفلسطينيين في الجامعات في الغرب، والتخصص في حقول المحاماة والطب والتعليم والتجارة والأعمال المصرفية، وهو الأمر الذي أذكى حدة الصراع بين الفلسطينيين المسيحيين وبين اليهود ذوي الاختصاصات المماثلة. وأصبح بذلك المسيحيون الفلسطينيون النواة الأولى في التصدي للمشروع الصهيوني(1).

تعود أهمية فلسطين بالنسبة للفاتيكان إلى وجود الأماكن المسيحية المقدسة فيها المرتبطة بحياة المسيح. وترى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أنها ممثلة المسيح على الأرض، وأن البابا خليفة القديس بطرس ووكيل المسيح على الأرض. ومن هذا المنطلق، فهو يتمتع بسلطة قوية تمكنه من الهيمنة المطلقة على حكومته المركزية في الڤاتيكان، وتتحكم في مواقفه السياسية عوامل داخلية وخارجية. من هنا كانت مواقف الڤاتيكان غير ثابتة في القضايا الدولية لا سيما في القضية الفلسطينية، حيث تتباين مواقف الكنائس الشرقية

(1) Andrej Kreutz, vatican Policy on the Palestinian Israeli Conflict: The struggle for the Holy Land, New York Connectieut, Greenwood Press, 1990, P28-31.

عن مواقف الكنائس الغربية، وحيث تمارس القوى العالمية العظمى نفوذها للتأثير على قرار الڤاتيكان السياسي واللاهوتي، ناهيك بالصراع بين الكنائس بطوائفها على الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين التي حاولت الڤاتيكان مبكراً احتكار الهيمنة عليها بمنح البابا غريغوري السابع عشر، عام 1837، البطريرك مكسيموس الثاني مظلوم، بطريرك الروم الكاثوليك لأنطاكية، لقباً إضافياً أصبح بموجبه بطريرك الإسكندرية والقدس وكل فلسطين. وهذا يعني السعي لبسط الهيمنة الڤاتيكانية على الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، وهو الأمر الذي تنبهت له الحركة الصهيونية، فسعى أقطابها الأوائل للتفاهم المسبق حول مستقبل فلسطين والأماكن المسيحية المقدسة فيها مع دولة الڤاتيكان[1].

الاتصالات الصهيونية المبكرة بحاضرة الڤاتيكان غير المجدية

رأى تيودور هرتسل في نطاق تحركاته بين العواصم الأوروبية لحملها على دعم مشروعه الصهيوني، ضرورة الاتصال بالڤاتيكان نظراً لمكانة نفوذها عالمياً واهتمامها بالأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، مع إدراكه بأن مهمته هذه ليست سهلة. فتاريخ الكنائس التابعة للبابوية يوضح بجلاء معاداتها لليهود واليهودية من منطلق عقدي لاهوتي. فهذه الكنائس اعتبرت أن العهد القديم (التوراة) هو مقدمة للعهد الجديد (الأناجيل والرسائل) الذي حصل بمجيء المسيح. وبهذا انتقل «الوعد الإلهي» من «إسرائيل» إلى كنيسة الله الكاثوليكية التي أصبحت بالفعل «إسرائيل الحقيقية»، وأنها وارثة التوراة حسب أطروحات القديس أوغسطين. وبما أن اليهود لم يتقبلوا المسيحية ولم يعترفوا بالمسيح، وأن تشتتهم كان عقاباً لهم على عدم تقبلهم وعدم اعترافهم بالمسيح، فقد تسبب ذلك في اضطهاد الكنيسة لهم[2].

(1) Ibid, P30,32.

(2) Sergio I. Minerbi, OP. Cit, P93-94.

لم تكن مهمة هرتسل في إقناع الڤاتيكان بالموافقة على البرنامج الصهيوني سهلة، ولكنه رأى أنه بالإمكان تجاوز معارضة الڤاتيكان بالتحايل في إقناع أولي الأمر فيها بتعهده أن تكون الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين خارج نطاق «الدولة اليهودية» المزمع تأسيسها، فقد تكون مدولة أو تحت إشراف البابا. بيد أن هذه الخديعة التي عرضها على السفير البابوي، في أيار 1896، لم تكن مقنعة، واعتبر السفير أن المشروع الصهيوني غير واقعي وغير مقبول[1].

كان هرتسل على علم بمعارضة الڤاتيكان لمشروعه التي اتضحت في مقالة وردت في صحيفة سيفيلتا كاثوليكا (Civilta Catholica) اليسوعية قبل أربع سنوات من انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرا عام 1897، والذي اعتبر كاتبها أن ما حلَّ باليهود من شتات كان عقاباً لهم لعدم اعتناقهم المسيحية[2]. وهذا ما دعاه للقول بأن روما ستقف ضدنا لأنها لا ترى في الدولة اليهودية حلاً للمسألة اليهودية، وهي تخشى قيام تلك الدولة المناقض للعقيدة اللاهوتية الكاثوليكية، وهو الأمر الذي أوضحته صحيفة سيفيلتا كاثوليكا، في نيسان 1897، بمقال جاء فيه: إن إعادة بناء القدس وجعلها عاصمة لدولة إسرائيل المنوي تأسيسها مخالف لنبوءة المسيح الواردة في إنجيل لوقا «ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكمَّل أزمنة الأمم» (لوقا 24: 21)[3].

استمر السجال بين الطرفين البابوي والصهيوني بعد انعقاد المؤتمر الأول، وبعيد أيام من انعقاد هذا المؤتمر تسلم هرتسل جريدة فرنسية وأخرى إيطالية تضمنتا منشوراً بابوياً شاجباً للمشروع الصهيوني. ولم يكتف البابا بإصدار هذا المنشور، بل أتبعه بإيفاد مبعوث إلى العاصمة التركية يحمل

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P32.

(2) Sergio I. Minerbı, Op. Cit, P96.

(3) Andrej Kreutz, OP. Cit. P32.

تحذيراً للسلطة فيها من الإقدام على تسليم فلسطين لليهود (جويش كرونيكل 17(8 ـ 1897 ص21). ومع ذلك استمر هرتسل بالمخادعة في التطمين باستثناء الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين من الدولة اليهودية المزمع إنشاؤها. وفي مجال هذه المخادعة أبدى للسفير البابوي في النمسا (5/ 2/ 1899) مجدداً نواياه بأن عاصمة الدولة اليهودية المستقبلية ستكون خارج مناطق الأماكن المسيحية المقدسة. بيد أن الموقف الكاثوليكي المعارض استمر على حاله. ففي أيلول من عام 1899 اتضح ذلك في مقالة نشرتها سيفيلتا كاثوليكا اليسوعية، واعتبر كاتبها أن اليهود المعاصرين هم من «سلالة قتلة الله». وفي مقابلة جرت بين هرتسل والسفير الأميركي في فينا، أوضح هرتسل للسفير إحساسه بمعارضة الكاثوليك والأرثوذكس للمشروع الصهيوني بقوة، وأن الڤاتيكان في طليعة المعارضين بصلابة وجدية[1]. وعلى الرغم من سلبية الڤاتيكان تجاه مشروع هرتسل، فقد قرر مقابلة البابا شخصياً علّه ينجح بالمخادعة في إقناع البابا بالعدول عن المعارضة لمشروعه.

هرتسل في الڤاتيكان

التقى هرتسل بالعديد من القادة الأوروبيين الرسميين سعياً وراء دعم مشروعه، ووجد لزاماً عليه الالتقاء بالبابا بيوس العاشر. التقى أولاً بوزير خارجية الڤاتيكان (22/ 1/ 1904)، وطلب من ذلك الوزير تأييد الڤاتيكان للمشروع الصهيوني، مؤكداً إبقاء الأماكن المقدسة المسيحية خارج نطاق المناطق التي ستقام عليها الدولة اليهدوية. بيد أن جواب الوزير كان سلبياً: «. . لكننا لا يمكننا أن نقف إلى جانب اليهود كما تريد إلا إذا اعتنق اليهود المسيحية»[2].

هيأ الكونت (ليباي) مقابلة لهرتسل مع البابا بيوس العاشر (1903 ـ

---

(1) Sergio I. Minerbi, OP. Cit, P96-97.

(2) د. أحمد، طربين، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (1897 ـ 1922) القاهرة، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1970، ص87.

1914)، وكان من السهل أن يتنبأ المرء بموقف البابا من محدثه هرتسل الذي ينكر ألوهية المسيح، فقال له: «لا نستطيع أن نقبل بهذه الحركة (الصهيونية). لا نقدر أن نمنع اليهود من الذهاب إلى القدس، ولكن لن نرضى به رسمياً أبداً. إن تراب القدس إن لم يكن دائماً مقدساً، فقد قدسته حياة المسيح الذي عاش عليه، وكرئيس للكنيسة لا أستطيع أن أصرح بغير هذا. لم يعترف اليهود بسيدنا، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي». عندها لجأ هرتسل إلى المراوغة ضارباً على وتر معاناة اليهود من الاضطهاد، ومما قاله: «إن غايتنا فقط تخفيف آلام اليهود، ولا غاية دينية لنا أبداً. فأجابه البابا: نعم، ولكننا، وخصوصاً أنا كرئيس للكنيسة، لا يمكن أن نقبل بهذا. أي إن هناك إمكانيتين: إما أن يظل اليهود متمسكين بإيمانهم، ويظلون ينتظرون المسيح، الذي جاء بالنسبة لنا، وبهذا يكونون منكرين ألوهية المسيح، ولا نستطيع مساعدتهم، أو أن يذهبوا إلى فلسطين بدون إيمان، وهذا بالطبع يجعلنا أقل عطفاً عليهم ونصرة لهم»[1].

بالنسبة لهرتسل كانت تلك المقابلة في منظوره إنجازاً. ألم يجتمع مع البابا كزعيم يهودي صهيوني؟ إن هذا يعني الكثير بالنسبة إليه لاهتمامه بالأبهة والعظمة. أما الكونت (ليباي) فقد تلقى رزمة من فئة الألف لير لقاء خدماته[2].

لم تنطل مراوغات هرتسل على الدوائر الرسمية في الڤاتيكان، ولذلك باءت تحركاته بالفشل، وهو الأمر الذي اتضح من أجوبة البابا ووزير خارجيته، ومن مقابلة صحفية مع الكاردينال ميرى دل ڤال في 1/ 4/ 1904، ويعود الرفض لمطالب هرتسل لاعتبارات لاهوتية مبنية على عدم اعتراف اليهود بالمسيح الذي نسخت تعاليمه اليهودية[3].

---

(1) المصدر السابق، ص87 ـ 88.
أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى، مصدر سبق ذكره، ص121 ـ 122.

(2) د. أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص88.

(3) Sergio I. Minerbi, OP. Cit P99-101.
Kreutz, OP. Cit, P33.

ناحوم سوكولوف في الڤاتيكان

دأبت الحركة الصهيونية بعد موت هرتسل على السعي للحصول على موافقة الڤاتيكان على المشروع الصهيوني، نظراً لثقل مكانة الڤاتيكان دولياً. وفي حين كانت محاولات هرتسل ترتكز على المراوغة في تطمينه للكرسي الرسولي بما يتعلق بالأماكن المسيحية المقدسة، وفي إثارة الجوانب المتعلقة بمآسي اليهود دون التطرق إلى الجوانب السياسية، عمد ناحوم سوكولوف إلى طرق هذه الجوانب، وأراد من الڤاتيكان موقفاً سياسياً يقوم على اعتراف الڤاتيكان بالشخصية الوطنية لليهود، لكن نظرة الڤاتيكان، آنذاك، كانت مقصورة على الجانب الإنساني فقط لا السياسي[1].

ويبدو أن الحركة الصهيونية أصبحت في وضع أقوى من الوضع السابق أيام هرتسل، نظراً للتقارب الصهيوني/ البريطاني، ونظراً لظهور بوادر انهيار النظامين الروسي القيصري والعثماني التركي قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى[2]. ومن شبه المؤكد أن تجرؤ سوكولوف في الجهر بالمطلب السياسي للحركة الصهيونية ما كان ليحصل لولا تيقنه من الدعم البريطاني لمشروعه. ومن المحتمل أن يكون قد اطلع على اتفاقية سايكس/ بيكو قبل زيارته للفاتيكان القاضية بإخضاع فلسطين لنظام دولي، وهو الأمر الذي رفضته الحركة الصهيونية مصرة على أن تجعل بريطانيا فلسطين محمية بريطانية[3]. ومما يدل على المساندة البريطانية للمشروع الصهيوني يومذاك، هو أن وكيل وزارة الحرب البريطانية، مارك سايكس هو الذي مهد الطريق لزيارة سوكولوف إلى الڤاتيكان بعد مقابلة سايكس للبابا بندكت الخامس عشر (1914 ـ 1922) وطلبه من سوكولوف مقابلة البابا وسواه من مسؤولي الڤاتيكان. وكان أبرز الذين اتصل بهم الزعيم، الصهيوني، المونسنيور باشيلي (الذي أصبح فيما بعد

---

(1) Sergio I. Minerbi, OP. Cit. P102-104.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P34.

(3) Sergio I. Minerbi, OP. Cit, P12-13.

البابا بيوس الثاني عشر) وكيل وزارة الخارجية لدولة الڤاتيكان، الذي سبق له أن قال لسايكس إن وضع الأماكن المقدسة في فلسطين تحت رعاية بريطانية أمر لا يتنافى مع سياسة الڤاتيكان. ووجد سايكس من محادثاته مع باشيلي أن الطريق أصبحت ممهدة لمجيء سوكولوف إلى الڤاتيكان وقيامه بعرض المشروع الصهيوني بتفاصيله على المسؤولين في الڤاتيكان[1]. وقد التقى فيها أول الأمر بالمونسنيور باشيلي والكاردينال غاسباري، وزير الخارجية آنذاك، فوجد تقبلاً منهما لأطروحاته، بعد طمأنته للكاردينال بأن الحركة الصهيونية لا تعتزم إنشاء مملكة بل إنشاء حكم ذاتي[2]. وفي الرابع عشر من أيار 1917 مكنه المونسنيور باشيلي من مقابلة البابا بندكت الخامس عشر. وقد دار بينهما الحديث التالي على مدى ثلاثة أرباع الساعة، استهل البابا الحوار بقوله للزائر: إنني متأكد بأن حضورك إلى هنا جاء بوصفك تمثل الحركة الصهيونية الهادفة لتحقيق المشروع الصهيوني الهادف إلى إعادة قيام يهودا على يد الشعب اليهودي أليس كذلك؟ ما أغرب هذا المسعى! فقبل تسعة عشر قرناً دمرت روما دولتكم، وأنتم تريدون إعادة بناء هذه الدولة بمجيئكم إلى روما.

وتضمن جواب سوكولوف الإشارة إلى زوال الامبراطورية الرومانية مقارناً ذلك الزوال بدأب اليهود على المطالبة بأرض أجدادهم. وأجابه البابا بحماس: نعم نعم، تلك إرادة الله. ولدى استفسار البابا عن تفاصيل الأهداف الصهيونية البعيدة أجابه سوكولوف: مخططنا مزدوج الغاية، إنه يرمي إلى إيجاد مركز روحي ثقافي لليهود في فلسطين، وإلى إنشاء وطن قومي لليهود المضطهدين على أرض فلسطين حتى يتمكن اليهود فيها من تنمية ثقافتهم بحرية، وتعليم أولادهم المثل والقيم اليهودية، وتنشئتهم على الروح اليهودية، ليجعلوا من وطنهم مظهراً للمدنية اليهودية. فقال له البابا: فكرة عظيمة، واستطرد مستوضحاً عما إذا كان المخطط الصهيوني قد اشتمل على وسيلة

---

(1) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مصدر سبق ذكره، ص170.

(2) Serigo I. Minerbi, OP. Cit, P.110.

لحماية اليهود من الاضطهاد. فأجابه سوكولوف بأسلوب خطابي عاطفي قائلاً: من حق اليهود أن يكون لهم مكان في أرض آبائهم، وتابع قائلاً: إننا نتطلع إلى إحياء اليهودية التاريخية وتجديد وطننا روحياً ومادياً، تجديداً تتمثل فيه مميزاتنا القومية وتقاليد توراتنا في أزهى الصور وأبهاها. إننا نطالب بحقنا في الحرية، الحرية التي لا يمكن التنكر لها لأي شعب من الشعوب.

سأله البابا: أهناك متسع من الأرض كاف لمخططكم في فلسطين؟ أجابه سوكولوف: هناك إمكانية للوصول إلى هدفنا، وعلينا أن نمهد الطريق. بعد هذا الحوار دار الحديث حول عدد المستعمرات اليهودية في فلسطين آنذاك، وهو عدد ضئيل، وحول الصعوبات المرتقبة في مرحلة انتقال الحكم من يد الأتراك إلى يد الإنكليز قال البابا: إن بريطانيا العظمى هي أكبر دولة استعمارية في العالم ولها خبرات واسعة لا يضارعها فيها أحد. وعند الانتهاء من اللقاء طمأن سوكولوف البابا بشأن الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، مطالباً إياه بالدعم. وكان جواب البابا: نعم نعم أعتقد أننا سنكون جيراناً في جيرة حسنة[1].

خرج سوكولوف مغتبطاً من المقابلة، وقد عبّر عن ذلك في برقية بعث بها إلى خليفة هرتسل، حاييم وايزمن، لكن هذه الغبطة لم تكن في محلها الصحيح، ففي مطلع أيار عام 1917 كتب وايزمن إلى سوكولوف معبراً عن عدم قناعته بالدعم البابوي المعنوي للمشروع الصهيوني، مشيراً إلى ممارسة البابا ضغوطاً من أجل تدويل فلسطين، وأنه لا يرجى منه موقف آخر مهما أبدى من مشاعر عاطفية للمشروع الصهيوني. وفي الثالث من أيار من العام نفسه، تلقى وايزمن رسالة فيلكس بنكوس (Felix Pinkus) أحد الزعماء الصهاينة في سويسرا، أشار فيها إلى أن دولة الفاتيكان تعبئ الكاثوليك في

(1) Ibid, P111-112.

عجاج نويهض، المصدر السابق، ص171 ـ 172.

العالم ضد قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين برعاية بريطانية، وأنها تسعى لتدويل فلسطين تحت إشراف بابوي، وأنها تعارض بأي شكل من الأشكال جعل فلسطين محمية بريطانية. ومما زاد في قناعة وايزمن بسلبية موقف الڤاتيكان من المشروع الصهيوني، ما قاله له أحد محرري جريدة التايمز اللندنية: هناك ثلاثة أعداء للصهيونية: أثرياء اليهود، البوند، والجزويت. وتكونت بذلك قناعة لدى وايزمن بأن الڤاتيكان مصممة على تدويل فلسطين، وهذا ما دفعه لإجراء اتصالات بالدوائر البابوية فيما بعد علّه ينجح في تبديل الموقف الڤاتيكاني من المشروع الصهيوني[1].

موقف الڤاتيكان من وعد بلفور

أبدت الڤاتيكان استياءها الشديد تجاه وعد بلفور (2/ 11/ 1917)، وظهرت معارضتها له بصراحة ووضوح. وشكّل الاحتلال البريطاني لفلسطين في ذلك العام قلقاً متزايداً في الدوائر البابوية بعد رحيل الأتراك الذين كانوا أفضل من حمى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين. وقد دفع هذا القلق، بعد صدور الوعد وبعد الاحتلال البريطاني لفلسطين، وزير خارجية الڤاتيكان الكاردينال غاسباري للقول: لم تقرع أجراس الڤاتيكان ابتهاجاً باحتلال بريطانيا للقدس. من الصعوبة أن يؤخذ قسم من قلبنا من الأتراك ويعطى للصهاينة[2].

وزاد من مخاوف الڤاتيكان تصريح وايزمن: ستصبح فلسطين يهودية كما إنكلترا إنكليزية، وتصريح لويس براندس: يجب أن تكون حدود كافية للوطن القومي اليهودي وليس فقط حديقة في فلسطين. وبالإضافة إلى كل ذلك فقد كانت الڤاتيكان تتخوف من انتشار الشيوعية في فلسطين على يد المهاجرين اليهود لإدراكها دور اليهود الحاسم في ثورة أكتوبر الشيوعية بروسيا. كما أنها

---

(1) S.I. Minerbi, Ibid, P112, 114-115.

(2) Ibid. P117.

- Andrej Kreutz, OP. Cit, P.36.

كانت تتعرض لضغوط معادية للصهيونية من قبل مسيحيي عرب فلسطين. كل ذلك جعلها تزداد اندفاعاً في معارضتها للمشروع الصهيوني الذي بنظرها كانت الماسونية العالمية تؤازره. والماسونية في المنظور الڤاتيكاني، يومذاك، حركة تآمرية ضد المسيحية وكنائسها[1].

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى تزايد القلق الڤاتيكاني بسبب التخوف من بسط الصهيونية سيطرتها على فلسطين وإلحاق الضرر بالمصالح المسيحية فيها، خاصة بعد بداية المعارضة الإسلامية/ المسيحية لعرب فلسطين للمشروع الصهيوني. وكان من أوائل الذين تنبهوا لخطورة هذا المشروع وعارضوه بقوة المطران غوريغوريوس حجار، مطران حيفا وسائر الجليل للروم الكاثوليك الذي كان له دور مرموق في الحركة الوطنية الفلسطينية. كما أن البطريرك اللاتيني في القدس بارلاسينا كان متجاوباً مع موقف رعيته في معارضتها للمشروع الصهيوني وداعماً لموقفها في الدوائر الڤاتيكانية[2].

ومع افتتاح مؤتمر الصلح أعماله بباريس في كانون الثاني 1919 تزايد النشاط الكاثوليكي ضد الصهيونية، ومن بواعث هذا التزايد هجرة اليهود من شرقي أوروبا والتخوف من نشرهم البلشفية في فلسطين. وقد رأى المونسنيور بودريللارت، راعي إحدى الكنائس الكاثوليكية، أن اليهود ليسوا عرقاً واحداً، وأن اليهودية دين ولا يمكن أن تكون قومية، وأنه من المحال القبول بقيام دولة يهودية، ويتوجب إخضاع القدس لسيطرة مسيحية. وعلى صعيد آخر، نفى الكاردينال غاسباري، في آذار 1919، ما روجه الإعلام الصهيوني عن موافقة البابا على المشروع الصهيوني، أتبع النفي برسالة إلى اللورد بلفور مبدياً فيها قلقه وعدم ارتياحه لقيام بريطانيا باحتلال فلسطين، وفعل الشيء ذاته الكاردينال

---

(1) Minerbi, P118-120.
Kreutz, P.37-38.

(2) Minerbi, P121-125.
Kreutz, P39.

بورني (Bourne) [1]. وفي تصريح للبابا بتاريخ 10/ 3/ 1919 بدا فيه قلقه واضحاً عما يحاك في أروقة مؤتمر الصلح، جاء فيه: قلقنا الحاد منصب على قرار مؤتمر الصلح الذي سيُعقد في باريس. بالتأكيد سوف يكون حزننا عظيماً وكذلك حزن كل المسيحيين المؤمنين إذا كان الكفرة (اليهود) سينالون امتيازات ومراتب عليا. والأعظم من كل ذلك إذا كانت المقدسات المسيحية قد أعطي الأشراف عليها لغير المسيحيين (اليهود). وأبدى البابا تبرمه من الإرساليات الأجنبية غير الكاثوليكية التي شرعت بعد الحرب ببناء الكنائس والمدارس وتقديم المعونات في فلسطين للأهالي[2].

وبعد عدة أيام من تصريح البابا هذا، أوضح الكاردينال غاسباري لممثل بلجيكا لدى الفاتيكان مقاصد البابا: الخطر الذي نخشاه قيام دولة يهودية في فلسطين. إننا لا نجد خطأ في دخول اليهود إلى فلسطين، وإقامة مستوطنات زراعية فيها. لكننا لا نحتمل تحكمهم بالأماكن المقدسة. تصريح بلفور يدعونا للتخوف من الدعم البريطاني للمطالب الصهيونية[3].

ولقد عبرت جريدة الجويش كرونيكل (14/ 3/ 1919) عن ردود الفعل الصهيونية على تصريح البابا بقولها: قرأنا بكل أسف تصريح البابا الأخير الذي يصم فيه اليهود بالكفار. إننا لا نستطيع السكوت دون الاحتجاج القوي[4].

أصبح قلق البابا ناجماً عن خوفه من هيمنة يهودية/ بروتستانتية على الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين. وزاد من هذا التخوف قرار المؤتمر الصهيوني بجعل الإشراف الصهيوني المباشر على المؤسسات الثقافية اليهودية، وحصر التعليم باللغة العبرية فيها بشكل رئيسي»[5].

---

(1) Minerbi, P126-127.

(2) Minerbi, P129-131.

Keutz, p39-40.

(3) Minerbi, P131-132.

(4) Ibid, P132.

(5) Ibid, P133-134.

وفيما كان التوتر قائماً بين الفاتيكان والحركة الصهيونية، كان مؤتمر الصلح منعقداً في باريس. وخلال هذا المؤتمر أصر الرئيس ولسون الأميركي على حق الشعوب في تقرير مصيرها. وهو أمر لا يتوافق مع مصالح فرنسا وبريطانيا. ومع ذلك أوفد الرئيس لجنة «كنغ ـ كراين» لاستفتاء السكان في المشرق العربي للاطلاع على رأيهم بشأن مصيرهم. وبالفعل أجرت اللجنة استفتاء للسكان في فلسطين وسوريا ولبنان ووضعت تقريرها في 30/ 8/ 1919[1]. ولعل أبرز ما جاء في هذا التقرير هو أن الأراضي المقدسة تخص المسيحيين واليهود. ومع عطف اللجنة على الهدف الصهيوني، فإنها توصي بتقليص البرنامج الصهيوني المقدم لمؤتمر الصلح، وذلك بتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والإقلاع عن إقامة كومنولث يهودي فيها[2].

استمرت مناهضة الفاتيكان للمشروع الصهيوني من منطلق لاهوتي. وقد عبرت «أوزرفاتور رومانو» (Oseruatore Romano) عن ذلك بمقال في 10/ 4/ 1919، جاء فيه: إن تشتت اليهود كان بمشيئة إلهية، وإن عودتهم إلى فلسطين لن تحصل إلا بتحولهم إلى المسيحية. وظهرت إلى جانب ذلك تحذيرات ومعارضة من قبل عدد من الكرادلة لمشروع الوطن القومي اليهودي في فلسطين[3].

بيد أن المشروع الصهيوني حقق نجاحاً بمساندة بريطانية رغم معارضة الفاتيكان، بالمقررات التي صدرت في نيسان 1920 عن مؤتمر سان ريمو الذي أوكل فيه لبريطانيا الانتداب على فلسطين، وتنفيذ وعد بلفور، وانتداب حكومة صاحب الجلالة البريطانية اليهودي الصهيوني هربرت صموئيل مندوباً سامياً على إدارة شؤون فلسطين[4]، الذي هرع لمقابلة البابا في أواخر حزيران 1920.

---

(1) Harry Howard, The King-Crane Commission, Beirut, Khayat, 1963, P37-98.

(2) Minerbi, OP. Cit, P135-136.

(3) Ibid, P 136-137.

(4) Ibid, P32.

ولقد اعتبر المسؤولون في دوائر الڤاتيكان أن القصد من هذا الاختيار تنفيذ وعد بلفور عملياً. وهذا ما دفع جريدة الڤاتيكان الرسمية على تصعيد معارضتها للمشروع الصهيوني، وعلى تبيان المعارضة الإسلامية والمسيحية بفلسطين لهذا المشروع(1).

وفي فلسطين أثارت زيارة هربرت صموئيل لكنيسة القيامة ـ وهو أول يهودي يفعل ذلك ـ غضب الكاثوليك في فلسطين. ونجم عن ذلك رسالة رعوية احتجاجية على القوى العظمى الداعمة لمشروع الوطن القومي اليهودي أصدرها البطريرك اللاتيني لوجي بار لاسسينا (Luji Barlassina) في 20/ 7/ 1920، جاء فيها: نحن معنيون بالتغيير المنوي إحداثه في فلسطين. ذلك مصدر قلقنا البالغ وموضوع اهتمامنا. ليس الكاثوليك وحدهم قلقين من ذلك، بل كل السكان في ذلك القطر الذين تعنيهم هذه التغييرات. نحن نعلم أن الرئيس ولسون أوفد بعثة لاستطلاع رأي هؤلاء السكان، فكان إجماعهم على رفض المشروع الصهيوني(2).

استمرت البطريركية في مناهضة المشروع الصهيوني بعد مؤتمر سان ريمو، كما استمرت التوجيهات البابوية في الاتجاه نفسه. وقد دأبت جريدة الڤاتيكان الرسمية على مدى عقدين في التهجم على الصهيونية وفضح أهدافها البعيدة، رغم أسلوب المخادعة التطميني الذي كانت تمارسه القيادات الصهيونية. ففي الأول من تشرين الأول عام 1920 نشرت جريدة الڤاتيكان الرسمية أوزرفاتور رومانو مقالاً بعنوان «الخطر الصهيوني» جاء فيه أن قادة الثورة البلشفية هم من اليهود، وأنهم يكرهون المسيح والمسيحيين. واستشهدت المقالة بنصوص من كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» مؤكدة الالتزام الصهيوني بتطبيق تلك النصوص. وكررت الموضوع نفسه، تلك الجريدة، في

(1) Ibid, P138-141.

(2) Ibid, P141-143.

أيار من العام نفسه. كما دأبت الصحافة الفرنسية الضرب على الوتر نفسه، واستمر التهجم على الصهيونية بمقالات بجريدة الڤاتيكان في العام التالي، وماشتها في هذا الاتجاه جريدة «البشير» الكاثوليكية اليسوعية التي كانت تصدر في بيروت مبدية تخوفها من تجريد مهد المسيح من الطابع المسيحي[1].

استمرت الڤاتيكان في معارضتها للمشروع الصهيوني، ورأى الكاردينال غاسباري أنه لا علاقة للصهيونية بالعودة حسب الوعد الإلهي إلى فلسطين. فالڤاتيكان لا تعارض بتلك العودة تخلصاً من معاداة اللاسامية، غير أنها تعارض الهجرة الواسعة وتعتبرها غير شرعية وغير أخلاقية، وهي بالتالي تتناقض مع المشاعر والتقاليد المسيحية، كما أنها تعارض مسودة بنود الانتداب البريطاني على فلسطين لأنها تعطي اليهود امتيازات واسعة النطاق. وقد عبر الكاردينال غاسباري عن عدم رضاه على هذه المسودة، في رسالة بعث بها إلى أمين عام عصبة الأمم بتاريخ 7/ 12/ 1920، انتقد فيها صك الانتداب لتضمنه وعد بلفور، وفي ذلك تعارض مع ميثاق تلك العصبة، خاصة في المادة الثانية والعشرين من هذا الميثاق. فالصك من شأنه تمكين اليهود من الهيمنة السياسية والاقتصادية على سكان فلسطين، ويمكنهم من سلب حقوق هؤلاء السكان. وأشار في رسالته إلى النوايا الصهيونية التي ظهرت في تصريح حاييم وايزمن، الذي جاء فيه: «ستصبح فلسطين يهودية كما أن إنكلترا إنكليزية..» بيد أن بلفور رفض اعتراض غاسباري، وذهبت مساعي الڤاتيكان سدى في محاولتها عرقلة موافقة عصبة الأمم على تفويض بريطانيا الانتداب على فلسطين. ولقد تمكنت بريطانيا من ذلك التفويض في 24/ 7/ 1922، وأصبح ساري المفعول في 2/ 12/ 1923. وكان ذلك نصراً للصهيونية وهزيمة للفاتيكان. وهذا ما دفع البابا بنديكت الخامس عشر إلى الاحتجاج وإلى دعم المعارضة الفلسطينية للانتداب وللنشاط الصهيوني[2].

---

(1) Ibid, P, P145-146.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P40-42.

وعقب اضطرابات 1921 بفلسطين بعث المؤتمر العربي الفلسطيني برسائل إلى العديد من الدول، كان من بينها رسالة إلى البابا تضمنت التخوف من الخطر الشيوعي الذي أخذ ينتشر على يد البلاشفة اليهود، كما تضمنت الاحتجاج على وعد بلفور. ولقد أبدى البابا قلقه من ذلك فشن حملة ضد الصهيونية في خطبة له بمجمع الكرادلة بتاريخ 13/ 6/ 1921[1]. وقد شجعت مواقفه هذه ذهاب وفد فلسطيني برئاسة موسى كاظم الحسيني إلى الفاتيكان ومقابلة البابا فيها ووزير خارجيته بتاريخ 27/ 7/ 1921. وفي هذه المقابلة القصيرة أبدى البابا تعاطفاً مع المطالب الفلسطينية الاجتماعية والاقتصادية متجنباً الجانب السياسي[2].

وفي فلسطين، دأب البطريرك اللاتيني بار لاسينا على انتقاد سلطة الانتداب لتحيزها إلى اليهود، مشدداً على معاداة الصهيونية للدين، مؤكداً أن عودتهم إلى فلسطين ليست تحقيقاً لنبوءات توراتية، وأن تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين مؤشر على إقصاء المسيحيين عنها، وأنه تهديم للقيم المسيحية، وأن أمر إقامة دولة يهودية في فلسطين أمر لا يمكن احتماله. وشاركه البابا في عدم رضاه عن تحيز سلطة الانتداب لليهود في المجالات السياسية والاقتصادية. وقد أوضح موقفه هذا في المقابلة التي التقاه فيها رونالد ستورز، حاكم القدس العسكري، في 25/ 8/ 1921[3].

ولم تنطلِ مخادعة سوكولوف على الفاتيكان بإبداء حرص الصهاينة على المقدسات المسيحية بفلسطين، في بيانه أمام المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (11 ـ 14/ 10/ 1921) المنعقد في كارلسباد بتشيكوسلوفاكيا، فقد جاء الرد سريعاً في جريدة الفاتيكان الرسمية أوزفاتور رومانو بتاريخ 29/ 10/ 1921، الذي تضمن تأكيداً بعدم شرعية مطالبة اليهود بفلسطين بعد ألفي سنة، وأنهم

---

(1) Sergio, I Minerbi, OP. Cit, P147-149.

(2) Ibid, P154.

(3) Andrej Kreutz, OP. Cit P43.

Serigo I. Minerbi, OP. Cit, P156.

ليسوا أمة بل هم مواطنون في مختلف الأقطار التي بها يقطنون تجمعهم ديانة واحدة لا أكثر ولا أقل[1].

المواقف الڤاتيكانية من الصهيونية إبان ولاية البابا بيوس الحادي عشر (1922 ـ 1939)

تولى السدة البابوية البابا بيوس الحادي عشر (6/ 2/ 1922) بعد وفاة البابا بنديكت الخامس عشر في كانون الثاني 1922، وبوصول البابا الجديد إلى منصبه كانت الخطوط العريضة لمقررات مؤتمر (سان ريمو) تشق طريقها في عملية التنفيذ الفعلي. ففي فلسطين استبدلت الحكومة البريطانية سلطة الحكم العسكري بإدارة مدنية (7/ 7/ 1920) على رأسها أول مندوب سامي الصهيوني البريطاني هربرت صموئيل. وفي الرابع والعشرين من تموز 1922 أقرت عصبة الأمم صك الانتداب البريطاني على فلسطين المتضمن وعد بلفور. وهذا يعني أن الظروف، بحكم هذا الواقع الجديد، أصبحت مهيأة لوضع أسس «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين المعبر عنه بصك الانتداب. ومن الملاحظ أن الڤاتيكان، بحكم هذا الواقع الجديد، خففت من معارضتها للمشروع الصهيوني نتيجة للجهود التي بذلها هربرت صموئيل في تبديد تلك المعارضة، كما خففت من معارضتها للانتداب البريطاني على فلسطين. فقد بدا للبابا أن بريطانيا لم تعد متحيزة لليهود. غير أن شكوك البابا بالنوايا الصهيونية بقيت كما كانت من قبل، وفي الوقت نفسه لم تكن الڤاتيكان مرتاحة لنشوء حكم عربي في فلسطين[2].

صمم حاييم وايزمن على إزالة الشكوك بزيارة يقوم بها للفاتيكان. وفي الثاني في نيسان 1922 قابل الكردينال غاسباري، خصم الصهيونية، وأخبره الكاردينال أن البابا أرسل مذكرة إلى عصبة الأمم تضمنت ثلاثة احتجاجات

---

(1) Ibid, P157.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P45-46.

على مسودة صك الانتداب المتعلقة بأمر الوطن القومي اليهودي (المواد 2، 42، 14). وتبعت هذه المقابلة مقابلة ثانية فاشلة. وقد استمرت أوزرفاتور رومانو، الجريدة الرسمية الفاتيكانية بمهاجمة الحركة الصهيونية، كما استمر بطريرك القدس اللاتيني بارلاسينا في مناوأته للصهيونية وإبداء مشاعر التعاطف مع عرب فلسطين، معتبراً أن مظالم سلطة الانتداب البريطاني تفوق آلاف المرات مظالم الأتراك، فالفساد والفجور مستشريان في الأراضي المقدسة اللذان يمارسهما متعصبون يشنون حرباً ضد الكاثوليك والعرب[1].

غير أن المعارضة الفاتيكانية لمسودة صك الانتداب، والاحتجاج على المواد 6، 7، 11 من هذا الصك، لم تلق آذاناً صاغية في أوساط عصبة الأمم. ومع ذلك استمرت المساعي النشطة لتعديل هذه المواد، وهذا ما حمل وايزمن على اعتبار الفاتيكان الخصم العنيف للصهيونية[2]. بيد أن مساعي الفاتيكان تلك لم يكتب لها النجاح في تعديل مسودة الصك، ولم تثمر لإصرار بريطانيا على التمسك بما جاء في الصك. وفي الأول من تموز 1922، أصدر ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطانية يومذاك «الكتاب الأبيض» مضمناً إياه وعد بلفور، واعتبر فيه إن إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين حق وليس منة، وحظي هذا «الكتاب» بتأييد واسع النطاق بمجلس العموم البريطاني، وتمت بعد ذلك موافقة عصبة الأمم على الصك بتاريخ 22/ 7/ 1922[3].

انحصر اهتمام الفاتيكان بعد هذه الموافقة بأمر الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين. ففي 11/ 12/ 1922 أوضح البابا بيوس الحادي عشر أمام مجلس كنسي موقف الفاتيكان الرسمي بشأن تلك الأماكن بقوله إنه يرفض أية هيمنة غير كاثوليكية على هذه الأماكن»[4].

---

(1) Serigo I. Minerbi, OP. Cit, P164-175.

(2) Ibid, P178-181, 184.

(3) Ibid, P185-186.

(4) Ibid, P194.

وطوال العشرينات بقيت المعارضة البابوية للصهيونية مستمرة لاعتبارات منها ماهو لاهوتي يرتكز على عدم وجود علاقة بين الصهيونيين غير المتدينين وبين النبوءات المتعلقة بالعودة اليهودية إلى «أرض الميعاد». ومنها التخوف من قيام الصهاينة باقتلاع المسيحيين في فلسطين، وتبديل طابعها المسيحي بإحداث تغيرات جذرية في أساليب حياة سكان فلسطين وحضارتهم، وهدم قيمهم الأدبية[1].

ومن الملاحظ توقف الفاتيكان عن الاعتراض على الانتداب البريطاني في أواخر العشرينات، إذ لم يصدر أي تعليق من قبل البابا على الأحداث الدامية التي جرت في فلسطين عام 1929. بيد أن جريدة الفاتيكان الرسمية أدانت الهجوم على اليهود، واعتبرت أن الصهيونية السياسية وليست الديانة اليهودية هي السبب في نشوب الاضطرابات، وأشارت إلى تحذير البابا من احتمال نشوب اضطرابات أخرى بسبب المشروع الصهيوني مستقبلاً[2].

مواقف الفاتيكان من المشروع الصهيوني في الثلاثينات

شهدت هذه المرحلة أحداثاً هامة. ففي ألمانيا وصل أدولف هتلر إلى السلطة عام 1933. وفي العام نفسه انعقد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ (21/ 8 ـ 4 ـ 9/ 1933)، ودعا للإسراع في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وتبع ذلك زيادة الهجرة اليهودية الشرعية وغير الشرعية إلى فلسطين، فازدادت البطالة، وزاد الطين بلة الأزمة الاقتصادية العالمية، وأدت هذه الأوضاع إلى تزايد قلق الفلسطينيين الذي زاد من حدته تسلح اليهود وتهريبهم للأسلحة التي تم ضبط بعضها في ميناء يافا. ومجمل هذه الأمور أوجدت مناخاً تحتم فيه قيام ثورة فلسطينية بدأت بإضراب عام امتد ستة أشهر[3].

---

(1) Ibid, P198.

(2) Andrej Kreutz, OP, Cit, P47-48.

(3) Ibid, P59.

راقبت الفاتيكان الإجراءات النازية ضد اليهود، واستنكرت النزعات اللاسامية، لكنها اعتبرت أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ليست الحل المناسب للمشكلة اليهودية. وقد أوضح هذا الموقف وكيل وزارة خارجية الفاتيكان المونسنيور دومينكو تارديني للممثل البريطاني في حكومة الفاتيكان بقوله: لا يوجد سبب حقيقي لعودة اليهود إلى فلسطين.. لماذا لا يتم اختيار مكان جميل لليهود في جنوب أميركا؟[1].

ارتفعت حدة الثورة الفلسطينية ضد سلطة الانتداب وضد الصهيونية عام 1937، فلجأت بريطانيا كعادتها إلى استخدام وسائل القمع بشراسة متناهية من جهة، ومن جهة ثانية أرسلت لجنة تحقيق برئاسة اللورد روبرت بيل لمعرفة أسباب الثورة، وهي بالتأكيد لا تجهلها. والغاية الحقيقية من إرسالها مخادعة الفلسطينيين لإيهامهم بأن التعرف إلى أسباب ثورتهم سيدفعها إلى إنصافهم.

انحصر اهتمام الفاتيكان في هذه الحقبة بالحفاظ على الأماكن المسيحية المقدسة بفلسطين دون تقديم أي اقتراح سياسي كحل للنزاع. ومما يجدر ذكره أن المطران غريغوريوس حجار، مطران شمالي فلسطين لطائفة الروم الكاثوليك، قدّم شهادة للجنة بيل أوضح فيها أن وحدة عرب فلسطين المسيحيين والمسلمين الذين تجمعهم رابطة الدم واللغة والتقاليد، يعارضون المشروع الصهيوني. واتهم في شهادته سلطة الانتداب بالتحيز السافر سياسياً واقتصادياً لليهود، مؤكداً أن الامتيازات التي كانت ممنوحة للمسيحيين في العهد التركي قد حرمتهم منها سلطة الانتداب البريطاني[2].

اقترحت لجنة بيل مشروعاً يقضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية

---

(1) Ibid, P60-61.

(2) Ibid, P62.63.

للتوسع راجع شهادة المطران حجار الهامة في «وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية (1918 ـ 1939) إعداد وتصنيف عبد الوهاب كيالي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت جمعية صندوق فلسطين، بغداد 1968، وثيقة رقم 301 ص578 ـ 586.

وعربية، على أن تبقى الأماكن المقدسة تحت إشراف بريطانيا، وذلك بتاريخ 22/ 6/ 1937. وإزاء هذا الطرح انصب اهتمام الفاتيكان بأمر هذا الإشراف وبشأن الأقلية المسيحية الفلسطينية. بيد أن هذا المشروع لم ير النور، ولقد عارضه عرب فلسطين بقوة، كما عارضته الأكثرية في المؤتمر الصهيوني العشرين المنعقد آنذاك في زوريخ (آب 1937)، ولقي معارضة من لجنة الانتداب الدائمة التابعة لعصبة الأمم، كما لقي معارضة من قبل بعض الساسة البريطانيين الذين أخذوا برأي جورج أنطونيوس (صاحب كتاب يقظة العرب) الذي أوضح لهم بأنه أمر شائن تحميل عرب فلسطين نتائج الاضطهاد النازي لليهود. وكان من نتائج صدور قرار التقسيم تصاعد حدة العنف في فلسطين الذي واجهته بريطانيا بقسوة بالغة شملت القمع والاعتقالات والنفي للقياديين، وإنزال العقوبات الجماعية، وفرض الأحكام العسكرية. ولقد رأت الحكومة البريطانية استحاله تنفيذ مشروع التقسيم، ودفعها تخوفها من نشوب الحرب العالمية الثانية بعد أزمة ميونيخ إلى العدول عن هذا المشروع، والاستعاضة عنه بدعوة لمؤتمر في العاصمة البريطانية. وبالفعل انعقد مؤتمر بتاريخ 7/ 2/ 1939، لكنه لم يتمخض عن أية نتيجة عملية. فالوفد الفلسطيني أصر على المطالبة بالاستقلال، بينما أصر الوفد اليهودي على معارضة طلب الوفد الفلسطيني. ومع تأزم الوضع الدولي أصدرت بريطانيا «الكتاب الأبيض» (17/ 5/ 1939) استرضاء للعرب لتوقعها نشوب الحرب العالمية الثانية بين يوم وآخر. وقدعارضه اليهود بقوة، ومارس «التصحيحيون» منهم الإرهاب ضد سلطة الانتداب. وطيلة هذه المدة اكتفت الفاتيكان بالصمت مكتفية بالترقب والانتظار[1]. ومن الجدير ذكره أمران: اعتراض البابا بيوس الحادي عشر على إعطاء سلطة الانتداب امتيازاً لشركة روتنبرغ اليهودية لتوليد الطاقة الكهربائية، عام 1926، لأن ذلك يتناقض مع المادة الحادية عشرة من صك الانتداب[2]،

---

(1) Andrej Kreutz, OP, Cit, P65-68.

(2) Christopher Syloes, Cross Roads to Israel, London, Collins, 1965, P113.

وإنقاذه لحياة آلاف اليهود من عملية الإبادة النازية خلافاً للاتهامات الصهيونية الموجهة إليه(1).

مواقف الڤاتيكان من اليهود خلال الحرب العالمية الثانية

ترك اضطهاد النازيين لليهود أبعاداً خطيرة ذات تأثير كبير على المظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية في أوروبا، بما في ذلك الڤاتيكان التي أظهرت تبدلاً طفيفاً في مواقفها تجاه اليهود كردة فعل للهولوكوست. ولقد أدان البابا بيوس الثاني عشر (1939 ـ 1958) كل أشكال اللاسامية، على اعتبار أنها أشكال غير مسيحية، كما أنه دافع في ست مرات على الأقل عن حقوق اليهود من زاوية إنسانية. ومع إنقاذه لحياة آلاف مؤلفة من اليهود، فقد لقي اتهامات واسعة لعدم قيامه بدور أشمل وأعم من الدور الذي قام به. ومن بين الذين وجهوا إليه الاتهامات بالتقصير، جون ف. مورلي في كتابه «دبلوماسية الڤاتيكان واليهود خلال الهولوكوست»، وحاييم وايزمن وموشي شرتوك(2).

يتجاهل الصهاينة كافة، قادة وكتاباً على الأخص، اتفاقية «هاعفراه» بين الوكالة اليهودية التي كان يرئسها دافيد بن غوريون وممثله الدكتور كاستنر، وبين السلطة النازية ممثلة بآيخمن. وبموجب هذه الاتفاقية قام تعاون اقتصادي/سياسي بين الطرفين، هدف منه الصهاينة ترحيل اليهود الألمان الصهاينة وإكراه اليهود غير الصهاينة للتوجه إلى فلسطين. ووفق هذه الاتفاقية يمكن للمهاجرين منهم نقل رساميلهم، والحصول على صناعات ألمانية لقاء التنازل عن عقاراتهم، وسمحت الاتفاقية للنازيين بالقضاء على كل يهودي لا يرغب في الهجرة إلى فلسطين(3). وعلى الرغم من هذه الاتفاقية التي لم تعد

(1) Alfred M. Linlienthal, OP. Cit, P507-508.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P76 - 77.

(3) فارس غلوب، «الصهيونية والنازية: علاقات واتفاقيات» شؤون فلسطينية، العدد 84 تشرين الثاني 1978، ص67 ـ 94. =

سراً، فإن الحركة الصهيونية استغلت ولا تزال تستغل الاضطهاد النازي لليهود (الهولوكوست) إلى أبعد الحدود بابتزاز مكشوف لمكاسب سياسية ومادية. ومن ضروب هذا الابتزاز، الحملة الدعائية المغرضة ضد البابا بيوس الثاني عشر باتهامه في التقصير بإنقاذ حياة اليهود من عمليات الإبادة النازية، وسكوته عن تلك العمليات[1]. أما القصد من هذا الابتزاز فهو إثارة «عقدة» في نفوس رجال الدين الكاثوليك لاستغلالها في حمل الڤاتيكان على تبديل مواقفها المعارضة للمشروع الصهيوني.

إن الحقائق الموضوعية تؤكد قيام البابا المذكور بدور نشط خلال الحرب العالمية الثانية في إنقاذ حياة آلاف من اليهود من الموت، وذلك بإيوائهم وحمايتهم ومساعدتهم بالهجرة إلى خارج أوروبا، وبتقديم المساعدات المادية لهم، وحتى حماية بعض معابدهم. وهذا العطف البابوي دفع رئيس حاخامي روما على اعتناق الكثلكة عرفاناً بجميل الڤاتيكان[2]. لقد أدان البابا تقتيل اليهود مبدياً مشاعر الألم، وفعل كل ما كان بمقدوره أن يفعله لإنقاذ حياة الآلاف من اليهود. وقد أكد هذه الحقيقة الصحفي اليهودي بنحاس ي. لابيدي (Pinchas E. Lapide) في كتابه «البابوات واليهود» بقوله: «إن البابا بيوس الثاني عشر أنقذ حياة ما بين سبعمائة ألف وثمانمائة ألف يهودي من موت محتوم»[3].

والحقيقة التي لا غبار عليها هي أن الڤاتيكان، في هذه المرحلة، ميزت

= صبري جريس، اليمن الصهيوني، شؤون فلسطينية، العدد 68/ 69، تموز/ آب 1977 ص48.
إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، ترجمة فؤاد جديد، دمشق، مكتب الخدمات الطباعية، ط1، 1986، ص147 ـ 156.
الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الرابع، مصدر سبق ذكره، ص432.
للتوسع راجع كتاب المؤلفة اليهودية الناجية من الهولوكوست:
Hanna Arendt, Eichmann in Jerusalem, New York The Viking press 1963.

(1) Alfred M. Lilienthal, OP. Cit, P507.

(2) Ibid, P508-509.

(3) Ibid, P511-512.

بوضوح بين المسألة الفلسطينية ومسألة اضطهاد اليهود في أوروبا. أدانت اللاسامية، وقدمت مساعدات لضحايا النازية، راعت الجانب الإنساني بالنسبة لمآسي اليهود، لكنها لم تكن راغبة على الإطلاق في بسط الهيمنة اليهودية على فلسطين، وإقامة دولة يهودية فيها. ولقد أوضح وزير خارجية الڤاتيكان الكاردينال Luigi Malgione هذا الموقف بقوله: قد تكون بلاد أخرى غير فلسطين أكثر مناسبة لإقامة كيان يهودي. إن المشاعر المسيحية ستكون مجروحة وستكون مخاوفه إذا أصبحت فلسطين ملكاً لليهود، ففلسطين أكثر أهمية للكاثوليك من سواهم[1].

استمرت الكنيسة الكاثوليكية على موقفها المعارض لقيام دولة يهودية في فلسطين بقوة. وفي الثاني والعشرين من حزيران عام 1943، ورداً على بيان المنظمات الصهيونية الذي صدر في نيويورك (بيان بلتيمور أيار 1942) وجه المبعوث الڤاتيكاني إلى الولايات المتحدة الأسقف أملتوتشيكونياني (Amleto G. Cicognani) مذكرة إلى الحكومة الأميركية جدد فيها نداءات البابا بنديكت الخامس عشر (Benedict XV) بمعارضة إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وضمّن المذكرة صورة عن مذكرة الكاردينال غاسباري (Caspari) إلى عصبة الأمم في 4 من حزيران 1922. وقد جاء في مذكرة تشيكونياني إلى الإدارة الأميركية: «إذا كانت إقامة وطن يهودي أمراً مرغوباً فيه، فلن يكون من العسير إيجاد مكان مناسب أكثر من فلسطين. إن مشاكل دولية جديدة سوف تترتب على زيادة عدد السكان اليهود هناك، وسيتصدى كاثوليك العالم لهذا الأمر»[2].

وفي عام 1944 أوفد الڤاتيكان إلى الولايات المتحدة المونسنيور توماس ماكماهون ليحذر من خطر خضوع الغرب إلى المطالب الصهيونية على

---

(1) Ibid, P510.

Andrej Krentz, OP. Cit, P77-78.

(2) محمد السماك، مصدر سبق ذكره، ص156 ـ 157.

المجموعات المسيحية في الشرق. وأكد مكماهون خلال ذلك أن المسيحيين في العالم يطالبون بصوت واحد «أن تحافظ أرض المسيح على قداستها وحرمتها»، وقال إنه بما أن الإسلام لا يقدر على طرد المسيح من فلسطين، فإن دولة يهودية سوف تفعل ذلك بالتأكيد. من أجل ذلك اقترح ماكماهون تدويل فلسطين كلها مع السيطرة المسيحية عليها[1].

موقف الفاتيكان تجاه عرب فلسطين في هذه المرحلة

لم يكن قيام حكم عربي في فلسطين أمراً مرغوباً فيه في منظور الفاتيكان، لكن قيامه أمر يمكن احتماله أكثر من قيام حكم يهودي. وذلك عائد لوجود مسيحيين عرب فلسطينيين ترتبط مصالحهم الاجتماعية والسياسية مع مصالح المسلمين، أضف إلى ذلك أن قيام حكومة إسلامية في فلسطين كان أمراً مألوفاً، فقد سبق استمرار ذلك قروناً طوالاً، ومن الصعوبة بمكانة التنبؤ بشأن حكم يهودي قد يكون مخيفاً. والإسلام خلافاً لليهودية يعترف بالرمز المقدس للمسيحية ويجل الأماكن المسيحية المقدسة، بينما موقف اليهودية تجاه التقاليد المسيحية موقف يتصف بالعداء.

على أن معارضة الفاتيكان للمشروع الصهيوني وللهجرة اليهودية إلى فلسطين لا يعني بالضرورة دعم المطامح العربية الفلسطينية، ولا التوجهات العربية الوحدوية. لقد أبدى البابا ارتياباً من مشروع سوريا الكبرى ومن مشروع الهلال الخصيب، كما اتصف موقفه بالسلبية عند تأسيس جامعة الدول العربية (22/ 3/ 1945)[2].

توطيد علاقات الفاتيكان بالولايات المتحدة

برزت الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية كقوة عالمية لها

---

(1) المصدر السابق، ص156 ـ 157.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P79-80.

وزنها وتأثيرها على الصعيد الدولي، ولا سيما في منطقة الشرق الأوسط. وبعد أن كان الوجود الأميركي مقصوراً على إرساليات وتقديم خدمات اجتماعية في هذه المنطقة، بدأ التدخل الأميركي السياسي سافرا فيها نتيجة لعاملين: دعم الصهيونية والهيمنة على النفط العربي، وقد بدأ هذا التدخل السافر في المعارضة العلنية لكتاب مالكولم ماكدونالد الأبيض، الصادر بتاريخ 17/ 5/ 1939 تمشيا مع الموقف الصهيوني المعارض لهذا الكتاب. ومع بوادر انهيار دول المحور في الحرب العالمية الثانية، وجدت دولة الڤاتيكان أن توطيد العلاقة مع الولايات المتحدة أصبح ضرورة لا بد منها.

حاولت دولة الڤاتيكان في البداية استمالة الرسميين الأميركيين والرأي العام الأميركي للتجاوب مع مواقفها المتصفة بمناهضة الصهيونية ومناهضة القومية العربية، بالتشديد على خطورة الصهيونية والقومية العربية الإسلامية. ومما دفعها للتقرب من الولايات المتحدة، التخوف من فقدان دورها ونفوذها في فلسطين بعد أن تبوأت الولايات المتحدة الصدارة على المسرح الدولي، وبعد أن أصبح لها اهتمام زائد بالشرق الأوسط، وبعد أن اتضح تعاطفها القوي وتأييدها المطلق للمشروع الصهيوني، فكان لا بد للتقارب مع الولايات المتحدة من تخفيف الڤاتيكان من اللهجة المعادية للصهيونية التي أصبح دعم الولايات المتحدة لها من الثوابت الاستراتيجية في السياسات الأميركية[1].

مواقف الڤاتيكان تجاه ولادة إسرائيل وتجاه الشعب الفلسطيني 1945 ـ 1949

دأبت القيادات الصهيونية، عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، على التقرب من الڤاتيكان بتقديم التطمينات المخادعة، فخلال شهر نيسان من عام 1945 قابل موشي شاريت البابا بيوس الثاني عشر، وأوضح للبابا أنه لا تعارض بين الطموحات الصهيونية والمصالح المسيحية العليا ومصالح الكنيسة الكاثوليكية بشكل خاص. فأجابه البابا: ولكن يوجد عرب في فلسطين، فرد

---

(1) *Ibid, P81-83.*

عليه شاريت قائلاً: بلاد العرب واسعة بينما بلدنا (فلسطين) ضيق[1].

وفي نشاط معاكس، قابل وفد فلسطيني البابا بيوس الثاني عشر خلال شهر آب من عام 1946 إبان طرح اللجنة الإنكلو أميركية اقتراحاً بإعطاء سمات دخول لمائة ألف مهاجر يهودي إلى فلسطين. لكن البابا عزف عن التطرق إلى المواضيع السياسية الحساسة، مكتفياً بإدانة العنف والدعوة إلى السلام وشجب النزعة اللاسامية التي تتسبب باضطهاد اليهود. وأبدى رغبته في السعي لتحقيق العدالة والسلام والأمن بين أطراف النزاع. ولقد جاءت نتيجة هذه المقابلة مخيبة لآمال الوفد المرجوة[2].

تحرك وفد فلسطيني آخر لمقابلة البابا بعد أن نشرت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (الأنسكوب) تقريرها الذي أوصت فيه بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود (29/ 11/ 1947) لطلب المساعدة من قداسته لإحباط مشروع التقسيم. وللمرة الثانية كانت المقابلة مخيبة للآمال، إذ لم ير الوفد أية إيماءة تشير إلى تجاوب البابا مع طلب الوفد[3]. لأنه لم يكن مستعداً أن يقوم بدعم حركة التحرر الفلسطينية، أو يدعم مطلب الشعب الفلسطيني في حقه بتقرير مصيره، وفي الوقت نفسه لم يكن راغباً في قيام دولة يهودية في فلسطين. كان يفضل أن تحكم فلسطين دولة ما بحيث لا يحكمها العرب أو اليهود[4]. ويعود موقف البابا السلبي تجاه عرب فلسطين إلى عدم إزعاج الإدارة الأميركية المنحازة بقوة إلى الجانب الصهيوني، وإلى تخوفه من انتشار الشيوعية بين العرب بسبب هذا الانحياز[5].

---

(1) Ibid, P88.

(2) Ibid, P90.

(3) د. عزت طنوس، الفلسطينيون ماضٍ مجيد ومستقبل باهر، بيروت، مركز الأبحاث 1982 ص366.

(4) Andrej Kreutz, OP. Cit, P91.

(5) Ibid, P89.

في أواخر شباط 1948 اتضح لمجلس الأمن الدولي أن مشروع التقسيم قد تسبب في تفجر الاضطرابات الدموية في فلسطين بين العرب واليهود، وأن تنفيذه محال، ولقد تبين للإدارة الأميركية التي دعمت صدور هذا القرار عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، أن تطبيقه لا يحقق السلام في الأراضي المقدسة، وأن كل الخطوات المتخذة لتنفيذه كان نصيبها الفشل، فارتأى وارن أوستن، مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، استبدال مشروع التقسيم بمشروع وصاية الأمم المتحدة على فلسطين[1].

أثار بيان وارن أوستون حفيظة الصهيونيين، فوجه حاييم وايزمن نداء إلى الرئيس ترومان وإلى مجلس الشيوخ الأميركي قال فيه: إن قوة العرب العسكرية هي وهم. وأنذر بعواقب إلغاء هذا القرار[2].

كان القادة الصهاينة واثقين من تفوقهم السياسي والعسكري. فالولايات المتحدة وفرنسا والمنظومة الاشتراكية منحازة لهم. فرنسا وتشيكوسلوفاكيا أمدتهم بالسلاح، بينما كان الفلسطينيون يفتقرون إلى الأسلحة والعتاد والتنظيم، ودول الجامعة العربية خاضعة للنفوذ البريطاني، منقسمة على نفسها، لكل منها مآرب خاصة، مقيدة بتعليمات بريطانية بعدم تجاوز جيوش تلك الدول حدود المناطق المخصصة لعرب فلسطين في مشروع التقسيم. ولم يكن مسموحاً لهذه الجيوش دخول فلسطين قبل نهاية الانتداب (15/ 5/ 1948)[3].

ومنذ صدور قرار التقسيم، بدأ رجحان كفة الصهاينة العسكرية يتضح يوماً بعد يوم بسبب افتقار الفلسطينيين إلى السلاح والذخائر، وبسبب الانحياز البريطاني للصهاينة، وإحجام الأنظمة العربية عن دعم الفلسطينيين. ووفق استراتيجية صهيونية محددة الأهداف، اقترف الصهاينة بدم بارد سلسلة من

(1) عزت طنوس، مصدر سبق ذكره، ص385 ـ 387.
(2) المصدر السابق، ص387.
(3) Andrej Kreutz, OP. Cit P96-97.

المجازر كان أبشعها مذبحة دير ياسين (9/4، 1948) كان الهدف منها بث الرعب في قلوب عرب فلسطين لحملهم على الهرب إلى البلدان العربية المجاورة ومصادرة ممتلكاتهم[1].

وفي الأسابيع الخمسة الأخيرة من عمر الانتداب سقطت بيد الصهاينة مجموعة من المدن والقرى الفلسطينية وكان بعضها خارج حدود المناطق المخصصة للدولة اليهودية في مشروع التقسيم. سقطت القسطل في التاسع من نيسان 1948 ودير ياسين في اليوم نفسه، وسقطت طبريا في 19 نيسان، وحيفا بعد ثلاثة أيام، ويافا في 29 نيسان، وصفد في 11 أيار، وبيسان في 12 أيار، وعكا في 16 أيار، مع العديد من القرى التابعة لهذه المدن[2].

وفيما كانت المعارك مستمرة في فلسطين، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة (14/ 5/ 1948) القرار 186 القاضي بتعيين وسيط دولي، وقد انتخب مجلس الأمن الكونت فولك برنادوت السويدي لهذه المهمة، وأرسله المجلس إلى فلسطين ليعمل بموجب قرار المجلس هذا الصادر في 29/ 5/ 1948[3].

كان الرابع عشر من أيار 1948 آخر أيام الانتداب البريطاني على فلسطين، وفي ذلك ليوم أعلن دافيد بن غوريون قيام «حكومة إسرائيل الموقتة» والتي اعترف بها الرئيس الأميركي هاري ترومان[4] بعد خمس دقائق من ذلك الإعلان قبل أن يعرف الوفد الأميركي بالأمم المتحدة باعتراف الرئيس ترومان، في وقت كان لا يزال هذا الوفد فيه يطرح مشروع وصاية هيئة الأمم المتحدة على فلسطين مع بقية أعضاء هذه الهيئة لإقراره[5].

---

(1) عزت طنوس، مصدر سبق ذكره، ص390 ـ 391.

(2) بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (1917 ـ 1948) ط1 بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981، ص622 ـ 637.

(3) عزت طنوس، مصدر سبق ذكره، ص420.

(4) المصدر السابق، ص438 ـ 439.

(5) Andrej Kreutz, OP. Cit, P96.

وفي الخامس عشر من أيار 1948 دخلت الجيوش العربية إلى المناطق المخصصة لعرب فلسطين في مشروع التقسيم لعام 1947. ولم تكن لحكومات تلك الجيوش النية في تحرير فلسطين، فكان لكل منها المطامع الخاصة وقد كانت النتيجة هزيمة نكراء لتلك الجيوش، واحتلال إسرائيل مساحات تجاوزت حدود المناطق المخصصة لها بالتقسيم. وبقرار صدر عن مجلس الأمن (29/ 5/ 1948) توقف القتال لمدة أربعة أسابيع بدءاً من الحادي عشر من حزيران، وانتهى التوقف في التاسع من تموز وعادت الحرب في العاشر منه ثم انتهت بهدنة في التاسع عشر من الشهر نفسه عام 1948[1].

على صعيد دولي أوصى الوسيط الدولي، الكونت برنادوت، بمشروع بديل لمشروع التقسيم السابق، لكن مشروعه قوبل بالرفض، فأوصى بمشروع تقسيم آخر تضمن إصراره على حق اللاجئين الفلسطينيين بحقهم في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم، وهو الأمر الذي لقي رفضاً صهيونياً قاطعاً دفع برنادوت ثمنه باغتيال الصهاينة له في وضح النهار في السابع عشر من أيلول 1948[2].

وبقيام الهدنة الثابتة (19/ 7/ 1948) تمكنت إسرائيل من الاستيلاء على 80٪ من مساحة فلسطين باحتلالها 21٪ من المناطق المخصصة للعرب الفلسطينيين في مشروع التقسيم (29/ 11/ 1947)[3].

سياسية الڤاتيكان في هذه المرحلة

أصبح عرب فلسطين أقلية بعد أن كانوا أكثرية بسبب سياسة التهجير المتعمد المبني على الإرهاب خلال أربع سنوات، ولم يتخذ البابا خلالها موقفاً سياسياً محدداً إزاء ذلك، وكل ما فعله أنه أبدى اهتماماً نسبياً بشأن المهجرين المسيحيين بتقديمه مساعدات إغاثة. ولقد اصطدمت مساعيه

(1) عزت طنوس مصدر سبق ذكره، ص470.

(2) المصدر السابق، ص473 ـ 484، 511 ـ 512.

(3) Andrej Kreutz, OP. Cit. P98.

المبذولة لعودة اللاجئين برفض إسرائيل صارم، ما حمل الفاتيكان على الإحجام عن الاعتراف بدولة إسرائيل[1]؛ التي حققت بانتصارها العسكري مكانة أضعفت من ثقل مكانة الفاتيكان التي هالها تشريد 75٪ من مسيحيي فلسطين، وأقلقها عدم نجاحها في تدويل القدس، وأزعجها انتهاك الصهاينة لممتلكات الكنائس من أديرة وأوقاف بالعبث والنهب، وتشريد العديد من الكهنة، ومجمل ذلك أدى إلى استياء قداسة البابا، لكن الاستياء الأعم كان في الرفض المستمر لطلبات الفاتيكان بعودة اللاجئين، وهو الدور الذي حاول فيه كل من الكاردينال سبلمان (Spellman) والمونسيور مكماهون (Mcmahon) ثني إسرائيل عن هذا الرفض، لكن حاييم وايزمن لم يستجب لطلبهما. كما أن دافيد بن غوريون أعلن رفضه القاطع لقرار مجلس الأمن (القرار 194 لعام 1948) القاضي بعودة اللاجئين. وفي مسعى آخر حث الكاردينال سبلمان الرئيس ترومان على أخذ زمام المبادرة بشأن تلك العودة وبشأن تدويل القدس، غير أن طلبه لم يلق استجابة، كما أن مراجعة مكماهون لموشي شاريت ولدافيد بن غوريون بموضوع عودة اللاجئين لم تلق قبولاً، رغم التلميح بأن عودة اللاجئين المسيحيين تترك مجالاً للتقارب بين الفاتيكان وإسرائيل، ومراجعة السفير الأميركي بتل أبيب بأمر تلك العودة جاءت غير مثمرة. وفي موضوع التدويل للمدينة المقدسة انضمت المملكة الأردنية إلى جانب إسرائيل في المعارضة لهذا المشروع، مع أن بقية الدول العربية قد وافقت عليه[2]. وفي 15/ 3/ 1949 أعاد البابا تكرار مطالباته السابقة بشأن تدويل القدس[3]. وجاء التحدي الإسرائيلي لهذه المطالبة بنقل مقر الكنيست من تل أبيب إلى القدس بتاريخ 26/ 12/ 1949، وبإعلانها عاصمة لإسرائيل في

---

(1) Ibid, P87.

(2) Ibid, P98-102.

(3) Donald Neef- Journal of palestine Suthies Vol XXX III-No1, university of California Press, 1993 P26.

نيسان 1950[1]. وغير عابئة بما جاء في ما ذكره المونسنيور مونتيني (Montini) من أنه لن تعترف دولة الڤاتيكان بإسرائيل دون موافقتها على تدويل القدس وبقية الأماكن المقدسة، ودون الحفاظ على حقوق الكاثوليك في فلسطين، ذلك ما عبر عنه المونسنيور المذكور لوزير بريطاني بتاريخ 4/ 6/ 1949 صراحة وتبلغته إسرائيل[2].

مواقف الڤاتيكان تجاه إسرائيل وعرب فلسطين بين عامي 1950 ـ 1967

ساورت الڤاتيكان المخاوف في الأربعينات والخمسينات من انتشار الشيوعية في الشرق الأوسط، ومن الدعم الغربي لإسرائيل. وفي عام 1950 طرحت مجلة «أميركا» التي تصدرها الكنيسة الكاثوليكية الأميركية، فكرة التحالف ضد الشيوعية، فسارعت إسرائيل وطرحت نفسها حليفاً للولايات المتحدة، وتسللت من خلال العداء للشيوعية إلى قلب الكنيسة الكاثوليكية الأميركية في عهد الكاردينال سبلمان (Spleman) وصادف في ذلك الوقت شراء بعض الدول العربية أسلحة من الاتحاد السوڤياتي ومن تشيكوسلوڤاكيا، فاستغل الصهاينة المسيحيون ذلك الأمر وصوروا العرب بأنهم حلفاء للشيوعية، وصوروا إسرائيل بأنها الخط الدفاعي بوجه الشيوعية في الشرق الأوسط[3].

وعندما وصل الرئيس جون كنيدي الكاثوليكي إلى البيت الأبيض، كان إلى جانبه الأسقف كاشنغ (Cushing) الذي كان شديد العداء للشيوعية، والذي وجد أن إسرائيل، وليس الإسلام، هو الحليف الطبيعي للولايات المتحدة ضد الشيوعية، ونتيجة لجهوده التي انطلقت من هذا الاعتقاد، أعطت الكاثوليكية الأميركية الشرعية اللاهوتية لإسرائيل[4].

---

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P102.

(2) Ibid, P.103.

(3) محمد السماك، مصدر سبق ذكره، ص158.

(4) المصدر السابق، ص158.

كرت السبحة بعد ذلك، فقامت منظمات مسيحية كاثوليكية تدعو إلى تغيير مواقف الفاتيكان اللاهوتية من مبدأ قيام دولة يهودية، ومن مبدأ عودة اليهود إلى فلسطين، مثل منظمة الدراسات اليهودية المسيحية (Institute of Judo- Christian Sutdies) في جامعة سيتون هول (Seton Hall) ومنظمة مكتب الفاتيكان للعلاقات الكاثوليكية ـ اليهودية (Vatican Office of Catholic Jeuish Relation). ومع ذلك، فإن القاعدة المسيحية الكاثوليكية الأميركية لا تزال محافظة على مبادئها اللاهوتية، ولا تزال متمسكة بالثوابت الفاتيكانية. وتعكس منظمة الرهبان الأميركيين (American Bishops Conference) ومنظمة مؤتمر الرفاه الوطني الكاثوليكي (National Catholic welfore Couference) ومنظمة الهيئة الكاثوليكية للرفاه في الشرق الأدنى (Catholic Near East Welfare Association) مدى تأييد هذه المنظمات لقيام إسرائيل، وهي إذ تطالب الفاتيكان بالاعتراف بها كدولة، فإنها ـ خلافاً للمنظمات الإنجيلية ذات العقيدة الصهيونية المسيحية ـ لا تنكر حقوق الشعب الفلسطيني، بل تدعو إلى الاعتراف أيضاً بهذه الحقوق واحترامها[1]. ومن المحتمل أن تتراجع هذه الهيئات عن مواقفها بشأن حقوق الشعب الفلسطيني بعد تراجع البابا وإقدامه على الاعتراف الرسمي بإسرائيل.

استمرت الفاتيكان منذ عام 1949 وحتى منتصف الخمسينات بالضغط على حلفائها في الضغط على إسرائيل بشأن عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم، وبشأن تدويل القدس، وحمل إسرائيل الالتزام بحدود ما أقرته لها الأمم المتحدة بمشروع التقسيم لعام 1947، لكن أيّا من هذه المطالب لم يتحقق، والشيء الوحيد الذي تحقق عدم الاعتراف الدولي الشامل بالقدس عاصمة لإسرائيل[2].

ولقد اتصف موقف البابا بالمعارضة والرفض لعمليات تغيير معالم

---

(1) المصدر السابق، ص158 ـ 159.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P112-113.

القدس الدينية والتاريخية التي أخذت إسرائيل تجريها. ورداً على ما نشرته جريدة إيطالية، أدلى ناطق رسمي باسم الفاتيكان أنه لا مبادرة فاتيكانية جديدة تتعلق بالقدس، وأن ما نشرته الجريدة لا صحة له حول أمر المبادرة، مؤكداً أنه لم يطرأ أي تغيير على المواقف السابقة، وكانت تلك الجريدة قد أشارت إلى أن البابا يعتزم مناشدة الأمم المتحدة للموافقة على جعل مدينة القدس، مدينة دينية حرة، تشرف على إدارتها هيئة دولية تضم مسيحيين ومسلمين ويهوداً[1]. وكانت الفاتيكان أول الأمر ترى أن إقامة وطن يهودي في فلسطين سيبعث على خلق مشاكل دينية وسياسية كبيرة على صعيد دولي، وقد أعرب عن هذه التوقعات المونسنيور إنجيلو رونكالي (Angelo Roncalli) ممثل الفاتيكان بتركيا الذي كتب عام 1943 إلى وزير الخارجية التركية رسالة قال فيها: «إنه من غير المستاغ أن ننظر إلى أعمال البر التي يظهرها البابا على اعتبار أنها فرصة نادرة تقود إلى الظن بأنه يساهم بطريق مباشر أو غير مباشر في تحقيق أحلام اليهود». وقد تضمن المجلد التاسع من كتاب مستندات ووثائق الفاتيكان أن المسؤولين عن الشؤون الخارجية في الفاتيكان قد كتبوا أن البابا لم يوافق في يوم من الأيام على مشروع جعل فلسطين وطناً لليهود، وأنه إذا أريد إنشاء وطن لهم، فإنه من اليسير العثور على أرض أخرى أفضل لهم، وأنه إذا وقعت فلسطين تحت سيطرة اليهود فستنشأ عن ذلك مشاكل عالمية جديدة وخطيرة تثير استياء الكاثوليك في العالم[2]. والبابا يوحنا الثالث والعشرون الذي ساعد اليهود إنسانياً إبان عمله في تركيا بالهجرة إلى فلسطين تخلصا من الإبادة النازية، كان شديد التخوف من قيام دولة يهودية في فلسطين[3].

غير أن تحولا كبيراً في المبدأ الكاثوليكي اللاهوتي التقليدي بدأه البابا

---

(1) الموسوعة الفلسطينة، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره، ص934.

(2) المصدر السابق، ص394.

(3) Alfred M. Lilienthal, OP. cit, P.508 - 510.

يوحنا الثالث والعشرون في المؤتمر الفاتيكاني الثاني المنعقد عام 1962 بالدعوة للتحاور والتصالح مع التيارات الدينية والسياسية المتعددة بما فيها تيارات الإلحاد والشيوعية. ومن المواضيع التي ناقشها المؤتمر التقارب بين الديانتين المسيحية واليهودية ودور اليهود في التاريخ، والتقارب مع الإسلام، والاهتمام بأمور العالم الثالث في شأن الحريات السياسية والقضايا الاقتصادية والتطور الاجتماعي[1].

كان هذا التوجه محاولة يراد من ورائها إحداث تبديل جذري في موقف الفاتيكان لاهوتيا وسياسياً. وفي المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، إبان ولاية البابا بولس السادس (1963 ـ 1978) صدر قرار فريد هو تبرئة اليهود من دم المسيح كإشارة ودّ من الكنيسة الرسولية لبني إسرائيل وتوجيهها لأتباعها المنتشرين في العالم وخصوصاً في أوروبا، بالانعطاف نحو المودة والحوار مع اليهود. وقد شكلت حاضرة الفاتيكان لجنة عليا من أبرز الكرادلة لمثل هذا الحوار المسيحي ـ اليهودي. واعتبر قرار المجمع المسكوني الفاتيكاني، آنذاك، أنه تعديل أو تحويل لما ورد في الإنجيل من قول جموع اليهود عندما سألهم بيلاطس البنطي أيطلق باراباس القاتل أم يسوع الناصري، فحسموا بأن يطلق بارباس. وحين قال لهم بيلاطس إنه غير مقتنع بأن يسوع قد ارتكب ما يستحق الموت أجابوه: دمه علينا وعلى أولادنا. ولكن الكاردينال بيا، وهو أبرز وجوه المجمع المسكوني الفاتيكاني، قاد موجة التعديل التي أنتجت هذا القرار الفريد الذي تجاوز النص الإنجيلي. وكان الكاردينال بيا ألمانياً وأراد أن يؤكد أن الكنيسة تدين «اللاسامية» التي برزت في ألمانيا في الزمن الهتلري إدانة تجعلها تنعطف في الموقف إلى جانب اليهود وتزيل أي نص يمكن أن يفسر بأنه، كما كان يصر اليهود، يحض على كرههم حتى لو كان الأمر يتعلق بصلب المسيح. فقد عفت الكنيسة عن صلب المسيح، وهو أمر يتخطى كل

(1) Alfred M. Lilienthal, OP. Cit, P118.

المشاعر الإنسانية إلى التمثل بقول المسيح وهو على الصليب: «يا أبتي اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ما يفعلون».

ولم تكتف الكنيسة الكاثوليكية الرسولية بهذه الإشارة المميزة، بل نسجت فعلاً علاقات الصداقة مع يهود العالم ومع دولة إسرائيل التي كانت سياستها التحفظ إزاء الاعتراف بها نظراً لمعضلة القدس التي ضمتها إسرائيل بعد 1967، خلافاً للقرارات الدولية ولتوجه الڤاتيكان. لكن ذلك لم يمنع من اضطراد في تطور العلاقات إيجاباً وزيارة أركان الحكم الإسرائيلي حاضرة الڤاتيكان مراراً، حتى كان الاتفاق الڤاتيكاني ـ الإسرائيلي في العام 1994 تتويجاً لهذا الدفء في العلاقة الذي تجاوز كل شيء[1].

ولأول مرة، وهي الأولى من نوعها، قام البابا بولس السادس في كانون الثاني عام 1964 بزيارة الأراضي المقدسة، وتلمس الشقاء المحيق باللاجئين الفلسطينيين، والمأزق السياسي الذي يواجههم. وعلى صعيد المؤتمر المسكوني، كانت المسألة اليهودية أبرز موضوع مختلف عليه في جدول الأعمال. فعلى صعيد لاهوتي وتقليدي متبع، ساد الاعتقاد المسيحي تحميل اليهود مسؤولية صلب المسيح، ومسؤوليتهم في تشويه الحضارة الأوروبية. ونتيجة لأسباب لاهوتية، وعلى الأغلب سياسية، جرت مراجعة للمعتقدات السابقة السائدة جوبهت بعوائق واعتراضات، وانتهت بتسوية صدرت عن المؤتمر بتاريخ 28/ 10/ 1965، تضمنت تبرئة اليهود من صلب المسيح، وهو نقض للمعتقدات السابقة، ونقض لما جاء في الإنجيل «فأجاب جميع الشعب (اليهودي) وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» (متى 27/ 5). ومما جاء في وثيقة التبرئة: « . . مع أن السلطات اليهودية والذين ماشوا قيادتهم من اليهود مارسوا ضغوطاً لموت المسيح. . فلا كل اليهود آنذاك، ولأكل اليهود اليوم يمكن محاكمتهم على الجريمة المقترفة خلال آلام المسيح، صحيح أن الكنيسة هي

(1) إنعام رعد، مجلة الحوادث، 16/ 2/ 1996، ص30.

شعب الله الجديد، بيد أن اليهود يجب ألا ينظر إليهم كمنبوذين وكأن ذلك منطوق الكتاب المقدس[1].

عالج أنيس القاسم في كتابه «نحن والڤاتيكان وإسرائيل» مدى استغلال الصهيونية واليهود كافة للاضطهاد الذي لحق بهم على يد النازية، من ذلك ابتزاز الڤاتيكان باتهامات باطلة في تقصيرها بإنقاذ حياة آلاف اليهود، بغية الضغط على الكرسي البابوي لنيل مكاسب سياسية، وقد حققوا بهذا الابتزاز مكاسب هامة كان أبرزها تبرئة اليهود من صلب المسيح. وفي هذا الصدد يقول القاسم: «إن القصد من وراء هذه الحملة (اتهام البابا بيوس الثاني عشر بالإغضاء عن الاضطهاد النازي) هو إثارة (عقدة) في نفس رجال الدين الكاثوليك لاستغلالها، كما أثيرت عقدة الذنب عند الألمان الغربيين، فاستغلتها الحركة الصهيونية وابتزت من ألمانيا الغربية ما ابتزت. ويبدو أن الحركة الصهيونية قد نجحت في إثارة هذه العقدة، خصوصاً وأن بعض الكرادلة، حسبما قيل، كانوا لا يوافقون البابا بيوس الثاني عشر على سكوته، وكانت عمليات الحركة الصهيونية واسعة وعامة: فقد طالبوا بتبرئة اليهود تماماً من دم السيد المسيح، ورفع اللعنة عنهم بالصلوات، وعدم تسميته بالشعب قاتل الرب، على أساس أن استمرار هذا الوضع هو سبب من أسباب اضطهاد اليهود والكراهية لهم»[2].

وتوقع القاسم استمرار الابتزاز الصهيوني للڤاتيكان، وصولاً إلى الاعتراف الڤاتيكاني الرسمي بإسرائيل والتراجع الكلي عن المواقف التاريخية الڤاتيكيانية السابقة، وهذا ما حدث بالفعل مؤخراً. وفي معرض تحليله قال: «إن الاتجاه الأول للحركة الصهيونية مع الڤاتيكان سيكون تثبيت عقدة الذنب التي أفلحت الحركة الصهيونية في افتعالها، ثم ابتزاز ما تستطيع ابتزازه من

---

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P118.

(2) أنيس القاسم، نحن والفاتيكان وإسرائيل، بيروت، مركز الأبحاث، 1966، ص50 ـ 51.

الڤاتيكان ثمناً لذلك. . . وستحاول الحركة الصهيونية بشتى السبل نقل خطوتها، خطوة خطوة، في اتجاه أهدافها السياسية. . . وسيكون الهدف الأول، لهذا الحوار في نظر الحركة الصهيونية، الاعتراف بأن قيام إسرائيل هو تحقيق لوعد الرب لشعبه بالعودة إلى أرض الميعاد»[1]. وهي المقولة التي تبنتها «الصهيونية المسيحية» من الطوائف البروتستانتية الغربية قبل أن يخطر على بال اليهود إجمالاً مثل هذه المقولة. وليس مستبعداً، بعد اعتراف الڤاتيكان بإسرائيل، ممارسة الابتزاز الصهيوني للڤاتيكان وصولاً إلى إقرار الكنيسة الكاثوليكية بأن قيام إسرائيل كان تحقيقاً للنبوءات التوراتية.

انتقد القاسم وثيقة التبرئة، ومما قاله: «. . . أما أن يبرأ الشعب اليهودي من جرائم ارتكبها وقررها التاريخ ويداه ملطختان بالدماء العربية البريئة، وأقواته هي الأموال التي اغتصبها من الشعب الفلسطيني، والبيوت التي يسكنها هي بيوت اغتصبها وطرد أهلها منها. هذا الشعب الذي هو تاريخه المعاصر، كيف يصح لمجتمع كالمجمع المسكوني أن يسدل الستار عن جرائمه ولا يناشده، كما ناشد الشعوب الأخرى، أن يرفع الظلم الذي أنزله بعرب فلسطين؟»[2].

لقد تأكدت صحة استشراف القاسم لاستمرار ابتزاز الصهيونية للڤاتيكان. ففي 18/ 1/ 1996 صرح وزير الأديان الإسرائيلي شيمون شتريت بعد اجتماعه بقداسة البابا يوحنا بولس الثاني، أن قداسته سيزور إسرائيل على الأرجح سنة 1997. وأكمل الوزير الإسرائيلي كلامه بما لا يليق بمثل هذه الإيماءات الإيجابية من قداسته، عن عزمه على زيارة الكيان الذي يغتصب القدس. وقال شتريت إنه «يعرب عن الأمل في أن يكون الڤاتيكان قد عثر قبل ذلك الحين على شمعدان هيكل سليمان وأعاده إلى إسرائيل»! فالوزير الإسرائيلي يتهم

(1) المصدر السابق، ص148 ـ 150.

(2) المصدرالسابق، ص89.

الڤاتيكان بأنه يخبئ شمعدان من هيكل سليمان نهبه الرومان في عهد الامبراطور تيتوس سنة 70 حيث قال إنه تمنى «أن يأمر البابا في مبادرة عادلة وحسن نية بالبحث في كنوز الڤاتيكان عن شمعدان هيكل سليمان.

إسرائيل تطالب الڤاتيكان بشمعدان تدعي أنه مخفي بين كنوزه وأصله من هيكل سليمان. تدعي على الڤاتيكان بسلبها شمعداناً بعد كل ما فعل الڤاتيكان معها متجاوزاً القدس، متجاوزاً وضع المسيحيين المشرقيين، وخصوصاً المقدسيين، متجاوزاً نصوصاً في الإنجيل، لكنها تصر على اتهام الڤاتيكان بإخفاء الشمعدان[1]. هذا يعني أن الابتزاز لا يزال مستمراً، لقد أثمر الكثير في الماضي القريب، والظاهر أن هناك أهدافاً جديدة لحصول الصهيونية على مكاسب إضافية من الڤاتيكان.

وفي محاولة مكشوفة لتبرير تبرئة اليهود من صلب المسيح، اعتبر الكاردينال أوغسطين بيا (Augustin Bea) المقرب من البابا يوحنا الثالث والعشرين أن قرار «التبرئة» ديني لاهوتي وليس قراراً سياسياً، ومما قاله في تبريره: «نحن لا نتكلم عن الصهيونية ولا عن دولة إسرائيل، لكن عن أتباع اليهودية الموسوية في أي مكان يقيمون»[2]. وكأن كل الاجتهادات اللاهوتية الڤاتيكانية السابقة كانت على ضلال، وأن النصوص الإنجيلية الواضحة التي لا تجيز التبرئة، لا وجود لها. لقد كانت «التبرئة» مقدمة لتحول خطير هو اعتراف الڤاتيكان بدولة إسرائيل خلافاً لمواقف عديدة سابقة.

في الخامس عشر من تشرين الأول 1965، خلال التصويت على قرار «التبرئة»، أكد البابا للأب إبراهيم عياد أن المجمع المسكوني: لن يسمح باستغلال الإسرائيليين للقرار»، وأن هذا القرار لن يؤثر سلبياً على حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة[3]. بيد أن الوقائع اللاحقة أكدت عكس ذلك،

(1) إنعام رعد، مجلة الحوادث، مصدر سبق ذكره، ص30.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P119.

(3) Ibid, P119.

فقد تم اعتراف الفاتيكان بإسرائيل وتم التراجع عن الشروط السابقة لحصول هذا الاعتراف، كتدويل القدس، وعودة اللاجئين الفلسطينيين. إن قرار «التبرئة» لم يكن مجرداً من الاعتبارات السياسية، فالتقارب بين الفاتيكان وإسرائيل كان قد حصل قبل صدور هذا القرار. ذلك أن البابا بولس السادس عند زيارته للأماكن المقدسة في فلسطين، اجتمع في القدس برئيس دولة إسرائيل زلمان شازار (Zalman shazar) وسواه من الرسميين الإسرائيليين، رغم ادعاء البابا أن زيارته يجب ألا تفسر على أنها اعتراف الفاتيكان بإسرائيل. وبالفعل أذابت وثيقة «التبرئة» فتور العلاقات بين الفاتيكان وإسرائيل، وتبرير الزيارة كان لتفقد المقدسات المسيحية الخاضعة للحكم الإسرائيلي[1].

أقلق قرار «التبرئة» الأساقفة العرب وأساقفة بلدان العالم الثالث، فعمد البابا بولس السادس إلى تخفيف هذا القلق والإقلال من المعارضة للقرار. وكان الباعث على القلق والمعارضة التخوف من أن تستخدم إسرائيل ويهود العالم قرار «التبرئة» باستغلاله لمصالح سياسية ضارة بالأقطار العربية. وفي محاولة منه لتهدئة قلق المسلمين وطمأنتهم، دعا إلى حوار تفاهم مظهرا احترامه للديانة الإسلامية[2]. قرار «التبرئة جاء نتيجة لجهود صهيونية حثيثة، ولم يكن نتيجة لقناعات مسيحية لاهوتية.

لقد بدأت الصهيونية عملياً بالسعي لاستصدار وثيقة التبرئة في عام 1960، إثر إعلان البابا يوحنا الثالث والعشرين عن تشكيل «سكرتارية» لوحدة المسيحيين، التي عهد برئاستها إلى الكاردينال اليسوعي أوغسطين بيا الذي أنيط به أيضاً وضع مسودة بيان عن العلاقات الكاثوليكية/ اليهودية. وجاء الإعلان عن الإجراء هذا نذيراً ببدء نشاط صهيوني ويهودي شامل يتركز حول استصدار تصريح من الكنيسة يتناول:

---

(1) Ibid, P119.

(2) Ibid, P120.

1 ـ تبرئة اليهود من تهمة «قتل الرب».

2 ـ اعتبار اليهود فئة دينية مستقلة لا طائفة مرشحة ـ من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ـ لاعتناق المسيحية، أي منح الديانة اليهودية اعترافاً بتساويها مع الديانة المسيحية.

3 ـ حذف المقاطع والنصوص التي يعتبرها اليهود ماسة بهم من كتب العبادات والصلوات الكاثوليكية[1].

وقد ترتكز الجهد الصهيوني في سبيل إصدار «التصريح» على مكانة الكاردينال بيا وشخصيته الذي تعده الأوساط اليهودية من «الشخصيات الفذة» العاملة في سبيل «التقارب الكاثوليكي اليهودي»، لا سيما أنه قضى قرابة ثلاثة وخمسين عاماً في الدراسات العبرية. وعلى أثر وصول البابا بولس السادس إلى السدة البابوية في 21/ 6/ 1963 دعا إلى عقد دورة ثانية للمجتمع المسكوني بتاريخ 29/ 9/ 1963. وفي 17/ 10/ 1963 نشرت جريدة النيويرك تايمز أنه قد أعد للعرض على المجمع مشروع وثيقة تعترف بالجذور اليهودية للكنيسة وتدحض فكرة مسؤولية اليهود الخالصة في صلب المسيح، وتدين النزعة المناهضة للسامية. وقد تمت مناقشة هذا الموضوع داخل جلسات المجمع المسكوني، إلا أن المجمع فشل في إقرار الوثيقة لوجود خلافات حادة بين أعضائه وتخوف بعضهم من العواقب السياسية التي قد تترتب على إقرارها. ولهذا تأجل الاقتراع على الوثيقة إلى اجتماع آخر. وقد دعا التأجيل الدوائر الصهيونية لشن حملات شديدة اللهجة ضد قرار التأجيل، وقالت إن شعور الكراهية لليهود ما زال قائماً[2].

وفي 5/ 1/ 1964 قام البابا بولس السادس بزيارة للأراضي المقدسة، واستقبله زلمان شازار رئيس دولة إسرائيل الذي حاول بدوره تحويل هذا

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص417.
(2) المصدر السابق، ص418 ـ 419.

الاستقبال إلى مظاهرة سياسية لصالح إسرائيل. لكن البابا أجاب على هذه المحاولة بقوله: «إننا لم نستلهم في زيارة الأراضي المقدسة سوى المقاصد الروحية المحضة. . . لقد أتيناها حجاجاً. . أتينا لنقيم الصلوات»، وأكد البابا في زيارته تمسكه بقرارات الأمم المتحدة ورفضه الاعتراف بالقدس عاصمة لدولة إسرائيل»[1].

بيد أن الدوائر الصهيونية واصلت نشاطها المحموم لحمل المجمع المسكوني على إصدار وثيقة «التبرئة» في دورته الثالثة المنوي عقدها في أيلول 1964. وسبق ذلك اتصالات مباشرة بين الجمعيات اليهودية العالمية والبابا بولس السادس، واستمرت المطالبة اليهودية لإصدار الوثيقة. وفي 15/ 4/ 1964 نشرت جريدة الفاتيكان الرسمية «الأوبسرفاتور رومانو» تصريحاً للكاردينال بيا، أعرب فيه عن أمله بأن «يقر المجمع المسكوني الوثيقة». وفي 10/ 8/ 1964 أصدر البابا أول رسالة بابوية له، دعا فيها المسلمين واليهود إلى الانضمام إليه في مسعاه «لتطوير وحماية المثل المشتركة لجميع هذه الأديان». لكن الصهيونية واصلت حملاتها الإعلامية مطالبة بإقرار «التبرئة»، ونجحت في تعبئة الرأي العام الأوروبي والأميركي. وفي جو هذه الحملة افتتحت الدورة الثالثة للمجمع المسكوني في 16/ 5/ 1964 وعرضت فيها الوثيقة للمناقشة. وقد طالب الكاردينال بيا أعضاء المجمع المسكوني بضرورة «الاقتداء بالمسيح في محبته للشعب اليهودي»، ثم شدد على إقرار الوثيقة معلناً أنه يتوجب على المطارنة أن يكونوا مستعدين حتى لتعريض سمعتهم لخطر الاتهامات السياسية من أجل هذه الغاية». وفي 14/ 10/ 1964 نشرت الصحف الإيطالية والألمانية نبأ وقوف البابا إلى جانب المطالبين بإصدار وثيقة «التبرئة»، وبعد هذا التحول في موقف البابا أقر المجمع المسكوني في 21/ 10/ 1964 بشكل مبدئي وثيقة «تبرئة اليهود من دم المسيح» تمهيداً لعرضها

(1) المصدر السابق، ص419.

على الدورة القادمة للمجمع لإقرارها بصورة نهائية. وقد بررت الكنيسة الكاثوليكية موقفها من الوثيقة ببيان جاء فيه أن المسيح ولد وسط الشعب اليهودي وأن المسيحيين تسلموا تراثاً عظيماً من اليهود. إن هذا المجمع يوصي بمراعاة التعارف والاحترام المتبادل بين المسيحيين واليهود «. . . لهذا يتوجب على الجميع أن يراعوا، سواء عند تلقين الدين المسيحي أو نشر كلمة الله، أو في المحادثات اليومية، عدم ذكر أي شيء يمكن أن يثير كرهاً أو حقداً على اليهود في قلوب المسيحيين، كما يتوجب ألا يظهروا الشعب اليهودي بمظهر الشعب المنبوذ أو المرذول أو المسؤول عن قتل الرب. «إن ما حدث للمسيح لا يمكن أن ننسبه إلى كل الشعب الذي عاصره آنذاك، ولا إلى الذين يعاصروننا اليوم. . .»[1].

وفي حين اعتبرت إسرائيل والدوائر الصهيونية وثيقة التبرئة مكسباً سياسياً هاماً، غير أن صدورها أثار عاصفة من الانتقادات في أوساط الطوائف المسيحية الشرقية، تركزت بالدرجة الرئيسية على إنكار صلاحية المجمع المسكوني لتغيير نصوص الإنجيل الصريحة. وفي القاهرة أعلنت الكنيسة القبطية بتاريخ 26/ 4/ 1964 معارضتها لإقرار الوثيقة، واتهمت الصهيونية بتضليل الكنيسة الكاثوليكية، وفي سوريا عقد مطارنة الطائفة الأرثوذكسية اجتماعات في مدينة حمص لدراسة الوثيقة، وأعلنوا استنكارهم لوثيقة التبرئة، واتخذوا بتاريخ 1/ 10/ 1964 قرارات تتضمن إرسال برقية للبابا تؤكد تحميل اليهود جريمة «صلب المسيح» كما نصت الأناجيل. وفي عمان أرسل أعضاء مجلس الأمة الأردني الذين يمثلون مختلف الطوائف المسيحية في المملكة بتاريخ 6/ 1/ 1964 برقية إلى البابا يشجبون فيها وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح. كما أعلن البطريرك تيودروس السادس بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس أن «بدعة تبرئة اليهود من دم المسيح» تعني في الواقع اعترافاً

(1) المصدر السابق، ص419 ـ 420.

بإسرائيل. بينما أصرت الڤاتيكان على أن الوثيقة تحمل طابعاً دينياً وليس وراءها أي دافع سياسي. وعلى الرغم من إقرارها، ظهر في أوساط الڤاتيكان موقفان متضادان بشأن وثيقة التبرئة: موقف معارض لإصدار الوثيقة تزعمه المطران الإيطالي لويجي كارلي، وموقف مؤيد للوثيقة تزعمه الكاردينال بيا ومعه كرادلة أميركا. بيد أن المجمع المسكوني أقر وثيقة التبرئة في تشرين الأول 1965، وبهذا حققت الصهيونية نصراً سياسياً هاماً كانت له أبعاد خطيرة وهامة في الصراع العربي/ الصهيوني[1].

مما لا ريب فيه أن تبرير الڤاتيكان في إصدار الوثيقة يفتقر إلى إسناد لاهوتي. إذ لو كان التبرير صحيحاً لكان واضعوه قد أوردوا نصوصاً إنجيلية، لكن النصوص الإنجيلية تؤكد العكس. من هذا يتضح ـ رغم النفي ـ أن التبرير كان عملاً سياسياً محضاً. والسؤال الملح: لماذا لم تفطن المجامع المسكونية السابقة والباباوات السابقون إلى هذه «البدعة» من قبل ظهور الضغوطات الصهيونية، وقيام دولة إسرائيل، وسعي قادتها الجاد لاستصدار هذه الوثيقة؟ إن المساعي الصهيونية الحثيثة قد أفلحت في إصدار المجمع المسكوني «وثيقة التبرئة»، الوثيقة السياسية المحضة لا اللاهوتية. وكم كانت صادقة نبوءة البطريرك الأرثوذكسي ثيودروس السادس عندما قال إن: بدعة تبرئة اليهود من دم المسيح تعني في الواقع اعترافاً بإسرائيل. وهذا ما حدث بالفعل في أواخر كانون الأول 1993 باعتراف الڤاتيكان السياسي الكامل بإسرائيل وتبادل التمثيل السياسي معها.

مواقف الڤاتيكان من الصراع العربي الإسرائيلي بين عامي 1967 ـ 1978.

حملت حرب الأيام الستة عام 1967 الڤاتيكان على اتخاذ البابا بولس السادس موقفاً سياسياً محدداً تجاه القضية الفلسطينية بدوافع داخلية وخارجية.

---

(1) المصدر السابق، ص 420.

وقد تركز هذا الموقف على حق إسرائيل في الوجود، وفي ذلك اعتراف ضمني بدولة إسرائيل جرى التمهيد له في مواقف الفاتيكان الجديدة التي كان أبرزها تبرئة اليهود من صلب المسيح، كما تركز أيضاً على حق الشعب الفلسطيني مدنياً وسياسياً[1]. فبعد اندلاعها، ناشد البابا بولس السادس الأمين العام للأمم المتحدة، يوثانت، بذل المساعي كي توقف المنظمة العالمية المعارك في الشرق الأوسط، وقال: «إننا قلقون جداً من اندلاع القتال على حدود إسرائيل». ثم عاد البابا ودعا في بيان له الدول العربية وإسرائيل إلى الانصياع لقرار مجلس الأمن الداعي إلى وقف إطلاق النار. وفي 9/ 6/ 1967 كرر البابا موقفه بشأن تدويل القدس وبقية الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين. وأشار المسؤول عن القسم الصحفي في الفاتيكان إلى أن قرارات الأمم المتحدة لعامي 1947 و1948 بشأن تدويل القدس «تنسجم مع تطلعات الحبر الأقدس».

ومن جهة أخرى، انتقد البابا إسرائيل لأنها هي التي بدأت الحرب[2]. ومما يؤخذ على موقف البابا، عدا اعترافه الضمني بإسرائيل، مناشدته طرفي الصراع وقف القتال، علماً بأنه كان على بينة من أن إسرائيل هي التي بدأت الحرب، وهي التي لم تستجب أول الأمر لطلبات مجلس الأمن بالتوقف قبل إكمال هدفها الاستراتيجي. كانت نتيجة هذه الحرب سيطرة إسرائيل على كامل التراب الفلسطيني وعلى أراض مصرية وسورية. وفي رد مباشر على مطالب البابا بشأن تدويل القدس، أعلن موشي ديان وحدة المدينة المقدسة واتخاذها عاصمة أبدية لدولة إسرائيل. وفي 27/ 2/ 1967 وافق الكنيست ـ دون نقاش ـ على توحيد القدس. ومن نتائج هذه الحرب فقد الفلسطينيون ثقتهم بالأنظمة العربية وصمموا الاعتماد على أنفسهم. ومن أجل هذه النتائج المخيبة لآمالهم أنشأوا المقاومة الفلسطينية، داخل فلسطين وخارجها. وكان من ثمار ولادة

---

(1) Andrej Krentz, OP. Cit, P126.

(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، مصدر سبق ذكره، ص421.

المقاومة إثبات الوجود الفلسطيني الذي حاولت إسرائيل تجاهله وإنكاره، تلك المقاومة التي خاضت الكفاح المسلح بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية[1].

بعد نهاية حرب 1967 ركز البابا جهوده على موضوع القدس، مقترحاً وضعها تحت إدارة هيئة الأمم المتحدة كحل يرضي أصحاب الديانات الثلاث كافة. وبعث بهذا الاقتراح إلى رؤساء الدول التي لها عضوية دائمة بمجلس الأمن. وكرر البابا موقفه من القدس في اجتماع الكرادلة في 26/ 6/ 1967: يجب أن تبقى مدينة القدس مدينة الله واحة حرة للصلاة والسلام، وموعد لقاء وتسام واتفاق بين جميع الناس، تنعم بدستور خاص مقبول دولياً[2].

رفضت إسرائيل بقوة مقترحات البابا، وأكدت في بيان رسمي أن «القدس عاصمة إسرائيل الأبدية»، كما أنها دعت البابا إلى إعلان اعترافه بدولة إسرائيل واعترافه بالقدس عاصمة لها. لكن الڤاتيكان لم تستجب لهذا الطلب ورفضته بشكل قطعي[3].

وفي أوائل عام 1968 تراخى موقف الڤاتيكان تجاه تدويل القدس، وفي 7/ 2/ 1968 كتبت صحيفة أوبسرفاتور الناطقة باسم الڤاتيكان أنه منذ أن أصبحت الأماكن المقدسة المسيحية تحت إشراف إسرائيل أصبحت إقامة الحجاج المسيحيين أكثر سهولة[4]. ويدخل هذا التراجع في مسلسل التراجعات السابقة واللاحقة.

على أن ما جاء على لسان صحيفة الڤاتيكان يتناقض كلياً مع ما قاله القاصد الرسولي بالقدس، رئيس الأساقفة بيولاغي بعد زيارته لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين بالأردن، ومما قال: «عندما يغادر العرب مدينة القدس

---

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P126-128.

(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص421.

(3) المصدر السابق، ص421.

(4) المصدر السابق، ص421.

فسترحل كذلك المسيحية معهم، وإذا ذهب هؤلاء المسيحيون فسيبقى الأساقفة والكهنة الكاثوليك والأرثوذكس حراساً على أماكن تاريخية ومناطق فارغة».

وقد تطرق الباحث إلى تغير معالم القدس وطرد سكانها العرب منها باعتراف رئيس بلديتها الإسرائيلي كوليك له، وتوصل الباحث إلى توصيات جاء فيها:

- على العالم أن يعرف أن وجود المسلمين والمسيحيين في القدس هو (بموجب حق مكتسب) وليس وجوداً عفوياً.
- على أساقفة الولايات المتحدة مسؤولية هامة، وهي أن يعرّفوا العالم أن المسيحية لن تقبل سيادة دينية وتسلطاً سياسياً لأية ديانة، مهما كانت على غيرها من الديانات.
- ضرورة الإيضاح وإفهام العالم أن القدس مدينة مقدسة وليس بالوعد الذي أعطي لإبراهيم، ولكن بحياة وموت سيدنا يسوع، على حد تعبير الأب روبرت غراهام[1].

وفي مسلسل التراجع الڤاتيكاني عن المواقف السابقة، بعد حرب 1967، تكثفت اتصالات الرسميين الإسرائيليين بالدوائر الڤاتيكانية العليا. ومن الذين أجروا بها اتصالات ليفي أشكول، أبا إيبان، وغولدا مائير، وعلى الرغم من ظهور علاقات طيبة بعد الزيارتين الأوليتين لأشكول وايبان، إلا أن استقبال البابا لغولدا مائير (15/ 1/ 1973) كان أقل حرارة. وعقب الزيارة قالت مائير للصحفيين: إن الصليب الذي رأيته في مكتب البابا قد ذكرها بالصليب النازي المعقوف. أما مباحثاته معها فقد تركزت على السلام وحقوق الإنسان، وتعاسة أوضاع اللاجئين الفلسطينيين[2].

ركزت وسائل الإعلام الصهيونية، آنذاك، على أن زيارة مائير للڤاتيكان

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره، ص933 ـ 934.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P129-130.

تعني تحولا جذرياً في سياسة البابا بموضوع الصراع في الشرق الأوسط. ولكن البابا أوضح يومها رفضه الاعتراف بإسرائيل، وفي مقابل هذا الرفض طالب صهيونيون متطرفون بزعامة الحاخام مئير كاهانا بوجوب منع رجال الكنيسة من مزاولة نشاطهم التبشيري في فلسطين[1].

أما في الولايات المتحدة الأميركية فقد أخذت مظاهر تأييد الكنائس الكاثوليكية لإسرائيل تظهر علناً في الصحافة الكاثوليكية وفي مواعظ وبيانات رجال الدين الكاثوليك، وفي المؤتمرات الكهنوتية. وقد ساعد على بروز تلك المظاهر المناخ السياسي العام المؤيد للاتجاهات الصهيونية داخل الولايات المتحدة. وفي هذا المجال طالب الأب إدوارد فلانيزي (Edwarcl Flan nery) في وثيقة منشورة في كانون الأول 1969 بموقف معاصر لاهوتي من الشعب اليهودي ومن إسرائيل. وكذلك فعل الأسقف أوستريش في بيان جاء فيه: «إن القدس مدينة يهودية»، وطالب المسيحيين بالاعتراف لاهوتيا بالصهيونية معتبراً أن إسرائيل هي تجسيد لإرادة الله[2].

كان الهدف من وراء هذا التوجه إدخال الاتجاهات الصهيونية إلى الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة، وفي نيسان من عام 1975 طالب الأب فلانيري، الذي يحتل مركزاً مرموقاً، الكاثوليك «بالوقوف مع حق إسرائيل في حدود آمنة، وأن تظل أميركا صامدة في دعمها لإسرائيل». ومن بين المؤسسات الصهيونية المسيحية داخل الكنائس الكاثوليكية «معهد الدراسات المسيحية/ اليهودية» (Institute of Judeo Christian studies) في جامعة سيتون هول (Seton Hall)، وكذلك مكتب الڤاتيكان للعلاقات اليهودية/ الكاثوليكية (Vatican office of Catholic/Jewish Relations) الذي يرئسه الأب ريجيك (Rijik). ومن أبرز المنظمات الكنسية الكاثوليكية مؤتمر

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص421.
Alfred M. Lilienthal, OP. Cit, P505.

(2) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص58.

الرهبان الأميركيين (American Bishops Conference) الذي حافظ على الالتزام بمواقف الڤاتيكان السياسية، لكنه في مؤتمره المنعقد في 13/ 11/ 1973 أصدر قراراً يطالب فيه الاعتراف بحق إسرائيل في الوجود مع الاعتراف بحقوق الفلسطينيين وبمشاركتهم في المفاوضات، وبأن تصبح لهم دولة[1].

مواقف الڤاتيكان تجاه عرب فلسطين بين عامي 1967 ـ 1974

ازداد اهتمام البابا بعرب فلسطين وبحقهم المشروع في وطن خلال هذه المرحلة. كما دعا في مناسبات عدة إلى الاهتمام بقضية اللاجئين الفلسطينيين كافة، وإلى حل عادل للقضية الفلسطينية، وأبدى اهتمامه بالقدس وبحرية العبادة، ووضع حصانة على الأماكن المقدسة. كما أبدى استنكاره للعنف بعد ظهور الكفاح المسلح الفلسطيني، وشدد على إيجاد حل سلمي عادل لمشكلة فلسطين[2].

لم يكن للڤاتيكان موقف واضح من ظاهرة المقاومة الفلسطينية. وقد عبّر البابا، في أكثر من مناسبة، عن ألمه لمعاناة الشعب الفلسطيني. وكان لانطلاق الثورة الفلسطينية وعدالة أهدافها واستمراريتها أثر في ظهور بعض التحول في موقف البابا من القدس، ما أدى عام 1971 إلى نشوب أزمة بين الڤاتيكان وإسرائيل. وفي 31 ـ 3 ـ 1971 وجّه البابا بولس السادس نداء طالب فيه إقامة «نظام دولي خاص لمدينة القدس»، أتبعه بمقال في صحيفة الڤاتيكان الرسمية ينتقد فيه بشدة سياسة تهويد القسم العربي من القدس، ويدين عمليات الطرد الجماعي التي تمارسها إسرائيل بحق السكان العرب. وتلا ذلك مقال للبروفيسور فيديريكو اليسندريني في صحيفة «أوبسر فاتوري ديلا دومنيكا» يؤكد فيه ضرورة حل المشكلة الفلسطينية بطريقة عادلة وينتقد تصلب إسرائيل[3].

---

(1) المصدر السابق، ص58 ـ 59.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P130-132.

(3) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص421.

جاء الرد الإسرائيلي سريعاً بمقالة في صحيفة «جيروزالم بوست» تعليقاً على هذه المواقف جاء فيه: «إن مصدر هذه الآراء ليس روما، بل بيروت وعمان والقدس الشرقية». كما وجّه أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في 3/ 7/ 1971 نقداً شديداً إلى البابا نفسه قال فيه: إن الحكومة الإسرائيلية تأسف لأن الفاتيكان لم يرفع صوته أبداً خلال العشرين سنة الماضية عندما كانت مدينة القدس خاضعة لسياسة مبرمجة لنزع صفتها اليهودية وكانت الأماكن المقدسة اليهودية تدنس وتدمر. وجاء رد الفاتيكان عنيفاً ومؤكداً أن موقفه إنما هو تضامن مع جميع الأصوات الساخطة على ممارسات سلطات الاحتلال في المدينة المقدسة، هذه السلطات لم تتورع عن تدنيس المقابر المسيحية ولا عن غير ذلك من الأعمال المخجلة[1].

التباين بين الكنائس الكاثوليكية الشرقية والغربية

بدأ التباين الحاد واضحاً من الزاويتين اللاهوتية والسياسية بين الكنائس الكاثوليكية الشرقية والغربية. ففي تصريح للكاردينال القبطي سيداروس (Cardinal Patriach Sidarous) تساءل فيه قائلا: إن الذين نالهم الاضطهاد في الحرب العالمية الثانية أخذوا يمارسون الاضطهاد بغير الذين اضطهدوهم، فهل يحقق مثل ذلك سلاماً؟ وإذا كان الغرب يشعر بعقدة الذنب لما لحق باليهود في بعض بلدانه، فهل من العدالة في شيء أن يرضى بإلحاق الاضطهاد بحق الآخرين[2]!؟

أما الأب بطرس قزي (Father Pietro A331) رئيس الرهبنة المارونية بلبنان فقال: ليس مرغوباً أن يعيش المرء في الشرق الأوسط ليدرك كيف أن العدالة تداس تحت الأقدام، ولا يحتاج لزيارة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين حيث ظروف الحياة بائسة، ليدرك كيف أن امتهان الكرامة واقع قائم، وحيث

(1) المصدر السابق، ص421.

(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P133.

إن النشء المولود في المخيمات محروم من الهوية والوطن، يحمل في جوانحه المرارة والكراهية والنزوع للانتقام نتيجة للمظالم المحيقة به السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أماكن تواجده[1].

وبين السابع والعاشر من أيار 1970 انعقدت ندوة للمسيحيين في بيروت وقد أطلق عليها «الندوة العالمية للمسيحيين من أجل فلسطين»؛ ومما ورد في بيان اللجنة التحضيرية للندوة: أن من بين أهدافها التدارس بغية زيادة في الإدراك للمشكلة الفلسطينية، والمشاركة في أبعاد هذه القضية ومعطياتها، وارتباطها بالقضية العربية، ونشر المعلومات المستقاة في أوساط الجماعات المسيحية في العالم أجمع، وكذلك دراسة الظروف التي أحاطت بانطلاقة الشعب الفلسطيني في كفاحه لاسترداد حقوقه، ولتفحص الوسائل التي يمكن للمسيحيين استخدامها بغية تأكيد تضامنهم مع المطالب المشروعة التي طرحها الكفاح نفسه[2].

طرحت في الندوة عدة أبحاث، منها البحث الذي قدمه الأب يواكيم مبارك، وتحدث فيه عن «مفهوم القدس تاريخاً ورمزاً». وقد ورد في هذا البحث أن مشكلة القدس في نظره لا يمكن فصلها عن القضية الفلسطينية. وهذا يعني أن مفهوم المدينة المقدسة هو أولاً وأخيراً النضال من أجل استردادها واسترداد فلسطين. «فإذا كانت فلسطين يجب أن تعود وطناً لجميع الفلسطينيين، فإن القدس يجب أن تعود رمزاً حياً للمدينة العائدة إلى قلب شعبها»[3].

حضر هذه الندوة 400 مندوب من 37 بلداً من عدة طوائف مسيحية من بلدان الشرق الأوسط وبعض البلدان الآسيوية والأفريقية، كما حضرها ممثلون من أوروبا وشمالي أميركا. وتميز موقف ممثلي العالم الثالث بالدعم

(1) Ibid, P133.
(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره، ص934 ـ 935.
(3) المصدر السابق، ص934 ـ 935.

والتعاطف مع الشعب الفلسطيني، بينما تميز موقف ممثلي أوروبا وأميركا بموقف مغاير، لا سيما أن ذلك جاء بعد صدور وثيقة «التبرئة»، ولقد تبين أن رجال الدين الكاثوليك الغربيين كانوا لاهوتيا وسياسياً منحازين لإسرائيل، وأن سطوتهم كانت أقوى من سطوة الداعمين للفلسطينيين. وهؤلاء المنحازون تخطوا موقف الفاتيكان المتوازن نسبياً آنذاك في الجهر بأسطورة «الوعد الإلهي» بعودة اليهود إلى «أرض الميعاد»، علماً بأن مواقف الفاتيكان في السبعينات هي غير مواقفها في النصف الأول من القرن العشرين تجاه الصهيونية. ومن الملاحظ أن البابا استبدل في تعابيره، لأول مرة عام 1972 كلمة شعب بدل لاجئين. بيد أنه لم يتطرق للجانبين السياسي والحقوقي لهذا الشعب كيلاً يغضب إسرائيل والنظام الأردني[1].

مواقف الفاتيكان من الصراع العربي/ الإسرائيلي بين عامي 1973 ـ 1978

حين اندلعت حرب 1973 وجّه البابا بولس السادس نداء إلى الحكومات المشتركة في الحرب بالشرق الأوسط طالبها فيه بالتوقف، وندد بالدول التي تتخذ من الحرب وسيلة للتدمير والهدم، كما أنه عبّر عن تعاطفه مع الشعب الفلسطيني، وقال: إنه يصلي من أجله. وتحدث عن احتمال إيجاد تسوية سلمية في الشرق الأوسط تأخذ بالاعتبار آمال كل الشعوب المعنية[2].

وفي العام التالي لحرب عام 1973 كتب إلى رئيس البعثة البابوية لفلسطين، جون ج. نولان (John G. Nolan) يقول: الفلسطينيون ـ على الأخص ـ عزيزون علينا لأنهم شعب الأرض المقدسة، ولأنهم يتضمنون أتباعاً للمسيح، ولأنهم كانوا ولا يزالون يتحملون المآسي. وفي قوله هذا نقض لزعم المقولة الصهيونية «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»[3].

---

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P134-137.

(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص421 ـ 422.

(3) Andrej Kreutz, OP. Cit, P138.

وفي كلمة ألقاها بتاريخ 10/ 4/ 1974 طالب فيها بضمانات دولية لمدينة القدس وبوصاية مناسبة على الأماكن المقدسة. وموقف البابا هذا لا يتفق مع موقف إسرائيل بالنسبة للسيادة على المدينة المقدسة، وهو موقف لا تراجع عنه، في حين أن التراجع حصل بمواقف الڤاتيكان. ففي 5/ 2/ 1974 صدر تصريح على لسان متحدث رسمي باسم الڤاتيكان جاء فيه: إن الكنيسة الكاثوليكية في روما لم تعد تتطلع إلى أمر تدويل القدس لأن مثل هذا الإجراء غير واقعي، وأن الكنيسة ترغب في حرية الإشراف على الأماكن المقدسة، وتنادي بحرية الأديان، في حين أن مكسيموس الخامس بطريرك الروم الكاثوليك صرّح بتاريخ17/ 3/ 1974: أنه لا يمكن لأي كان أن ينكر السيادة العربية على القدس[1].

ومن الملاحظ تقلب مواقف الڤاتيكان تجاه مستقبل القدس وبقية الأماكن المقدسة في فلسطين، وتجاه الشعب الفلسطيني، وخلال هذه المرحلة لم يستقر البابا على موقف واضح محدد يلتزم به ولا يتنازل عنه. ويعود ذلك إلى انتهاجه أسلوباً براغماتياً سياسياً بعيداً عن الطابع اللاهوتي. وفيما يتعلق بمصير الشعب الفلسطيني، كرر موقفه السابق في عام 1975 القاضي بضرورة احترام إسرائيل لحقوق هذا الشعب الشرعية. غير أن مطلبه ـ رغم غموضه ـ لم يلقَ أية التفاتة من قبل الجانب الإسرائيلي[2].

بين عامي 1973 و1975 حققت منظمة التحرير الفلسطينية إنجازات في عدة ميادين: اعتراف جامعة الدول العربية بها في مؤتمر قمة الرباط، 1974، بأنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، إلقاء ياسر عرفات كلمة في الجمعية العامة للأمم المتحدة وإعطاء تلك المنظمة حق انتداب ممثل لها بصفة مراقب في الأمم المتحدة، الحصول على عضوية بمؤتمر دول عدم الانحياز؛

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره، ص935.
(2) Andrej Kreutz, OP. Cit, P138-139.

هذه المكاسب أتاحت المجال لاستقبال البابا لممثل منظمة التحرير جبرائيل شكري ديب، بيد أن الحرب الأهلية اللبنانية طغت على اهتماماته، الفلسطينيون لم يكونوا راغبين أن يكونوا طرفاً فيها، لكنهم اضطروا لذلك بعد فتك الميلشيات المارونية بعدد من الفلسطينيين، بينهم مسيحيون في مخيمي ضبيه وجسر الباشا في كانون الثاني 1976، ورغم نهب الممتلكات البابوية في المخيمين وطرد سكانهما، لم يصدر عن الفاتيكان أي احتجاج أو إدانة لحراجة الموقف، بيد أن الناطق الرسمي باسم الفاتيكان قال: من حق الفلسطينيين أن يكون لهم وطن، ولكن ليس على حساب موارنة لبنان، ومن حقهم أن يكون لهم وجود. غير أن المظالم التي وقعت على الفلسطينيين لا تصحح بمظالم تقع على المسيحيين في لبنان. ومع ذلك، فإن البابا عارض التيارات المارونية التي تعاونت عسكرياً مع إسرائيل، كما عارض دعواتها الانفصالية، وسعى للجم تلك الحرب، غير أن مساعيه لم تكلل بالنجاح[1].

على صعيد آخر، رحبت دوائر الفاتيكان بزيارة أنور السادات للقدس في تشرين الثاني عام 1977، ظناً منها أن تلك الزيارة ستؤدي إلى السلام. وفي آذار 1978، عند اجتياح إسرائيل لجنوب لبنان، أبدى البابا أسفه وحزنه لسقوط عدد من الضحايا اللبنانيين والفلسطينيين، وأظهر تعاطفه مع الشعب الفلسطيني. وقضى نحبه في 5/ 8/ 1978 ولم يقدم على الاعتراف الرسمي بإسرائيل[2]. وخلفه البابا يوحنا بولس الثاني.

مواقف الفاتيكان: من اتفاقية كامب ديفيد إلى التبادل الدبلوماسي مع إسرائيل 1978 ـ 1993

تحكمت عدة معطيات سياسية لاهوتية بمواقف البابا يوحنا بولس الثاني، من بينها نشأته في بولندا، وسعة معلوماته عن يهود شرقي أوروبا الذين هاجر

(1) Ibid, P139-142.

(2) Ibid, P143-144.

قسم منهم إلى فلسطين، ومعاناته من الاحتلال النازي لبولندا ومشاركته في المقاومة السرية لهذا الاحتلال، واطلاعه عن كثب على الاضطهاد النازي لليهود، وقد عمل سرياً على إنقاذ حياة بعضهم، بالإضافة إلى صداقته مع بعض الصهاينة وتعامله مع نخبة من المفكرين البولنديين المنحازين لليهود وللصهيونيين منهم. ولقد أدت هذه المعطيات إلى جنوحه في أول ولايته إلى تعاطف زائد مع إسرائيل فاق تعاطف سلفه البابا بيوس السادس. فلا غرابة أن يبدي تقديراً كبيراً لإسرائيل لدعوتها له في 10/ 12/ 1978 للقيام بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين. وفي حديثه عن السلام بالشرق الأوسط تجاهل ذكر الفلسطينيين، بيد أنه في مطلع عام 1979 تطرق إلى ذكرهم بإشارته إلى ضرورة التعايش بين المسيحيين والمسلمين والفلسطينيين بلبنان، ولم يتطرق إلى القضية الفلسطينية[1].

ومن العوامل التي تحكمت بمواقفه السياسية مواقف أسلافه من البابوات الذين بدأوا بمعارضة الصهيونية بقوة في إقامة دولة يهودية في فلسطين، والتراجعات اللاحقة التي كان أبرزها «تبرئة» اليهود من دم المسيح، واتصالات الرسميين الإسرائيليين بالفاتيكان، والمطالبات السابقة بتدويل القدس والأماكن المقدسة، ناهيك بالمرتكزات اللاهوتية التي أرساها أوغسطين، والمعتقدات الكاثوليكية المتداولة منذ عدة قرون، والتي تؤكد أن جميع النبوءات التوراتية قد تحققت قبل ولادة المسيح، وأن عودة اليهود المعاصرة إلى فلسطين لإقامة دولة فيها لا علاقة لها بالنبوءات، ولا صلة بين يهود الماضي ويهود الحاضر عرقياً، وأن الكنيسة الكاثوليكية هي إسرائيل الجديدة، وأن اليهود بتنكرهم للمسيح لم يعودوا «الشعب المختار». ومن العوامل الفاعلة والمؤثرة في سياسة الفاتيكان، الضغوط الغربية لحمل الفاتيكان على الاعتراف بإسرائيل، وإقدام النظام المصري على إبرام اتفاقية كامب ديفيد، وبروز منظمة التحرير على

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P152-153.

الساحة الدولية، وولادة الانتفاضة الفلسطينية، ووجود مئات الآلاف من المشردين الفلسطينيين، وقرارات الأمم المتحدة بشأن القضية الفلسطينية. إن مجمل هذه الأمور المحرجة للتعارض فيما بينها قد أدت إلى إرباك البابا ولم يكن من السهولة اتخاذه موقفاً صريحاً ومحدداً أول الأمر.

الانتقال من التأرجح إلى اتخاذه قرار الاعتراف بإسرائيل

عندما قام أنور السادات بزيارة القدس، صلى البابا من أجل «السلام»، وتحدث عن احتمال إيجاد تسوية في الشرق الأوسط تأخذ بعين الاعتبار «أماني كل الشعوب المعنية». وعند الشروع بمحادثات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل قال: «إننا نسألك يا رب أن تنير الطريق للمسؤولين كي يكونوا بعيدي النظر وشجعاناً في اتخاذ القرارات التي ستحقق الصفاء والسلام في الأرض المقدسة والمشرق كله». وأضاف قائلاً: «إنني أرجو أن يكون السلام عادلاً فيرضي جميع الفرقاء، بما في ذلك مشكلة الشعب الفلسطيني وأمن إسرائيل وكذلك القدس»[1].

من الملاحظ أن توسلات البابا بشأن «السلام العادل» غير محددة وهي عموميات إنشائية. ومن المؤكد أنه على بينة من قرارات دولية سابقة محددة كالقرارين 181 لعام 1947 و194 لعام 1948، لكنه لم يشر من بعيد أو قريب إلى مضمونهما، دفعاً لإغضاب إسرائيل والغرب. وفيما يتعلق بالقدس كان كلامه غير محدد، ولكنه تراجع عن مواقف أسلافه. أما بشأن أمن إسرائيل فكان كلامه محدداً رغم أن أمنها غير مهدد وأن أمن دول الطوق العربي حول إسرائيل كان هو المهدد بالفعل على الدوام ولا يزال.

في 25/ 3/ 1979 بارك اتفاقية كامب ديفيد، ولم يتعرض للقضية الفلسطينية، واستقبل عدة شخصيات إسرائيلية كان من بينها استقباله السري

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص422.

لمدير الخارجية الإسرائيلية، كما جرت لقاءات بينه وبين مستشاري مناحيم بيغن، بينما ألغى لقاء كان مقرراً مع الياس فريج، رئيس بلدية بيت لحم، بسبب ضغوط أميركية/ إسرائيلية، ما حمل الأب إبراهيم عياد على القول: إن البابا نسي الفلسطينيين رغم تيقنه من اتساع هجرة المسيحيين الفلسطينيين بعد حرب عام 1967[1].

وفي المدينة المقدسة شدد البطريرك اللاتيني فيها المونسنيور بلتريتّي (Mouseignor Belteritti) على وجوب إعطاء ضمانات للفلسطينيين المسيحيين للعيش آمنين في وطنهم المولودين فيه لكي لا تشعر أجيالهم مستقبلاً أنهم غرباء في وطنهم. وقد حث البابا على الاستجابة لمطلبه، وأصبح البابا مقتنعاً أنه لا حل للمشكلة اللبنانية دون إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية. ولأول مرة أتى على ذكر القضية الفلسطينية في رسالة إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في تشرين الأول 1979، أشار فيها إلى قلقه لعدم التوصل إلى سلام حقيقي رغم اتفاقية كامب ديفيد، ودعا مجدداً إلى تدويل القدس، وإحقاق حقوق شعب فلسطين المشروعة، لأنه «لن يكون هناك سلام بدون تسوية عادلة لقضية شعب فلسطين»[2].

لم يكن موقف البابا يوحنا بولس الثاني السياسي مستقراً على رأي واضح محدد بشأن قضية فلسطين. ففي لقائه مع ملك المغرب، الحسن الثاني، عام 1980 كممثل للمؤتمر الإسلامي من أجل بحث موضوع مستقبل القدس، لم يتطرق البابا إلى أوضاع الفلسطينيين، ولا إلى طروحات سلفه بولس السادس بشأن تدويل المدينة المقدسة. ولذلك كانت المقابلة من وجهة النظر العربية فاشلة تماماً. ومما يوضح عدم التجاوب أن جريدة الفاتيكان الرسمية أوزفاتور رومانو (L'osserwatore Romano) حذفت انتقادات الملك

---

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P152-153.

(2) Ibid, P154.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص422.

الحسن المتعلقة بالأرض، كما أنها لم تنشر قسوة معاملة السلطة الإسرائيلية لعرب القدس. وزاد الطين بلة صمت الفاتيكان المطبق عن المعاملة القاسية التي مارستها حكومة مناحيم بيغن على الفلسطينيين، بالرغم من تزايد هجمات الصهاينة المتطرفين على المسيحيين ومؤسساتهم بمن فيهم الكاثوليك، الأمر الذي أشعرهم بالإحباط، وبالمصير المهدد. ومما يزيد في الدهشة فرض البابا على ممثله بالديار المقدسة التكتم على تلك الممارسات وعدم التصريح عنها. وفي تراجع آخر عند التقائه بالرئيس جيمي كارتر (21/ 6/ 1980)، لم يطالبه بما كان يطالب به سلفه البابا بولس السادس بموقف عادل تجاه الشعب الفلسطيني. وبدلاً من الإصرار على المطالبة بتدويل القدس، ارتضى بالسيادة اليهودية على المدينة المقدسة المشروطة بضمانة دولية، ولقد قوبل عرضه برفض إسرائيلي.

وفي 30/ 7/ 1980 وافق الكنيست على توحيد القدس واتخاذها عاصمة موحدة لدولة إسرائيل. وقد أقلقت هذه الموافقة البابا وأركان الفاتيكان. وعلى صعيد الأمم المتحدة أصدر مجلس الأمن، في كانون الأول 1980، قراراً دعا فيه جميع الدول لسحب جميع سفاراتها من القدس ونقلها إلى تل أبيب، وصدر عن الجمعية العامة إدانة للإجراء الإسرائيلي، الذي أدى أيضاً إلى فتور بين الفاتيكان وإسرائيل، وبدا شيء من تعاطف البابا مع العرب والفلسطينيين[1]. ففي أيلول من عام 1980 جرت لقاءات سرية بين مسؤولي الفاتيكان، بمن فيهم البابا، والملك حسين ونائب الرئيس المصري حسني مبارك وعفيف صفية ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد تركت هذه اللقاءات تأثيراً في نفس البابا. وفي الخامس من تشرين الأول، من العام نفسه، قال البابا في خطاب له بمدينة أونتاريو: إن الاضطهاد دفع اليهود لإنشاء دولة، غير أن ذلك تسبب بحالة مؤلمة للفلسطينيين الذين تم اقتلاعهم من أرضهم. وأشار إلى أن معضلة لبنان متأتية من المشكلة الفلسطينية. ومنذ ذلك

(1) Andrej Kreutz, OP. Cit, P154-155.

الوقت أخذ يشدد على تحقيق السلام العادل، متماشياً مع نهج سلفه بالدفاع عن حقوق الفلسطينيين. ومن هذا المنطلق أخذ يطالب بتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية في مفاوضات سلمية لحل مشكلة الشرق الأوسط، مع التركيز على حق الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني في العيش بحرية وكرامة. غير أن غزو إسرائيل للبنان، عام 1982، خيّب آماله، فأخذ يطالب بإنهاء الغزو، وإيجاد حل سلمي بالتفاوض على قاعدة اعتراف العرب بإسرائيل، وحق الفلسطينيين في وطنهم[1].

بيد أن مطالب البابا بحق الفلسطينيين وبأمن إسرائيل، واستقباله لياسر عرفات في أيلول 1982 أدى إلى امتعاض إسرائيل والولايات المتحدة والجماعات الكاثوليكية الغربية المنحازة لإسرائيل. ومع ذلك دأب على الجهر بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، وإشراك منظمة التحرير الفلسطينية في أية محاولات تسوية. وتحسنت بذلك صورة الفاتيكان في العالمين: العربي والإسلامي. ولقد دفع موقفه هذا بالمنسنيور جون نولن (John Nolon) للقول: إذا لم يكن للفلسطينيين صوت مسموع فإننا نحن صوتهم، وأن البابا يرى أن جذور الفلسطينيين التاريخية ملتصقة بالأرض التي تم تشريدهم عنها[2]، ولهم الحق أن يعيشوا في وطنهم، دون توضيح لحدود هذا الوطن، وربما كان يعني الضفة والقطاع.

وعلى الرغم من كسر الجليد باللقاء الذي تم بين البابا وشمعون بيريس، رئيس وزراء إسرائيل، آنذاك في 19/ 1/ 1985، إلا أن الناطق الرسمي باسم الفاتيكان أشار إلى وجود اختلافات جوهرية في وجهات النظر بين الجانبين حول وضع القدس، وسيادة لبنان، وحق الشعب الفلسطيني. وعلى الرغم من الضغوطات الأميركية لقيام الفاتيكان بالاعتراف الدبلوماسي بإسرائيل، فإن البابا

(1) Ibid, P156-158.

(2) Ibid, P158-160.

أحجم عن الإقدام على تلك الخطوة، ويعود السبب في ذلك إلى مستقبل الفلسطينيين الغامض في الضفة والقطاع. وفي تموز من العام نفسه استقبل البابا وفداً أردنياً/ فلسطينياً تمخض عن إيجابيات.

ومع انطلاقة الانتفاضة، أبدت الفاتيكان اهتماماً بمستجدات الأوضاع، وفي 20/ 12/ 1987 قال البابا: لا يمكن بقاء الأماكن المقدسة مسرحاً للعنف، ولا يجوز دوام استمرار معاناة الشعوب التي أشعر بعطف نحوها. وأجرى البابا، عام 1988، لقاءات مع العاهل الأردني والرئيس المصري، ومع فاروق القدومي. وفي لفتة منه مهمة، عيّن الفلسطيني ميشال الصباح بطريركاً لاتينياً على القدس. وبعد إعلان منظمة التحرير اعترافها بوجود إسرائيل، استقبل البابا ياسر عرفات رسمياً في 24/ 12/ 1988، كرئيس دولة، وقال: لليهود وللفلسطينيين الحق بوطن والعيش بحرية وأمن وكرامة[1].

وعلى الرغم من تأخر البابا في الاعتراف الدبلوماسي بإسرائيل، فإن لقاءاته تكررت مع الرسميين الإسرائيليين. ومع أنه كان يقر بحق إسرائيل في الوجود ضمن حدود آمنة، إلا أنه في الوقت نفسه كان يدعو لحق الفلسطينيين بوطن، ويدعو لإيجاد وضع خاص لمدينة القدس. ويعود موقفه المتوازن نسبياً إلى محاولة التوفيق بين مؤيدي إسرائيل في الغرب، وبين مسيحيي فلسطين غير المنفصلين عن بقية الشعب الفلسطيني وبقية المسيحيين في الشرق الذين يقلقهم تعاطف الفاتيكان مع إسرائيل. هذا الحرج دفعه أثناء زيارته للنمسا في حزيران 1988 في مخاطبته اليهود إلى القول: لكل أمة حق في وطن بالقانون الدولي، وأن الحل للمشكلة الفلسطينية يكمن في تعايش الشعبين: الإسرائيلي والفلسطيني معاً، وأنه لن يتخلى عن رأيه هذا[2].

من الواضح أن التبدل التدريجي في مواقف الفاتيكان تجاه الصهيونية،

---

(1) Ibid, P161-162.

(2) Ibid, P163-164.

بدأ منذ المؤتمر المسكوني الثاني الذي أصدر وثيقة «تبرئة» اليهود من دم المسيح. ورغم التأخر الفاتيكاني بالاعتراف الدبلوماسي بإسرائيل، إلا أن كل الدلائل كانت توحي بأن المسألة مسألة وقت. فبمجرد أن يصرح البابا بحق إسرائيل في الوجود بحدود آمنة اعتراف ضمني سياسياً بها، حتى لو لم تقم علاقات دبلوماسية. وفي ذلك خروج على اللاهوت الكاثوليكي المتعارف عليه والمبني على ما جاء في إنجيل لوقا «ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم، وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمّل أزمنة الأمم» (لوقا 21/ 24)، وخروج عن العقيدة الكاثوليكية التي أسسها أوغسطين، وخروج عن معتقدات البابوات السابقين وتراثهم.

لا بد قبل الانتقال إلى اعتراف الفاتيكان رسمياً بإسرائيل، وتبادل التمثيل الدبلوماسي بين الدولتين، من الإشارة إلى العبث الإسرائيلي بالمقدسات المسيحية، وإلى مسلسل التراجعات في مواقف الفاتيكان عن مواقف سابقة، ومن ثم موقف الكنائس الشرقية في مواجهة الكنائس الغربية؛ وهي أمور بالغة الأهمية والخطورة، كان على البابا أن يأخذها بعين الاعتبار قبل الإقدام على الاعتراف الدبلوماسي التام بإسرائيل التي لم تستجب لمجمل أطروحاته وأطروحات من سبقه من البابوات، والأطروحات التي قامت على أساسها العقيدة الكاثوليكية.

العبث الإسرائيلي بالمقدسات المسيحية في الأراضي المقدسة

خلافاً للمعتقدات اللاهوتية لدى أكثر الطوائف البروتستانتية الغربية، ترى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة ليس تحقيقاً لنبوءات التوراة التي تمت قبل مجيء المسيح. أما بعد هذا المجيء، فإن الشعب اليهودي مثل كل شعب، يخضع للقوانين العامة التي تسوس تاريخ الأمم من غير تمييز، بما في ذلك الانتصارات والانكسارات العسكرية وإنشاء الدول أو فقدانها. وغزو اليهود المعاصر لفلسطين هو غزو قائم على القوة لا

على الحق والدين والوعود الإلهية. إن إنشاء إسرائيل الحديثة ليس من قبيل مضمون العقيدة المسيحية، ولا من قبيل أي التزام ديني، وإن ما تذهب إليه بعض الكنائس الغربية في الربط بين العهد القديم ودولة إسرائيل المعاصرة إنما هو خروج صريح على معنى الآيات المقدسة، وعلى مضمون الكتاب العقائدي، وعلى قواعد التفسير الكتابية. ومن الطريف أن نلاحظ أنه بينما يحاول هؤلاء المسيحيون الربط بين الكتاب المقدس ودولة إسرائيل، فإننا نجد أكثرية لا يستهان بها في إسرائيل لا تؤمن بالكتاب المقدس[1].

وهذا يعني أن اعتراف الفاتيكان بإسرائيل هو اعتراف سياسي مناف لجوهر المعتقدات اللاهوتية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، مغاير لتراث المعتقدات اللاهوتية السابقة. ومن ناحية ثانية، أقدمت إسرائيل على ضم القدس الشرقية القديمة (27/ 6/ 1967)، وأعلنت توحيد شطري المدينة واتخاذها عاصمة أبدية، رافضة بشكل قاطع اعتراضات الفاتيكان، وطروحات البابا الرامية إلى تدويل القدس وبقية الأماكن المسيحية المقدسة، ولم تكتف بذلك بل عمدت إلى إنشاء القدس الكبرى، وتغيير معالم المدينة المقدسة على نطاق واسع، وترحيل عدد وافر من سكانها المسلمين والمسيحيين والاستيلاء على ممتلكاتهم. ولقد اقتضى هذا التغيير العبث تكراراً بالأماكن المسيحية المقدسة، الأمر الذي جعل الفاتيكان تحجم عن الاعتراف بإسرائيل أسوة بالبابا شنودة الذي عارض اتفاقية كامب ديفيد، ولا يزال مصراً على عدم الاعتراف بإسرائيل من منطلق لاهوتي أصيل. ناهيك بالجوانب الإجرائية العبثية بالأوقاف المسيحية. ومن نافل القول أن المقدسات المسيحية بقيت مصانة ولها حرمتها، وكذلك الأوقاف منذ دخول عمر بن الخطاب إلى القدس عام 636م وإعطائه الأمان لأهلها، وتعهده لهم بصون أرواحهم وأموالهم وكنائسهم[2]، حتى نهاية حرب الأيام الستة عام 1967.

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص522 ـ 533.

(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص511.

غيض من فيض من الانتهاكات الإسرائيلية للمقدسات المسيحية ولرجال الدين

كانت بعض هذه الانتهاكات سابقة لإعلان قيام دولة إسرائيل، لكن أكثرها تم بعد قيام هذه الدولة، فمن الانتهاكات المتعمدة الأولى ما جرى في مدينة طبريا عند سقوطها بأيدي القوات الإسرائيلية بتاريخ 19/ 4/ 1947، حيث قامت تلك القوات بتدنيس كنائس المدينة وأديرتها بشهادة المحقق البلجيكي من قبل الأمم المتحدة الكابتن ف. مارشال (F.Marchal)، وقد تم ذلك التدنيس حسب تقريره بأمر المسئولين الإسرائيليين لترهيب سكان المدينة بغية دفعهم للنزوح عنها، وكان من جملة الهاربين القس الإنجيلي عبد اللّه صانع الذين قال بعد هربه: تمكنا من النزوح دون حدوث دير ياسين أخرى[1]. وهو يقصد نجاة السكان من مذبحة كالتي حدثت في دير ياسين. وعند سقوط يافا بأيدي القوات الإسرائيلية في 29/ 4/ 1947 قامت هذه القوات بتدنيس كنائسها وسرقة محتوياتها، ورمى بعض أفرادها تمثال المسيح في حديقة الكنيسة[2].

على أن ما حدث بعد قيام الدولة كان أكثر عدداً وتنوعاً، خاصة بعد توحيد القدس، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد تميزت الاعتداءات على الأماكن المسيحية المقدسة وعلى الطوائف المسيحية بالأمور التالية:

أ ـ الإزعاج بالتحقير للمقدسات، وبالضغوط الشديدة على رجالات الطوائف المسيحية الكبيرة لإجبارها على التنازل عن مساحات كبيرة من أراضيها وعقاراتها في القدس، سواء بالبيع المباشر أو الإجارة الطويلة الأجل، وبإرهاب رجال الدين والأفراد لحملهم على النزوح.

أ ـ فعلى صعيد الإزعاج والتحقير للمقدسات، فإن كنيسة القيامة، وهي أكبر

---

(1) Michael Palumbo, The Palestinan Catastrophe, London, Faber and Faber, 1987, P107.

(2) Ibid, PIbid, P91.

كنيسة مسيحية في القدس، كما تعتبر من أهم الكنائس في العالم، تعرضت خلال سبع سنوات بعد هيمنة إسرائيل على كامل القدس للحوادث التالية:

1 ـ سرقة تاج السيدة العذراء في أواخر عام 1967 من قبل بعض الإسرائيليين.

2 ـ تحطيم قناديل الزيت والشموع التي فوق القبر المقدس، في مدخل الكنيسة بتاريخ 24/ 3/ 1971 من قبل إسرائيلي أميركي.

3 ـ محاولة سرقة إكليل مرصع بالماس قائم قرب صليب الجلجلة داخل كنيسة القيامة من قبل ثلاثة إسرائيليين ليلاً، واعتداؤهم على راهب فرنسيسكاني، والتسبب بإلحاق ضرر بالغ به.

4 ـ تعرض دير الأقباط، ليلة عيد الفصح، في 25/ 4/ 1970 إلى اعتداء على ممتلكاته ورهبانه من قبل عدد كبير من رجال البوليس الإسرائيلي.

5 ـ إحراق بعض الإسرائيليين (6/ 2/ 1973) المركز الدولي للكتاب المقدس على جبل الزيتون.

6 ـ إحراق أربعة مراكز مسيحية في القدس بتاريخ 11/ 2/ 1974.

ب ـ وعلى صعيد استملاك إسرائيل عقارات الأديرة المسيحية بضغوط شديدة خسرت الأديرة المواقع الهامة التالية:

1 ـ أراضي أحياء المعلبة والقطمون وكرم الرهبان، وكلها أجرتها بطريركية الروم الأرثوذكس للسلطات الإسرائيلية لمدة 99 سنة. وقد أقيمت على هذه الأراضي أحياء يهودية متعددة، ومن المعلوم أن بطاركة هذه الطائفة من اليونان.

2 ـ مدرسة شنلر الألمانية، المعروفة باسم مدرسة الأيتام السورية، ومعها مساحة واسعة من الأرض والأبنية. وقد اضطرت الجمعية

الخيرية الألمانية التي تملكها إلى بيعها لسلطات الاحتلال بالتهديد والوعيد.

3 ـ أراضي الكنيسة الروسية البيضاء والمعروفة بالمسكوبية، وتضم مساحة واسعة من الأرض وعدداً من العمارات الضخمة، وجميعها تنازلت عنها الكنيسة الروسية البيضاء للسلطات الإسرائيلية تحت التهديد.

4 ـ أراضي وعقارات متعددة، من بينها عمارة فندق فاست العائدة ملكيتها لبطريركية الأرمن بالقدس. وقد باعتها للسلطات الإسرائيلية تحت التهديد.

جـ ـ على صعيد إرهاب رجال الدين المسيحي:

1 ـ اعتقال القس إيليا خوري، راعي الكنيسة الإنجيلية الأسقفية العربية في رام الله بتاريخ 2/ 3/ 1969، وتعرضه لتعذيب نفساني متواصل لمدة 45 يوماً ثم إبعاده إلى عمان بتاريخ 16/ 4/ 1969.

2 ـ اعتداء فوج من رجال الشرطة الإسرائيلية على رهبان دير الأقباط بالقدس بالضرب ليلة عيد الفصح بتاريخ 25/ 4/ 1970.

3 ـ اعتداء إسرائيليين بالضرب الشديد على المطران «فاسيلوس» الرجل الثاني في بطريركية الروم الأرثوذكس يوم 6/ 2/ 1973.

4 ـ اعتقال المطران الكاثوليكي إيلاريون كبوشي بتاريخ 8/ 8/ 1974، ثم الحكم عليه بتاريخ 9/ 12/ 1974 بالسجن لمدة 12 عاماً، وتم الإفراج عنه بعد تدخل الفاتيكان في 6/ 11/ 1977، وجرى إبعاده على الفور.

5 ـ تضييق الخناق على المسيحيين بالقدس، الأمر الذي دفع الآلاف منهم للنزوح[1].

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره، ص89 ـ 194.

أثارت هذه الاعتداءات رجال الدين المسيحي، وفي مقدمتهم القاصد الرسولي في القدس، رئيس الأساقفة بيولاغي (Arch Bishop pio Loghi) الذي صرح أن نزوح المسيحيين العرب من القدس، سيؤدي إلى نزوح المسيحية معهم. وقال رئيس أساقفة ألاسكا الكاثوليكي الأميركي جوزيف ريان (Joseph Royan) في محاضرة له بعنوان «آراء في القدس»، ألقاها في مجمع المطارنة بروما، سنة 1970، إنه إذا استمر نزوح هؤلاء المسيحيين العرب من القدس فلن يبقى فيها سوى المطارنة والقساوسة يقيمون ضمن كنائس تاريخية تتحول مع الزمن إلى متاحف. وفي بيان نشره رئيس الأساقفة المذكور، عقب زيارته للقدس، في عام 1972، وزعه على جميع مطارنة الكاثوليك في الولايات المتحدة الأميركية، ناشدهم فيه أن يهبوا مجتمعين ويناشدوا حكوماتهم التي تملك القوة والتأثير على إسرائيل، أن تضغط عليها لإيقاف الاعتداءات الإجرامية المتواصلة على القدس وعلى سكانها العرب، وخاصة على المقدسات المسيحية[1].

بيد أن هذه النداءات لم تلق أية استجابة أو اهتمام لإيقاف نزيف هجرة المسيحيين من الديار المقدسة التي فاقت هجرة إخوانهم من المسلمين. ومعظم المهاجرين المسيحيين هم من سكان القدس وبيت لحم ورام الله[2].

ومن المعروف أن الكثافة السكانية المسيحية هي في هذه المدن الثلاث، ومنذ الستينات وهجرة المسيحيين الفلسطينيين في تزايد مستمر لا سيما النخبة منهم[3]. وسياسة التهجير مبنية على الأيديولوجيا الصهيونية القائمة على احتلال الأرض وتفريغها من سكانها[4]، كما حدث لقريتي افرت وكفر برعم

---

(1) المصدر السابق، ص894.

(2) نبيل علقم ووليد ربيع، ظاهرة الهجرة في المجتمع الفلسطيني، لوس إنجلوس، باسايك برس، 1990، ص9.

(3) Naim Stıfan Ateek, A Palestıman Theology of Liberation, Justice and only Justıce, New York Orbis Booles, Marynoll, 1989, p59.

(4) للتوسع حول استراتيجية التهجير راجع:
Michael Palumbo, OP. Cit Prologue, P.VIII-XV III6 P.7-12.

ولسكان مدينة بيسان، وسكان القريتين المذكورتين من المسيحيين الكاثوليك.

لاجئون مسيحيون في وطنهم وإغضاء الفاتيكان عن محنتهم

لم تكن هاتان القريتان هما القريتين العربيتين الوحيدتين اللتين بقي سكانهما فيهما إبان الاحتلال الإسرائيلي لهما، وقيام السلطات الإسرائيلية باقتلاع هؤلاء السكان قسراً من قريتيهما بالمخادعة أولاً، وعدم السماح لهم بالعودة إليهما فيما بعد؛ فهناك المئات من القرى التي حدث لها ما حدث لهما. كان التركيز في اختيار هذين النموذجين لسببين: أولهما أنهما قريتان مسيحيتان، وسكان قرية أقرت كلهم من الكاثوليك، وسكان كفر برعم أكثريتهم موارنة وأقليتهم من الكاثوليك. وكلتا الطائفتين خاضعتان للفاتيكان الذي لم يحرك ساكناً للضغط على إسرائيل لإعادة سكانهما إلى بلدتيهما، ولم يخطر بالبال عند الاعتراف الرسمي بإسرائيل إثارة هذا الأمر، رغم نداءات سكانهما، وثانيهما للتدليل على أن إسرائيل لا تميز في اقتلاعها للفلسطينيين بين مسيحيين ومسلمين، فهي تريد الأرض خالية من السكان. ففي بيسان التي تضم مسيحيين ومسلمين، تم بالمخادعة إخلاء سكانها منها وأصبحوا كسكان أقرث وكفر برعم لاجئين في وطنهم!

اجتاحت القوات الإسرائيلية هاتين القريتين دون أية مقاومة بتاريخ 31/ 10/ 1948، وتم إخلاء سكان أقرث بالمخادعة لقاء وعد قاطع بالعودة، بذريعة أمنية كإجراء موقت، وجرى نقلهم إلى بلدة الرامة، إلى مخيم بجوارها بتاريخ 5/ 1/ 1948، وحصل الأمر نفسه لسكان قرية كفر برعم الذين جرى ترحيلهم القسري إلى قرية الجش في 5/ 11/ 1948 ليصبحوا لاجئين في وطنهم.

ولما يئس سكان القريتين من المماطلة، تقدم سكان قرية أقرث إلى المحكمة العليا بشكوى ضد وزير الدفاع والحاكم العسكري طالبين إعادتهم إلى بيوتهم وممتلكاتهم. وفي 31/ 7/ 1951 قررت تلك المحكمة أنه لا يوجد مانع قانوني من إعادة القرويين ـ وليس اللاجئين ـ الذين يحملون جنسية إسرائيلية إلى أراضيهم. وأضافت المحكمة أن أراضي أقرث لا تعتبر متروكة، «ولذا لا يمكن

وضعها تحت تصرف القيّم على أموال وأملاك العدو» مثل ما جرى في قرى عربية أخرى. بيد أن قرار المحكمة لم ينفذ، مما اضطر السكان إلى التقدم باستئناف إلى لجنة الاستئناف التي صادقت على أوامر الطرد بحسب أنظمة مناطق الأمن. ولقطع الأمر بإعادتهم، أقدم الجيش الإسرائيلي في 25/ 12/ 1951 على نسف جميع مباني القرية. وفي 6/ 2/ 1952 نظرت المحكمة العليا في شكوى جديدة، توجه بها إليها سكان القرية، ولم يحصلوا على أية نتيجة.

وفعل سكان كفر برعم المهجرون الشيء نفسه بتقديم شكوى إلى المحكمة العليا، فأصدرت هذه المحكمة في أوائل أيلول 1953 أمراً تمهيدياً يجبر السلطات على إبداء الأسباب التي تمنع سكان القرية من العودة إليها. عندئذ قامت القوات الإسرائيلية في 16/ 9/ 1953 بتدمير القرية. وقد تم تقسيم أراضيها بين كيبوتس برعام وموشاف دوفيف. وتمت مصادرة أراضي كفر برعم في 27/ 8/ 1953 وأراضي أقرث في 3/ 1953، ولم تترك مراجعة المطران حكيم ـ البطريرك مكسيموس الخامس حكيم فيما بعد ـ بشأن ما حل بالقريتين، أي صدى.

جدد سكان القريتين مساعيهم للعودة إلى قريتيهما عام 1972، وحاولوا الاعتصام فيهما، إلا أنه تم إخراجهم بالقوة. وفي 23/ 8/ 1972 قاد المطران يوسف ريّا مظاهرة احتجاجية أمام مبنى رئاسة الحكومة الإسرائيلية في القدس، غير أن موقف الحكومة لم يتزحزح، الأمر الذي دعا المطران ريا لعرض قضية القريتين على الڤاتيكان طالبا التدخل للضغط من أجل العودة، غير أن إسرائيل عارضت مثل هذا التدخل، ولا يزال أهل أقرث يعتصمون ويراجعون حتى الوقت الحاضر دون طائل[1]. وما حدث لسكان

---

(1) للتوسع حول قضيتي أقرث وكفر برعم وبيسان راجع:
الموسوعة الفلسطينية القسم الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص276 ـ 278.
مجلة الحوادث، 19/ 4/ 1996، ص5. جريدة الوطن، لوس أنجلوس 6/ 2/ 1996.
Micheal Palumbo, OP. Cit.
صبري جريس، العرب في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص143، 160 ـ 162.

القريتين حدث لسكان بيسان الذين أصبح بعضهم لاجئاً في وطنه[1].

اعتراف الفاتيكان رسمياً بإسرائيل وصداه

بدأت كل المؤشرات توحي باعتزام الفاتيكان الاعتراف الرسمي بإسرائيل بدءاً من عام 1965 حين أصدر المجمع المسكوني الفاتيكاني وثيقة «التبرئة»، وما أعقب ذلك من لقاءات رسمية متكررة بين مسؤولين إسرائيليين ومسؤولين على مختلف المستويات في الفاتيكان. وبدا ذلك واضحاً من مسلسل التراجعات الفاتيكانية عن مواقف سابقة لاهوتية وسياسية، فمن معارضة المشروع الصهيوني برمته في إقامة دولة يهودية في فلسطين، إلى العزوف عن هذه المعارضة. ومن المطالبة بتدويل الأماكن المسيحية المقدسة، والمطالبة بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، وإعطاء الشعب الفلسطيني الحق في تقرير مصيره، والمطالبة بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالقضية الفلسطينية، إلى التنازل الكلي عن هذه المطالب والاعتراف الرسمي المجاني الذي أقدم عليه البابا يوحنا بولس الثاني في 31/ 12/ 1193[2]، بدولة إسرائيل من دون أخذ أي اعتبار لحقوق حتى المسيحيين المشردين، أو لممارسات الإسرائيليين في مضايقة رجال الدين المسيحيين واغتصاب أوقاف الكنائس والأديرة بالإكراه، ومن دون أي اعتبار للمارسات الإسرائيلية القمعية المستمرة في الضفة والقطاع، دون أي اعتبار لتمرد إسرائيل على قرارات الأمم المتحدة. وباعتراف الفاتيكان الرسمي بإسرائيل خروج على اللاهوت الكاثوليكي الذي وضعه أوغسطين. وهذا يعني بوضوح أن الاعتراف بإسرائيل ضرب سياسي محض، وليس له أي سند لاهوتي.

أبعاد الاعتراف الفاتيكاني بإسرائيل

بدأ استياء الكنائس الشرقية من مواقف الفاتيكان منذ صدور وثيقة

---

(1) Naim Stifan Ateek, OP. Cit, P7-12.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص489 ـ 490.

(2) Los Angeles Times, 31/12/1993.

«التبرئة» عام 1965، رغم محاولات التهدئة والتطمينات بأن الوثيقة لا تحمل طابعاً سياسياً بل دينياً، وأنها لن تشكل اعترافاً سياسياً بإسرائيل.

على أن الامتعاض والتململ بين مسيحيي فلسطين من مواقف الڤاتيكان يعودان إلى بداية الخمسينات عند إصرار إسرائيل على عدم السماح لسكان قريتي أفرث وكفر برعم بالعودة، وعدم استجابة الڤاتيكان لمطلب المطرانين حكيم وريا بشأن هذه العودة، ما حدا المطران ريا إلى تقديم رسالة احتجاجية، عام 1974 إلى غولدا مائير، رئيسة وزراء إسرايل آنذاك، تضمنت اتهام إسرايل بسوء معاملة اللاجئين الفلسطينيين المسيحيين، وسوء معاملة العرب عامة، وانتفاء أية عدالة أو ديمقراطية أو حرية في التعامل مع الفلسطينيين. وبسبب مناصرته لسكان أفرث وكفر برعم وبسبب انتقاداته لممارسات إسرائيل، قوبلت مناصرته وانتقاداته بضغوط شديدة عديدة دفعته إلى الاستقالة ومبارحة فلسطين[1]. هذا ولم يكن المطران ريا الوحيد بين رجال الدين المسيحيين الذي طالب بالعدالة واحترام حقوق الإنسان العربي الفلسطيني، واستنكر الممارسات الإسرائيلية، فلقد حذا حذوه بعض رجال الدين الفلسطينيين المسيحيين.

وعلى صعيد شعبي، كان استياء عام بسبب اعتراف الڤاتيكان بإسرائيل، لا سيما في أوساط الشباب، الذين دأبوا على مطالبة الكنيسة بلعب دور سياسي قيادي في مواجهة الممارسات الإسرائيلية، وما لم تفعل ذلك فإنها ستكون في موضع شك وارتياب في أوساط الشباب المسيحي[2].

لقد بات في منظور المسيحيين بالشرق الأوسط عامة وفي فلسطين خاصة، أن التأويل المسيحي الغربي المرتكز على أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة كان تحقيقاً لنبوءات، تأويل تعسفي لا صحة له. وكان التأويل هذا

---

(1) Naim Istifan Ateek, OP. Cit, P58.

(2) Ibid, P59-62.

باعثاً على زعزعة الإيمان بشكل عام، لأنه في هذا المنظور تسخير للمسيحية سياسياً، وفي هذا التأويل أصبح الله يبدو وكأنه منحاز لإسرائيل[1].

وفي حين بدأ تراجع الفاتيكان لاهوتياً وسياسياً عن المواقف الأولية السابقة، وبدا الاقتراب، إلى حد ما، من جماعات الصهيونية المسيحية البروتستانتية، بقيت الطوائف المسيحية المشرقية عامة لاهوتياً وسياسياً، على مواقفها السابقة تجاه الصهيونية وتجاه إسرائيل رافضة تسخير الدين للأهواء السياسية. وفي مطلع الستينات زار الشرق الأوسط هوارد جونسون، كاهن كاتدرائية القديس يوحنا في نيويرك، وانتقد بشدة كتاب الصلوات المعمول به باللغة العربية لدى الطائفة الإنكليكانية العربية لخلوه من كل مزمور ترد فيه كلمة إسرائيل، ووصف هذا الإجراء بأنه مُخزٍ. وفي هذا السياق، اعتبر بول فان بيورن (Paul van Buren) أنه لا فارق بين إسرائيل التوراة وإسرائيل المعاصرة، وذهب في مزاعمه إلى أن الله وقف إلى جانب الصهاينة في حرب عام 1948، تماماً كما وقف الله من قبل إلى جانب يشوع بن نون. وفي منظوره أن إسرائيل المعاصرة هي استمرار لإسرائيل التوراتية. ويذهب إلى أبعد من ذلك بنفيه العدالة عن الله بتأكيده مباركة الله لليهود حتى في ظلمهم، وفي تصوره أنهم ينفذون إرادة الله بإنشاء دولة إسرائيل[2]. ولقد غاب عن باله أن إسرائيل المعاصرة لم تنشأ بإرادة سماوية، ولكنها نشأت بقوة السلاح وبدعم الغرب المسيحي لها لمصالحه، وأن منظري الصهيونية اعتمدوا في مشروعهم على القوة المادية الأرضية وليس على القوة الإلٰهية، صمموا على «الخلاص» بأنفسهم متخلين عن مجيء المسيا المخلص.

الكنائس الشرقية في واد والكنائس الغربية في واد آخر

لاحظت الكنائس الشرقية تعاظم جنوح الصهيونية المسيحية في تأييدها

(1) Ibid, P77-79.

(2) Ibid, P62-63.

المطلق لإسرائيل، وفي تبريرها لكل ممارساتها الدموية، وعدوانيتها المستمرة، استناداً لتأويلات توراتية تعسفية لا تنطبق إطلاقاً على إسرائيل المعاصرة. ورداً على هذا التأييد السياسي المبني على تسخير الدين للأهواء، وانطلاقاً من قناعة هذه الكنائس اللاهوتية الصرفة، أصدرت هذه الكنائس دراسات رداً على مؤتمري الصهيونية/ المسيحية، اللذين انعقدا عامي1985 و1988. ومما جاء في خاتمة كتيب «الحرب بين الكنائس الأميركية والعربية»: «أخذت اللجنة التنفيذية لمجلس الشرق الأوسط للكنائس علماً بعقد «مؤتمر القيادة الصهيونية المسيحية الدولية» في بال ـ سويسراً، آب 1985.

ولما كنا نعي المسؤوليات الملقاة على عواتقنا حيال الطوائف المسيحية والرأي العام العالمي، فإننا نؤكد أن لهذا الاجتماع صفة سياسية مفضوحة على الرغم من الإشارات الدينية الكثيرة.

إننا ندين استغلال التوراة واستثمار المشاعر الدينية في محاولة لإضفاء صبغة قدسية على إنشاء دولة (إسرائيل)، ولدمغ سياسة إحدى الحكومات بدمغة شرعية.

ولا حاجة إلى القول إن أي جماعة لا تستطيع التحدث نيابة عن مسيحيي الشرق الأوسط إلا كنائس هذه المنطقة. ولما كان مؤتمر بال قد حاول ذلك، فإنه يتعين علينا أن نرفض علناً مقرراته وتوصياته. . . وإننا بصفتنا اللجنة التنفيذية للمجلس، نأمر الأمين العام أن ينقل رأينا إلى الكنائس والهيئات المسيحية والمنظمات الأخرى في العالم، وأن يوزِّع المواد اللاهوتية التي تعرب عن رأي الكنائس في الشرق الأوسط»[1].

وفي رد آخر لمجلس كنائس الشرق الأوسط على الصهيونيين المسيحيين بالغرب، جاء فيه «ما زال مجلس كنائس الشرق الأوسط ينظر بقلق إلى برامج المسيحيين الأصوليين الغربيين الذين يسمون أنفسهم «صهيونيين

---

(1) الحرب بين الكنائس الأميركية والعربية، مصدر سبق ذكره، ص99 ـ 100.

مسيحيين». ومن أشد دواعي القلق «السفارة المسيحية الدولية بالقدس»، وهي مؤسسة أعلنت نفسها «صهيونية مسيحية»، ولها رؤية دولية لتشكيل هذا المذهب. وقد ساقت مؤتمرات «السفارة المسيحية» وندواتها الإيمان المسيحي وتفسير الكتاب المقدس إلى حال التبعية لسياسات دولة إسرائيل الحديثة وللأيديولوجية السياسية التي تعتنقها الصهيونية التصحيحية... لذلك فنحن نحث كل المسيحيين المعنيين على أن ينضموا إلينا في إطراح ظاهرة «الصهيونية المسيحية» ورفضها رفضاً قاطعاً باعتبارها تمثل بدعة في تفسير الكتاب المقدس، بدعة هي في الحقيقة معادية لوجود الكنائس المسيحية في الشرق الأوسط ولشهادتها...»[1]. وفي هذا الاتجاه ظهرت كتب عديدة في الشرق الأوسط منها لرجال دين مسيحيين، وأخرى لعلمانيين[2].

وفي حين كانت جماعات الصهيونية المسيحية تبرر أعمال القهر والقتل والتعذيب التي تمارسها السلطات الإسرائيلية بحق أطفال «الانتفاضة»، وتبارك تلك الأعمال معتبرة إياها تجسيداً لمشيئة سماوية، كان على النقيض من ذلك موقف القيادات المسيحية لرؤساء الكنائس في فلسطين الذين أصدروا بياناً بتاريخ 22/ 1/ 1988، جاء فيه: الحوادث المؤلمة بأرضنا التي نتج عنها ضحايا من قتلى وجرحى، إشارة واضحة عن المعاناة المؤلمة لشعبنا في الضفة والقطاع، إنها تعبير واضح لطموحات شعبنا في الوصول إلى حقوقه المشروعة وتحقيق آماله.

نحن رؤساء الطوائف المسيحية بالقدس نود بكل أمانة التعبير بوضوح أننا نقف مع الحق والعدل ضد كل أشكال الظلم والقمع. نقف مع المظلومين

(1) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية؟ نشرة صادرة عن مجلس كنائس الشرق الأوسط، نقلها إلى العربية، حسين زينة، بيروت 1991، ص3، 7.

(2) القس أكرم لمعي، الاختراق الصهيوني للمسيحية، فيصل السماك، الصهيونية المسيحية يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأميركية تجاه الصراع العربي/ الصهيوني، شفيق مقار، المسيحية والتوراة.

والمتعبين، نقف مع اللاجئين ومع المبعدين. نقف مع المحزونين ومع ضحايا الظلم، نقف مع النائحين والمحرومين، نقف مع الجياع والفقراء تمشياً مع كلمة الله التي عبّر عنها النبي إشعيا (1: 17)، ولقد منعت السلطات الإسرائيلية نشر هذا البيان، كما أنها زادت من عمليات القمع، دون أي تنديد غربي من المراجع الكهنوتية[1].

وفي منطقة الجليل بشمالي فلسطين سعت السلطات الإسرائيلية لتهويد هذه المنطقة، ذات الأكثرية العربية بالاستيلاء على الأراضي العربية بالإكراه حيناً وبالإغراء حيناً آخر. إلا أن عملية الإغراء وجدت صدوداً لدى الأهلين، بينما لقيت تجاوباً في شراء أراضي الأوقاف المسيحية من القيمين عليها، الأمر الذي أثار سخط العرب المسيحيين، ومعظم رجال الدين المسيحيين في تلك المنطقة. ولقد عبّروا عن سخطهم بالمظاهرات والبيانات وبمراجعات الاحتجاج لمسؤولي الفاتيكان، وبتقديم دعاوى قضائية لدى المحاكم الإسرائيلية، وبكتابة المقالات الساخطة. وفي مقال للمدعو يوسف أبو رحمون قال فيه: «. . . ولا أظن شيئاً ما سيتغير لأن الجالسين في روما لن يهمهم قضايا العرب في هذه الديار. . .»[2]. وفي مقال آخر للأستاذ نعيم مخول بعنوان: «رسالة مفتوحة للمطران مكسيموس سلوم»، مطران حيفا وسائر الجليل للروم الكاثوليك، والمتهم ببيع الأوقاف، جاء فيه: «أتوسل إليك. . . أرجوك أن تكون جريئاً. . . وأعطنا عرض كتفيك. . . ورافقتك السلامة إلى الحزام الأمني اللبناني. . إلى يارون»[3]. ويارون قرية في جنوب لبنان هي مسقط رأس المطران سلوم الذي لم تلقَ شكاوى أبرشيته من كهنة وعلمانيين عليه للفاتيكان أية استجابة.

وأعاد أبناء هذه الأبرشية الكرة بتوجيههم كتاباً مفتوحاً على صفحة كاملة

---

(1) Naim Istfan Ateek, OP. Cıt P136-137.

(2) يوسف أبو رحمون، مجلة الحكمة، حيفا 1992، ص7 ـ عددت 2 ـ ك1.

(3) المصدر السابق، ص20.

من جريدة الصنارة الصادرة في الناصرة بتاريخ 31/ 1/ 1992 إلى البابا يوحنا بولس الثاني وإلى البطريرك مكسيموس الخامس حكيم طالبوا فيه بإلغاء اتفاقيات بيع الأوقاف أو تأجيرها، بيد أن هذه المطالبة لم تلق استجابة أيضاً[1]. وقد دفعت عدم الاستجابة «جمعية أبرشية الجليل للروم الكاثوليك إلى إقامة دعوى قضائية لدى المحكمة الإسرائيلية المركزية بحيفا للجم عمليات البيع والتأجير، غير أن المحكمة لم تأخذ بمطلب تلك الجمعية. وفيما يختص بالطائفة الأرثوذكسية العربية الفلسطينية حدث الشيء نفسه بالنسبة للأوقاف. وهذا ما دعا «لجنة المبادرة الأرثوذكسية العربية» بالقدس إلى إصدار بيان استهجان لتصرف البطريرك اليوناني بالأوقاف، لقد استهجنت تلك اللجنة في بيانها الصادر بتاريخ 23/ 7/ 1992 «الموقف غير المسؤول لبطريركية القدس الأرثوذكسية التي لم تعمل جهدها لحماية المقدسات الأرثوذكسية من التدمير والمصادرة. . .». واتهمت من خلال مؤتمر صحفي عقدته يوم الثلاثاء في 8/ 9/ 1992 بالقدس، البطاركة اليونان بالتحكم في البطريركية، واستبعاد أي دور للعرب فيها، وأن البطاركة يهملون ويتجاهلون أوضاع أبناء طائفتهم. كما اتهمت لجنة المبادرة البطريركية بتسريب عقارات وأملاك «لجهات معادية»، وأضافت إلى أن الأمر «أصبح يهدد بالفعل وجود الطائفة على ترابنا الوطني الفلسطيني»[2]. وفي الجليل كما في القدس، توجه موحد لغاية واحدة هي الحفاظ على الأوقاف «إن توجه أبناء أبرشية الروم الكاثوليك في الجليل إلى المحاكم، وتوجه أبناء الكنيسة الأرثوذكسية في القدس إلى الإعلام للمطالبة بالحفاظ على أوقاف الكنائس وممتلكاتها من التسريب والبيع والضياع، هو أمر في غاية الخطورة. . .»[3].

تتضح من ذلك حقيقة لا غبار عليها، هي التباين الكلي بين المسيحية

(1) المصدر السابق، عدد شباط ـ آذار 1992، ص19.
(2) المصدر السابق، العدد الأول، أيلول 1992، ص3.
(3) المصدر السابق، ص9.

الغربية والمسيحية الشرقية تجاه القضية الفلسطينية. فالكنائس الغربية تحكم السياسات الرسمية مواقفها السياسية لا البعد اللاهوتي، بينما الكنائس الشرقية تحكم مواقفها السياسية الأبعاد اللاهوتية والقومية، وهكذا كما في السياسة كذلك في الدين، الشرق شرق، والغرب غرب لا يلتقيان مهما جرت محاولات للتقارب والتقريب.

لم يكن مستبعداً أن يتم اعتراف الفاتيكان ـ ما دام الأمر كذلك ـ بإسرائيل على الرغم من تذمر أبناء الشعب الفلسطيني المسيحي بسبب تبدل مواقف الفاتيكان تجاه إسرائيل، وصولاً إلى الاعتراف الرسمي الدبلوماسي بها، ومما يزيد في هذا التذمر صمت الفاتيكان عن الممارسات الإسرائيلية القمعية، وصمتها عن تدنيس المقدسات المسيحية وإهانة رجال الدين المسيحيين، وصمتها عن ضياع الأوقاف، رغم المراجعات والاحتجاجات.

إن اعتراف الفاتيكان بإسرائيل يتسبب بتسليط الشكوك على المسيحيين الفلسطينيين في مواقفهم القومية والوطنية، ويؤدي ذلك إلى إحراجهم وحملهم على الهجرة كما حصل ويحصل باستمرار، خاصة عند تسرب الأوقاف إلى اليهود، دون وضع الفاتيكان حداً لهذا التسرب، رغم المراجعات والاحتجاجات المتواصلة. وإذا ما استمرت هجرة المسيحيين من الديار المقدسة على ما هي الحال عليه، فمعنى هذا أن المسيحية ستغيب عن مهد مولدها.

لقد عبّر البابا القبطي شنوده من منطلق لاهوتي عن رأيه الصريح بشأن مواقف الفاتيكان المستجدة، على صفحات مجلة المصور بقوله: «إن الاتفاق الأخير (اعتراف الفاتيكان بإسرائيل) بين الفاتيكان وإسرائيل ليس مصالحة بين اليهودية والمسيحية. . . فالفاتيكان دولة وليس مجرد كنيسة، كما أن البابا لا يمثل سوى الكنيسة الكاثوليكية. فما تبقى كل الكنائس الأرثوذكسية والبروتستانتية والإنجيلية خارج هذه السياسة، ولا علاقة لنا بها. . . أما نحن فبيننا وبين اليهود خلافات معروفة. . . إذا أراد اليهود أن يتبرأوا من دم المسيح، فعليهم أن يؤمنوا به. . . لأنهم قالوا قديماً عنه، إنه ضال ومضل، ثم

تآمروا جميعاً ضده، وأسلموه إلى الوالي الروماني ليقتل». وتساءل قائلاً: «كيف يبرأ اليهود من دم المسيح وهم لا يؤمنون أن المسيح قد جاء وينتظرون مسيحاً آخر من نوع شمشون الجبار يكون قائداً عسكرياً لخلاصهم السياسي»[1].

وإذا كان البابا بولس السادس قد جاء بنفسه حاجاً إلى القدس، وأن البابا يوحنا بولس الثاني يعتزم القيام بحج مماثل، فإن البابا شنودة أفتى بعدم جواز الحج المسيحي إلى القدس[2]، بناء على قناعات لاهوتية وعزوفاً منه عن عدم تسخير الدين للسياسة، كما أن شيخ الأزهر جاد الحق علي جاد الحق انتقد خطوة البابا يوحنا بولس الثاني في اعترافه بدولة إسرائيل، واتهم الفاتيكان بمجافاة العدل وعدم التزام الحياد، وقال: «بلغ علمي أن الطوائف غير الكاثوليكية تخالف هذا القرار»، وأعرب عن أسفه لكون الفاتيكان «اشترى رضا إسرائيل بغضب هذا الجمع الحاشد من شعوب الشرق أجمع على اختلاف عقائدها، ولم يعلن أن اعترافه بها ينحصر داخل حدودها وفقاً لقرارات الأمم المتحدة»، واعتبر أن خطوة الفاتيكان تعني: أنه لم يعد يصر على تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشأن القدس وقدسيتها لدى الأديان الثلاثة، ويعني التسليم بالأمر الواقع لإسرائيل، سواء بالنسبة لعمليات التهويد أو تغيير المعالم الجغرافية، وختم تصريحه بقوله: «الأمل ما زال يحدونا، ويحدو أهل الشرق جميعاً، ومعهم المتعاطفون من أهل الغرب في أن يداوي الفاتيكان هذا الجرح»[3]. وفي تعليق للعلامة محمد حسين فضل الله، قال فيه: «لو اعترف المسلمون بإسرائيل عليه (أي البابا) ألاّ يعترف هو بها، لأن الدين يجسّد القيم لا الواقع، والاعتراف بإسرائيل ليس الهدية التي يمكن أن تقدم للبنانيين الذين

---

(1) جريدة أنباء العرب، لوس أنجلوس عدد 94 بتاريخ 10/ 2/ 1994 نقلاً عن مجلة المصور ـ مجلة المجلة، العدد 727، لندن 16 ـ 22/ 19941.

(2) المصدر السابق نفسه.

(3) المصدر السابق نفسه.

يدمرون كل يوم من جانب إسرائيل ولا تزال أرضهم محتلة»[1].

لم يكن اعتراف الفاتيان بإسرائيل غير متوقع، ولقد سبق الاعتراف سلسلة من التمهيدات المومئة بتلك الخطوة في ظرف مناسب. كانت الإشارة الرئيسية الوثيقة الفاتيكانية الصادرة عن اللجنة الفاتيكانية للعلاقات مع اليهودية بتاريخ 25/ 6/ 1985. وتحمل هذه الوثيقة إعلان قرار فاتيكاني خطير بشأن تعليم تاريخ اليهود ودينهم في المواعظ والتعاليم المسيحية. وتؤكد الوثيقة أن المطلوب هو مجهود تربوي يستأصل من نفوس المسيحيين الكاثوليك أي أثر للعنصرية من شأنه تشجيع المعاداة للسامية التي هي في حالة استعداد للظهور بأشكال مختلفة. وتحمل الوثيقة اتهاماً واضحاً للمسيحيين بالعداء لليهود وبالعنصرية والجهل إذ يقول النص: «لا يتوقف الأمر فقط على استئصال رواسب العداء للسامية، هذا العداء الذي ما زال قائماً إلى الآن في نفوس المسيحيين الكاثوليك، بل أن يضمن لهم أيضاً من خلال مجهود تربوي، فهماً صحيحاً للعلاقات الفريدة التي تربطنا بها كنيستنا بالعبرانيين والعبرية»[2].

وتقول هذه الوثيقة أيضاً: «إن المسيح كان عبرانياً وسيكون كذلك دائماً». وتدعو كاثوليك العالم «ليفهموا تمسك اليهود الديني بأرض أسلافهم». ويبرر واضعو الوثيقة «مهمتهم» بقولهم: «إنها ولدت من اهتمام رعوي أسقفي وبسبب حالة التهديد بالعداء للسامية. . .».

يشعر قارىء الوثيقة أن واضعيها هم يهود روحيا وهدفا، كما يشعر أنها مؤامرة لتحويل المسيحيين بواسطة كهنتهم لخدمة أغراض اليهودية العالمية، هي مؤامرة ناجحة وفي حالة تقدم خطير، وأن خطرها سيطال العالم كله على حساب المسيح والدين المسيحي وأرواح جميع الذين استشهدوا في سبيل هذا الدين وهذه القيم في مدى ألفي سنة[3].

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) من يوسف الياس ضاهر إلى قداسة البابا، مجموعة رسائل صادرة في بوانس أيرس في 26/ 6/ 1985، دون ذكر لدار النشر، ص1.

(3) المصدر السابق، ص2.

مناقشة مضمون الوثيقة

تؤكد المسيحية من خلال العهد الجديد (الأناجيل والرسائل)، ومن خلال التراث الكاثوليكي اللاهوتي، أن الفاتيكان بإصداره وثيقة «التبرئة» قد ناقض العهد الجديد والتراث الكاثوليكي. ومن المسلمات أن اليهود في غالبيتهم الساحقة، شبه المطلقة، لم يعترفوا بالمسيح ولا بتعاليمه، وأنهم لا يزالون ينتظرون مجيء مسيحهم «المسيا». وهم الذين أصروا على صلب الناصري وكان لهم ما أرادوا. «فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» (متى 27/ 25).

لقد كانت المسيحية انتفاضة على تحجر اليهودية وعلى الأخذ بحرفية «الناموس» الذي يصفه بولس باللعنة «المسيح افتدانا من لعنة الناموس» (رسالة بولس إلى أهل غلاطية 3/ 13). وتتجاهل وثيقة التبرئة الدعوة المسيحية التجريدية مما وصفه المسيح بقوله: «باطلاً يعبدونني وهم يعملون تعاليم هي وصايا الناس» (متى 15/ 9)، وأن «جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص» (يوحنا 10/ 8)، وأن «الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع صارا» (يوحنا 1/ 17).

تتجاهل «الوثيقة» الفرق بين القديم والجديد بتسيسها الدين. فتنص على أن ما هو حاصل إنما هو «انفصام بين الكنيسة وجماعة العبرانيين لسبب أن أكثرية الشعب العبراني وسلطاته لم يؤمنوا بالمسيح»... ثم تشفع الوثيقة لليهود فتقول: «إنه لا يجوز أن يحسب شأن اليهود اليوم كشأن الذين عرفوا المسيح ولم يؤمنوا به». تم تحاول أن تجد نقطة لقاء مع اليهودية، فتعترف بوجهات النظر المختلفة، غير أنهما يتجهان نحو أهداف متماثلة ومتمركزة في مجيء المسيح (لليهود) أو عودة المسيح (للمسيحيين) باعتبار أنه هو المسيح نفسه للفريقين. وتتابع: «إنه من الضروري أن نتقدم لحمل مسؤولية تهيئة العالم لذلك الحضور المنقذ». إننا في هذا الرد السريع سوف لا نتمكن من تقديم الشروح والمستندات حول كل الأسس المختلفة الواهية التي يبررون بها

ضلوعهم بمثل هذه الوثيقة الخطيرة وحول ضخامة الشر في الأهداف التي ينطلق اليهود من خلال الوثيقة إليها. ولكننا دون شك، سنؤكد بالبرهان الكافي أن الوثيقة الفاتيكانية هذه هي غير صالحة لتصدر عن مقام لجنة فاتيكانية، أو عن رجال دين متمسكين بدينهم ويحترمون أنفسهم، إنها منصوصة بفكر وروح وعاطفة تحرص على مصلحة اليهود أكثر من حرصها على حقيقة الدين المسيحي وكرامة المسيحيين وتاريخهم وتراثهم الروحي. . . إنها وثيقة باطلة ومريبة الأهداف، فيجب إعلانها من قبل الكنيسة باطلة ويجب حرمان واضعيها[1].

من الواضح أن المواقف الفاتيكانية المستجدة في النصف الثاني من القرن العشرين، من «وثيقة التبرئة» إلى «وثيقة 25/ 6/ 1985» إلى الاعتراف الفاتيكاني الدبلوماسي بإسرائيل المعاصرة، هي مواقف سياسية أُلبست مسوحا لاهوتية. وهي تتلاقى، إلى حد بعيد، مع مواقف الصهيونية المسيحية عند أكثرية الطوائف البروتستانتية الغربية بمختلف تشعباتها، والتي سبق للفاتيكان شجبها من منطلق لاهوتي. ومن المتفق عليه أن المسيح والمسيحية ـ كما يقول يوسف الياس ضاهر ـ ليسا للفاتيكان وحده ولا للصهيونية المسيحية وحدها، أو لبعض رجال الكنيسة، أو لبعض المسيحيين ليتصرفوا بعظيم تراثها سياسياً وكيفما شاءوا أو كما يشاء اليهود. ومن المسلم به أن مسيح المسيحيين هو تماماً غير مسيح اليهود المنتظر، وأن المسيح ليس عبرانياً كما تذكر «الوثيقة» بشهادة السيد المسيح نفسه الذي قال: «فإذا كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه» (متى 22/ 45)، وبشهادة ما قاله اليهود أنفسهم بالمسيح: «لعلّ المسيح من الجليل يأتي. ألم يقل الكتاب أنه من نسل داود يأتي المسيح» (يوحنا 7/ 41 ـ 42)، «فتش وانظر أنه لم يقم نبي من الجليل» (يوحنا 7/ 52)، «أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح» (يوحنا 1/ 46)، «ألسنا

(1) المصدر السابق، ص3.

نقول حسناً إنك سامري وبك شيطان» (يوحنا 8/ 48). هذا لا يعني بالتأكيد أنه سامري، ولكن يؤكدون التباس أنه لم يكن عبرانياً. وشهادة لغته الآرامية وليس العبرانية (حسب بيانات عديدة من قبل الفاتيكان) وشهادة عبارته للإله أيل وليس ليهوه إله اليهود «إيلي إيلي لماذا شبقتني» (متى 27/ 46)، وشهادة محاولة اليهود القضاء عليه وهو لما يزل طفلاً (متى 2/ 16)، وشهادة اعتماده للطقوس الكنعانية التي كان يمارسها كاهن الله العلي ملكي صادق (تكوين 14/ 18 ـ 19).

إن الإيمان المسيحي يقول إن المسيح هو ابن الله، إنه أحد الأقانيم التي يتكون منها الله سبحانه وتعالى. والقول الآن بأنه عبراني يوجد ازدواجية في الإيمان ويناقض الإيمان المسيحي في شأن طبيعة المسيح بالذات، فإما أنه روح الله أو أنه ابن يوسف النجار. إما أن تكون أمه مريم العذراء، أو أنها ليست كذلك. هذا مع العلم أن واضعي الوثيقة لا يمكنهم إثبات عبرانية يوسف إلا إذا اعتمدوا على سياسة مار متى ومار لوقا، هذه السياسة التي لا يوجد شيء تاريخي حقيقي يسندها... وأما مريم العذراء، مريم بنت عمران فهي في مأمن من التلفيق.. إنها ازدواجية تؤدي إلى أمرين: إلى وضع الإسفين في الإيمان المسيحي من جهة، ومن جهة ثانية تساعد اليهود ليصلوا إلى التسلط على المسيحيين، وهذا ما بدأوا يعملون له منذ اللحظة الأولى التي فاتهم فيها القضاء على السيد المسيح[1].

«الوثيقة» تعطف على اليهود وتريد حمايتهم ولو على حساب الحقائق والقيم، محاولة استدرار العطف والتخويف في آن واحد في العبارة التالية: «تذكروا أن المسيح كان وسيكون عبرانياً إلى الأبد». وهذا النسب المختلق هو كل ما يتسلحون به كجذور عبرانية في المسيحية. علماً بأن اليهود ليسوا كلهم عبرانيين، ثم إن المسيح نفسه عندما ثار على اليهود، وكانوا ما زالوا في

(1) المصدر السابق، ص3 ـ 4.

أكثريتهم. عبرانيين، هل كان جاهلاً حقيقة نسبه؟ فإذا كان هو نفسه نعتهم بالأشرار وأبناء الأفاعي وأبناء الشيطان لأن شرورهم كانت حداً يهدد إنسانية الإنسان، فما بال واضعي الوثيقة يعملون العكس؟ بينما يستند الشر اليهودي ويزداد خطراً وإرهاباً وانتشاراً عما كان عليه في زمن ظهور المسيح! . هل يمكن لواضعي الوثيقة أن يؤكدوا بشيء على أن اليهود تبدلوا عن السابق في مقاصدهم وأساليبهم وعقليتهم وفي إيمانهم تجاه المسيح؟ كلا لا يمكنهم. . إذن فإن ثورة المسيح لا تزال مبررة ولا تزال قائمة. لقد قال السيد المسيح: «إن ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك» (متى 18/ 11)، ولما لم يستجب الذين هلكوا بالخطيئة والشرور، أوصى المسيح تلاميذه قائلاً: «الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر» (متى 19/ 28)[1].

لم يتبدل يهود اليوم عن يهود الأمس، ولم يؤمنوا ماضياً وحاضراً بأن المسيح هو «الطريق والحق والحياة». وليس صحيحاً أن المسيح الذي ينتظر اليهود عودته هو من ينتظر عودته المسيحيون. وفي حال عودة المسيح الناصري سوف يرفضه اليهود مرة أخرى، لأنهم لم يتغيروا، ولأنه لم يتغير. وفي حال مجيء مسيح اليهود، سوف لا يكون ذاك مسيح النصارى إلا إذا تغيروا كلهم على طريقة واضعي الوثيقة. أما الزعم بأن فلسطين أرض أسلاف اليهود فقول مرفوض، ذلك أن يهود الأمس البعيد دخلوا غزاة فاتحين إلى جزء من فلسطين، إلى أرض كنعان (خروج 16/ 35).

إن غرض «الوثيقة» غرض محض سياسي يهدف لتبرير اغتصاب الصهاينة لفلسطين بتسخير الدين للسياسة، وإن واضعيها يعلمون جيداً أن المسيحية ليست استمراراً لليهودية العنصرية. لكنهم يتعامون عن ذلك، ولا يصح بحال

(1) المصدر السابق، ص4 ـ 5.

من الأحوال، كما جرى بالفاتيكان، إقامة حوار بين المسيحية واليهودية، إذ لا تلاقي بينهما، ولا «تراث مشترك» بين الديانتين.

اليهود لم يؤمنوا بالمسيح ولا بالمسيحية، وقد تنكروا للمسيح وتنكر هو لهم «فكل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السماوات. ولكن من ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السماوات» (متى 10/ 32 ـ 33). فهل يعقل أن تكون قواسم مشتركة بين ديانة تنكر المسيح والمسيحية، وديانة تقدس المسيح وتتمسك بالمسيحية الحقة؟.

خلاصة القول إن ما صدر عن الفاتيكان منذ مطلع الستينات وحتى منتصف التسعينات يشكل انحرافاً متدرجاً عن جوهر المسيحية لخدمة أغراض سياسية، ومن «التبرئة» إلى الاعتراف السياسي بإسرائيل المعاصرة يتناقض مع جوهر هذه الديانة ومع التراث المسيحي الفاتيكاني بالذات، وتبريرات «الوثيقة» وتبريرات «الاعتراف» لا تقنع عاقلاً، ولا تخفي أبعاد هذه الخطوات التي تترك وراءها علامات استفهام وعلامات تعجب لا عد لهما ولا حصر.

الفصل الرابع

تهافت الادعاءات بالحقوق الدينية لليهود في فلسطين

ترسخت على نطاق واسع في غربي أوروبا أولاً وفي الولايات المتحدة لاحقاً على مدى أربعة قرون مفاهيم تأويلية تعسفية واهية لنصوص توراتية قامت بنشرها عدة طوائف بروتستانتية ولا تزال. ولقد طرح رواد هذه الطوائف تأويلاتهم اللاهوتية فيما يتعلق باليهود وحقهم بالعودة إلى فلسطين وإنشاء دولة لهم فيها، قبل ظهور الحركة الصهيونية اليهودية العلمانية الطابع بثلاثة قرون على الأقل. ووجدت هذه الحركة منذ نشأتها قاعدة مسيحية واسعة في الغرب تتعاطف بقوة مع تطلعاتها وأهدافها بفعل إيمان ديني راسخ، تمكنت إلى حد بعيد ولا تزال من استغلاله على عدة أصعدة، كما تمكنت من استغلال الادعاء بالحقين الديني والتاريخي لدى بعض الجماعات الدينية اليهودية، رغم علمانية هذه الحركة، بالضرب على الوتر الديني اليهودي الذي تؤمن به هذه الجماعات رغم اعتراض جماعات دينية يهودية أصولية كجماعة ناتوري كارتا التي تصر على أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة مخالف لجوهر اليهودية جملة وتفصيلاً لأن هذا القيام تم بقوة أرضية مادية وليس بقوة سماوية إلهية[1].

(1) إيان لوستك، الأصولية اليهودية في إسرائيل، ترجمة حسين زينه، ط1، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981، ص24 ـ 35.

ترتكز هذه التأويلات على عدة مقولات يمكن دحضها ببينات من الكتاب المقدس، ومن شأن هذه البينات نسف كل تلك التأويلات المتداولة منذ قرون.

ملكية الأرض

بادىء ذي بدء لا بد من تحديد شرعية التملك للأرض استناداً إلى الكتاب المقدس. فحسب النص التوراتي أنه «في البدء خلق الله السماوات والأرض» (تكوين 1/1)، وأنه «هو قررها. لم يخلقها باطلاً. للسكن صورها» (إشعيا 45/18)، وجعل السماوات للرب «أما الأرض فأعطاها لبني آدم» (مزمور 115/16). وغني عن القول أن البشر جميعهم من نسل آدم، وأن لهم الحق في العيش على الأرض واستغلالها، وليس لهم حق تملك أية قطعة منها لأنها ملك للرب وليس لبني آدم. نقرأ في سفر التكوين (2/15) «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها» وليس ليمتلكها كما يتضح من النص «للرب الأرض وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيها (مزمور 24/1)، «إن للرب الأرض» (خروج 9/29)، «فإن لي (للرب) كل الأرض» (خروج 19/5)، «لأن لي الأرض وأنتم غرباء» (لاويين 25/23)، «هوذا للرب إلهك السماوات وسماء السماوات والأرض وكل ما فيها» (تثنية 1/14)، «ما تحت كل السماء هو لي» (أيوب 41/11)، «لأن لي المسكونة وملأها» (مزمور 50/12)، لك السماوات. لك الأرض المسكونة وملؤها أنت أسستهما» (مزمور 89/11)، «لأن للرب الأرض وملأها» (كورنتوس الأولى 10/26)...

يأتي بعد ذلك النص على من يحاولون امتلاك الأرض وتسميتها باسمهم، واعتبارها ملكاً دائماً لهم «باطنهم أن بيوتهم إلى الأبد مساكنهم إلى دور فدور. ينادون باسمهم في الأراضي» (مزمور 49/11). وفي النص إشارة واضحة عن الذين يطمعون في التوسع على حساب الآخرين: «ويل للذين يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلاً بحقل حتى لم يبق موضع. فصرتم تسكنون

وحدكم في وسط الأرض» (إشعيا 5/ 8)، وهذا ما تحاول أن تفعله إسرائيل اليوم. لذلك يقول الرب بلسان نبيه ميخا «فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها والبيوت ويأخذونها ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه» (ميخا 2/ 2) وعاقبة آخاب ملك السامرة الذي اغتصب كرم نابوت اليزرعيلي مع زوجته إيزابل واضحة الدلالة، فقد اغتصب الملك أرضه وقتله فكان عقاب السماء لآخاب وإيزابل الموت وأكل الكلاب لجثتيهما هما ونسلهما (الملوك الأول 21/ 1 ـ 26).

يتضح من النصوص أن الأرض ملك لله، وأنها لا تباع ولا تشترى: «والأرض لا تباع بتة لأن لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي» (لاويين 25/ 23). والإشارات إلى هذه الغربة متكررة: «وقام إبراهيم من أمام ميته (سارة زوجته) وكلم بني حث قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم» (تكوين 23/ 4)، «لأننا نحن غرباء أمامك ونزلاء مثل كل آبائنا» (الأيام الأول 29/ 15)، «لأني أنا غريب عندك نزيل مثل جميع آبائي» (مزمور 39/ 12)، «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض. فإن الذين يقولون مثل هذا يُظهرون أنهم يطلبون وطناً. فلو ذكروا ذلك الذي خرجوا منه لكان لهم فرصة للرجوع. ولكن الآن يبتغون وطناً أفضل أي سماوياً» (الرسالة إلى العبرانيين 11/ 13 ـ 16).

يتبين مما تقدم أن الأرض ملك لله، وأنها لا تباع وتشترى (لاويين 25/ 23). ونقرأ في سفر التثنية «حين قسم العلي للأمم حين فرّق بني آدم نصب تخوما لشعوب. .» (تثنية 32/ 8)، ونقرأ أيضاً في أعمال الرسل: «وضع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم» (أعمال الرسل 17/ 26)، وفي سفر أيوب: يكثّر الأمم ثم يبيدها. يوسع للأمم ثم يجليها» (أيوب 12/ 23)، وفي رسالة يعقوب: «من أين الحروب والخصومات بينكم أليست من هنا من لذاتكم المحاربة في

أعضائكم. تشتهون ولستم تملكون وتحسدون ولستم تقدرون أن تنالوا. تخاصمون وتحاربون ولستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون. تطلبون ولستم تأخذون لأنكم تطلبون رديًا لكي تنفقوا في لذاتكم» (يعقوب 4/ 1 ـ 3).

وخلافاً لنصوص الكتاب المقدس فإن التأويل المنحرف عمداً لغرض ما في نفس يعقوب أو عن خطأ فادح غير مقصود لدى الجماعات الصهيونية/ المسيحية والصهيونية اليهودية، فهذه التأويلات لا تعطي دولة إسرائيل التمييز في المعاملة بين اليهود وغير اليهود، ولا تعطي هذه التأويلات حقاً لليهود باغتصاب الأرض وإجلاء أصحابها عنها بالقوة. فلو كان الافتراض الخاطئ بأن الفلسطينيين غرباء فلا يحق لدولة إسرائيل المبنية على قواعد علمانية تتستر أحياناً بالدين لمآرب سياسية، اضطهادهم وترحيلهم. «ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر» (خروج 22/ 21). وحتى الشريعة الموسوية أباحت للغريب الاشتراك في الفصح اليهودي شرط أن يختتن (خروج 12/ 43 ـ 49). ونقرأ في سفر اللاويين: «وإذا نزل عندك غريب في أرضكم فلا تظلموه. كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك. لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر. أنا الرب إلهكم» (اللاويين 19/ 33). وفي سفر التكوين ما يشير إلى أن الفلسطينيين أحفاد يافث سكنوا مع العبرانيين جنباً إلى جنب في أرض كنعان (تكوين 9/ 27).

أسطورة «الوعد» وأسطورة «أرض الميعاد»

ترسخت أسطورة الوعد السماوي لليهود بأرض الميعاد في الأوساط المسيحية البروتستانتية بالغرب منذ القرن السادس عشر، ووجدت الحركة الصهيونية اليهودية العلمانية في أواخر القرن التاسع عشر تربة خصبة في هذه الأوساط تستند عليها لنيل الدعم منها فكان لها ما أرادت.

ومع أن الدين لا يمكن بحال من الأحوال أن يشكل مستنداً حقوقياً للتملك، إلا أننا سنتجاوز هذا الأمر متخذين من النصوص التوراتية المستند

لتبيان تهافت ما راج ويروج من دعاوى دينية تعطي اليهود حق التملك لأرض الميعاد. واستناداً إلى النصوص التوراتية سنجد تناقضات متعددة في تحديد المكان الجغرافي لهذه الأرض، كما أننا سنجد تناقضات حول ملكية الأرض أَهي ملك لله أم للبشر. ففي سفر التكوين (2/ 15) إن الرب الإله وضع آدم «في جنة عدن ليعملها ويحفظها» لا ليمتلكها. ويتأكد ذلك في سفر أرميا (2/ 7) «وأتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها فأتيتم ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي رجساً». وقد سبقت الاستفاضة بأسانيد توراتية بشأن ملكية الله للأرض.

وفيما يختص بالأرض الموعودة، يزعم اليهود ويجاريهم الصهاينة المسيحيون بأن الرب وعدهم بتملك أرض فلسطين ردحاً من الزمن ثم جدد وعده، بعد أن تم إقصاؤهم عنها لكثرة معاصيهم بإرادة سماوية، بإرجاعهم إليها في الوقت المناسب. وفي هذه الوعود لا ترسم التوراة رقعة جغرافية واحدة محددة للأرض الموعودة. ففي حين ترد حدود تلك الأرض في الآية 18 من الإصحاح الخامس عشر على النحو التالي في سفر التكوين: «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً. لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»، نجد أن حدود تلك الأرض في الآية 8 من الإصحاح 17 من السفر نفسه مختلفة عن الآية السابقة: «وأعطي لك (لإبرام) ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً». وهنا يبدو تناقض آخر، ففي الآيات التي مر ذكرها لاحق بالتملك لأن الأرض ملك لله. وفي موضع آخر نجد غموضاً في المساحة الجغرافية لتخوم الأرض الموعودة: «وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض» (تكوين 12/ 6 ـ 7)، ومثل هذا الغموض نجده في مكان آخر: «وقال الرب لإبرام. . . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (تكوين 13/ 14 ـ 15). وفي غموض مماثل أن الرب ظهر لإسحاق وقال له: «لا تنزل إلى مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك. تغرب في هذه الأرض. فأكون معك

وأباركك. لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك» (تكوين 276/ 2 ـ 3).

وفي الآية 13 من الإصحاح 28 من سفر التكوين يقول الرب ليعقوب: «الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك». وفي الآية 4 من الإصحاح السادس من سفر الخروج يقول الرب لموسى: «. . . وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها». وفي الإصحاح 33 من سفر العدد في الآية 53 يحدد الرب لموسى أرض كنعان، وكذلك في الآية 2 من الإصحاح 34 من السفر نفسه. وفي الإصحاح الأول من سفر التثنية يحدد الرب الأرض في مخاطبته لموسى: «كفاكم قعود في الجبل. تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات. انظر قد جعلت أمامكم الأرض. ادخلوا وتملكوا الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم» (التثنية 1/ 6 ـ 8). وفي الآية 24 من السفر نفسه «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم». وفي الآية 3 ـ 4 من الإصحاح الأول بسفر يشوع «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى. من البرية ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم».

يتضح مما تقدم تناقضان: مشكلة تملك الأرض أهي لله أم لمخلوقاته؟ والتناقض الآخر حول الاختلاف في جغرافية أرض الميعاد، وحدودها في سلسلة من الوعود لا تطابق بينها.

لمن الوعد السماوي بأرض الميعاد

خلافاً للتأويلات المغلوطة عن قصد أو غير قصد لدى اليهود والصهاينة

المسيحيين في الغرب بأن الوعد الإلهي كان مقصوراً على اليهود بأرض الميعاد، فإن التوراة نفسها تدحض هذه المزاعم.

إن إرجاع اليهود المعاصرين نسبهم إلى سلالة الآباء الأولين العبرانيين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب زعم باطل. وهذا الزعم هو ما حرص الكتبة اليهود الذين دونوا التوراة في عهد متأخر على الربط بين أتباع موسى وديانته، وبين إبراهيم الخليل وما جاء به من الوحي وعقيدة التوحيد، وما كان من ميثاق سماوي بينه وبين الله. وإبراهيم هذا هو الأب الروحي للديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام[1]. وإبراهيم ليس خاصاً باليهود من ناحية إيمانية ولا من ناحية سلالية، ولقد ورد اسمه سبعين مرة في خمس وعشرين سورة قرآنية، وإبراهيم اسم السورة الرابعة عشرة، كما ورد اسم موسى في أربع وعشرين سورة قرآنية[2]. ويأتي ذكر إبراهيم عندما أمره الله أن يقدم ابنه إسحاق قرباناً على الصخرة المشرفة في بيت المقدس، وهي الموضع الذي وقف به النبي قبل معراجه إلى السماء ليلة الإسراء[3].

وأول ما يجب أن نلفت النظر إليه أن إبراهيم اليهود هو غير إبراهيم المسلمين، فالأول، كما هو في التوراة، يختلف اختلافاً تاماً عن إبراهيم المسلمين. وإبراهيم المسلمين ورد ذكره عدة مرات في القرآن الكريم، وصورته الرائعة في هذه السور الجميلة قد بلغت أرقى درجات الكمال الإنساني وصفاء التوحيد، وسمو القيم الروحية الرفيعة. ومن هنا فهو عند المسلمين «أبو الأنبياء» و«خليل الرحمن» و«أبو الضيفان». وفي الصلاة في قراءة «التحيات» يدعو المسلمون قائلين: اللهم بارك على سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم. أما إبراهيم اليهود فإنه شخص آخر لا يمت بصلة إلى إبراهيم المسلمين[4].

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص37.

(2) فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سبق ذكره، ص171.

(3) المصدر السابق، ص177، 332.

(4) مجلة شؤون عربية، عدد 1، مصدر سبق ذكره، ص167.

وفي القرآن الكريم ورد في سور كثيرة تمجيد عقيدة إبراهيم الحنفية ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125].

ويشير القرآن الكريم إلى الجدل الذي احتدم حول عقيدة إبراهيم: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. وقد تقتصر صلة المسلمين بإبراهيم على أنه المبشر الأول بعقيدة التوحيد، بل هم يعرفون أيضاً أن إبراهيم هو الذي وضع الأساس للكعبة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 96 و97]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

وتروي التوراة كيف أن سارة زوج إبراهيم ألحت عليه، بعد أن ولدت إسحاق في آخر عمرها، بأن يبعد عنها جاريتها هاجر وولدها إسماعيل (تكوين 21/10). وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 35 و37].

وفي امتحان الله لإبراهيم امتثل دون تردد بالتضحية بابنه، ولكن الله افتدى الولد في اللحظة الأخيرة بكبش عظيم. ويرى بعض المفسرين

الحديثين، مثل عبد الوهاب النجار، خلافاً للطبري الذي اتبع رواية التوراة التي تقول: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق. .» (تكوين 2/2) ـ بأن أمر التضحية قد جاء في وقت لم يكن فيه لإبراهيم سوى ولد واحد، هو إسماعيل، ولأن إسحاق لا تنطبق عليه تلك الصفة «الوحيد». كذلك يدل سياق الكلام في القرآن الكريم على أن البشرى بإسحاق كانت بعد حادثة الفدية مباشرة ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصفات: 112 و113][1].

شبه الجزيرة العربية منبت اليهود واليهودية

لاحظنا مما ورد من السور القرآنية أن النبي إبراهيم كان وجوده بشبه الجزيرة العربية، وأن مقامه كان ببكة (آل عمران3/ 96 ـ 97). ولقد توافرت إشارات بالتوراة توحي بأن أصل العبرانيين من الصحراء (هوشع 9/ 10)، (أرميا 2/ 2)، (تثنية 22/ 10). وقد أظهر البحث العلمي أن أصول الديانة العبرية تنم عن أصل صحراوي[2].

وفي بلدة مدين الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر بشبه الجزيرة العربية اتخذ موسى لنفسه امرأة عربية هي ابنة كاهن مدين، وأبوها مؤمن بدين يهوه فتعلم موسى منه أسرار العبادة الجديدة. ويخيل إلينا أن يهوه إله قبلي كان يعبده المدينيون أو سواهم من أهل الشمال. وهو أحد آلهة البادية[3].

وفي سفر الخروج بالتوراة تفاصيل عن ذهاب موسى إلى مديان (مدين) (خروج 2/ 15)، وزواجه من صفورة ابنة كاهنها (خروج 2/ 21). ولفظة عرب وبلاد العرب (المقصود شبه الجزيرة) يتكرر ذكرهما في التوراة (إشعيا 21/ 13)، (أرميا 3/ 2)، (أرميا 25/ 25). وفي سفر الأخبار الثاني (21/ 16) ذكر

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الأول، مصدر سبق ذكر. ، ص37.
(2) فيليب حتي، مصدر سبق ذكره، ص51.
(3) المصدر السابق، ص51.

للعرب الذين بقرب الكوشيين (الأحباش) فلا يبقى مجال للريب في أن الكاتب عنى قوماً من العرب المقيمين في الجنوب الغربي من الجزيرة أي سبأ. وفي الفصل السابع والعشرين من نبوءة حزقيال ذكرت بلاد العرب مقرونة بقيدار (27/ 21). ويؤخذ من أرميا أن عرب القرن السادس قبل الميلاد اشتهروا بقطع الطرق (أرميا 3/ 2)، ويستدل من أرميا (25/ 23) أنهم كانوا يحلقون شعور رؤوسهم. أما «إن (إشعيا 21/ 13) و(أرميا 25/ 23) و(حزقيال 25/ 13) فهي العلا الحديثة واحة في شمال الحجاز، وقد ظلت مدة من الزمن المقر الرئيسي لأهل سبأ. وتعتبر التوراة قيدار وبنايوت من جملة أبناء إسماعيل بن إبراهيم (تكوين 25/ 13) و(أخبار الأيام الأول 1/ 29). والراجح أن الفتاة الشمولية (الشونمية) التي خلد جمالها في «نشيد الإنشاد» (6/ 13، 1/ 5) ـ قابل (ملوك الأول 1/ 3) ـ كانت عربية من قيدار. وملكة سبأ التي قدمت إلى سليمان (ملوك الأول 10/ 10) وسفر الأخبار الثاني (9/ 9) كان مقرها في سبأ. وقد اقترن اسم سبأ (شبا) بتيماء (تماء) في سفر أيوب (6/ 19). وأيوب كان عربياً لا يهودياً يدل على ذلك بناء اسمه ومسرح الحوادث التي يرويها كتابه هو شمالي الجزيرة. أما موطنه عوص فهو في نواحي أدوم.

ويؤخذ من التوراة في سفر الأمثال (30/ 1) كلام أجور ابن مُتّقية مسّا، وأمثال (31/ 1) كلام لموئيل ملك مَسَّا، وكلاهما من ملوك مسّا، وهي إحدى قبائل إسماعيل (تكوين 25/ 13)[1].

وتذكر التوراة أن مدين هوأحد أبناء إبراهيم الخليل من زوجته قطورة التي ولدت لإبراهيم خمسة ذكور آخرين، تكاثرت ذريتهم حتى بلغ عدد القبائل المنحدرة منهم ست عشرة قبيلة (تكوين 25/ 1 ـ 6).

وتصف التوراة (سفر القضاة 8/ 24) المدينيين بأنهم إسماعيليون. وقد ورد أيضاً في سفر التكوين (37/ 25 ـ 28) أن تجاراً مدينيين سحبوا يوسف من

---

(1) المصدر السابق، ص53 ـ 56.

الجب وباعوه بعشرين من الفضة إلى قافلة من الإسماعيليين. وفي سورة القصص (18/ 45) ذكر لمدين المتقدمة عمرانياً، بدليل النصائح التي كان يسديها يثرون إلى موسى صهره وتتعلق بالشرائع والقوانين والأنظمة وقواعد السلوك وأعمال الرؤساء والقضاة والمحاكم (خروج 18/ 19 ـ 21)[1]. وفي كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» يجزم مؤلفه كمال الصليبي، أن ميادين التوارة جغرافياً كانت في عسير على ساحل البحر الأحمر بالجزيرة العربية[2].

ومع ذلك، فإننا نريد التقيد بالتأويلات التي تزعم بأن الميثاق المعطى لإبراهيم مقصور على اليهود، وأن أرض الميعاد موطنهم الأصلي لا شبه الجزيرة العربية، لنرى بطلان تلك المزاعم بالرجوع إلى الكتاب المقدس نفسه، وفي ذلك دحض لتلك التأويلات التعسفية من ناحيتين: أولهما بأن المقصود بنسل إبراهيم ليس مقصوراً على اليهود، وثانيهما بأن اليهود المعاصرين لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون جميعهم منحدرين من صلب إبراهيم لتهافت الاعتقاد بالنقاوة العرقية والتسلسل السلالي عبر القرون المديدة.

من هم نسل إبراهيم

إن المقولة الشائعة بانحدار الشعب اليهودي كافة عبر كل مراحل التاريخ من نسل إبراهيم، والزاعمة بالصفاء والنقاء العرقيين، والتي نادى به موسى هس في كتابه «روما والقدس» مقولة ساقطة منطقياً وتاريخياً وحتى توراتياً. ولقد أشار هس إلى بدعة «النقاوة» بقوله: «يعتبر العرق اليهودي من أوائل الأعراق البشرية، وقد حافظ على نقاوته عبر العصور رغم المتغيرات البيئية والتاريخية التي مرت عليه»[3].

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الرابع، مصدر سبق ذكره، ص180 ـ 181.

(2) كمال الصليبي، مصدر سبق ذكره، ص96 ـ 97، 259.

(3) أمين عبد الله محمود، مصدر سبق ذكره، ص81.

تقرر التوراة أن هوية إبراهيم هي آرامية «آراميا تائهاً كان أبي. . . » (تثنية 26/ 5) وتقرر أيضاً أنه كان لإبراهيم أخ اسمه ناحور (تكوين 11/ 26، 27، 29) وهذا السفر ذاته ينص على أن ابن ناحور هذا، وحفيده من بعده كانا من الآراميين (تكوين 25/ 20/ 28) و(31/ 20، 24)[1]. وينص السفر نفسه أن إبراهيم أرسل خدامه إلى آرام النهرين لاختيار زوجة لابنه إسحاق (تكوين 24/ 10). وقصص التوراة تؤكد أن «الآباء» الأولين من أصل آرامي من بلاد ما بين النهرين (تكوين 11/ 10 ـ 31)[2]. وفي سفر حزقيال (16/ 3) نقرأ: هكذا قال السيد الرب لأورشليم. مخرجك ومولدك من أرض كنعان. أبوك أموري وأمك حثية». وحسب التوراة فإن إبراهيم تزوج أربع نساء: ساراي (تكوين 11/ 29) التي أصبحت تعرف لاحقاً بسارة (تكوين 17/ 15 ـ 16)، وثلاث نسوة لم يكن يهوديات: هاجر (تكوين 16/ 1 ـ 5) و(تكوين 16/ 11)، وقطورة (تكوين 25/ 1 ـ 5)، وتزوج سراري (تكوين 25/ 6)، وكانت الرابعة حجور بنت أرهير من قبيلة جرهم[3]. وقد رزق منهن جميعهن بنين وبنات، ومن الأعراف اليهودية أن اليهودي من كانت أمه يهودية، ووفق هذه الأعراف يصبح نسل إبراهيم عبر ابنه إسحاق من غير اليهود. فإسحاق تزوج رفقة بنت بتوئيل الآرامي أخت لابان الآرامي من فدان (تكوين 25/ 20). وعيسو تزوج يهوديت ابنة بيري الحثي وبسمة ابنة أيلون الحثي (تكوين 26/ 34). كما تزوج عيسو محلة بنت إسماعيل بن إبراهيم أخت نيابوت زوجة له على نسائه (تكوين 28/ 9). وتزوج يعقوب راحيل ابنة خاله لابان الآرامي (تكوين 29/ 10) وتزوج أختها لية (تكوين 29/ 23)، ودخل على بلهة جارية راحيل (تكوين 30/ 4 ـ 5)، «فحبلت وولدت ليعقوب ابناً» (تكوين 30/ 5).

ومن يعقوب إلى موسى نجد أن الأخير تزوج صفورة ابنة يثرون، كاهن

(1) كمال الصليبي، خفايا التوراة، مصدر سبق ذكره، ص93.

(2) M.A. Beek, OP. Cit, P21-22.

(3) مجلة الكاتب الفلسطيني، العدد 22 دمشق 1991، ص70.

مدين، وهي غير يهودية (خروج 2/ 22) و(خروج 18/ 2 ـ 3). ومن موسى إلى داود نجد أن داود كان مزواجاً، فلقد تزوج سراري ونساء أنجبن له بنين (صموئيل الثاني 5/ 13 ـ 14) ومنهن بتشبع الحثية التي أنجبت له سليمان (صموئيل الثاني 13/ 24). وسليمان بدوره صاهر فرعون (الملوك الأول 3/ 1)، كما أنه أحب «نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم. . . وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري (الملوك الأول 11/ 1 ـ 3). ويحفل سفرا نحميا وعزرا بأمور الزواج المختلط بين اليهود وسواهم من غير اليهود (نحميا 9/ 2، 13/ 23 ـ 30)، (عزرا 9/ 12، 10/ 10 ـ 20).

التهود: قديمه وحديثه

من الثوابت التي لا تقبل الجدل أن بدعة النقاء العرقي السلالي بدعة خرافية ساقطة كما تبين زيف ذلك الادعاء من النصوص التوراتية، فالاختلاط العرقي بين مختلف الأجناس البشرية والعروق قد حصل تكراراً. ووفقاً لهذه النصوص فإن إبراهيم وأبناءه وأحفاده تزوجوا من أمميات من جنسيات متعددة غير يهودية، من كنعانيات وحثيات ومصريات[1]. . ومن المحال أن تكون صحة للمزاعم اليهودية بانحدار جميع اليهود المعاصرين من صلب إبراهيم وسلالته. وفي المنظور الأنتربولوجي أن يهود إسرائيل يشاركون القرابة مع كل شكل من العرق الآسيوي/ الأفريقي، كما أن الجماعات اليهودية من أصل أوروبي تمثل كل تنوعات العروق الأوروبية من الشعر الأشقر والعيون الزرق في شمال أوروبا إلى الشعر الأسود والعيون العسلية والرؤوس المستديرة في المناطق الألبية الجنوبية. وفي التوراة بالماضي إشارات متعددة إلى الزواج المختلط، وكما أسلفنا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ زواج موسى من

(1) Les Schwarz, ed Great Ages and ideas of the Jeuvish People New York, Random House, 1956, P5.

مدينية، ويهوذا من كنعانية، ويوسف من مصرية وداود من راعوت المؤابية، ناهيك بأن الشريعة ألزمت اليهود بختان عبيدهم لتحويلهم إلى اليهودية[1].

وعدا عن أخبار الزواج المختلط حسبما ورد في سفري عزرا ونحميا، ففي سفر أستير إشارة واضحة على تهويد قسري للأغيار «وكثيرون من شعوب الأرض تهودوا لأن رعب اليهود وقع عليهم» (استير 8/17). وهذا ما دفع الباحثين المدققين إلى الجزم بأن اليهود المعاصرين ليسوا بحال من الأحوال من سلالة إبراهيم أو من سلالة قدامى العبرانيين. وتأكيد اللورد موين، وزير الدولة البريطانية على هذه الحقيقة دفع عصابة شتيرن الصهيونية إلى اغتياله بالقاهرة في 6/ 11/ 1944[2]. ومما لا شك فيه أن المهاجرين اليهود كافة من شرقي أوروبا إلى فلسطين ليسوا من أصل سامي ولا صلة دموية لهم بقدامى الشعب اليهودي[3].

ومن المتفق عليه أن الديانة اليهودية اعتنقتها أقوام عديدة من عروق مختلفة على مر التاريخ. وهذه الحقيقة أكدها المفكر إبراهام ليون الذي أشار إلى أن اليهود حتى في فلسطين كانوا بعيدين عن «تشكيل عرق صاف»، ويتابع قائلاً: وإذا لم نرد الاستشهاد بما ورد في التوراة، التي تقول بأن اليهود قد أخذوا معهم لدى خروجهم من مصر مجموعة من المصريين، وأن استرابون اعتبرهم من سلالة المصريين، يكفينا أن نذكر بالأعراق المتعددة التي استقرت في فلسطين ومن بينها الحثيون والكنعانيون والفلسطينيون (الآريون) والمصريون والفنيقيون والإغريق والعرب. أما تنامي «التهود» خلال العهد الإغريقي/ الروماني، فقد زاد من طابع اليهود المختلط. وفي عام 129ق.م تم طرد اليهود من روما لتهويدهم بعض سكانها، فكانت مجموعة أنطاكية مؤلفة

(1) Jacob Bernard Agus, The Meanisng of Jeuish History New York, Abelard-schuman, 1963 P40.

(2) Michael Palumbo, OP. Cit, P27.

(3) Naim Istfan Ateek, OP. Cit, P105.

بأغلبيتها من المتهودين. وقد ساهمت عملية تهويد العبيد القسرية، واعتناق الخزر وأعراق وشعوب أخرى هذا الدين اليهودي خلال التشتت الطويل في جعل اليهودية تراكماً مثالياً في الأعراق[1].

وحسب التوراة، لم يكن إبراهيم جد بني إسرائيل الأول وحدهم، فمن سلالته وفق ما جاء في سفر التكوين الشعوب التي انحدرت من نسل ابنه إسماعيل، وتلك التي انحدرت من زوجته الثالثة قطورة[2]، ومن المحال صحة ادعاء يهود شرقي أوروبا الارتقاء سلالياً إلى أبوة إبراهيم عبر رحلة تاريخية تقرب من أربعة آلاف عام، هلكت خلالها أقوام، وبادت دول، وتشتتت أمم، وانصهرت في غضونها شعوب وشعوب[3].

وتبقى الحقيقة أن اليهود مجموعة تدين باليهودية، وليسوا عرقاً صافيا كما أكد ذلك يسنغ روز نوولد، رئيس المجلس الأميركي لليهودية[4]، كما أن الادعاء بالعنصرية العرقية السامية أو الآرية لا يستند إلى أي أساس منطقي معقول، وهذا ما أكده المؤتمر السنوي لجمعية علماء «الجنس البشري» الأميركي عام 1937، بوصفه العنصرية الآرية لا وجود لها، وأن الآرية كالسامية لا تعنيان إلا لفظتين دون أن يكون لهما مدلول عنصري محدد[5]. ذلك أن للعنصرية مميزات خاصة تنتقل بالوراثة، وتظهر جلية في لون الشعر والبشرة والعينين، وشكل الرأس والأنف والقامة، وباختلاط الشعوب بعضها ببعض عن طريق التزاوج، فقدت اليهودية، على مر الزمن، طابعها الخاص

(1) إبراهام ليون، مصدر سبق ذكره، ص179.

(2) كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، مصدر سبق ذكره، ص236.

(3) مجلة شؤون عربية، عدد 1، مصدر سبق ذكره، ص166.

(4) Richard Crossman, Palestine Misson, A Personal Record, New York and London, Hareper and Brothers, 1974, P39.

(5) الفرد لينتال، ثمن إسرائيل، ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري، ط2 بيروت، دار الكشاف، 1954، ص235.

وعنصريتها التي كانت تفاخر بها، بسبب اختلاط اليهود بغيرهم في جميع بقاع الأرض منذ القدم. ولذا كان من الطبيعي أن يفقد اليهود طابعهم الذي ورثوه عن أسلافهم الأقدمين، وأنه من المستحيل أن تجد يهودياً واحداً، يمكنه أن يثبت أنه ينحدر مباشرة من الشعب اليهودي القديم. وعن طريق الاختلاط انتقلت اليهودية إلى العالم الوثني، واتخذها فريق من الوثنيين دينا. وهذا ما دفع علماء تاريخ «الجنس البشري» في جامعة كولومبيا للقول: «إن اليهود شعب يعتنق الديانة اليهودية، وهم خليط من جميع الأجناس، بما فيها الزنجي والمغولي، أما ما يسمونه الطابع اليهودي الخاص، فهو طابع شائع بين جميع شعوب بلدان الشرق الأوسط الممتدة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط»[1]. وملامح اليهود هي ملامح سكان البلاد التي يعيشون فيها. فاليهود الصينيون لهم ملامح صينية واضحة التعبير، واليهود في إثيوبيا (الفلاشا) وفي مدغشقر، والذين يدعون بأنهم «أحفاد إبراهيم» ذوو ملامح زنجية[2].

وفي هذا السياق يقرر الأستاذ هاري ل. شابيرو، رئيس قسم الأنتروبولوجيا في المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي بعد دراسة مستفيضة عن التاريخ البيولوجي (للشعب اليهودي) جاء فيها: أن اليهود «ليسوا أسرة ولا قبيلة ولا أمة بالمعنى الصارم للكلمة». وبعد تتبع تاريخ اليهود يقول: «إنه لأمر غريب أن اليهود يعتبرون غالباً ــ وقد بُذل جهد كبير للبرهنة على أنهم ــ عرق متميز... والمقارنة البيولوجية... تبرهن أن المتطلبات الأساسية لأي دعوى بأن اليهود يشكلون ذاتية عرقية، لا يمكن تلبيتها، على الأقل بالمقاييس التقليدية المتخذة أساساً في التصنيف العرقي. إن الاختلاف العريض في الصفات الجسمية للسكان اليهود وتنوع الجينات الموروثة المتوافرة في فئات

(1) المصدر السابق، ص236 ــ 240.

(2) يفغيني يفسييف، الصهيونية في الاتحاد السوفياتي، إعداد هاني مندس، بيروت، كومبيوتر نشر، 1991، ص90 ــ 91.

دمهم، تجعل إدراجهم تحت أي تصنيف عرق موحد، التناقض بعينه»[1].

وفي المجال نفسه يقول الأنتروبولوجي جوان كوماس: «على الرغم من أن الفكرة العرقية تثير غالباً استجابة سلبية، فمن الغريب أن جماعات مختلفة تجدها نافعة ومفيدة لها، وبذلك تعيش الفكرة. فاليهود الصهاينة مثلاً، ولا يقصدون بها أن تعني استمرار التاريخ فحسب، وإنما أيضاً استمرار الدم والثقافة والمصير». ويستطرد كوماس قائلاً: «إن مثل هذه الدعوة لوحظت أكثر بعدما تكبده أبناء دينهم في ألمانيا باسم العرقية، وقد صاغوها بقصد تبرير تأسيس (وطن) في (إسرائيل)، ويقصد به تقوية الروابط مع أبناء دينهم اليهود في البلدان الأخرى، وطلباً لدعمهم.

ويوضح كوماس رأيه بقوله: «إن الحقيقة الأنتروبولوجية هي أن اليهود من الوجهة العرقية مختلفو العرق، ولا أساس للادعاء بوجود عرق يهودي. إن هجراتهم الدائمة خلال التاريخ وعلاقاتهم ـ المقصودة وغير المقصودة ـ مع أوسع تشكيلة من الأمم والشعوب، قد حملت معهم درجة كبيرة من الهجنة والتمازج البيولوجي، بحيث إن ما يسمى بشعب إسرائيل يمكن أن يكشف عن خصائص نموذجية لكل شعب. وللبرهان على ذلك، تكفي مقارنة يهودي من روتردام (هولندا) بوجهه المحمر وقوامه الثقيل، مع يهودي من سالونيك (اليونان) بعينيه اللامعتين ووجهه الشاحب، وجسمه النحيل المنكمش». ثم يصنف كوماس اليهود، وفقاً لأصولهم إلى الجماعات التالية:

أ ـ المتحدرون من المهاجرين اليهود من فلسطين (قلائل جداً).

ب ـ المتحدرون من امتزاج واتحاد يهود من أصل آسيوي مختلط، أو بين يهود وجماعات أخرى.

جـ ـ يهود بالدين، ولكن دون أن يكون لهم أية صلة أنتروبولوجية مهما كانت مع يهود فلسطين، ويتألفون فقط من عروق وأجناس أخرى تحولت إلى الدين اليهودي.

---

(1) Sami Hadauri, Bitter Haruest, New York, Oline Branch Press, 1990 P28.

ويدرج كوماس تحت التصنيف الأخير (ج) مثالاً نموذجياً معروفاً، هو (بولان) ملك الخزر الذي تحول إلى اليهودية عام 470م مع كثيرين من نبلاء وأفراد شعبه. وليدعم كوماس رأيه، أشار إلى أن من كل مائة عقد زواج يهودي في ألمانيا ما بين 1921 ـ 1925، كان يوجد 58 عقد زواج يهودي، و42 عقد زواج مختلط. وفي برلين عام 1926 كان هناك 861 زواج يهودي و554 زواج مختلط. وقال كوماس: «إن الأرقام تتكلم من تلقاء نفسها، خاصة لو أخذنا بعين الاعتبار العدد الكبير من الأزواج والزوجات الذين أصبحوا يهوداً بالدين، برغم أنه ليس فيهم أي شيء (سامي). ودليل آخر يورده كوماس لدعم رأيه في استحالة وجود عرق يهودي صاف هو: «أن 49٪ من اليهود البولنديين ذوو شعر أشقر فاتح اللون، بينما يوجد فقط 51٪ شعرهم داكن اللون. في حين أنه يوجد 32٪ من ذوي الشعر الأشقر بين اليهود الألمان و30٪ من يهود فينا ذوو عيون فاتحة اللون. والأنف المعقوف لليهودي النموذجي نجده في 44٪ فقط من أفراد بعض الجماعات (البشرية)، في حين أن الأنوف المستقيمة توجد في 40٪، والأنف الروماني في 9٪ والأنف الدقيق في 7٪.

ويستند كوماس إلى مصدرين آخرين في هذا الصدد: ر.ن. سلمن الذي يقول: «إن نقاوة العرق اليهودي هي نقاوة أسطورية، إن التنوع الواسع بين النماذج العرقية يوجد بين يهود يتباينون بحسب شكل جماجمهم من الرؤوس العريضة إلى الرؤوس الطويلة. وفي ألمانيا وروسيا خاصة يوجد يهود لا تظهر فيهم أدنى الصفات العرقية السامية».

وإلى ذلك يضيف م. فيشبرغ قائلاً: «إن النسبة المئوية للشقر الفاتحي العيون، وتوزعهم غير المنتظم بين مختلف مراكز السكان اليهود، والتباين الهائل في مقاييس الجمجمة ـ وهو تباين عظيم بقدر ما هو ملاحظ بين أية شعوب في أوروبا ـ ووجود يهود زنوج وتيوتون وخلافهم، والتنوع في القوام لديهم الخ. كل ذلك يعتبر براهين أخرى على عدم وجود عرق سامي واحد

لم يطرأ عليه التغيير منذ الأزمنة القديمة». ويختتم فيشبرغ قوله: «إن دعاوى اليهود بنقاوة سلالتهم هي من العبث وانعدام الأساس بحيث تشبه المزاعم القائلة بوجود اختلاف أساسي بين اليهود وبين ما يدعى بالعرق الآري الذي تقوم عليه اللاسامية»[1].

ومن الطريف ما أورده المفكر الفرنسي روجيه غارودي في كتابه «قضية إسرائيل والصهيونية السياسية» معلقاً على قوانين دولة الصهاينة في فلسطين: «لا يعتبر يهودياً إلا من ولدته أم يهودية. وبذلك فإن «الملك سليمان لا يعتبر يهودياً، ولا يستطيع الإفادة (من قانون العودة) ذلك أن أمه لم تكن يهودية بل حثية»[2].

كل ذلك يقودنا إلى نفي مطلق لأسطورة الصفاء العرقي اليهودي بما تقدم من أدلة توراتية وعلمية. ولا بد من التعرض لتهود عروق مختلفة من شعوب متعددة اعتنقت الديانة اليهودية في مراحل تاريخية معينة، وبذلك تسقط تلك الأسطورة نهائياً.

التهود تاريخياً في القرون المسيحية الأولى

يمكن الاستدلال تاريخياً استناداً إلى مصادر موثوق بها على اعتناق شعوب متعددة من أعراق متنوعة للديانة اليهودية من دون أن يكون لتلك الشعوب أية صلة عرقية بالسلالات العبرية القديمة، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ التهود في شبه الجزيرة العربية: انتشرت اليهودية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بقرون، وتكونت فيها مستعمرات يهودية، أشهرها في يثرب. وتتضارب الأخبار حول اليهود في هذه المدينة حول منابع

---

(1) Sami hadauir, Ibid, P28-29.
أحمد طربين، المصدر السابق، ص23 ـ 26.

(2) يفغيني يفسييق، مصدر سبق ذكره، ص93.

هجرتهم الأولى إليها. هل هم وافدون إلى المنطقة مع عقيدتهم، أم هم من سكانها المتهودين بفضل مؤثرات دينية تسربت إليهم من اليمن أو من الشام؟ على أن اليعقوبي يرى أن اثنتين من قبائلهم (النضير وقريظة) تنتميان إلى جذام، إحدى القبائل اليمانية المهاجرة إلى الحجاز، ثم استقرتا بعد تهودهما في يثرب من دون أن يتعرض (اليعقوبي) للقبيلة الثالثة (القينقاع). وثمة من يرى القبيلة الأخيرة، نواة لليهود في يثرب، ممن رافقوا موسى للحج في بلد «خاتم النبيين». ويرى ياقوت في «معجمه» أن يهود يثرب عرب تهودوا. وعلى كل حال فقد كان في القرون الأولى للميلاد مستعمرات يهودية في تيماء، وفي فدك، وفي خيبر، وفي وادي القرى، وفي يثرب. وقد اشتهر يهود الجزيرة العربية في الزراعة والصناعات المعدنية والصياغة[1].

وفي جنوب شبه الجزيرة العربية تهود عدد كبير من قبائل اليمن، وبلغ ازدهار الطائفة اليهودية في الديار اليمنية حداً أغرى الملك أبو كريبة طوبان على اعتناق اليهودية، وتأسيس مملكة يهودية في تلك الديار. وتسلم بعده ابنه الملك ذو نواس بين سنتي 520 و530. وبادر هذا إلى إضافة اسم يوسف العبري إلى اسمه العربي. وإليه تعزى مذبحة نصارى نجران سنة 523م. ويقال إنه جمع من نجا منهم ثم دعاهم لاعتناق اليهودية وخيرهم بين القتل أو الدخول فيها، فاختاروا القتل. وعلى كل حال، يتضح من أسماء اليهود في الجزيرة العربية أن معظمهم آراميون عرب متهودون وليسوا من ذرية إبراهيم الخليل[2].

(1) أحمد أمين، فجر الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص23 ـ 24.
أحمد بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، ط1، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983، من 41.

(2) أحمد أمين ـ المصدر السابق، ص25.
فيليب حتي، تاريخ العرب، مصدر سبق ذكره، ص81.
الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره، ص722.

ب ـ يهود الفلاشا: من الواضح أنهم لا ينتمون عرقياً إلى الشعب العبري القديم في فلسطين، ولا يمكن تمييزهم بسهولة عن بقية الآثيوبيين.

ج ـ تهود جماعات بالعراق: انتشرت اليهودية على ضفاف نهر الزاب في القرنين الأول والثاني للميلاد، وأعلنت الملكة هيلين اعتناقها لليهودية، وبفضلها انتشرت هذه الديانة. ويشير المؤرخون إلى حالات كثيرة من حالات تهود قبائل في الشرق الأوسط دون أن تجمعهم باليهود رابطة الدم أو يفهموا اللغة العبرية، أو يعرفوا أين تقع صهيون[1].

د ـ تهود قبيلة «جراوة» من بربر المغرب[2].

هـ ـ تهود الخزر: قامت مملكة للخزر في القسم الجنوبي من روسيا بين نهري الفولغا والدون، وامتدت إلى شواطئ بحري الأسود وقزوين. وفي عام 740م اعتنق بولان حاكم المملكة الديانة اليهودية، وتبعه في ذلك أفراد مملكته. واستناداً إلى هذه الحقائق، فإن كلاً من وايزمن وسيلفر ينحدران بأصلهما من سلالة الخازاريين الذين كانوا وثنيين قبل اعتناقهم اليهودية[3].

يبدو مما تقدم أن اليهودية ديانة اعتنقتها شعوب مختلفة العروق والأجناس، تماماً كالمسيحية والإسلام، وليس معقولاً على الإطلاق ادعاء الصهاينة بتحدر اليهود كافة، عبر كل العصور، بأنهم من سلالة إبراهيم. هناك يهود زنوج من مالبار، وهناك اليهود الأحباش (الفلاشا) لا يمتون بصلة إلى إبراهيم أو إلى العرق السامي. كما أن القيادات الصهيونية السياسية في إسرائيل المعاصرة، والمهاجرين اليهود من بولندا وروسيا والولايات المتحدة

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، المصدر السابق، ص723.

(2) المصدر السابق، ص723.

د. أحمد بيضون، تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول، بيروت، دار اقرأ، 1985 ـ ص226.

(3) الفرد ليلنتال مصدر سبق ذكره، ص238 ـ 239.

يتحدرون، بالتأكيد، من أصل قوقازي روسي انحدروا من سلالات اعتنقت اليهودية في منتصف القرن الثامن للميلاد[1].

ولعل أوضح تعبير عن هذا الشأن ما ذكرته الآنسة جاكلين هدامار التي أشارت إلى أصلها اليهودي، وإلى الآلام التي عانتها في معسكر النازيين، على أثر النداء الذي وجهه أدموند روتشيلد من أجل التضامن اليهودي في حزيران 1967 بقولها: «. . . إنه يتكلم عن شعب يهودي غير موجود. يوجد في العديد من البلاد أناس يدينون بالديانة اليهودية، ولا يجمع بينهم سوى ذلك. . . إنني أنتمي إلى الشعب الفرنسي كمعظم اليهود الفرنسيين» (جريدة لوموند 9، 10/ 8/ 1967)[2].

حقيقة «الوعد» وحقيقة «الموعودين» لاهوتيا

اتضح مما سبق استحالة ادعاء اليهود المعاصرين عامة بأنهم متحدرون من سلالة إبراهيم. ومن الأهمية بمكانة تبيان أمرين: أمر «الوعد» و«الموعودين» ونسلهم، وأمر الوعد المشروط وبطلانه لمخالفة شروطه.

بنت الصهيونية دعواها أساساً على ما يسمى بالوعود الإلٰهية السماوية لإبراهيم منذ أربعة آلاف سنة «. . . فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز إبرام (إبراهيم فيما بعد) إلى مكان شكيم (نابلس اليوم) إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض. وظهر الرب لإبرام وقال «لنسلك أعطي هذه الأرض». (تكوين 12/ 5 ـ 7). وحين قطع (الرب) هذا الوعد لم يكن لإبراهيم نسل بعد.

ومما يدعيه الصهاينة والأرثوذكس اليهود أن هذا الوعد مقصور على اليهود. ومن المغالطات المتعمدة وغير المتعمدة أن بعض الكنائس المسيحية

---

(1) Sami Hadauri, OP. Cit, P27.

إيلان هاليفي، مصدر سبق ذكره، ص132 ـ 134.

(2) إبراهيم العابد، دليل القضية الفلسطينية، بيروت، مركز الأبحاث، 1969، ص40.

الغربية أساء قادتها تفسير الكتاب المقدس فوقعوا في حبائل الدعاية الصهيونية باعتقادهم أنهم بمناصرة الصهيونية السياسية بأطماعها في اغتصاب فلسطين ينفذون «رغبة الله»، ويقربون مجيء «المسيا» وفي تأويلاتهم المغلوطة يخدمون الأهداف الصهيونية البعيدة[1].

بيد أن مشاهير علماء الكتاب المقدس المنصفين دحضوا الدعاوى الصهيونية والكنيسة المسيحية المغرضة استناداً إلى الكتاب المقدس نفسه. ومن هؤلاء الدكتور الفردغيوم (Alfred Guillaume) أستاذ الدراسات التوراتية في جامعة لندن، ومؤلف آثار متنوعة عن العهد القديم (التوراة)، وتضمن دحضه النقاط التالية:

1 ـ كان الوعد الأول الواضح بإعطاء فلسطين إلى إحفاد إبراهيم في شكيم (نابلس)، وذلك في سفر التكوين 12/7) «وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض...».

2 ـ وفي بيت إيل تكرر الوعد «لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (تكوين 13/15)، ولم يكن آنذاك لإبراهيم نسل بعد.

3 ـ وفي وعد لاحق أكثر تحديداً «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. القينيين والقزنيين والقدوميين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين» (تكوين 15/ 18 ـ 19).

ويشرح الأستاذ غيوم ضلال هذا المزاعم المغلوطة المبنية على أساس باطل، بأن هذه الوعود المبذولة مقصورة على اليهود. ويشير إلى أن ما تقوله التوراة ليس كذلك. فإن كلمات «إلى نسلك» تشمل، بدون شك، العرب المسلمين منهم والمسيحيين الذين هم من ذرية إبراهيم عن طريق ابنه

---

(1) أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص17.

إسماعيل. وإسماعيل هو الأب المعروف لعدد كبير من القبائل العربية. وسفر التكوين يسجل أن إبراهيم أب لكثير من القبائل العربية الشمالية عن طريق زوجته الثانية قطورة «وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة. فولدت له زمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوما (تكوين 25/ 1 ـ 2). ولا يمكن الجدل ـ كما يقول غيوم ـ أن ما ورد في سفر التكوين 21/ 8 ـ 12) يلغي بالضرورة الوعد المبذول لنسل إبراهيم ككل: «. . وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. وفي كل ما تقوله سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك».

وتجدر الإشارة إلى أن إبراهيم حين تم عقد الميثاق بينه وبين «الرب» عند ختان ابنه إسماعيل من زوجته هاجر كان المناسبة بالوعد بأرض كنعان «وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلٰههم» (تكوين 17/ 8). فقد كان إسماعيل هو الذي جرى اختتانه ولم يكن إسحاق ـ الذي يدعي الصهاينة انحدارهم من نسله ـ قد ولد بعد زمن الوعد المذكور. «أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلٰها لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلٰههم» (تكوين 17/ 4 ـ 8).

ويستطرد الأستاذ غيوم في ملاحظاته فيقول: صحيح أنه من الآن فصاعداً، تؤخذ عبارة (نسل إبراهيم) لتعني بني إسحاق (الإسرائيلين)، ولكن

في البداية لم يكن الأمر كذلك. فقد كان لنسل إسماعيل الحق في أن يعتبروا أنفسهم أنهم من ذرية إبراهيم. وحين أزاح السبي الآشوري سكان السامرة، وأزاح الأسر البابلي سكان يهوذا، رأى الأنبياء الإسرائيليون في هذه النكبات تحقيقاً للعدالة الإلٰهية بالاقتصاص من شعب عاص ومتمرد على الناموس. ولكنهم علّموا شعبهم أن بقية منهم سوف تعود. وعادت بقية منهم، وأعادت بناء الهيكل وبناء أسوار للقدس. وبعد العودة مارسوا لفترة قصيرة الاستقلال السياسي، وتمكنوا من التوسع في عهد المكابيين، وبذلك تكون نبوءات العودة قد تحققت، ولا يمكن أن تتحقق مرة ثانية. وليس في التوراة أية إيماءة بعودة ثانية بعد الرجوع من بابل الآن:

1 ـ جميع اليهود الذين رغبوا في العودة من السبي البابلي، عادوا إلى الأرض المقدسة، رغم أن الكثرة منهم آثروا البقاء ببابل، وشكلوا يهود الشتات.

2 ـ مات آخر الأنبياء قبل خراب القدس عام 70م بقرون، ولم تظهر نبوة بعودة جديدة[1]. يرى الدكتور وليم ستنسبرينغ (William H. Stinespring)، أستاذ العهد الجديد والساميات في جامعة ديوك في ولاية كارولينا الشمالية، وقس الكنيسة البريسبيتارنية (Presbyeterian)، أنه لا يوجد أساس في العهد القديم أو الجديد من الكتاب المقدس يدعم الدعاوى الصهيونية بأن دولة يهودية عصرية في فلسطين نشأت تحقيقاً لنبوءات توراتية وأن «الوعود» السماوية، وفق النبوءات تشمل كل الجنس البشري وليس اليهود أو الصهاينة وحدهم. وعبارات النصر والخلاص

(1) Sami Hadauri OP. Cit, P24-25.

أحمد طربين المصدر السابق، ص18 ـ 19. المصدران مقتبسان عن:

Alfred Guillaume, Israel According to the Holy Scripture, Cedar Ropid, Ingrom Press, P11-15.

Walid Khalidi, ed OP. Cit, P25-45.

في معناهما التوراتي الحقيقي تقوم على الأعمال الروحية والدينية وليس على الفتح والتسلط على الأعداء السياسيين. وبتحديد أكثر، فإن تعابير «إسرائيل» و«إسرائيل الجديدة» و«إسرائيل الله في العهد الجديد (الأناجيل) تنطبق على الكنيسة المسيحية المثالية أو على المؤمنين الحقيقيين بالمشاعر الدينية. ويستطرد الدكتور ستنسبرنغ في التركيز على أنه لا مؤمن مسيحي حقيقي بالعهد الجديد يربكه التمييز بين إسرائيل المعاصرة التي قامت بالقوتين السياسية والعسكرية واغتصاب حقوق أهالي البلاد، وبين إسرائيل الله بالمعتقد المسيحي. فهذان «الإسرائيليان». يتناقضان. ويتابع قائلاً: حتى بدون دلالات العهد الجديد المحددة فيما يتعلق بالوعود الروحية والدينية لإسرائيل العهد القديم في مضمونه الحقيقي حسب أكثر المفسرين إشارات إلى مملكة روحية لكل الجنس البشري وليس لإسرائيل السياسية التي تغتصب أرض وممتلكات شعب آخر وتجعله في مرتبة ثانية. ويمضي إلى القول: اليهودية كالمسيحية لها تاريخ مديد منذ الأزمان التوراتية والتبصر الجيد للتقليد المتبع يوصل إلى إسرائيل الروح لا إسرائيل الجسد(1).

ويقول الدكتور دافيد ر. سللرز (David R. Sellers) أستاذ العهد القديم سابقاً وعميد معهد ماك كورمك اللاهوتي (Mc Cormick Theolgical) قس الكنيسة المشيخية) إن بداية الكنيسة المسيحية حفظت العهد القديم كأدبيات مقدسة، كان ذلك لاعتقاد المسيحيين بأن ديانتهم ليست ديانة جديدة كلياً ولكنها تتمة للقديم. الوصايا العشر باق مفعولها، ونبوءات مجيء «المسيا» تمت بمجيء المسيح يسوع. المبشرون الأول، خاصة بولس، علموا الأغيار أنهم بقبولهم المسيح ينالون المواعيد التي أعطيت لإسرائيل «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً، ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة، فكل الذين

---

(1) Sami Hadaun, OP. Cit, P25-26.

يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلامة ورحمة وعلى إسرائيل الله» (غلاطية 6/ 15 ـ 16). إسرائيل الله ـ حسب بولس ـ هي جماعات كل المؤمنين. ويتابع سللرز قائلاً: المسيحي المستند إلى الكتاب المقدس يرى أن إسرائيل ليست وحدة جغرافية أو أثنية أو سياسية، ولكنها جماعة كل المؤمنين، هذه (إسرائيل الله)[1].

ويؤكد المطران جوناثان ج. شيرمان (Jonathan G. Sherman)، مطران نيويورك، أن الله ليس معنياً بغزوات الجيش الإسرائيلي وأمن واقتصاد وتقدم إسرائيل المعاصرة، وأن نبوءات أنبياء التوراة تحققت عندما تم تدمير إسرائيل كأمة عام 722ق.م، وعند حصول السبي البابلي عام 586ق.م. ماذا بعد؟ ما يرضي الله ـ حسب ما قاله الأنبياء ـ الصلاح والعدالة والرحمة، علاقة الله بالإنسان المتضمنة علاقة الإنسان بالإنسان.

الله في الميثاق القديم وعد أبناء إسرائيل بنصر عسكري على أعدائهم ليدخلوا أرضاً تدر لبناً وعسلاً بشرط إطاعة هؤلاء الأنبياء لتعاليمه. إسرائيل فشلت في حفظ الميثاق، وهكذا خسرت وعد الله. ولكن الله بميثاق جديد وعد أن يكون مكتوباً ليس على صفائح حجرية بل في قلوب شعبه (آرميا 31/ 31 ـ 33)، (رسالة بولس الأولى إلى كورنتونس 3/ 2). بهذا الميثاق الجديد المسيح هو الوسيط (عبرانيون 8/ 6 ـ 13، 9/ 5) الذي يعطينا الانتصار على الخطيئة والموت (كورنتوس الأولى 15/ 5 ـ 7) بدلاً من أرض كنعان، يعطينا مملكة بدلاً من العسل واللبن، يعطينا ثمرة الروح المحبة والفرح والسلام والتسامح (كورنتوس الثانية 1/ 20)[2]. بدوره الدكتور الحاخام المربرغر (Elmer Berger) توصل إلى النتيجة ذاتها التي توصل إليها باحثون لاهوتيون مسيحيون مضيفاً أنه: لا أرثوذكسي يهودي يعتقد أن دولة إسرائيل الحالية خرجت إلى الوجود تحقيقاً لنبوءات توراتية. يوجد يهود أرثوذكسيون يتبرأون

---

(1) Ibid, P26.

(2) Ibid, P26.

بالحقيقة من دولة إسرائيل المعاصرة لأنها باعتقادهم تجديف على النصوص التوراتية. فمجموعات «ناثوري كارتا» التي تقطن القدس تعتبر دولة إسرائيل الحالية مظهراً مدمراً لمعتقداتهم الدينية، وهم يمارسون تحديات متكررة للسلطات الإسرائيلية. وفي الولايات المتحدة جماعات يهودية أرثوذكسية تعارض وجود دولة إسرائيل المعاصرة لأنها لم تقم نتيجة لإتمام كلمة الله، ولأنها قامت نتيجة لجهد صهيوني سياسي بشري. ولذلك لا يمكن الادعاء بأنها إتمام لنبوءة توراتية، وهي بالتالي لا تمثل الحلم المسياني في منظورهم. إنها دولة مدنية مجردة من صهيون ولا تمت بصلة إلى نبوءات التوراة[1].

الوزير اليهودي البريطاني السير أدوين مونتاغيو، وزير الهند في وزارة لويد جورج التي أصدر وزير خارجيتها وعد بلفور المسمى باسمه (2/ 11/ 1917)، رد على زملائه الذين أيدوا إصدار الوعد بقوله: «أنا أنكر أن فلسطين اليوم ذات صلة باليهود. . .»، وتابع قائلاً: إن الصهيونية كانت تبدو لي دائماً عقيدة سياسية مؤذية لا يمكن لأي مواطن مخلص للمملكة المتحدة أن يدافع عنها»[2].

يتبين مما تقدم:

أ ـ أن «الميثاق» أعطي لإبراهيم قبل أن يولد له بنون.

ب ـ أن «الميثاق» الأول كان عند اختتان إسماعيل يوم لم يكن إسحاق قد ولدته ساره.

جـ ـ أن «الميثاق» كان مشروطاً، وأن مخالفته تلغيه، وهذا ما حدث بالفعل.

د ـ أن النبوءات تحققت بعودة اليهود من السبي البابلي، ولم تظهر نبوة جديدة تنبئ بعودة أخرى بعد دمار الهيكل والتشتت عام 70م.

هـ ـ أن «الميثاق» المتضمن» الوعد» بأرض «الميعاد» كان لكافة ذرية إبراهيم وليس مقصوراً على اليهود وحدهم. «لنسلك أعطي هذه الأرض»

---

(1) Ibid, P27.

(2) Ibid, P28.

(تكوين 12/ 7)، والأرض المقصودة أرض كنعان غير المحددة التخوم. وبركة الرب لم تكن مقصورة على أمة بل على أمم «وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تكوين 12/ 3).

وفي وعد لاحق «وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه: ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد» (تكوين 13/ 14 ـ 16)، «ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك» (تكوين 15/ 5). ونقرأ أيضاً «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» (تكوين 15/ 18). ويتكرر الوعد لكل نسل إبراهيم «وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً» (تكوين 17/ 8)، «أباركك مباركة وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر» (تكوين 22/ 17 ـ 18)، (وأكثر نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض» (تكوين 26/ 4).

فسر اليهود وبعض الطوائف البروتستانتية الأصولية أن نسل إبراهيم مقصور على اليهود، وكذلك «الميثاق»، متوهمين أن كلمة «النسل» تعني التناسل الجسدي، مع أن ذلك مجاف للنصوص، وقد سبق نفي ذلك وتقريع يوحنا بن زكريا لمن يدعي هذا الوهم «ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبا، لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» (لوقا 3/ 8)، «أجابوا وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم» (يوحنا 8/ 39).

وفي العهد الجديد إشارات إلى «الوعد» وإلى «النسل». «عضد إسرائيل فتاه ليذكر رحمة. كما كلم آباءنا لإبراهيم ونسله إلى الأبد» (لوقا 1/ 54 ـ 55). وإسرائيل هنا المسيح يسوع (راجع خروج 4/ 22) و(هوشع 11/ 1) و(متى 2/

15). ونقرأ «القسم الذي حلف لإبراهيم أبينا» (لوقا 1/ 73) وفي (يوحنا 8/ 56) «أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي وفرح»، وفي (بطرس 1/ 10 ـ 12)، «الخلاص الذي فتّش وبحث عنه أنبياء. الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم. باحثين أي وقت وما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها. الذين أُعلن لهم أنه ليس لأنفسهم بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور التي أُخبرتم بها أنتم الآن بواسطة الذين بشروكم في الروح القدس المرسل إلى السماء التي تشتهي الملائكة أن تطّلع عليها». و(لوقا 10/ 24) و(متى 13/ 17). وفي (عبرانيين 11/ 13) «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض». وفي رسالة بولس إلى (غلاطية 3/ 19) «فلماذا الناموس. قد زيد بسبب التعديات إلى أن يأتي النسل الذي قد وعد له مرتباً بملائكة في يد وسيط». وأيضاً في (غلاطية 3/ 16) «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم ونسله. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفي نسلك هو المسيح».

في (غلاطية 3/ 16) كلمة «النسل» ترمز إلى المسيح يسوع. أما في (رومية 4/ 13 و14 و16) فترمز كلمة «النسل إلى المؤمنين» فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم بل ببر الإيمان. لأنه إن كان الذين من الناموس (أي اليهود) هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد. . . لهذا هو من الإيمان كي يكون على سبيل النعمة ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس (أي اليهود) فقط بل أيضاً لمن هو من إيمان إبراهيم الذي هو أب لجميعنا» (أي المؤمنين بالمسيح يسوع).

أبناء الجسد وأبناء الإيمان

فسر اليهود وبعض الشيع المسيحية الغربية أن «الميثاق» مقصور على اليهود الذين يزعمون التحدر الجسدي من صلب إبراهيم، وأنهم وحدهم هم من نسله دون سواهم. وقد سبق دحض ذلك (لوقا 3/ 8) و(يوحنا 8/ 39)

و(يوحنا 8/ 53). ومن المغالطات ما ذهب إليه بعض الشراح من اليهود والمسيحيين الغربيين في مقولاتهم بأن كلمة «النسل» تعني أولاد الجسد، بينما العهد الجديد يخبرنا عكس ذلك تماماً. «ولكن ليس هكذا حتى أن كلمة الله قد سقطت. لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم جميعاً أولاد. بل بإسحاق يدعى لك نسل. أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً» (رومية 9/ 6 ـ 8). ويضيف بولس في شرح هذه النقطة «اعلموا إذاً أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم» (غلاطية 3/ 7). ويضيف مفصلاً شرحه لكلمة «نسل» «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفي نسلك الذي هو المسيح» (غلاطية 3/ 16). ويتابع قائلاً: «اعلموا إذاً أن الذين من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم (أي الوثنيين) سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم. إذ هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن... لتصير بركة إبراهيم للأمم في المسيح يسوع لتنال بالإيمان موعد الروح» (غلاطية 3/ 7 و8 و9 و14).

وكما اتضح أولاً، استناداً إلى نصوص الكتاب المقدس، سقوط الافتراض بأن اليهود وحدهم هم من نسل إبراهيم، اتضح ثانية أن أبناء إبراهيم هم أبناء الإيمان لا أبناء الجسد، وأن النسل الذي سيرث الأرض هم المؤمنون بالمسيح، وهو الأمر الذي لم يفعله اليهود قط.

عدد النسل وحقيقة الموعد

تشير التوراة لعدد نسل إبراهيم بأنه «كتراب الأرض» (تكوين 13/ 14 ـ 16) و«كعدد النجوم» (تكوين 15/ 5)، و«كالرمل» (تكوين 22/ 17). والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان عدد اليهود عبر مراحل التاريخ مثل ما تشير هذه النصوص؟ الجواب الحتمي ليس كذلك. إذن من هو هذا النسل المشار إليه في سفر التكوين؟ الجواب في رسالة بولس إلى رومية «وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر فإيمانه يحسب له براً. كما يقول داود في

تطويب الإنسان الذي يحسب له الله براً بدون أعمال. طوبى للذين غفرت آثامهم وسترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لا يحسب الرب له خطية. أفهذا التطويب هو على الختان فقط أم على الغرلة أيضاً؟ لأننا نقول إنه حُسب لإبراهيم الإيمان براً. فكيف حُسب. أو هو في الختان أم في الغرلة. ليس في الختان بل في الغرلة. وأخذ علامة الختان ختماً لبر الإيمان الذي كان في الغرلة ليكون أباً لجميع الذين يؤمنون وهم في الغرلة كي يُحسب لهم أيضاً البر. وأباً للختان للذين ليسوا من الختان فقط بل أيضاً يسلكون في خطوات إيمان أبينا إبراهيم الذي كان وهو في الغرلة. فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم بل ببر الإيمان. لأنه إن كان الذين من الناموس (أي الذين اتبعوا شريعة موسى والتوراة) هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد. لأن الناموس ينشئ غضباً إذ حيث ليس ناموس ليس أيضاً تعدٍ (أي اليهود) لهذا هو من الإيمان كي يكون على سبيل النعمة ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس فقط بل أيضاً لمن هو من إيمان إبراهيم الذي هو أب لجميعنا. كما هو مكتوب إني قد جعلتك أباً لأمم كثيرة (ليس لليهود فقط) أمام الله الذي آمن به الذي يحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة. فهو على خلاف الرجاء آمن على الرجاء لكي يصير أباً لأمم كثيرة كما قيل هكذا يكون نسلك» (رومية 4/ ـ 18).

وفي رسالة إلى أهل غلاطية يقول في هذا المعنى: «كما آمن إبراهيم بالله فحسب له براً. اعلموا إذاً أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم. والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم (غير اليهود) سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك الأمم. إذ الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن» (غلاطية 3/ 6 ـ 9).

قد يتساءل البعض لماذا التوراة (الناموس)؟ يجيب بولس «فلماذا الناموس قد زيد بسبب التعديات إلى أن يأتي النسل الذي قد وعد له مرتباً بملائكة في يد وسيط فلا يكون لواحد. ولكن الله واحد. فهل الناموس ضد

مواعيد الله. حاشا. لأنه لو أعطي ناموس قادر أن يحيي لكان بالحقيقة البر بالناموس لكن الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ليعطى الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون. ولكن قبلما جاء الإيمان كنا محروسين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلن. إذا قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان. ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب. لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة» (غلاطية 3/ 19 ـ 29). يتبين مما تقدم أن المؤمنين هم نسل إبراهيم وليس أبناء الجسد هم نسله. وأن عدد المؤمنين لا يحصى واليهم يشير يوحنا في سفر الرؤيا (7/ 9) «بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف (يسوع) متسربلين بثياب بيض (رمز الإيمان) وفي أيديهم سعف النخل وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين. الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف».

وفيما يتعلق بهوية من يصفون أنفسهم أنهم «الشعب المختار» هل هم يهود ـ ساميون ـ عبرانيون ـ إسرائيليون ـ أم ماذا؟ فى سفر التثنية (26/ 5) يقول إبراهيم «أراميا تائها كان أبي». وفي الترجمتين السبعينية باللغتين اليونانية والإنكليزية «سورياً وليس أراميا. أما الزعم بأن اليهود المعاصرين جميعهم من نسل سام فهراء، وأكثريتهم اليوم ليسوا كذلك. وأما تسميتهم «عبرانيون» فليس ذلك نسبة للغتهم لأنه ليس للغة العبرية أي ذكر في العهد القديم، هناك إشارة إلى اليهود بلغتهم ولسانهم لا أكثر ولا أقل. ولفظة إسرائيليين نسبة إلى يعقوب الذي دعي إسرائيل. وهذه التسمية رمز للمسيح يسوع، وإلى ذلك إشارات في النبوءات «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني» (هوشع 11/ 1)، وتمت النبوءة «لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني» (متى 2/ 15)، (خروج 4/ 22).

وردت كلمة إسرائيل بالكتاب المقدس في مواضع عديدة بمعان مختلفة. ففي (إشعيا 41/ 8، 42/ 1، 43/ 10، 44/ 1. 45/ 24، 48/ 13 ـ 16، 49/ 1 ـ 3، 55/ 3 ـ 5) إشارات إلى المسيح يسوع وليس كما يدعي الصهاينة المسيحيون أنها تعني أمة إسرائيل. في حين نقرأ في أرميا (3/ 18 و5/ 11 و11/ 17، وفي حزقيال 9/ 9) أنها تشير إلى بيت يهوذا وبيت إسرائيل. إن النبوءات التي وردت على لسان بعض الأنبياء في القديم مثل أرميا (33/ 7 و22) إنما تشير إلى رجوع اليهود من السبي البابلي بعد سبعين سنة. في حين نقرأ في رسالة بولس إلى أهل غلاطية (6/ 16) إن «إسرائيل الله» هم الذين آمنوا بالمسيح يهوداً كانوا أم غير يهود. أما ما ورد على لسان دانيال (12/ 1) فكلمة شعبك هي إشارة إلى شعب المسيح، أي الذين آمنوا به وبمجيئه الأول (أعمال الرسل 11/ 24، (13/ 48)، (رؤيا 13/ 8).

الوعد المشروط ومخالفة اليهود له

من الثابت ـ استناداً إلى العهد القديم (التوراة) ـ أن «الوعد» كان مشروطاً «فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب» (خروج 19/ 5). وفي سفر التثنية (الإصحاح 28) تفصيل واسع للعهد وشروطه، بينما أعطيت النعمة مجاناً لكل مؤمن بالمسيح «لأن الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار» (يوحنا 1/ 17)، «متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح» (رومية 3/ 24).

يتبين لنا إذن أن الموعد كان مشروطاً بالصلاح والاستقامة وحفظ الوصايا الإلهية[1]. واستناداً إلى التوراة لم يتقيد اليهود بشروط العهد والوعد، فلقد خالفوا تلك الشروط، وهذا يعني بطلان الوعد. «قد أخطأ إسرائيل بل تعدوا

(1) Ibid, P24-25.
Naim Stifan Ateek, OP. Cit P108.
Paul Findley, OP. Cit, P245.

عهدي» (يشوع 7/ 11)، «فحمي غضب الرب على إسرائيل وقال من أجل أن هذا الشعب قد تعدوا عهدي الذي أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا صوتي. .» (قضاة 25/ 2)، «لم يحفظوا عهد الله وأبوا السلوك في شريعته. . . ولم يكونوا أمناء في عهده» (مزمور 78/ 10 و37)، «لأنهم تعدوا الشرائع غيروا الفريضة نكثوا العهد الأبدي» (إشعيا 24/ 5)، «قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدي الذي قطعته مع آبائهم» (أرميا 11/ 10)، «فنقضوا عهدي» (حزقيال 44/ 7)، «ولكنهم كآدم تعدوا العهد هناك غدروا بي» (هوشع 6/ 7)، «لأنهم قد تجاوزوا عهدي وتعدوا على شريعتي» (هوشع 8/ 1).

وأسفار التوراة حافلة بالتجاوزات والمخالفات للعهد والوعد، وعلى سبيل المثال لا الحصر نقرأ ذلك في عدة مواضع (عدد 14/ 11)، (قضاة 3/ 7)، (صموئيل الأول 2/ 22) (صموئيل الأول 8/ 7)، (الملوك الأول 18/ 40 و19/ 10)، (الملوك الثاني 17/ 7)، (الملوك الثاني 17/ 7 ـ 23): (إشعيا 1/ 1 ـ 20 و2/ 8 و29/ 13 و30/ 9 و30/ 12 و59/ 1 ـ 8)، (حزقيال 5/ 6 و22/ 9ـ 12)، (أرميا 2/ 5 و3/ 6، و3/ 20 و5/ 19 و5/ 23 و7/ 8 ـ 9 و13/ 10 و22/ 3).

وكان عقاب الرب تأديباً لهم (إشعيا 5/ 6 و5/ 13 و5/ 25)، (أرميا 18/ 11 و11/ 11 و15/ 2 و16/ 13 و17/ 3 ـ 4 و18/ 11 و19/ 7) والتبرؤ منهم «لأنكم لستم شعبي (هوشع 1/ 9)، «لأنكم شعب معاند ومقاوم» (رومية 10/ 21).

ولقد رأى أنبياؤهم أن السبيين الآشوري والبابلي كانا عقاباً إلهياً للشعب اليهودي لنكثه وتنكره لشروط الوعد والعهد. وبعد العودة من السبي لم تقم نبوءة تبشر بعودة جديدة، علماً بأن أكثرية اليهود السبايا آثروا البقاء ببابل ولم يعودوا، وأن آخر الأنبياء مات قبل دمار القدس والهيكل، عام 70م، بقرون[1] على يد تيطس. وهكذا تكون النبوءات بشأن العودة قد حدثت عندما عادت

(1) Sami Hadauri, OP. Cit, P25.

أعداد منهم من الأسر. ولم تظهر بعد تلك العودة نبوة لعودة لاحقة[1]. إنهم لم يعملوا بناموس موسى «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس» (يوحنا 7/ 19)، ولم يتقبلوا المسيح، ولما لم يفعلوا الأمرين بطل الوعد والعهد. «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره» (متى 21/ 43). وقال لهم (لليهود) السيد المسيح «هناك يكون البكاء وصرير الأسنان متى رأيتم إبراهيم وإسحاق ويعقوب وجميع الأنبياء في ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجاً. ويأتون من المشارق والمغارب ومن الشمال والجنوب ويتكئون في ملكوت الله. وهوذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين» (لوقا 13/ 18 ـ 30)، «وقال لهم يسوع الحق أقول لكم إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله. لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به. وأما العشارون والزواني فآمنوا به» (متى 21/ 31). العشارون آمنوا (لوقا 7/ 29) والزواني (مريم المجدلية) آمنت (لوقا 7/ 50) وبذلك يدخلون ملكوت السماء لا اليهود. لأنهم «استؤمنوا على أقوال الله» (رومية 3/ 2). لكنهم (اليهود) لم يكونوا أمناء» (رومية 3/ 3)، وإنهم أغلقوا «ملكوت السماوات قدام الناس» (متى 23/ 13)، ولأنهم فعلوا ذلك كان التقريع لهم «ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة. وما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم» (لوقا 11/ 52) ومن المعلوم أن الناموسيين هم أتباع موسى أي اليهود.

وفي رسالة بولس إلى أهل تسالونيكي تأكيد على مقاومة اليهود للبشارة بأعمال لا ترضي الله «الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن. وهم غير مرضين الله وأضداد لجميع الناس. يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكي يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين. ولكن قد أدركهم الغضب إلى النهاية» (أتسالونيكي 2/ 15 ـ 17).

يتبين مما تقدم بأن شروط الوعد والعهد لم يلتزم بها اليهود، ولم يؤمنوا

---

(1) Paul Findley, OP. Cit, P245.

بالمسيح، الأمر الذي يجعل العهد والوعد منسوخين. ومن جهة ثانية فإن النبوءات بشأن العودة قد تحققت بعودة اليهود من بابل، ولم تظهر نبوءة جديدة تلمح إلى عودة أخرى بعد شتات اليهود على أيدي الرومان عام 80م. وهذا يعني أنه لا علاقة للنبوءات بولادة دولة إسرائيل المعاصرة[1].

العودة والخلاص بقدرة إلهية لا بقدرة بشرية مادية

من الثابت أن عودة اليهود إلى فلسطين، وتأسيسهم فيها دولة معاصرة تم بقدرة بشرية مادية استندت إلى السيف وإلى الدعم الغربي السياسي والعسكري والاقتصادي، ولم تحدث بمشيئة إلهية تحقيقاً لنبوءات توراتية. وكنا قد أوضحنا أن النبوءات بالعودة تحققت حين تم رجوع بعض اليهود من السبي البابلي. ومن الثابت أيضاً أنه بعد دمار القدس عام 70م لم تظهر أية نبوءة تشير إلى عودة لاحقة. والوعد الأول بالعودة من بابل لم يكن وعداً بتملك الأرض الفلسطينية بل بسكب روح الله على العائدين[2] «لأني أسكب ماء على العطشان وسيولاً على اليابسة. أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك» (إشعيا 44/ 3 ـ 4). وخلافاً لما نهى عنه ميخا فإنهم بالقوة فعلوا ويفعلون كل ما نهى نبيهم عنه «ويل للمفتكرين بالبطل والصانعين الشر على مضاجعهم في نور الصباح يفعلونه لأنه في قدرة يدهم. فإنهم يشتهون الحقول ويغتصبونها والبيوت ويأخذونها ويظلمون الرجل وبيته والإنسان وميراثه (ميخا 2/ 1 ـ 2).

إن روح اليهودية تقرر أن «الخلاص» يتم بقدرة إلٰهية وليس بقدرة بشرية «وأما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بالرب إلٰههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وحرب وبخيل وفرسان» (هوشع 1/ 7)، «وكلمني قائلاً هذه كلمة الرب إلى زربابل قائلاً لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود» (زكريا 4/ 6)، «لأنه قال بقدرة يدي صنعت وبحكمتي لأني فهيم ونقلت تخوم شعب ونهبت

(1) Ibid, P245.

(2) Naim Stifan Ateek, OP. Cit, P111.

ذخائرهم وحططت الملوك كبطل» (إشعيا 10/ 13)، «يرد الرب إلٰهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلٰهك. إن يكن بددك إلى أقصى السماوات فمن هناك يجمعك الرب إلٰهك ومن هناك يأخذك» (تثنية 30/ 3 ـ 5).

إن الأرثوذكسيين اليهود يؤمنون بأن «الخلاص» يأتي بمجيء المسيا الذي سيبني صهيون خلافاً لما فعله الصهيونيون[1]. وقد اعتبر كبير حاخامي بولندا، عام 1939، أن كل أشكال الصهيونية غير نظيفة وأنه من المفروض انتظار مجيء المسيا ليقود اليهود إلى الأرض المقدسة لا أن يقوم الصهاينة أنفسهم بذلك[2]. وعلى هذا الأساس تصر جماعات ناتوري كارتا الأرثوذكسية على أن دولة إسرائيل ليست إتماماً لنبوءات وأنها معادية لليهودية[3]. أما المسيحيون فيؤمنون بأن النبوءات تحققت بمجيء المسيح[4].

ولو نظرنا إلى عقيدة «الماشيح» وموقف الصهاينة منها، لوجدنا الرفض نفسه في اليهودية للمفهوم الصهيوني. ومن المعروف أن التصور الأرثوذكسي اليهودي التقليدي ارتكز على الجانب الإلٰهي لعودة الماشيح، وعلى الماشيح بوصفه أداة الله في الخلاص، الأمر الذي أدى إلى تهدئة حدة التطلعات الماشيحانية عند اليهود. وبناء عليه، أصبح من الواجب على اليهود ـ حسب هذا التصور والتفسير ـ انتظار عودة الماشيح في صبر وأناة. ومشيئة الله وحدها هي التي سترسل به، ويصبح من الكفر بمكان أن يحاول فرد أو جماعة ما تحقيق الإرادة الإلٰهية بأنفسهم، آخذين زمام المبادرة، ويقرروا أن التاريخ قد انتهى الآن وهنا، وأن العصر الماشيحاني قد بدأ. ويقول الحاخام المربرجر إن

---

(1) Andrew J. Hurley, Israel and the New World Order , Santa Barbara, Fithian Press, 1991, P35.

(2) Walid Khalidi, ed, OP. Cit. P.448-449.

(3) Sami Hadauri, OP. Cit, P27.

(4) حنا صلاح (إعداد) فلسطين وتجديد حياتها، نيويرك، المطبعة التجارية السورية الأميركية 1919، ص153.

الماشيح سيأتي حسب الرؤية الدينية التقليدية في الوقت الذي يحدده الرب وبالطريقة التي يراها، ولا يملك الإنسان القاصر بطبيعته سوى الانتظار؛ ولذا نجد أن بعض نصوص التلموذ تعتبر العودة إلى فلسطين مخالفة أكيدة للوصايا الإلٰهية. وقد جاء مثل هذا المعنى في رسالة بعث بها صحفي يهودي إلى هرتزل يذكره فيها بأن تعاليم التلمود «تحظر على اليهود أن يأخذوا فلسطين بالقوة أو يقيموا لهم دولة هناك». بل أكد أحد الحاخامات أنه «لا توجد أية إشارة لمبدأ أو عقيدة العودة إلى فلسطين في كل المحاولات التي تمت في العصور الوسطى لصياغة عقيدة يهودية»[1].

ومن الواضح أن الصهاينة يرفضون هذه الفكرة أيضاً، فعندما سأل الملك فيكتور عمانوئيل الثاني، ملك إيطاليا هرتزل عما إذا كان لا يزال يتوقع عودة الماشيح، أجاب الزعيم الصهيوني في حرج واضح مؤكداً للملك أنهم يؤمنون بهذه الفكرة في الأوساط الدينية وحدها، «أما في دوائرنا الأكاديمية المستنيرة فليس لمثل هذه الفكرة من وجود بطبيعة الحال». وقد وصف دافيد بن غوريون فكرة عودة الماشيح من وجهة نظر الصهيونية بأنها شديدة «السلبية»، ويرى سمولنسكين أن الصهاينة لا علاقة لهم بعودة الماشيح المخلص، فهم يودون العودة «لإيجاد الرزق في أرض نأمل منها أن توفر الراحة للذين يعملون عليها». ويفرق ماكس نوردو بين الصهيونية الحديثة والصهيونية الدينية القديمة (أو حب صهيون التقليدي وفكرة الماشيح والعودة) قائلاً: إن الصهيونية الحديثة «سياسية وليست كالأخرى صوفية دينية، فهي غير مرتبطة بالرؤى الماشيحانية، ولا تتوقع العودة إلى فلسطين بمعجزة، بل ترغب في إعداد طريق العودة بجهودها الخاصة». وبذا يمكن أن تتم العودة عن طريق المناورات السياسية أو العنف أو القهر أو أي طريق علمانية أخرى[2].

يتضح مما تقدم وجود تيارين يهوديين: ديني أرثوذكسي يعتقد أصحابه

(1) عبد الوهاب محمد المسيري، مصدر سبق ذكره، ص220.

(2) المصدر السابق، ص220 ـ 221.

أن «الخلاص» يتم بمعجزة على يد الماشيح المنتظر، وتيار علماني ينتهج أتباعه السياسة والقوة لتحقيق «الخلاص»، بيد أن التيار الثاني راعى في تبنيه ما وجده مناسباً له في الأخذ ببعض المقتطفات من التوراة التي تصف اليهود بأنهم «الشعب المختار» وببعض المقتطفات التي تتمحور حول «الوعد» بأرض الميعاد. وهمُّ هذا التيار من ذلك تسخير الدين لمآرب سياسية. ويتضح أمر التسخير في تجاهل آباء الصهاينة أول الأمر للشأن الديني والتركيز في تسويغ البرنامج السياسي على الدعوة القومية العلمانية الهادفة إلى مجرد إنقاذ اليهود من الاضطهاد. وقد تحاشى هؤلاء الآباء الدعوات الميتافيزيقية أو الدينية، ولقد أبدى التيار الأرثوذكسي اعتراضاً لاهوتياً على تلك الدعوات. «كان اعتراض الأرثوذكسيين على الصهيونية اعتراضاً لاهوتياً وقد نشأ عن نية الصهيونيين عكس مسار التاريخ اليهودي وإعادة صنع الشعب اليهودي ـ أو بالأحرى تخليصه) ـ بفعل القدرة الإنسانية البحت. فقد كان رأي الأرثوذكسيين الثابت أن حال اليهود في شتاتهم، مع ما يصاحبها من رزايا، إنما هي حال قضاها الله بقضائه، وأن السعي لتبديلها من دون أمر إلٰهي كفر، ولا طائل فيه طبعاً. وكان اليهود، على الضد من ذلك، ملزمين إلزاماً دينياً بأن ينتظروا الخلاص على يدي المسيح مع الصبر والتسليم بالقضاء الإلٰهي، إلى أن يأذن الله في ذلك»[1].

فالحاخام حاييم سولوفيتشيك، أبرز الحكماء الحسيديين في نهاية القرن التاسع عشر، كتب يقول سنة 1899: «إن كل واحد من الصهيونيين سيئ السمعة في بلدته... وإن مقصدهم كما أعلنوه ونشروه، هو اقتلاع الديانة من أصولها». وفي سنة 1911 نبّه سمسون رفائيل هيرش، مؤسس الأرثوذكسية المحدثة، اليهود إلى أن عليهم «ألا يحاولوا أي عمل من تلقاء أنفسهم من أجل استرداد سيادتهم، بل عليهم أن يؤدوا مهمتهم في الشتات، منتظرين

(1) إيان لوستك، مصدر سبق ذكره، ص34.

الخلاص بواسطة التدخل الإلٰهي». ووقفت الموقف نفسه أغودات يسرائيل، «منظمة اليهود «المخلصين للتوراة» التي كان من ضمن أهداف تأسيسها سنة 1912 في بعض البرامج العملية لمساعدة اليهود في العيش في فلسطين بحسب ما تنص شريعتهم عليه، فقد أدانت أغودات يسرائيل والحاخامون البارزون في صفوف اليهودية التقليدية الصهيونية السياسية وعدوها محاولة خطرة «لتعجيل الساعة» وصورة حديثة من صور عبادة الأصنام. حتى إن الصهيونية المتدينة أنكرت صراحة أية دلالة روحية للمشروع الصهيوني. وقد صوّت المزراحي إلى جانب اقتراح تيودور هرتزل، سنة 1903، بقبول أوغندا بدلاً عن فلسطين، وبقيت منظمة اليهود «المخلصين للتوراة، (أغودات يسرائيل) منذ سنة 1912 حتى سنة 1948 تصر على حصر «الخلاص» بمعجزة إلٰهية لا بنشاط صهيوني سياسي[1].

يبدو واضحاً مما تقدم أن الحركة الصهيونية حركة علمانية سعت «للخلاص» بأساليب سياسية متعارضة مع روح اليهودية، وأنها في الوقت ذاته حاولت أحياناً إسباغ الطابع الديني على نفسها لتحقيق مآرب سياسية بتأويلات تعسفية تخدم أغراضها الاستعمارية، كالضرب على وتر «الوعد» و«أرض الميعاد» و«الشعب المختار»، ساعدها على ذلك ومهد لها الطريق وناصرها بقوة، ولا يزال، الصهاينة المسيحيون في الغرب.

تبديد أسطورة «الشعب المختار»

عمدت الحركة الصهيونية إلى استغلال مقولة «الشعب المختار» كاستغلالها لمقولتي «الوعد» و«أرض الميعاد» رغم علمانية هذه الحركة. ولقد أسيء استعمال عبارة «الشعب المختار» عن تعمد لاستغلال الدين للمصالح السياسية، كما أسيء استعمال مقولتي «الوعد» و«أرض الميعاد»[2]. وهذا ما

(1) المصدر السابق، ص34 ـ 36.

(2) Naim stifan Ateek, OP. Cit, P66, 77.

أكده مورتز غوريمان، رئيس حاخامي فينا بقوله: «إن عبارة (شعب الله المختار) التي كثيراً ما أسيء تفسيرها، إنما تعني اختيار الله لليهود لتحقيق رسالتهم الدينية وليس التركيز على طابع قومي»[1]. فالصهيونية اعتمدت على الدعايات الدينية الواسعة على أن اليهود هم «شعب الله» المختار لدعم قضيتهم بغية تحويل اليهودية من دين موحد إلى حركة سياسية لتخلق منها أمة يهودية لها طابعها السياسي ضمن أرض فلسطين[2].

ومن الدلالات الواضحة على تسخير الصهيونية الدين لمآرب سياسية، المحاولات الجادة التي سعى إليها آباء الصهاينة لإنشاء وطن قومي خارج «أرض الميعاد» بالتخلي عن «الوعد». ومن بين تلك الأماكن: مدين، الأرجنتين، منطقة البقاع في لبنان، منطقة حوران السورية، شرق الأردن، قبرص، العريش، أوغندا، الكونغو، العراق، ليبيا، انغولا، الخليج العربي[3].

وثمة دليل قاطع هو ما ورد في المبدأ الخامس من إعلان المؤتمر الحاخامي الخامس الذي عقد في بتسبرغ، في عام 1885: «نحن نرى في العصر الحديث، عصر الحضارة والعقل، اقتراباً لتحقيق أمل إسرائيل المسيحي العظيم لأجل إقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر. نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم، بل جماعة دينية. ولذا لا نتوقع عودة إلى فلسطين، أو عبادة قربانية في ظل أبناء هارون، ولا استرجاعاً لأي من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية»[4]. وحتى هرتسل تخلى كلياً عن أي ادعاء بحقوق دينية أو تاريخية لليهود في فلسطين أثناء مقابلة الامبراطور الألماني عام 1898: «نحن

(1) الصهيونية حركة عنصرية، أبحاث مؤتمر طرابلس حول الصهيونية والعنصرية، ترجمة عدنان كيالي، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص204.

(2) الفرد ليتال، مصدر سبق ذكره، ص187.

(3) أمين عبد الله محمود، مصدر سبق ذكره، ص189 ـ 232.

(4) إبراهيم العابد، مصدر سبق ذكره، ص44.

لا تربطنا بهذه الأرض المقدسة (فلسطين) أية حقوق ملكية صحيحة. لقد مرت أجيال عديدة منذ كانت هذه الأرض يهودية. وإذا تحدثنا عنها، نتحدث فقط مثل ما يتحدث المرء عن حلم من الزمن العريق في القدم...»[1].

بيد أن الحركة الصهيونية كانت على بينة من المصالح البريطانية في الاستيطان اليهودي بفلسطين، وكانت على بينة أنها لا تستطيع تحقيق أهدافها دون مساندة اليهود في العالم، وقد استخدم الصهاينة في كسب تلك المساندة فكرة «النبوءات» الخيالية المرتكزة على «الوعد» الإلهي لمنح الصهيونية شحنة عاطفية بغية جعلها مقبولة عند بعض الأوساط اليهودية المؤمنة بقدوم «المخلص»، ويوماً بعد يوم أخذ اليهودي التقليدي يكرر: «أنا أعتقد بإيمان كامل كلي بقدوم المسيح وحتى ولو تأخر مجيئه فسوف أنتظر قدومه مع ذلك كل يوم». إن الأمل بهذا القدوم، لدى عشرات الأجيال، قد اتخذ مظهراً دينياً، ينصب على التطلع إلى قوة علوية، غير أن التوجه الصهيوني ارتكز على الجهد الذاتي لا السماوي، دون استبعاد النغمة الدينية بمعجزة العودة بقدرة إلٰهية، ولقد عملت الحركة الصهيونية على إحياء اللغة العبرية، والثقافة اليهودية، وعلى تدعيم الأمل بشأن العودة إلى فلسطين كهدف يوحد ما بين اليهود سياسياً، ويمكنهم من إقامة دولة يهودية يستطيعون في نطاقها أن يمارسوا شعائرهم ويؤدوا رسالتهم العالمية، وذلك عن طريق نشر مجموعة من المؤلفات الصهيونية التي تستهدف تجديد المفاهيم القديمة، وتكييفها مع الأفكار العقلانية الحديثة. «وبذلك تبدل الطابع الديني الذي عاش بشكل تضرع وتوسل لقوة فوق الطبيعة، ليتخذ شكلاً سياسياً وطنياً، وتحول الوعد إلى دافع داخلي عند اليهود يغذي إرادتهم وينظّم قواهم»[2].

وفكرة «الشعب اليهودي»، وهي فكرة محورية في العقيدة اليهودية

---

(1) المصدر السابق، ص43 ـ 44.

(2) أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص36 ـ 37.

خضعت هي ذاتها لعملية التفسير هذه، إذ يبين المفسرون أن الشعب المختار ـ هو في نهاية الأمر ـ من نسل آدم أبي البشرية جمعاء، وأن الله ـ حسب التصور اليهودي ـ هو رب الجميع، يبارك كل الشعوب ويعتبر اليهود مثل أبناء «الزنوج». ولذا ـ طبقاً لهذا التفسير ـ تضم رؤية الخلاص الشعوب كافة، حتى لو كان الشعب اليهودي هو محورها. ويرسم النبي إشعيا في نبوءته صورة لسلام عالمي يشمل «الأمم جميعاً»، «. . . لأنه من صهيون تخرج الشريعة من أورشليم كلمة الرب. فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» (إشعيا 2/ 3 ـ 4). وسوف يشمل السلام الجميع لأن الشعوب كافة أبناء الرب «مبارك شعبي مصر وعمل يدي أشور وميراثي إسرائيل» (إشعيا 19/ 25). فإشعيا هنا يطلب البركة لكل الشعوب، فرؤيته رؤية إنسانية شاملة، تماماً مثل قصة الخلق التوراتية[1].

ولكن بغض النظر عن تفسير فكرة الشعب المختار، فثمة إجماع بين الحاخامات الأرثوذكس على أن تعبير «الشعب اليهودي» في اليهودية تعبير ديني، يشير إلى طائفة المؤمنين المخلصين الذين يتوجهون بإيمانهم إلى الله الواحد، بل إن انتماءهم مشروط بمدى طاعتهم لله (كما بيّن المؤرخ توينبي). إن المفهوم الأرثوذكسي يرى الشعب على أنه طائفة من المؤمنين، الذين يقوم إيمانهم على العهد الديني بين الله والشعب، ولذا فبقاء اليهود مشروط بمدى إخلاصهم لله سبحانه وتعالى (وهذا التصور لا يختلف كثيراً عن التصور الإسلامي والمسيحي)؛ وكثيراً ما تشير الكتابات الدينية لليهود على أنهم شعب التوراة، بمعنى أنهم شعب مجموعة من القيم الدينية لا ينتمي لأرض معينة، ولذا فالحديث عن الولاء السياسي والقومي ـ من وجهة نظر هذا التفسير ـ هو تزييف للواقع الديني اليهودي. وتأسيساً على هذا يصبح واجب اليهودي أن ينتمي للبلد الذي يعيش فيه، وأن يحيا في سلام مع «مدينة الأرض»، شأنه في

---

(1) عبد الوهاب محمد المسيري، مصدر سبق ذكره، ص221.

هذا شأن جميع البشر (أي إن الاندماج يصبح واجباً دينياً من هذا المنظور). وقد قال النبي آرميا «واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام» (آرميا 29/ 7) (المدينة أي الوطن الذي تعيش فيه)، لأنه «بسلامها» تنعم بحياة هانئة[1]. لكن هذه الرؤية الدينية لم تلق قبولاً لدى الزعماء والمفكرين الصهاينة من أمثال بيرديشفسكي، وماكس نوردو، وهوراس كالن وكلاتزكين وسمولنسيكن. ولكن على الرغم من هروب هؤلاء من اليهودية ورفضهم لها، فإن الصهيونية، كأي أيديولوجية تعد أن تكسب شرعية وأن تجند الجماهير وراءها تستغل اليهودية لتضفي على نفسها صبغة دينية تحبب الجماهير فيها، وتظهر الصهيونية كما لو كانت امتداداً لليهودية وليست نقيضها. وهذا ما عبّر عنه كلاتزكين حين قال: إن الدين اليهودي يمكن أن يساهم في بلورة الروح القومية للشعب اليهودي.

وقد أدى ذلك إلى عملية الخلط بين المجالين الديني والسياسي، لأن في ذلك عامل جذب للجماهير اليهودية المتدينة في شرقي أوروبا. ولذا لجأت الصهيونية إلى تبني الرموز والأفكار الدينية المألوفة لدى هذه الجماهير (الشعب المختار، أرض الميعاد)، وحولتها إلى رموز وأفكار قومية. وقد وجد مؤسسو الصهيونية أن الصياغة شبه الدينية للبرنامج الصهيوني ستجعله محل قبول من الجميع، خصوصاً أن التركيب الاجتماعي والعرفي والحضاري والثقافي ليهود أوروبا ـ كان ولا يزال مركباً، فكان هنا يهود مندمجون، وآخرون منبوذون، ويهود أثرياء وآخرون فقراء، ويهود متدينون ويهود ملحدون، ويهود إصلاحيون ويهود أرثوذكسيون، وهناك من كان يود الهجرة من وطنه، وآخرون يؤثرون البقاء فيه، ولم يكن من الممكن تجنيد كل هؤلاء تحت لواء الأيديولوجية الصهيونية إلا عن طريق الإبقاء على أعلى مستوى من التجريد والإبهام وعدم التحدد، الذي يسمح بكثير من التفسيرات أو المضامين

(1) المصدر السابق، ص221 ـ 222.

المختلفة، الدينية واللادينية، التي تدخل في البنية الفكرية دون أن تغيّر أو تعدل فيها بشكل جوهري[1].

ومن اللافت للنظر أن بعض المفكرين الصهاينة، من أمثال الحاخام جيرمان كوغان، وفرانس تسفايغ، كوغان قد «أثبت» أن أسس الديانة اليهودية «لا تتعارض مع النظرة العلمية/ الفلسفية»، لأن ما أسموه «بالديانة الفلسفية» (اليهودية) هي «بحد ذاتها تكوّن فسلفة علمية دقيقة. فالفلسفة العلمية/ الدقيقة تعتمد أسس الديانة كشرط أولي لا غنى عنه». وحسب هذه الطريقة اليهودية في التفكير، يمكن الاستنتاج، أنه «كلما ازداد المرء قرباً من الله، اقترب أن يكون «مصلحاً» في هذا العالم. . ولم يبق أمام أتباع كوغان إلا أن يضيفوا بأن اليهود «أقرب» البشر إلى الله وأنهم أكثر الناس كفاءة «لإصلاح» البشرية، مدعمين قولهم هذا بالاستشهاد بمعلمهم وبالكتاب المقدس»!

وفي عام 1957 كتب مارتن بوبر في كتابه «أنا وأنت» ما يلي: «إن الضرورة المتبادلة بين الله والإنسان أكيدة، كحقيقة وجود الله نفسه»! «فالتخاطب مع الله» ـ من وجهة نظر بوبر ـ «مزية لا يحظى بها كل إنسان»، إنما يحظى بها، فقط، من كان حاملاً لمزايا وصفات «استثنائية خاصة». وإرادة التوحد مع الله، جعلت اليهودي «خالقاً» على حد زعم بوبر. وهذا، عدا عن كونه إثباتاً لعنصرية الصهيونية»، فإنه يصلح لتبرير كل الأعمال والممارسات العدوانية والأخلاقية الصهيونية.

أما المنظر الصهيوني الآخر فرانس تسفايغ، فهو قد جمع بين آراء كوغان وبوبر اللذين اعتبرهما «وجهين لميدالية واحدة» وحاول أن «يضع» برهاناً فلسفياً لفكرة «شعب الله المختار»، الفكرة الرئيسية عند اليهود في الكتاب المقدس. فاعتبر أن اليهود قد منحوا «الحياة السرمدية»، وهم يوجدون، دائماً، في «قمة التاريخ»، بينما يوجد الأوروبيون دائماً «في الطريق». وتقود

---

(1) المصدر السابق، ص222 ـ 226.

النزعة الصهيونية «الفلسفية» تسفايغ إلى تزوير التطور التاريخي ونفي التقدم. فهو يخاطب اليهود قائلاً: «لماذا تناضل؟ التاريخ ـ وهم»، «ففترة خلو عرش الملك» هي «لغير اليهود». فاليهود، الآن، في عصر «خلو عرش الملك» هم «ممثلو المملكة» في هذا العالم. ومن هذا المنطلق «يحاول أن يوحد طاقات العنصرية اليهودية ويجمع كل اليهود تحت «نجمة واحدة».

وتستخدم، اليوم، أفكار تسفايغ، على نطاق واسع من الصهاينة «لاستدراج» وتضليل وعي ملايين اليهود البسطاء. و«تبرير» الممارسات الامبريالية العدوانية للصهيونية «باسم الله والدين»[1].

حقيقة «الاختيار» والمقصد الإلٰهي منه

باديء ذي بدء علينا أن نؤكد أننا في تناولنا هذا الموضوع نستند إلى الكتاب المقدس، من دون إعارة أي اهتمام للجانب السياسي أو لجانب تأويلات المفسرين والشارحين المغرضة والمسيسة في غالبية الأحيان.

1 ـ حق الله وحريته في الاختيار:

من المسلم به هو أن إلٰهنا في السماء كلما شاء صنع «كل ما شاء الرب صنع في السماوات وفي الأرض وفي البحار وفي كل اللجج» (المزمور 135/ 6)، «وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل» (دانيال 4/ 35)، وأنه «هو الله في السماء وأنت المتسلط على جميع ممالك الأمم وبيدك قوة وجبروت وليس من يقف معك» (أخبار الأيام الثاني 20/ 6)، «لك يا رب الملك وقد ارتفعت رأساً على الجميع. والغنى والكرامة من لدنك وأنت تتسلط على الجميع وبيدك القوة والجبروت وبيدك تعظيم وتشديد الجميع» (أخبار الأيام الأول 29/ 11 ـ 12)، «يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن

---

(1) يفغيني يفسييف، مصدر سبق ذكره، ص85 ـ 87.

الاستقصاء. لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً. أو من سبق فأعطاه فيكافأ. لأن منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد آمين» (رومية 11/ 33 ـ 36)، «لأن أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الرب. لأنه كما علت السماوات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم» (إشعيا 55/ 8 ـ 9).

وفي بيع إخوة يوسف له كان خروجاً على ما كان مخططاً له من قبل الله، ويتبين ذلك عند تعريفه لهم بهويته «وقال يوسف لإخوته أنا يوسف» (تكوين 45/ 3)، ونقرأ في الإصحاح نفسه «والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا. لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم. . . فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقي لكم نجاة عظيمة. فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله» (تكوين 45/ 5 ـ 8)، «. . . لا تخافوا لأنه هل أنا مكان الله. أنتم قصدتم لي شراً. أما الله فقصد به خيراً لكي يفعل كما اليوم. ليحيي شعباً كثيراً» (تكوين 50/ 19).

من الواضح أن الله وحده صاحب الاختيار والقرار، وله الحرية المطلقة بذلك، وهو يملك زمام الأمور في كل حين، كما أنه يملك مطلق الحرية في نبذ الشعب الذي «اختاره» إذا لم يتمم هذا الشعب الهدف الإلٰهي الذي من أجله وقع الاختيار. فكما أن الخزاف له سلطان على الطين ويمكنه كسر الإناء الذي صنعه منه إذا ثبت عدم صلاحه، ويمكنه صنع سواه أكثر ملاءمة له، فكذلك سلطان الله على مخلوقاته. «بل من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله. ألعلّ الجِبلة تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا. أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان» (رومية 9/ 20 ـ 21).

2 ـ هل اختيار الله لليهود كان لأنهم أفضل من سائر الشعوب، وهل الله لليهود فقط؟

إن الله مرتبط بتاريخ إسرائيل لقصد، ولكنه ليس أسير ذلك التاريخ، كما أنه ليس إلٰهاً لشعب دون غيره، فهو إلٰه كل الشعوب وسيد جميع المخلوقات.

«أم الله لليهود فقط أليس للأمم أيضاً. بلى للأمم أيضاً» (رومية 3/ 29)، «ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل يقول الرب. ألم أُصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير» (عاموس 9/ 7)، «التفتوا إليّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر. بذاتي أقسمت خرج من فمي الصدق كلمة لا ترجع أنه لي تجثو كل ركبة يحلف كل لسان» (إشعيا 45/ 22 ـ 23)، «وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى 8/ 11)، ونقرأ أنه لم تكن عند المسيح محاباة بين عرق وآخر فقد شفى يهودي كما شفى خادم روماني (متى 8/ 5 ـ 13). ونقرأ أن إيليا لم يشف يهوداً، وأن اليشع شفى نعمان السرياني (لوقا 4/ 25 ـ 29)، وأن المسيح شفى سامريا ولم يشف يهوديا (لوقا 17/ 11 ـ 19)، وأنه مخلص العالم كافة (يوحنا 4/ 42). ونقرأ في (غلاطية 3/ 26 ـ29). «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة». ونقرأ في رسالة بولس إلى أهل أفسس (3/ 6) «إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل»، وفي موضع آخر قال يسوع: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يوحنا 8/ 12).

يتبين مما تقدم أن الله منزه عن المحاباة بين شعب وآخر «لأن ليس عند الله محاباة» (رومية 2/ 11)، وأنه رب العالمين وليس خاصاً بشعب دون بقية الشعوب، فمفهوم الخصوصية مفهوم قبلي بدائي. ويتبين أيضاً أن علاقة الله بإسرائيل مشروطة بسلوكية اليهود وفق تعاليم السماء، وبقيامهم بالدور التبشيري المنوط بهم وباتباعهم للأوامر الإلٰهية. «فالآن إن سمعتم لصوتي

وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض» (خروج 19/ 4 ـ 5). فالنص صريح بأن ارتباط الله باليهود مشروط بطاعتهم له، وأنه ليس مقيداً بهذا الارتباط في حال عصيانه، وطالما حدث هذا العصيان فكان تخليه عنهم وفك ارتباط معهم. ومن الأدلة على ذلك تخلي الله عنهم يوم دمر تيطس الهيكل عام 70م. ويوم قضى الرومان على العصيان المكابي الذي تزعمه باركوخبا[1]. فالله لا يمكن بحال من الأحوال أن يناصر من يخرجون عن طاعته «لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلمهم محروسين للقضاء ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوحاً ثامناً كارزا للبر إذ جلب طوفاناً على عالم الفجار وإذ رمّد مدينتي سدوم وعمورة حكم عليهما بالانقلاب واضعاً عبرة للعتيدين أن يفجروا. وأنقذ لوطاً البار مغلوباً من سيرة الأردياء في الدعارة. إذ كان البار بالنظر والسمع وهو ساكن بينهم يُعذِّب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة. يعلم الرب أن ينقذ الأتقياء من التجربة ويحفظ الأثمة إلى يوم الدين معاقبين» (رسالة بطرس الثانية 2/ 3 ـ 10).

لقد اختار الله اليهود للقيام بدور التبشير في أوساط الفاجرين، ودار في خلدهم أن انتدابهم لهذا الدور أعطاهم ميزة دون بقية الشعوب، فقادهم وهمهم، أيام يوحنا المعمدان وأيام المسيح يسوع إلى الزعم أنهم وحدهم أولاد إبراهيم الذي حظي بالوعد المعروف «ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض» (تكوين 22/ 18)، فظنوا أن كلمة «النسل» تعود إلى النسل الجسدي، فرد عليهم يوحنا قائلاً: «ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» (لوقا 3/ 8)، «أجابوا وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم» (يوحنا 8/ 39)، فقال له اليهود: «ألعلك أعظم من أبينا

---

(1) Naim Istifan Ateek, OP. Cit, P92-94.

إبراهيم الذي مات. والأنبياء ماتوا. من تجعل نفسك» (يوحنا 8/ 53).

وخلافاً للمفهوم اليهودي للنسل السلالي فإن النسل المقصود ليس أبناء الجسد بل أولاد الموعد «أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً» (رومية 9/ 8)، أولاد الإيمان لا أولاد الجسد «اعلموا إذا أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم» (غلاطية 3/ 7)، «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفي نسلك الذي هو المسيح» (غلاطية 3/ 16).

إن «الاختيار» لم يكن ناجماً عن أفضلية اليهود عن سواهم «إياك قد اختار الرب إلٰهك فتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب» (تثنية 7/ 6 ـ 7)، «لا تقل في قلبك حين ينفيهم الرب إلٰهك من إمامك قائلاً لأجل بري ادخلني الرب لأمتلك هذه الأرض. ولأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب من أمامك. ليس لأجل برك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب إلٰهك من إمامك ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلٰهك هذه الأرض الجيدة لتمتلك لأنك شعب صلب الرقبة (تثنية 9/ 4 ـ 6)، وأنكم «قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم» (تثنية 9/ 24). وقبيل أن توافي موسى المنية قال له الرب: «ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين في الأرض التي هو داخل إليها في ما بينهم ويتركني وينكث عهدي الذي قطعته معه. فيشتعل غضبي عليه في ذلك اليوم وأتركه وأحجب وجهي عنه فيكون مأكلة وتصيبه شرور كثيرة وشدائد حتى يقول في ذلك اليوم أما لأن إلٰهي ليس في وسطي أصابتني هذه الشرور. وأنا أحجب وجهي في ذلك اليوم لأجل جميع الشر الذي عمله إذ التفت إلى آلهة أخرى» (تثنية 31/ 16 ـ 21). أما النشيد الذي قال الرب لموسى أن يكتبه ويعلمه لبني إسرائيل فهو في سفر

التثنية (الإصحاح 32)، والآية 43 تشير إلى أن الأمم (الوثنيين) هم شعب الله المستقبلي، وهم الذين سيؤمنون بالمسيح يسوع. أما لماذا لم يبددهم الرب «قلت أبددهم إلى الزوايا وأبطّل من الناس ذكرهم. لو لم أخف من إغاظة العدو من أن ينكر أضدادهم من أن يقولوا يدنا ارتفعت وليس الرب فعل كل هذه» (تثنية 32/ 26 ـ 27).

3 ـ ما مقصد الله من اختياره لإسرائيل؟

كان المقصد من الاختيار التبشير بملكوت الله. وكلمة «خاصة» الورادة في سفر الخروج (19/ 5) لها معان كثيرة، ففي «أعمال الرسل 9/ 5» «لأن هذا لي إناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني إسرائيل»، وفي (رومية 1/ 1) وردت «خاصة» بمعنى «المفرز»، وفي (غلاطية 1/ 15) جاءت بنفس المعنى «افرزني»، وفي (تسالونيكي الأول 3/ 3) وردت بمعنى «موضوعين» فالخاصة هم المدخرون والمفردون لغرض خاص. وفي سفر (أعمال الرسل 9/ 15) على لسان الرب يسوع لحنانيا عن بولس الرسول «لأن هذا لي اناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني إسرائيل». وعن نفسه يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية (1/ 1) «بولس عبد ليسوع المسيح المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله. ويقول أيضاً في رسالته إلى أهل غلاطية (1/ 15 ـ 16) «ولكن لما سرَّ الله الذي أفرزني في بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيَّ لأبشر به بين الأمم».

يتضح مما تقدم أن الاختيار أو الفرز، إنما كان لقصد أراده الله أن يتم على يد بولس ألا وهو الفداء الذي أعده الله بموت ابنه. الأمر الثاني هو البشارة بملكوت الله، والتي كانت أولى مهمات المسيحي بعد المعمودية وبعد تجربته من قبل الشيطان (متى 4/ 17)، (مرقس 1/ 14)، (لوقا 4/ 43). وفي المثل الذي أورده يسوع عن الكرّام والكرّامين، الذين قالوا «هذا هو الوارث هلم نقتله ونأخذ ميراثه»، وقوله للشعب اليهودي «لذلك أقول لكم إن ملكوت

الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره» (متى 21/ 43). ماذا قصد يسوع من هذا القول؟ يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية (9/ 4) «. . لهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد» «وأنهم استؤمنوا على أقوال الله» (رومية 3/ 2) لكنهم «لم يكونوا أمناء (رومية 3/ 3).

كان اختيار الرب لإسرائيل ليجعل منهم جميعاً «مملكة كهنة» (خروج 19/ 6)، ليبشروا بملكوت الله، كما فعل المسيح أيام تجسده، لكنهم أخذوا مفتاح المعرفة فلاهم دخلوا ولا جعلوا الداخلين يدخلون وأنهم أغلقوا «ملكوت السموات قدام الناس» (متى 23/ 13). وفي (لوقا 11/ 52) ترد الآية السالفة كالآتي «ويل لكم أيها الناموسيون (أي اليهود أتباع شريعة موسى) لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم». وحتى في أيام الرسل بعد صعود المسيح إلى السماء نجد هذه الأمة، حيثما توجه الرسل للبشارة بملكوت الله، تقف حجر عثرة أمام العمل التبشيري. وعنهم يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي (2/ 14 ـ 16) «فإنكم أيها الأخوة صرتم متمثلين بكنائس الله التي في اليهود في المسيح يسوع لأنكم تألمتم أنتم أيضاً من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضاً من اليهود. الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن. وهم غير مرضين الله وأضداد لجميع الناس. يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكي يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين. ولكن قد أدركهم «الغضب إلى النهاية».

نعود إلى «مملكة كهنة» الواردة في (خروج 19/ 6). يقول كتاب الوحي عن الكاهن في «ملاخي 2/ 6 ـ 7) «شريعة الحق كانت في فيه وإثم لم يوجد في شفتيه. سلك معي في السلام والاستقامة وأرجع كثيرين عن الإثم. لأن شفتي الكاهن تحفظان معرفة ومن فمه يطلبون الشريعة لأنه رسول رب الجنود». هذا هو القصد الذي من أجله اختارهم الله، لكنهم لم يكونوا أمناء على هذه الرسالة أو على هذه المهمة المقدسة التي انتُدبوا من أجلها، فكان مثلهم كمثل العبد الذي أخذ مَنًا واحدة ووضعها في منديل ولم يتجربها ولم

يربح، فقال له الإنسان الشريف الجنس خذوا منه المنا، لأني «أقول لكم إن كل من له يعطى. ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه» (لوقا 19/ 12 ـ 27).

وهذا ما يتطابق مع قول المسيح «إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره» (متى 21/ 43) لأنهم لم يبشروا بملكوت الله، ولم يحفظوا العهد المشروط الذي قطعه الله لهم (يشوع 7/ 11)، (قضاة 2/ 20)، (مزمور 78/ 10 و37)، (إشعيا 24/ 5)، (آرميا 11/ 10)، (حزقيلل 44/ 7)، (دانيال 9/ 11)، (هوشع 6/ 7)، (هوشع 8/ 1). ولذلك يكون العهد ملغياً وتنتقل الوظيفة الكهنوتية إلى أمة تعمل إثمار ملكوت الله من غير اليهود (متى 18/ 11 ـ 12)، (لوقا 13/ 29)، (متى 21/ 31)، (لوقا 7/ 29 ـ 30).

4 ـ هل هناك قصد آخر من اختيار الله لإسرائيل غير كونهم «مملكة كهنة»؟

ثمة قصد آخر هو أن يولد المسيح من مريم حسب الجسد «أما أنت يا بيت لحم أفراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطاً على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل» (ميخا 5/ 2). والقصد من ذلك «الفداء». «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس. ليفتدي الذي تحت الناموس لننال التبني» (غلاطية 4/ 4 ـ 5). وفي رسالة بولس إلى أهل أفسس كتب يقول: اختارنا الله فيه (أي المسيح) قبل تأسيس العالم لنكون قديسين. . . الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا. إذ عرّفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه. لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السماوات وما على الأرض في ذاك، الذي فيه أيضاً نلنا نصيباً معينين سابقاً حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته» (أفسس 1/ 2 ـ 10). وفي رسالة بولس الثانية إلى تيموتاوس كتب يقول: «الذي خلصنا ودعانا دعوة مقدسة لا بمقتضى أعمالنا بل بمقتضى القصد والنعمة التي أعطيت لنا من المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية، (2/ تيموتاوس) 1/ 9) فالله قصد أن يولد المسيح ليتمم مهمة الفداء التي جاء من أجلها. ولقد أشار بطرس في رسالته الأولى إلى

حصول «الخلاص» بالفداء» الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء. الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم. باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التي للمسيح والأمجاد التي بعدها. الذين أُعلن لهم ليس لأنفسهم بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور التي أُخبرتم بها أنتم الآن بواسطة الذين بشروكم في الروح القدس المرسل من السماء. التي تشتهي الملائكة أن تطلع عليها» (بطرس الأولى 1/10 ـ 12).
وفي نبوءات العهد القديم «انظروا بين الأمم وابصروا وتحيروا حيرة. لأني عامل عملاً في أيامكم لا تصدقون به إن أُخبر به» (حبقوق 1/5) وقد استشهد بولس بهذا القول «انظروا أيها المتهاونون وتعجبوا واهلكوا لأنني عملا أعمل في أيامكم. عملاً لا تصدقون إن أخبركم أحد به» (أعمال الرسل 13/ 41).
وخلاصة القول ما قاله بولس ترديداً لما تنبأ عنه إشعيا (64/ 4) «ما لم تر عين ولم تسمع إذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعده الله للذين يحبونه» (كونتوس الأولى 2/ 9).

5 ـ من هم أبناء الله وشعب الله في الوقت الحاضر؟

كتب بولس الرسول إلى تيطس يقول: «منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح. الذي بذل نفسه لأجلنا لكي يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال حسنة» (تيطس 2/ 13 ـ 14). يبدو واضحاً من قول بولس أن كل من آمن بالمسيح يسوع أصبح فرداً من هذا الشعب الخاص، وليس اليهود كما يشاع. وفي رسالته إلى أهل غلاطية كتب يقول: «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة» (غلاطية 3/ 26 ـ 29).
ويشير إشعيا إلى صهيون وأورشليم السماويتين بقوله: «فترى الأمم برك وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب» (إشعيا 62/ 2). وفي

الإصحاح 65 يتكلم إشعيا بوضوح عن رفض الله لإسرائيل لأجل كفرهم وريائهم (65/ 1 ـ 3) ويسترسل في هذا الإصحاح في تبيان ضلال إسرائيل «. . . دعوت فلم تجيبوا. تكلمت فلم تسمعوا بل عملتم الشر في عينيّ واخترتم ما لم أُسرّ به. . . هوذا عبيدي يترنمون من طيبة القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلب ومن انكسار الروح تولولون. وتخلفون اسمكم لعنة لمختاري فيميتك السيد الرب ويسمي عبيده اسماً آخر» (إشعيا 65/ 14 ـ 15).

وفي سفر أعمال الرسل (15/ 14) «سمعان قد أخبر كيف افتقد الله أولاً الأمم (الوثنيين) ليأخذ منهم شعباً على اسمه». ويوضح لنا بطرس ـ دون شك ـ هوية هذا الشعب الخاص بقوله: «إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح. الذي إذ تأتون إليه حجراً حياً مرفوضاً من الناس ولكن مختار من الله كريم. كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح. لذلك يُتضمن أيضاً في الكتاب ها أنذا أضع في صهيون حجر زاوية مختاراً كريماً والذي يؤمن به لن يُخزى. فلكم أنتم الذين يؤمنون الكرامة وأما للذين لا يطيعون فالحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية وحجر صدمة وصخرة عثرة. الذين يعثرون غير طائعين للكلمة الأمر الذي جُعلوا له. وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تخبروا بفضائل الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلاً لم تكونوا شعباً وأما الآن فأنتم شعب الله. الذين كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون» (بطرس الأولى 2/ 3 ـ 10). ونقرأ في رسالة بولس إلى أهل أفسس «لذلك اذكروا أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين غرلة من المدعو ختاناً مصنوعاً باليد في الجسد. إنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم. ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح. لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق

الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً. ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به. فجاء وبشركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين... فلستم إذاً بعد غرباء ونزلا بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله... مبنيون معاً مسكناً لله في الروح» (أفسس 2/ 11 ـ 22). ونقرأ في سفر (يوحنا 10/ 16) قول المسيح عن الأمم (الوثنيين) «ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد». ويتبين مما سبق أن الذين سمعوا صوته والذين آمنوا به هم شعبه الخاص وليس الذين أنكروه وتنكروا له ولا يزالون.

المسيحيون والنصارى

تشير الدراسات اللاهوتية والتاريخية إلى حياة المسيح على أرض فلسطين، وإلى انتشار المسيحية في داخلها بين اليهود وخارجها بين الأمم والشعوب. ولقد اتسع ذلك الانتشار بعد صعود المسيح إلى السماء على يد تلاميذه داخل فلسطين وفي محيطها، وتكونت، آنذاك، في بيئة البحر الأبيض المتوسط ثلاث بيئات دينية مسيحية:

1 ـ بيئة كانت يهودية.

2 ـ بيئة أصبحت يهودية ومسيحية.

3 ـ بيئة مسيحية خالصة.

البيئة الأولى ظلت يهودية صرفة تتخذ التوراة أساساً لعقيدتها الدينية، ونبذت المسيحية والمسيحيين، وتنكرت للتعليم الجديد والبشارة الجديدة، وأصرت على أن المسيح يسوع ليس المسيح الحقيقي الذي ينتظرون مجيئه، لأن مسيحهم وفق مفهومهم وتعاليمهم يأتي لليهود فقط وينحصر دوره فيهم ويكون قائداً زمنياً لهم وزعيماً، وعلى هذا الأساس حاربت انتشار المسيحية.

أما البيئة الثانية فهي يهودية/ مسيحية في جوهرها وعقيدتها، ذلك أن اليهود اعتنقوا المسيحية ولم يتخلوا عن تعاليم موسى والتوراة، فلقد ربطوا

الإنجيل بالتوراة وجمعوا المسيحية واليهودية. وهذه الفئة هودت المسيحية ولعبت دوراً رئيساً في زمن لاحق في فرض آرائها وكان ثمار ذلك شيوع تيارات مسيحية غربية تطلق على نفسها عبارة الصهيونيين المسيحيين».

أما البيئة الثالثة فهي مسيحية بجوهرها، والمسيحيون فيها من أصول عرقية غير يهودية من «الأمميين» الذين اعتنقوا المسيحية دون التأثر باليهودية على يد بولس. وقد تمسك هؤلاء المسيحيون بالإنجيل، أي البشارة التي تحققت بالإيمان دون وساطة شريعة أو ناموس، ولذا تخلى هؤلاء عن التوراة لأنها ليست من تراثهم، وتراثهم الفلسفة والمعرفة التي تتوج بالمحبة وفق التعاليم الرواقية وغيرها. وقد اجتهد مسيحيو هذه البيئة ليجعلوا من المسيحية فكرة أممية عالمية شاملة تعطى للجميع دون ربطها بأرض أو بشعب أو بعرقية خاصة[1].

هكذا نجد أن بين اليهود من اعتنق المسيحية دون التخلي عن اليهودية، وهؤلاء هم النصارى (متى 5/17)، مارسوا طقوساً يهودية/ مسيحية في وقت واحد كالختان والمعمودية، وكان على رأسهم يعقوب، ولقد دعاهم بولس «الأخوة الكذبة» (غلاطية 1/4)، وهم بدورهم اعتبروه مرتداً[2].

لقد اعتبر «النصارى» أن الإنجيل يستند على التوراة، وهكذا تأتي اليهودية أولاً والمسيحية ثانياً. فالمسيحية نتاج اليهودية وكمال لها. وقد كان بطرس إلى جانب يعقوب على رأس هذه الفئة[3]. ورغم تمسكهم بالتوراة فإنهم تعرضوا لاضطهاد من قبل اليهود الذين بقوا على يهوديتهم الصرفة، الذين كانوا مسؤولين عن صلب المسيح[4].

---

(1) ندرة اليازجي، مصدر سبق ذكره، ص15 ـ 18.

(2) د. وديع بشور، الميتولوجيا السورية، أساطير أرام، ط2، فكان إصداره 1947، ص178 ـ 179.

(3) ندرة اليازجي، مصدر سبق ذكره، ص18.

(4) وديع بشور، مصدر سبق ذكره، ص178 ـ 179.

وعلى خلاف بطرس ويعقوب كان بولس الذي قرر أن اعتناق المسيحية لا يمر بالضرورة في التوراة لأن المسيحية فكرة كونية شاملة لا تخضع للزمان أو للمكان، ولا تنحصر بتاريخ قوم أو بشريعة إنسان. فإذا كان الله عالمياً وكونياً، وهو كذلك، كانت الديانة الجديدة «المسيحية» كونية وعالمية تتخطى حدود البلدان إلى العالم كله. هؤلاء الذين نادوا بهذا المفهوم هم المسيحيون[1]. «ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً» (أعمال الرسل 11/ 26). وعلى خلاف النصارى الذين كانت التوراة خلفيتهم، كانت الهلنستية خلفية المسيحيين[2].

انتشار المسيحية

مرّ هذا الانتشار بمرحلتين: انتشار المسيحية داخل فلسطين ومن ثم خارجها. ويمثل انتشار الدعوة في فلسطين، ومقاومة اليهود لهذا الانتشار، شهيد المسيحية الأول استفانوس المسيحي الأممي اليوناني، الذي اعتنق المسيحية المسيحية لا اليهودية المسيحية، فكان المسيحي الأول الذي فصل المسيحية عن اليهودية، ما حمل اليهود على رجمه حتى الموت. وهكذا بدا البون يتسع بين المسيحيين من أصل أممي (غير يهودي) والنصارى الذين من أصل يهودي. فبطرس رغم اعتناقه للمسيحية بقي يعتبر نفسه يهودياً (أعمال الرسل 11/ 28)، وكذلك يعقوب، بخلاف بولس الذي اتخذ مع برنابا أنطاكية مقراً لهما، ومنها انطلقت المسيحية وسمي المؤمنون بها مسيحيين[3]. وفي فلسطين لم تنتشر المسيحية بين اليهود، وإن كان بعض الأممين قد آمن بها، إلا أنه لم يجرؤ أحد على الجهر بها بعد مقتل استفانوس، بينما أتباع بولس من الأمم أصبحوا يعدون بالآلاف وكان معظمهم من الرواقيين.

كان على بولس أن يواجه أمرين: إقناع الأمم بصواب الحقيقة المنشورة

---

(1) ندرة اليازجي، مصدر سبق ذكره، ص19.

(2) وديع بشور، مصدر سبق ذكره، ص178.

(3) ندرة اليازجي، مصدر سبق ذكره، ص19 ـ 24.

والكلمة المعلنة وقد نجح نجاحاً كبيراً، وإقناع يهود الشتات بالمسيحية وقد كان نجاحه محدوداً، الأمر الذي أغاظ بطرس ويعقوب فأرسلا أناساً لعرقلة بشارة بولس ولتشجيع الإسرائيليين على العودة للتوراة وطقوسها طالبين من المسيحيين الاختتان والتمسك بالتقاليد الموسوية، وما لم يفعلوا ذلك فمسيحيتهم باطلة. «وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الأخوة أنه إن لم يختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا. فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم، رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة» (أعمال الرسل 15/ 1 ـ 2).

لقد سعى بطرس ويعقوب إلى تهويد المسيحيين والقضاء على ما قام به بولس. وفي هذه الأثناء ذهب بطرس إلى أنطاكية، حصن المسيحية آنذاك، وبوصوله إليها احتدم الخلاف بين المسيحيين والنصارى. وفي أنطاكية كان بطرس يجلس مع اليهود/ المسيحيين ويتناول الطعام معهم، ويتجنب المسيحيين المسيحيين. ومن المعلوم أن تجنب الجلوس وعدم تناول الطعام مع أمميين ومسيحيين يشيران إلى عادة وتقليد يهوديين. وحسب هذه العادة وهذا التقليد، فإن تناول الطعام مع أممين يلحق نجاسة باليهود. ولقد أدى تمسك بطرس بهذه العادة وهذا التقليد إلى سخط بولس عليه «ولكن لما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومتُه مواجهةً لأنه كان ملوماً. لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان (اليهود)... لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا» (غلاطية 2/ 11 ـ 14). وهذا ما جعل بولس يبتدئ في رسائله محذراً المسيحيين من مغبة الاستماع إلى «الأخوة الكذبة» (غلاطية 2/ 4)[1].

(1) المصدر السابق، ص24 ـ 26.

أدى هذا التباين بين وجهتي النظر إلى نشوء ما تصح تسميته المسيحية/ المسيحية، والمسيحية النصرانية. وفي القدس حاول النصارى إخضاع العالم المسيحي يومذاك للشريعة الموسوية رغم أن المسيح حررهم منها. وبسبب هذا التباين انعقد «مجمع أورشليم»، بعد ستة عشر عاماً من موت المسيح، وفيه التقى بولس المسيحي وبطرس ويعقوب النصرانيان، وأسفر المؤتمر عن نصر عظيم لبولس. ومع ذلك لم يتوقف قادة النصارى (بطرس ويعقوب ويهوذا) عن الكيد لبولس الذي كان عليه أن يجابه ويجاهد ويبعث بالرسائل من مغبة الاستماع إليهم كي لا يحدث تمسك بالناموس الموسوي. هذا الناموس الذي خلصوا منه بالمسيح وأُنقذوا من الخطيئة المتجسدة فيه[1].

هؤلاء «النصارى» المتمسكون بالتوراة ـ دون الإنجيل ـ تمسك اليهود بها، يلتقون مع الصهيونية اليهودية المعاصرة في كثير من الأطروحات، لعل أبرزها التشبث بالتوراة، ويفترقون عنها في عدم تطرق النصارى لأمور «الوعد» و«أرض الميعاد» التي يتشبث بها الصهاينة المسيحيون في الغرب وعلى الأخص في الولايات المتحدة، حيث تصل شطحات التأويل إلى «المجيء الثاني» للمسيح، وحدوث معركة هرمجدون الفاصلة التي تعقبها نهاية العالم.

بولس المسيحي وبطرس النصراني

تركز تبشير بولس للأمم بالمسيحية خارج فلسطين على تقبل هذه الديانة دون التعلق بالرواسب اليهودية، فالناموس الموسوي «الناقص» قد انتهى بمجيء «الكامل» الذي هو المسيح، خلافاً لمقولات «النصارى» الذين كان على رأسهم بطرس. وتظهر عدة آيات من رسائل بولس التعارض بين الاتجاهين.

«. . . إني اؤتمنت على إنجيل الغرلة (الأمم) كما بطرس على إنجيل

(1) المصدر السابق، ص26 ـ 27.

الختان» (اليهود). (رسالة بولس إلى أهل غلاطية 2/ 7)، «ولكن بسبب الأخوة الكذبة الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا التي لنا في المسيح كي يستعبدونا» (غلاطية 2/ 4)، «ولكن رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا» (غلاطية 2/ 14)، «. . . وقالوا إنه ينبغي أن يختتنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى» (أعمال الرسل 15/ 5)، «وقد أخبروا عنك (بولس) أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً أن لا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد» (أعمال الرسل 21/ 21).

ومما يظهر تأصل اليهودية في نفوس «النصارى» وعدم عزوفهم عنها لاعتناق المسيحية الصرفة، تمسكهم بالعادات والطقوس اليهودية، من ذلك عدم تناول الطعام مع أمميين (غير يهود). «ولما صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين إنك دخلت إلى رجال ذوي غلفة (غير يهود) وأكلت معهم» (أعمال الرسل 11/ 3)، «ولكن لما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومتُهُ مواجهةً لأنه كان ملوماً. لأنه قبلها أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم. ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان» (غلاطية 2/ 12). وهكذا يتضح أن رواسب اليهودية بقيت متجذرة في نفوس بعض اليهود خاصة الذين اعتنقوا المسيحية. وتبقى الهوة واسعة جداً بين المسيحية والنصرانية، وبين عالمية الإنجيل والخالق، خلافاً لليهودية المقصورة على شعب يعتبر الخالق خاصاً به دون سواه من الشعوب.

عالمية الإنجيل

يتبين من آيات متعددة من «العهد الجديد» أنه ليس مقصوراً على شعب أو أمة أو عرق، بل فهو لكل الشعوب والأمم والأعراق. «فليكن معلوماً عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون» (أعمال الرسل 28/

28)، «. . . إذا أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة» (أعمال الرسل 11/ 18)، «و. . قد أقمتك نوراً للأمم لتكون أنت خلاصاً إلى أقصى الأرض (أعمال الرسل 13/ 47)، «. . افتقد الله أولاً ليأخذ منهم شعباً على اسمه» (أعمال الرسل 15/ 14)، «بل في كل أمة الذي يتقيه ويضع البر مقبول عنده» (أعمال الرسل 10/ 35). ونقرأ في إنجيل يوحنا «ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يوحنا 10/ 16)، «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي (اليهود) كما قلت لكم. خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي (10/ 27 ـ 28)، «لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم» (12/ 47). ونقرأ في مرقس: «الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم يخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها» (14/ 9)، ونقرأ في متى: «هوذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سُرّت به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق» (12/ 18)، «وعلى اسمه يكون رجاء الأمم» (12/ 21)، «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره» (21/ 43). ونقرأ في لوقا: «ويأتون من المشارق والمغارب ومن الشمال والجنوب (أمم) ويتكئون في ملكوت الله» (13/ 29)، «وهوذا آخرون (أمم) يكونون أولين وأولون (يهود) يكونون آخرين» (13/ 30)، «وبالحق أقول لكم إن أرامل كثيرة كن في إسرائيل في أيام إيليا. . . ولم يرسل إيليا إلى واحدة منها إلا إلى امرأة من صيدا» (أممية) (4/ 25)، «وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان اليشع النبي ولم يطهر واحد منهم إلا نعمان السرياني» (أممي) (4/ 27)، «فواحد منهم لما رأى أنه شفي (وكان سامرياً) رجع يمجد الله بصوت عظيم» (17/ 14)، «ولما سمع يسوع هذا تعجب منه (من قائد المائة الروماني الأممي) والتفت إلى الجمع الذي يتبعه وقال أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا» (7/ 9 ـ 10)

وفي رسائل بولس نقرأ: «. . لأن كل خليقة الله جيدة» (رسالة

تيموتاوس الأولى 4/4)، «. . . معلماً للأمم في الإيمان والحق» (أتيموتاوس 7/2)، «أن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل» (أفسس 3/6)، «. . لأبشّر به بين الأمم. .» (غلاطية 1/16)، «حتى أكون خادماً ليسوع لأجل الأمم مبشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً» (رومية 15/16)، «التي أيضاً دعانا نحن إياها ليس ممن اليهود فقط بل من الأمم أيضاً» (رومية 9/24)، «كما يقول في هوشع أيضاً سأدعو الذي ليس شعبي شعبي» (رومية 9/ 25).

يتضح مما تقدم أن الله ليس إلٰه اليهود فقط، بل هو إلٰه كافة الأمم والشعوب، وأن الرجاء والخلاص والنعمة قد أعطيت للأمم وليس لليهود وحدهم، وأنهم ليسوا بشعب الله الخاص المميز. وهذا ما أكده بولس في رسالته إلى أهل رومية «وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس. . بر الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق» (رومية 3/ 21 ـ 22)، «. . إن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس» (رومية 3/ 28)، وأنه ليس «عند الله محاباة» (رومية 2/ 11).

أراد اليهود إخضاع المسيح لناموسهم وشريعتهم رافضين التحرر منهما. ولما شاء أن يخلصهم ثاروا عليه وتآمروا على صلبه. لقد أرادوا مسيحهم الخاص بهم كما أرادوا إلٰهاً خاصاً بهم أيضاً، مسيحاً ينقاد لهم ويحقق رغباتهم، يسير معهم ويعمل من أجلهم دون سواهم. إنهم لا يزالون ينتظرون مجيء مسيحهم. وينتظرون أورشليم الجديدة التي ستنزل من السماء، ويعتزمون بناء الهيكل الذي سيسكنون فيه إلٰههم، والذي سيقف إلى جانبهم ويحقق لهم الخلاص[1].

الأناجيل الأربعة

قبل صعود المسيح إلى السماء قال لتلاميذه: «اذهبوا إلى العالم أجمع

(1) المصدر السابق، ص46 ـ 47.

واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها» (مرقس 26/ 15)، «وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم» (لوقا 24/ 47). ولقد قام تلاميذه بما طلبه منهم، فعملوا على نشر المسيحية في أرجاء الامبراطورية الرومانية التي كانت تتألف من أربع بيئات: بيئة رومانية، وثانية يونانية، وثالثة آسيوية ورابعة يهودية.

وبالفعل قام تلاميذه ورسله بالدور المطلوب في هذه البيئات. فمتى حصر بشارته بالإنجيل في البيئة اليهودية، ومرقس في البيئة اليهودية/ المسيحية الرومانية، ولوقا في البيئة اليهودية/ المسيحية اليونانية، أما إنجيل يوحنا فقد كتب للأمم كافة. ومن الملاحظ أن الأناجيل الثلاثة الأولى (متى، مرقس، لوقا) اشتملت على محتوى من التوراة والإنجيل، خلافاً لإنجيل يوحنا الذي نادرا ما نجد فيه محتوى توراتياً، ولا بد من الإشارة إلى أن اشتمال الأناجيل الثلاثة على مضامين توراتية يعود إلى حوار هؤلاء الثلاثة مع اليهود لإقناعهم بأن المسيح الذي أتى هو المسيح نفسه الذي ينتظرون مجيئه وأنه نفسه الذي تنبأ عن مجيئه أنبياؤهم في التوراة. ولما كانت هذه الأناجيل قد كتبت في بيئات يهودية ويهودية/ مسيحية، فإن كاتبيها راعوا لى حد ما تفكير اليهود، وكلموهم بمنطقهم وبقاموسهم لجلبهم إلى المسيحية الصرفة، وليؤكدوا لهم أن اليهودية تنتهي بمجيء المسيح(1).

ويتلخص نمط التفكير اليهودي الديني بالنقاط الآتية:

1 ـ يجب أن يكون المسيح المنتظر من نسل داود وأن يؤسس مملكته.

2 ـ يجب أن يكون المسيح لليهود دون سواهم.

3 ـ يجب أن يكون المسيح مكملاً لموسى، أي أن تكون المسيحية تتمة لليهودية.

كان على الإنجيليين الثلاثة مسايرة اليهود في معتقداتهم بغية جذبهم إلى

---

(1) المصدر السابق ص73 ـ 76.

المسيحية، وهذا ما دفعهم إلى مراعاة المعتقدات اليهودية. من ذلك التركيز على أن المسيح يسوع هو من نسل داود في أول الأمر، ومتى حققت هذه الوسيلة هدفها يمكن إقناعهم بعكس ذلك. فمتى في الإصحاح الأول من إنجيله (1 ـ 17) يسرد تسلسلاً سلالياً يظهر من خلاله انحدار المسيح من نسل داود، لكنه لاحقاً يصرف اليهود عن هذا الأمر «وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً ماذا تظنون في المسيح. ابن من هو. قالوا له ابن داود. قال لهم فكيف يدعوه داود بالروح رباً. . . فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه، فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة» (متى 22/ 41 ـ 45)، «ثم أجاب يسوع وقال وهو يعلم في الهيكل كيف يقول الكتبة إن المسيح ابن داود. . . فداود نفسه يدعوه رباً فمن أين هو ابنه» (مرقس 12 ـ 34 ـ 37)، «وقال لهم كيف يقولون إن المسيح ابن داود. وداود نفسه يقول في كتاب المزامير قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فإذا داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه» لوقا (20/ 41 ـ 44).

من الملاحظ نفي المسيح أنه من سلالة داود، والظاهر أن الإنجيليين الثلاثة هدفوا في حوارهم مع اليهود لجذبهم إلى المسيحية، حملهم على الاعتقاد بأن لا ينتظروا مجيء مسيح آخر، وأن الذي ينتظرون مجيئه قد أتى بالفعل، ولما كان المسيح كلمة الله حبلت به أمه من الروح القدس فلا يعقل أن يكون ابناً لأحد يسلسلون نسبه سلالياً لداود.

من الواضح أن الإنجيليين الثلاثة سايروا الفكر الديني اليهودي في البداية لينقضوه في النهاية بعد أن تكون المسيحية قد ترسخت في الأذهان. كان اليهود يؤمنون بمجيء مسيح من نوع آخر، مسيح خاص بهم، يعيد مملكة داود ويبنيها من جديد، ويعيد لهم مجدهم المادي الذهبي كما كان يوم ملك داود. ويوم ذهب المسيح إلى أورشليم استقبلته الجموع مرددة: «أُحنّا لابن داود» متى 21/ 9)، (مرقس 11/ 9/ 10)، (لوقا 19/ 37 ـ 38).

أراد اليهود أن يكون مسيحهم ملكاً دنيوياً خاصاً بهم، وقد أدرك

الإنجيليون والرسل ذلك فاعتبروا المسيح ملكاً ولكن ليس دنيوياً، وليست مملكته مادية أرضية كما كان يبتغي اليهود[1] «أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا 18/ 36). من هنا يبدو التباعد بين مفهومي اليهود للمسيح ومفهوم المسيحيين له. وعلى الرغم من تأكيد المسيح بأنه هو نفسه الذي ينتظرون مجيئه إلا أنهم لم يؤمنوا بذلك ولا يزالون «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيّا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء. قال لها يسوع أنا الذي أكلمك هو» (يوحنا 4/ 25 ـ 26).

المسيح ليس لليهود دون سواهم

أصر اليهود على أن المسيح لا يأتي إلا لهم ومن أجلهم وعبثاً حاول تلامذته إقناعهم بتقبل المسيحية وحمل مشعلها، لكنهم تعنتوا ورفضوه كما رفضوا دعوته والتبشير بها «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً. إلى طريق الأمم لا تمضوا وإلى مدينة السامرة لا تدخلوا بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى 10/ 5 ـ 6)، «فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى 15/ 24)، «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صيدا وصور. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد. . . فلم يجبها بكلمة. . . فأتت وسجدت له قائلة. . . فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى 15/ 21 ـ 24). ويكرر مرقس الأمر نفسه (7/ 24 ـ 28). لكن ضلال بيت إسرائيل المستمر حمل المسيح على تبديل موقفه منهم. «إنسان غرس كرما. . . وسلمه إلى كرامين وسافر. ثم أرسل إلى الكرامين في الوقت عبداً ليأخذ من ثمر الكرم. فأخذوه وجلدوه وأرسلوه فارغاً. ثم أرسل إليهم أيضاً عبداً آخر. . ثم آخر. . فقتلوه. . . فإذ كان له ابن واحد حبيب إليه أرسله إليهم أخيراً قائلاً إنهم يهابون ابني لكن أولئك الكرامين قالوا. . . هلم نقتله

(1) المصدر السابق، ص77 ـ 82.

فيكون لنا الميراث. فأخذوه وقتلوه وأخرجوه خارج الكرم. فماذا يفعل صاحب الكرم. يأتي ويهلك الكرامين ويعطي الكرم إلى آخرين» (مرقس 12/ 1 ـ 9). ويذكر حتى المثل نفسه الذي ضربه المسيح (21/ 33 ـ 40) وينهيه بالقول «أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطون الأثمار في أوقاتها» (متى 21/ 41)، «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره» (متى 21/ 43)، «ولكن كثيرون، أولون يكونون آخرين وآخرون أولين» (متى 19/ 30).

يظهر أن المسيح ـ حسب الأناجيل والحوار مع اليهود ـ قد أتى إليهم قاصداً أن يكون «الخلاص» عبر إسرائيل بتقبل اليهود للمسيحية، ليحملوها إلى العالم. ولما وجد رفضهم لها وإصرارهم على التنكر له نزع عنهم الدور المناط بهم، وسلمه إلى أمة أو أمم لتلعب هذا الدور[1]. «بل بزلتهم صار الخلاص للأمم» (رومية 11/ 11).

المسيحية ليست تتمة لليهودية

من الأفكار السائدة في الأوساط المسيحية، خاصة الغربية، أن المسيحية تتمة لليهودية، ولم ينتبه رموز هذه الأوساط إلى أن الحواريين اعتقدوا في تبشيرهم لليهود بالمسيحية بأن الوسيلة الفضلى لجذب اليهود إلى المسيحية هي محاورتهم من خلال معتقداتهم في البداية، أي من خلال التوراة، كمرحلة انتقالية، لأنه ليس من السهولة في أول الأمر التنكر كلياً لتلك المعتقدات، وأنه لا بد من مجاراة اليهود بها بعض الوقت. وقد اعتقد بعض اللاهوتيين خطأً أن المسيحية تكملة لليهودية مستندين على ما جاء في إنجيل متى «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل» (5/ 17). وتناسى هؤلاء القصد الهادف من ذلك، كما تناسوا عدم تكرار مثل هذا القول.

---

(1) المصدر السابق، ص 82 ـ 85.

فما هو الذي يكمله المسيح؟ هل هو الناموس الموسوي؟ الناموس لم يعد قائماً بمجيء المسيح «وأما النبوات فستبطل. . . ولكن متى جاء الكامل (المسيح) يبطل ما هو بعض (الناموس) (كورنتوس الأولى (13/ 8 ـ 10)، «الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السماوات لكي يملأ الكل» (أفسس 4/ 10)؛ هكذا نرى أن الناموس بمجيء المسيح انتهى دوره، ذلك أن المسيح هو الكل في الكل، وقد أظهر نفسه عن اكتمال الكل عندما أسلم الروح قائلاً: «قد أُكمل» (يوحنا 19/ 30). كل شيء قد أُكمل، لأن الكمال قد تم و«ملء الزمان» قد جاء. ويتضح أمر نهاية العمل بالناموس في أقوال المسيح: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء. . . أما أنا فأقول لكم» (متى 5/ 27)، «وقيل. . . أما أنا فأقول (متى 5/ 34)، «سمعتم أنه قيل. . . وأما أنا فأقول» (متى 5/ 38 ـ 39)، «سمعتم أنه قيل. . . وأما أنا فأقول» (متى 5/ 43 ـ 44). وفي مجمل ذلك خروج صريح على مضمون الناموس الموسوي لتعاليم تصل إلى حد التناقض. إن الكامل (المسيح) لا يكمل غيره لأنه كامل، وهذا ينفي اعتبار المسيحية تكملة لليهود، وبذلك يكون الفصل بينهما أمراً محتوماً للتباين الحاد بينهما[1].

فرادة إنجيل يوحنا عن بقية الأناجيل

سبقت الإشارة إلى أن بشارة يوحنا انحصرت في بيئة أممية (غير يهودية) فلم يكن مضطراً لمسايرة الأمميين بالضرب على وتر اليهود في معتقداتهم كما فعل الإنجيليون الآخرون، وبذا نجد فرادة وميزات في إنجيله، من بينها:

1 ـ في إنجيل يوحنا لا نجد ذكراً لولادة المسيح، فهو لا يربط نسب المسيح بداود أو بأحد غيره، ولا بأرض أو بقوم. المسيح ـ في إنجيله ـ كلمة الله أُرسل إلى البشر أجمعين، وبذلك تبدأ عالمية الدعوة وينتهي حصر الدعوة السابقة (اليهودية) بعرق يهودي.

(1) المصدر السابق، ص87 ـ 92.

2 ـ المسيح، في إنجيل يوحنا لم يأت لبني إسرائيل فقط، بل للأمم كافة «ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة (اليهود) (يوحنا 10/ 16)، «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم. خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني» (يوحنا 10/ 26 ـ 27).

3 ـ في إنجيل يوحنا لا يكمّل المسيح موسى، بل ليس هناك اعتراف بموسى سوى أنه أُعطي الناموس الذي انتهى دوره بمجيء المسيح الذي لا يكمِّل أحداً لأنه الكامل، وهو الذي يحقق إرادة الله على الأرض. إنه يعترف بيوحنا المعمدان فقط وينطلق منه. وعلى لسانه يقول: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يوحنا 1/ 34). والمسيح لم يقبل شهادة من أي كان قبله لأنه لم يكن محتاجاً لذلك، الروح القدس المنبثق من الله وحده يشهد له (يوحنا 15/ 26). والآب السماوي يشهد له (يوحنا 5/ 37)، وهو «لا يقبل «شهادة من إنسان» (يوحنا 5/ 34) وشهادته لنفسه شهادة حق (يوحنا 8/ 14)، وأعماله تشهد له (يوحنا 10/ 38)، ويعتبر أن الذين سبقوه «هم سراق ولصوص (يوحنا 10/ 8).

هكذا نجد أن المسيح لا يقبل شهادة الذين سبقوه (أنبياء اليهود)، ونجد أنه لا إشارة في إنجيل يوحنا لفكرة مجيئه، لأنه جاء، ولا نجد أي تلميح لبعث مملكة داود، وأن المسيح سيملك عليها. إننا نجد المسيح ملكاً روحياً لا ملكاً أرضياً كما كان اليهود يريدونه أن يكون. وإن الرب هو رب الخليقة وليس رب اليهود وحدهم، وإن إسرائيل تعني جماعة المؤمنين بالمسيح، وإن «إسرائيل الجديدة» هي الكنيسة المسيحية[1].

تهافت أطروحات الصهيونية/ المسيحية

ارتكزت هذه الأطروحات العريقة في الفكر المسيحي البروتستانتي بالغرب قبل قيام الصهيونية اليهودية بقرون عدة على عدة مقولات: «الوعد»

(1) المصدر السابق، ص99 ـ 102.

و«أرض الميعاد» و«شعب الله المختار». وقد أظهرنا، استناداً إلى الكتاب المقدس، تهافت تأويلات أصحاب هذا الفكر الذي اتسع مداه في القرنين الأخيرين، لا سيما بعد قيام دولة إسرائيل، وانتصارها في حرب الأيام الستة، وتوحيدها للقدس. وقد اعتبرت جماعات الصهيونية المسيحية في الغرب، أو على الأخص في الولايات المتحدة، أن تلك الأحداث ما هي إلا تحقيق لنبوءات توراتية تؤذن بمجيء المسيح الثاني وحصول معركة هرمجدون التي تعقبها نهاية العالم. وتعود جذور هذه الأفكار إلى المهاجرين الأولين من البيوريتانيين الذين استقروا في القسم الشمالي من القارة الأميركية مشكلين بذلك نواة دعم للصهيونية اليهودية في الولايات المتحدة أصبح حالياً يوازي أو يفوق تأثير اللوبي الصهيوني اليهودي في دوائر صناعة القرارات الأميركية بما يختص بدعم إسرائيل.

لم يكن لدى الحكومة الأميركية حتى الحرب العالمية الأولى أدنى اهتمام بالصهيونية اليهودية كحركة سياسية، ولكنها كحركة روحية كانت تشكل عنصراً هاماً في الفكر الأميركي، والحياة السياسية منذ الأيام الأولى للاستيطان الأوروبي في العالم الجديد خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر. وباختفاء البيوريتانية الإنجليزية بالعبرية هيأت الخلفية للبيوريتانية الأميركية. وكانت العناصر اليهودية في الواقع أكثر وضوحاً في العالم الجديد[1].

وكما كانت الحال في إنكلترا في اعتماد البيوريتانيين على النص الحرفي للتوراة والتسليم بكل مضمونها، كذلك أصبحت الحال في الولايات المتحدة. فالبيوريتانيون فيها كانوا يشعرون أن تجاربهم الأميركية تجعلهم متماثلين مع المنفيين العبرانيين الذين ذكرتهم التوراة. ولقد أصبحت أميركا برأيهم «كنعان الجديدة». كما أن هؤلاء فروا كالعبرانيين القدامى من عبودية «فرعون» (الملك جيمس الأول ملك إنكلترا) من أرض مصر (إنجلترا) بحثاً عن ملاذ في الأرض

---

(1) ريجينا الشريف، مصدر سبق ذكره، ص183.

الجديدة الموعودة من الاضطهاد الديني. وعندما أعلنوا الحرب على الهنود الحمر أصحاب البلاد، كانوا يستحضرون العهد القديم الذي أصبح مصدراً لأسمائهم ودليلاً لتشريعهم، وأخذوا يطلقون على أطفالهم أسماء توراتية، وكذلك على مستوطناتهم. وتغلغل التماثل البيوريتاني مع الشخصيات العبرية التوراتية في الحياة القومية الحديثة في أميركا المستعمرة، وأصبح هذا الإرث لازبا لما يسمى بالتقاليد الأميركية[1].

وعندما انتهى عهد لاهوت القرن السابع عشر، بدأت فلسطين كوطن لليهود تحتل مكانة خاصة في الثقافة الأميركية، وبقيت عودة اليهود إلى هذا «الوطن التقليدي» فكرة محببة ومبدأ مسلماً به في كل من الأدبين الديني والشعبي. وكان الفكر الأميركي عن فلسطين مستمداً من هذه المصادر التقليدية والأدبية. ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبح الاعتقاد بالبعث اليهودي يشكل جانباً مهماً من اللاهوت البروتستانتي الأميركي حيث احتلت معتقدات المسيح المنتظر والعصر الألفي السعيد مكاناً بارزاً في الولايات المتحدة أكثر مما كانت عليه الحال في إنكلترا. وبلغت ذروتها في ثقافة شعبية متميزة، كانت تتضمن كثيراً من تعاليم الصهيونية الروحية والدينية. وعلى ذلك، فمنذ فجر التاريخ الأميركي «كان هناك ميل مسيحي قوي للاعتقاد بأن مجيء المسيح المنتظر يجب أن ينتظر عودة الدولة اليهودية. لم يكن ذلك الرأي إجماعياً بين اللاهوتيين المسيحيين، ولكنه كان يشكل جزءاً من مصفوفة التاريخ الفكري الأميركي التي كانت تتضمن دائماً خيطاً من العصر الألفي السعيد في الفكر الأميركي المسيحي»[2].

اعتبرت كل النبوءات المتعلقة باليهود إشارات إلى «إسرائيل الطبيعية» أي الأمة اليهودية الروحية والدنيوية مقابل «إسرائيل الروحية» أي «الكنيسة

(1) المصدر السابق، ص183 ـ 184.

(2) المصدر السابق، ص184 ـ 184.

المسيحية». وساد الاعتقاد «أن الله كان يهدف طوال الوقت إلى غرضين متميزين: أحدهما متعلق بالأرض وشعبها وأهدافها الأرضية وهي اليهودية، وثانيهما مرتبط بالسماء وأهلها وأهدافها السماوية وهي المسيحية»، وبالتالي «فإن حدود الأرض الموعودة لإبراهيم ستعاد خلال العصر الألفي السعيد، وسيعود المسيح إلى مملكة سياسية ثيوقراطية قائمة على الأرض، ولها حكومة على غرار الحكومة الوطنية القائمة».

هذا الشكل المتميز للتفكير الألفي لم يجعل الطوائف التي تؤمن بالعصمة الحرفية صهيونية فحسب (المعمدانية، واللوثرية، وبعض أتباع الكنيسة المشيخية)، ولكنه أوجد زعماء يطالبون بعمل شعبي لإعادة اليهود إلى فلسطين[1]. فالساسة الأنكلوساكسون المسيحيون (أمثال بلفور ولويد جورج وتشرشل) كان الدافع لمؤازرتهم الحركة الصهيونية احترامهم لتعاليم التوراة عدا عن الدوافع الاستعمارية[2]. هذا الاحترام دفع الدوائر البروتستانتية الأميركية للترحيب الحار بوعد بلفور، وبدخول الجنرال اللنبي إلى القدس عام 1917[3]، ذلك أن نبوءات العهد القديم بعودة اليهود إلى فلسطين احتلت لولب اللاهوت البروتستانتي، وساد الاعتقاد بأن تلك العودة سيعقبها تنصر اليهود ويعجل بالمجيء الثاني للمسيح. ومع بداية القرن الماضي راجت هذه الأفكار في الأوساط الأميركية البروتستانتية، وقد عبّر عنها بوضوح، عام 1818، الرئيس الأميركي جون أدامز حين أبدى اهتمامه بعودة اليهود إلى فلسطين وإنشاء دولة مستقلة لهم فيها. ومن بين تلك الأوساط طائفتا الأدفنتست والحرمون»[4].

إن هذا التصور تأصل وتعمق واتسع بعد قيام دولة إسرائيل في الأوساط

---

(1) المصدر السابق، ص185 ـ 186.

(2) الفرد لليلنتال، مصدر سبق ذكره، ص198.

(3) Hertzel Fishman, OP. Cit, P27.

(4) Ibid, P15-21.

البروتستانتية الغربية، وعلى الأخص في الولايات المتحدة الأميركية. وساد الاعتقاد في هذه الأوساط بأن إنشاء دولة إسرائيل وانتصاراتها العسكرية مؤشران على صحة النبوءات التوراتية، ومقدمة للمجيء الثاني للمسيح رغم عدم تنصر أي من اليهود ومقاومتهم للتنصر، ورغم علمانية الحركة الصهيونية اليهودية، علماً بأن تأويلات هذه الأوساط تعسفية ولا ترتكز على أي أساس حقيقي في الكتاب المقدس.

هل يمكن اعتبار قيام دولة إسرائيل تحقيقاً لنبوءات توراتية؟

اعتبرت غالبية الطوائف البروتستانتية الغربية أن قيام دولة إسرائيل قد تم بمشيئة إلهية تحقيقاً لنبوءات توراتية[1]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد اعتبر البعض من أمثال بول فان بيرون (Paul Van Buren) أن الله حارب العرب إلى جانب اليهود، عام 1948، كما فعل أيام يشوع. وإسرائيل المعاصرة في منظوره هي استمرارية لإسرائيل التوراة[2]. ويتمادى البعض في التأويل التعسفي معتبراً أن انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة، عام 1967، كان بعون إلهي، وأن الغزو الإسرائيلي للبنان، عام 1982، تم بمشيئة إلهية[3]. ووصل الغلو عند البعض، من أمثال القس جري فولول، إلى اعتبار أن من يعادي دولة إسرائيل يعادي الله[4]، وأن الله يبارك من يبارك إسرائيل واليهود ويلعن من يلعنهما، وأن القوانين الأرضية لا تطبق على إسرائيل بل قوانين السماء، وأن الله يتخلى عمن يتخلى عن دعم إسرائيل[5].

---

(1) Ibid, P152-153.

Paul Findley, OP. Cit, P239.

القس إكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص25.

(2) Naim Istifan Ateek, OP. Cit, P63.

(3) Grace Halsell, OP. Cit, P61, 73.

(4) Jerry Falwell, OP. Cit, P215.

(5) Grace Halsell, OP. Cit, P3, 54, 75.

من نافل القول أن هناك من يتعمد الخلط بين تاريخ إسرائيل كدولة وتاريخ الدين اليهودي. ومن الثابت تاريخياً أن الفكر الديني اليهودي لا يهتم كثيراً بوجود الدولة، بل إن فترات ازدهار الدين اليهودي ونموه كانا في الوقت الذي عاش فيه الشعب اليهودي في المنفى، أو على شكل قبائل قبل تأسيس الدولة، بينما نجد الدين توارى وضعف في الفترات التاريخية التي ازدهرت فيها دولة إسرائيل، وأن تاريخ إسرائيل كدولة لم ولن يكون هو تاريخ الدين اليهودي.

إن تأسيس دولة إسرائيل في عصرنا الحالي لم يكن سوى رد فعل لاضطهاد اليهود في أوروبا ورغبة الأوروبيين في التخلص من تلك الحارات المغلقة (الجيتوات) لشعب عنيد متقوقع على ذاته، وذلك بعد فشل القتل والحرق في إبادتهم، فضلاً عن أنها محاولة لانتزاع الشعور بالذنب من ضمائرهم[1].

إن قيام دولة إسرائيل المعاصرة لم يتم بمشيئة إلهية، وليس بالتالي تحقيقاً لنبوءات، فلقد تم بقوة السلاح[2]، ولم يكن إطلاقاً تحقيقاً لنبوءات[3]. ويعتقد معظم أساتذة التوراة المنصفين المعاصرين أن العهد القديم لا يتضمن إشارات توحي باستعادة إسرائيل لوطنها القديم الذي يمكن تطبيقه على الشعب اليهودي في العصر الحاضر[4]. والمسيح لم يتحدث عن عودة جديدة لليهود، ولم يتحدث عن حكم اليهود لأورشليم ثانية، ولم يذكر مستقبل الأرض على أي حال[5]. وفي نظر الديانة المسيحية أن العهد القديم، بكل ما فيه من نبوءات ووعد، قد تم كله من قبل، أو مع مجيء السيد المسيح. وليس فيه أية

---

(1) القس إكرام لمعي، مصدر سبف ذكره، ص25.

(2) Naim Istifan Ateek, OP, Cit, P63.

(3) Paul Findley, OP. Cit P245.

(4) Hertzel Fishman, OP. Cit, P28.

(5) القس إكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص183.

إشارة إلى زمن تاريخي أو وضع سياسي بعد السيد المسيح. فكل ما جاء فيه في المجال الديني كان رمزاً إلى السيد المسيح. أما بعد السيد المسيح، فإن الشعب اليهودي، مثل كل شعب، يخضع للقوانين العامة التي تسوس تاريخ الأمم من غير تمييز، بما في ذلك الانتصارات أو الانكسارات العسكرية وإنشاء الدول أو فقدانها. أما موقف الفكر المسيحي الغربي من هذه القضية، فإن قسماً منه تعاطف مع الحركة الصهيونية الرامية إلى إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، إلا أن هذا التعاطف من قبيل العاطفة، وليس من قبيل مضمون العقيدة المسيحية، ولا من قبيل أي إلزام ديني. فظهرت حركات أرادت أن تربط بين العهد القديم والدولة الحديثة (إسرائيل). إلا أن هذا هو خروج صريح على معنى الآيات المقدسة، وعلى مضمون الكتاب العقائدي، وعلى قواعد التفسير الكتابية. ومن الطريف أن نلاحظ، أنه بينما يحاول هؤلاء المسيحيون الربط بين الكتاب المقدس ودولة إسرائيل، فإننا نجد أكثرية لا يستهان بها في إسرائيل لا تؤمن بالكتاب المقدس[1]. ولا سيما الآباء البطارقة منهم من أمثال هرتسل ونوردو ووايزمن وبن غوريون وسمولنسكين[2].

إن النبوءات المتعلقة بالعودة قد تمت من قبل يوم عاد اليهود من الأسر البابلي الذي كان عقاباً لهم، وإن آخر الأنبياء الذين تكلموا عن العودة مات قبل دمار الهيكل عام 70م بقرون، ولم تظهر بعد ذلك نبوة تلمح لعودة جديدة ثانية. وهكذا يتناقض قيام دولة إسرائيل المعاصرة «كعودة بعد ألفي عام» مع الوعد التوراتي الذي تم من قبل والذي يستندون إليه. ولهذا يعتبر يهود «المشريم» في القدس أن إنشاء دولة إسرائيل المعاصرة مخالف لمعتقداتهم الدينية[3].

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص522 ـ 523.

(2) عبد الوهاب محمد المسيري، مصدر سبق ذكره، ص214، 215، 220 ـ 221.

(3) Sami Hadauri, OP, Cit, P25.

Walid Khalidi, ed, OP. Cit, P28-29.

إبراهيم العابد، مصدر سبق ذكره، ص12.

أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص19.

إن النصوص المقدسة لا تتكلم عن إسرائيل كوحدة جغرافية أو عنصرية أو سياسية بل كمجموعة من المؤمنين. كما أن الوعود الإلهية، مهما كان من أمرها، فقد ألغيت بسبب جحودهم ومخالفاتهم المتعددة لشروط تلك الوعود. ومن نافل القول أن الاعتبارات الدينية أصلاً لا محل لها في القانون الدولي المعاصر الذي يستند منذ القرن السادس عشر إلى ممارسة السيادة ممارسة مستمرة فعلية على أرض الدولة وإلى إشغال بلد ما إشغالاً فعلياً. ناهيك بأنه «ليس هناك أساس إن في العهد القديم أو في العهد الجديد يدعم الادعاء الصهيوني بأن دولة يهودية معاصرة في فلسطين مبررة أو مطلوبة في الإنجيل أو حسب النبوءة الإنجيلية. إن وعود النبوة الإنجيلية تنطبق على البشرية جمعاء وليس على اليهود أو الصهيونيين. وإن تعابير مثل «النصر» أو «الخلاص» في معانيها الإنجيلية الحقيقية تعني مكتسبات دينية وروحية وليس اجتياح أو تحطيم عدو سياسي. وحتى بدون العبارات المحددة في العهد الجديد بشأن الطبيعة الدينية والروحية للوعود لإسرائيل، فإنّ العهد القديم وحده، بمعناه الحقيقي، ومن خلال أصدق مفسريه، أشار إلى مملكة روحية للبشرية جمعاء وليس إلى إسرائيل سياسية ستحتل أرضا وبيوتاً تخص شعباً آخر. . .»[1].

ويوم حثهم «عزرا» و«نحميا» على العودة من بابل إلى أورشليم، بقيت الأكثرية منهم ببابل مفضلة «المنفى» على العودة، والشيء نفسه فعله يهود الإسكندرية دون أي اكتراث لأمر «العودة» «والوعد» و«النبوة». وحتى في أواخر القرن الماضي أعلنت مجموعة من الحاخامين في بتسبرغ بالولايات المتحدة، عام 1885 أن الأرض الأميركية هي أورشليمهم الجديدة وأنهم لا يعتزمون العودة إلى فلسطين[2].

أما العودة التي حدثت في الماضي بقيادة عزرا ونحميا، فقد حصلت

(1) إبراهيم العابد، مصدر سبق ذكره، ص12 ـ 13.

(2) الفرد ليلنتال، مصدر سبق ذكره، ص17، 21.

بمشيئة إلهية خلافاً للعودة المعاصرة التي حصلت بالقوة البشرية. «ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من أشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر. ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض» (إشعيا 11/ 11 ـ 12). أما أرميا فقد صاغ فكرة الاندماج ورسم لليهود معيشتهم الطبيعية في الشتات وحررهم من ربقة الارتباط الجسمي بصهيون وعبادة الرب في هيكل القدس فقط. وقد رأى الأستاذ هنري رولي أن أرميا جرّد الإيمان من الارتباط الإقليمي بالأرض و«جعل الدين تواصلاً مع الرب لا يتوقف على هذا المكان أو ذاك، وإنما على تجاوب الروح مع الرب، ولم يعد الهيكل ضرورياً للعبادة». وحذّر أتباعه من مغبة الوهم القاضي بأن يضعوا ثقتهم في الكلمات الكاذبة، وحضهم على إصلاح سلوكهم وأعمالهم وعدم اضطهادهم الأجنبي، وتذهب الموسوعة اليهودية إلى أن أرميا أعفى صهيون من ضروريات العبادة، وندد بالقائلين بضرورة تقديم الأضحيات على هيكل أورشليم. وفي الوقت نفسه وعد اليهود بالعودة إلى فلسطين ثانية لكن بإرادة الرب وعند مشيئته، الأمر الذي أصبح الأساس الفكري لليهودية في التشبث بالشتات حتى مجيء المسيح المخلص أو الماشيح. ولا يصح تحقيق ذلك بالتمرد على الأغيار. وفي هذه الحقبة ظهر الأنبياء هوشع وميخا وعاموس وساروا جميعاً مسار أرميا في تأكيد النزعة الكونية الروحية بدلاً من القوة السياسية في صياغة المصير اليهودي[1]. (أرميا 29/ 4 ـ 7).

يتضح مما تقدم تهافت المقولات التي تزعم بأن ولادة دولة إسرائيل المعاصرة جاءت تحقيقاً لنبوءات توراتية. والظاهر أن أصحاب هذه المقولات سواء كانوا من المسيحيين أو من اليهود فإنما يزعمون ذلك إما عمداً بتسخيرهم الدين للسياسية، وإما جهلاً لأخذهم بتأويلات تعسفية باطلة.

---

(1) إبراهيم العابد، مصدر سبق ذكره، ص10 ـ 11.
الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد السادس، مصدر سبق ذكره ص748، 724.

المرتكزات العقدية للأصولية المسيحية

الصهيونية المسيحية فرع نابت من المسيحية الغربية البروتستانتية، وتشترك مع هذا الفرع تيارات شتى ميالة إلى الصهيونية، فضلاً عن نزعة «موالاة اليهود» عامة. وليس تأييد المسيحيين الأصوليين للصهيونية السياسية قط ظاهرة جديدة في التاريخ. فتأييد المسيحيين الأصوليين الغربيين لإسرائيل يضرب جذوره في مفهوم لاهوتي قديم يقال له القدرية السابقية، وإن شئنا التدقيق قلنا إن هذه النزعة قد تطورت في أوروبا في أثناء القرن التاسع عشر، وإن كانت أصولها ترقى إلى حركة الإصلاح الديني البروتستنتية والفكر الرؤيوي اليهودي. أما اليوم «فالصهيونية المسيحية» حركة داخل الأصولية الغربية المسيحية الإنجيلية، حركة لم تزل تطور زعاماتها ومؤسساتها وبرنامج عمل سياسي واضح. وهذه الحركة ذات فاعلية سياسية متنامية ومؤثرة في الولايات المتحدة وهي من القوى المؤيدة لإسرائيل بقوة. ومن زعمائها القس المعمداني جيري فالويل، مؤسس جماعة العمل السياسي الأصولي المسماة «الأغلبية الأخلاقية»، الذي يعبر عن نظرة الصهيونيين المسيحيين تجاه إسرائيل بقوله: «إن من يؤمن بالكتاب المقدس حقاً يرى المسيحية ودولة إسرائيل الحديثة مترابطين على نحو لا ينفصم، إن إعادة إنشاء دولة إسرائيل في العام 1948 إلهي، في نظر كل مسيحي مؤمن بالكتاب المقدس، تحقيق لنبوءات العهدين القديم والجديد»[1].

يركز الأصوليون في فهمهم للعهد القديم على موضوع محوري هو «إسرائيل» وشعبه المختار من قبل الله كعنصر مقدس والدفاع عنه ضد الذين يحيقون به وطلب إغاثة الرب له. بالإضافة إلى ملكية هذا الشعب الأبدية للأرض الموعودة المقدسة، وهي فلسطين، وقد تمسك هؤلاء بالنصوص

---

(1) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص9 ـ 10.

Merrill Simon, Jerry Falwell and the Jeuis, New York Jonathan Dauid Publishers, 1984 P12.

الحرفية للكتاب المقدس، وسيسوا رؤيتهم الدينية معتبرين أن إسرائيل الواردة في العهد القديم، هي إسرائيل المعاصرة في فلسطين، وأن ميلاد إسرائيل في عام 1948 في فلسطين، هو تأكيد لصلاحية النبوءات التوراتية وعلامة على اقتراب العودة الثانية للمسيح. ويرتكز هذا الإيمان الذي أفرزته عملية الربط التاريخي واللاهوتي بين إسرائيل الواردة في التوراة وإسرائيل المعاصرة، على المعتقدات التالية:

1 ـ معتقدات وأحداث جرت في الماضي وأهمها:

أ ـ اختيار الله اليهود كشعب مفضل ومختار.

ب ـ اختيار فلسطين كمكان لمعبد الله وموقع لمملكة إسرائيل.

ج ـ معاقبة الله اليهود لمخالفتهم تعاليمه.

د ـ ومع ذلك، فإن الله لن يخلف وعده لشعبه المختار.

هـ ـ أرسل الله السيد المسيح لإنقاذ العالم وقد رفضه اليهود في ذلك الوقت.

2 ـ معتقدات بأمور ستحدث وأهمها:

أ ـ إن خطة الله تتضمن العودة الثانية للمسيح للتبشير بمملكة الله.

ب ـ إن ذلك مشروط باستعادة إسرائيل كشعب مختار لأرضها الموعودة، من أجل تمهيد المكان للمجيء الثاني للمسيح.

جـ ـ إن إنشاء إسرائيل في فلسطين عام 1948 ووجود القدس كاملة تحت الحكم الإسرائيلي لأول مرة منذ أكثر من ألفي عام، هما أبرز الإشارات الدالة على أن العودة الثانية للمسيح على وشك الحدوث.

د ـ اعتبار كل الأشخاص والمجموعات والدول التي تعارض أو تناهض دولة إسرائيل أعداء الله لأنهم يعوقون النبوءات التوراتية[1].

(1) محمد السماك، مصدر سبق ذكره، ص34، 72.

إن مجمل هذه المعتقدات تسربت، على ما يبدو، إلى صميم العقيدة المسيحية من الأدبيات اليهودية، وهي تدور حول ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو أن اليهود هم شعب الله المختار، وأنهم يكوّنون بذلك الأمة المفضلة على كل الأمم.

الأمر الثاني: هو أن ثمة ميثاقاً إلهيّاً يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين، وأن هذا الميثاق الذي أعطاه الله لإبراهيم هو ميثاق سرمدي حتى قيام الساعة.

الأمر الثالث: هو ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح بقيام دولة صهيون، أي بإعادة تجميع اليهود في فلسطين حتى يظهر المسيح فيهم.

هذه الأمور الثلاثة ألفت في الماضي، وهي تؤلف اليوم قاعدة الصهيونية المسيحية التي تربط الدين بالقومية، والتي تسخر الاعتقاد الديني المسيحي لتحقيق مكاسب يهودية. وتعتقد الصهيونية المسيحية أن ثلاث إشارات يجب أن تسبق عودة المسيح:

1 ـ الإشارة الأولى هي قيام إسرائيل عام 1948 الذي اعتبره الصهيونيون المسيحيون في الولايات المتحدة أعظم حدث في التاريخ لأنه جاء مصداقاً للنبوءة الدينية.

2 ـ الإشارة الثانية هي احتلال إسرائيل مدينة القدس وتوحيدها عام 1967. ويعتقد الصهيونيون المسيحيون أنها المدينة التي سيمارس المسيح منها حكم العالم بعد قدومه الثاني المنتظر، ولذلك تضغط الكنائس الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة من أجل الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل، ولقد تجاوب مجلسا الشيوخ والنواب الأميركيان مع هذه الضغوط في نيسان 1990.

3 ـ الإشارة الثالثة هي إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى: لقد وضعت خريطة الهيكل الجديد، فيما تتواصل الحفريات تحت

المسجد بحجة البحث عن آثار يهودية مطمورة. وفي الوقت نفسه يتم إعداد وتدريب كهان الهيكل في معبد خاص بالقدس. أما الأموال اللازمة فقد جمع معظمها وأودع في حساب خاص باسم مشروع بناء الهيكل[1].

أطروحات الصهيونية المسيحية حول المجيء الثاني للمسيح.

يسوق الصهيونيون المسيحيون جزافاً افتراضات لا تستند حقيقة إلى نصوص وأدلة واضحة من الكتاب المقدس تتعلق بالمجيء الثاني للمسيح، ومن هذه الافتراضات قيام دولة إسرائيل وتوحيد القدس، ويستلزم استباق المجيء إعادة بناء الهيكل الثالث.

إن المجيء الثاني للمسيح لا يمكن تحديد موعده، ولا تصح افتراضات الصيونيين المسيحيين أن تكون مؤشرات لهذا المجيء، إذ لا أحد يقدر أن يخبر الأمور التي من الله إلا الذي من الله (متى 11/ 27)، (يوحنا 1/ 18)، (يوحنا 3/ 31 ـ 35)، (يوحنا 8/ 40)، (رؤيا 5/ 9) أي المسيح يسوع الذي له القول الفصل مهما تكاثرت التفاسير والشروحات. وفي هذا المعنى يورد الكتاب المقدس بعض الآيات: «كل الكلام يقصر. لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل» (الجامعة 1/ 8)، «. . . لكي تتعلموا فينا أن لا تفتكروا فوق ما هو مكتوب كي لا ينتفخ أحد لأجل الواحد على الآخر» (كورنتوس الأولى 4/ 6)، «فإني أقول بالنعمة المعطاة لي لكل من هو بينكم أن لا يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي بل يرتئي إلى التعقل كما قسم الله لكل واحد مقداراً من الإيمان» رومية 12/ 3)، «كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له. كما في الرسائل كلها أيضاً متكلماً فيها عن هذه الأمور التي فيها أشياء عسيرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضاً لهلاك أنفسهم» (رسالة بطرس الثانية 3/ 16)، «عالمين هذا أولا أن كل

---

(1) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص11 ـ 12.

نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسيون مسوقين من الروح القدس» (بطرس الثانية 1/ 20 ـ 21). وهكذا نرى أن بطرس يعترف جهاراً أن هناك أشياء عسيرة يصعب فهمها ليس في رسائله فقط بل في رسائل سواه. ويقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنتوس 13/ 8): «وأما النبوات فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل. لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ. ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض»، «وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون» (متى 16/ 3)، «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده» (متى 24/ 36)، «اسهروا إذا لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم» (متى 24/ 42)، «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب» (مرقس 13/ 32)، «فكونوا إذا مستعدين لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان» (لوقا 12/ 40)، «أما هم المجتمعون فسألوه قائلين يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل. فقال لهم ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه» (أعمال الرسل 1/ 6 ـ 7).

اليهود لم يؤمنوا بالمجيء الأول للمسيح ولا يزالون ينتظرون مجيء مسيحهم الخاص (المسيّا) رغم تأكيده بأنه هو نفسه «فقالت له المرأة أنا أعلم أن مسيّا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء يخبرنا بكل شيء. فقال لها يسوع أنا الذي أكلمك هو» (يوحنا 4/ 25 ـ 26). ومع ذلك أصروا على موقفهم منه، ومن المستغرب أن يتجاهل ذلك الصهيونيون المسيحيون، وأن يتبنوا أدبيات يهودية مصورين مسيح المسيحيين كأنه مسيّا اليهود الخاص بهم، رغم رفض اليهود هذا التصور.

من هم أبناء الله وشعب الله في الوقت الحاضر

استناداً إلى الكتاب المقدس تبطل مقولات الصهيونية المسيحية واليهودية عن كون اليهود هم شعب الله الخاص دون سواهم. وفي ذلك يقول بولس:

«منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح. الذي بذل نفسه لأجلنا لكي يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في أعمال حسنة» (تيطس 2/ 13 ـ 14). وفي رسالته إلى غلاطية كتب يقول: «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح. ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع. فإن كنتم للمسيح فأنتم إذا نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة» (غلاطية 3/ 26 ـ 29). ويشير إشعيا إلى صهيون وأورشليم السماويتين بقوله: «فترى الأمم برك وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب» (إشعيا 62/ 2). ويشير إشعيا بوضوح إلى رفض الله لإسرائيل ودعوة صريحة للأمم «أصغيت إلى الذين لم يسألوا. وُجدت من الذين لم يطلبوني. قلت هأنذا هأنذا لأمة لم تسمَّ باسمي. بسطت يدي طول النهار إلى شعب متمرد سائر في طريق غير صالح وراء أفكاره» (إشعيا 65/ 1 ـ 2)، ويضيف «وتخلفون اسمكم لعنة لمختاري فيميتك السيد الرب ويسمي عبيده اسما آخر» (إشعيا 65/ 15). وجاء في سفر الأعمال (15/ 14): «سمعان قد أخبر كيف افتقد الله أولاً الأمم ليأخذ منهم شعباً على اسمه». ويوضح لنا بطرس هوية الشعب الخاص بقوله: «إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح الذي إذ تأتون إليه حجراً حيّاً مرفوضاً من الناس ولكن مختار من الله الكريم. كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح. لذلك يتضمن أيضاً في الكتاب هأنذا أضع في صهيون حجر زاوية مختاراً كريماً والذي يؤمن به لن يخزى. فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة وأما للذين لا يطيعون فالحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. وحجر صدمة وصخرة عثرة. الذين يعثرون غير طائعين للكلمة الأمر الذي جُعلوا له. وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء لكي تُخبروا بفضائل الذين دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب. الذين قبلا لم تكونوا شعباً وأما الآن فأنتم شعب الله. الذين

كنتم غير مرحومين وأما الآن فمرحومون» (رسالة بطرس الأولى 2/ 3 ـ 10). ويقول بولس في رسالته إلى أفسس: «لذلك اذكروا أنكم أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين غرلة من المدعو ختاناً مصنوعاً باليد في الجسد. أنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم. ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلا بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح. لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونفض حائط السياج المتوسط. أي العداوة. مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً. ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به. فجاء وبشركم بسلام أنتم البعيدين والقريبين. لأن به لنا كلينا قدوماً في روح واحد إلى الآب. فلستم إذا بعد غرباء ونزلا بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله مبنيين على أسس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية. الذي فيه كل البناء مركّباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم مبنيون معاً مسكناً لله في الروح» (أفسس 2/ 11 ـ 22). وأما يسوع فقال أيام تجسده عن الأمم (الوثنيين): «ولي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة (الحظيرة عن اليهود) ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يوحنا 10/ 16). يتبين من مجمل هذا السياق النفي المطلق لأسطورة واهية هي اعتقاد زائف بأن اليهود وحدهم هم شعب الله الخاص، ومن المحال أن يكون ذلك «لأن ليس عند الله محاباة» (رومية 2/ 11).

أما الزعم بأن المجيء الثاني للمسيح مرتهن بإيمان من تبقى من يهود العالم الذين لم يؤمنوا بمجيئه الأول ولا بالفداء، فذلك أمر يفتقر إلى مستند من الكتاب المقدس، وهو من الخرافات التي ذكرها بولس في رسالته إلى تيطس «.. فلهذا السبب وبخهم بصرامة لكي يكونوا أصحاء في الإيمان لا يصغون إلى خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدين عن الحق» (تيطس 1/ 13 ـ 14). ويحذر بطرس المؤمنين قائلاً: «ولكن كان أيضاً في الشعب أنبياء كذبة

كما سيكون فيكم أيضاً معلمون كذبة الذين يدسون بدع هلاك. وإذ هم ينكرون الرب الذي اشتراهم يجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً. وسيتبع كثيرون تهلكاتهم. الذين بسببهم يجدف على طريق الحق. وهم بالطمع يتجرون بكم بأقوال مصنعة الذين دينونتهم منذ القديم لا تتوانى وهلاكهم لا ينعس» (رسالة بطرس الثانية 2/ 1 ـ 3).

ويشير بولس في رسالته الثانية إلى تيموتاوس إلى هذا الموضوع بقوله: «لأنه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل حسب شهواتهم الخاصة يجمعون لهم معلمين مستحكة مسامعهم فيصرفون مسامعهم عن الحق وينحرفون إلى الخرافات» (2 تيموتاوس 4/ 3 ـ 4).

إن الآية التي يربط بها بعضهم المجيء الثاني للمسيح بإيمان اليهود هي الواردة في إنجيل (متى 23 ـ 29) «لأني أقول لكم. إنكم لا ترونني من الآن، حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب». ومن المعلوم أن متى كان يحاور اليهود، لذلك راعى معتقداتهم إلى حد، مع أنهم لم يؤمنوا بالمسيح ماضياً وحاضراً، وأنهم لن يقولوا «مبارك الآتي باسم الرب». إن يسوع بعد إتمامه لمهمته وبعد قيامته ظهر المسيح حسب وعده لأناس اختارهم الله كما صرح بذلك بطرس: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات» (أعمال الرسل 10/ 40 ـ 41. ومن المعلوم أن اليهود لم يكن أحد منهم من الذين أكلوا وشربوا مع المسيح بعد قيامته، وبهذا لن يكونوا من الذين «سبق الله فانتخبهم».

وفيما يتعلق بتجمع اليهود في دولة إسرائيل المعاصرة، لا نجد في العهد الجديد ما يشير إلى ذلك. نقرأ في إنجيل متى: «وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير. فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع رياح من أقصاء السماوات إلى أقصائها». (متى

24/30 ـ 31). ومن اللافت للنظر أن غالبية الشيع البروتستانتية تتبارى تعسفاً فيما بينها لإفهام العالم أن «المختارين» هم اليهود. لا ندري ولا المنجم يدري على ماذا اعتمدت تلك الشيع في اعتبار اليهود أنهم المختارون. ونقرأ في رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيكي «لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء وهكذا كل حين مع الرب» (4/16 ـ 17). وواضح أن «الأحياء الباقين» هم المؤمنون بالمسيح، وواضح أيضاً أن اليهود لسيوا كذلك، كما أننا لا نجد في العهد الجديد أية إشارة تدل على أن اليهود هم المختارون، وكلمة مختاري الله لا تعني أنهم اليهود، ولا نجد أية إشارة توحي بقيام دولة إسرائيل المعاصرة. المجتمعون بالمسيح سألوه قبل صعوده «قائلين يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل» (أعمال الرسل 1/6). هذا السؤال يدل على أن العقلية اليهودية كانت مستحوذة على أذهان السائلين رغم أنهم سمعوا من فمه أن مملكته ليست من هذا العالم (يوحنا 18/36). هم يريدون مسيحاً يملك عليهم ملكاًأرضياً، وهو يرفض ذلك (يوحنا 6/15). وحتى بين تلاميذه نجد أن العقلية اليهودية كانت مستحوذة على عقول بعضهم. فبولس يذكر ذلك صاباً لومه على بطرس الذي كانت اليهودية لا تزال مستحوذة على تفكيره. وقد تبين ذلك عندما كان يأكل مع الأمم (الوثنيين)، ولكن لما أتى قوم (يهود) من عند يعقوب كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان (اليهود). (غلاطية 2/11 ـ 14) لكن لما حلَّ الروح القدس اختفت هذه العصبية.

أن الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه (أعمال الرسل 1/7) ليست مرهونة بإيمان من تبقى من يهود العالم الحاضر أو غيرهم، ولا بقيام دولة إسرائيل أو غير ذلك كما يُزعم «لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً. أو من سبق فأعطاه فيكافأ» (رومية 11/34 ـ 35). فكما أن الله أرسل

ابنه أول مرة عندما جاء ملء الزمان (غلاطية 4/4) هكذا سيأتي للمرة الثانية عندما يحين الوقت المحدد له من قبل الآب. ولن ننسى قول يسوع: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده» (متى 24/36). ومرقس يقول: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب» (13/32).

ومن المستغرب، الذي لا يستند إلى أساس من الكتاب المقدس، أن بعض الشيع البروتستانتية في الغرب، خاصة في اولايات المتحدة، يحددون المجيء الثاني، والزمن الألفي السعيد الذي سيعقب معركة هرمجدون، ويزعمون أن قيام إسرائيل وتوحيد القدس مؤشران على اقتراب المجيء الثاني المزمع حدوثه بعد بناء الهيكل الثالث، ويتناسون ما جاء في إنجيل لوقا: «هوذا بيتكم يترك لكم خراباً والحق أقول لكم أنكم لا ترونني حتى يأتي وقت تقولون فيه مبارك الآتي باسم الرب» (13/35) وغني عن القول أنهم لم يفعلوا ذلك ولن يفعلوا، ولم يؤمنوا بالمجيء الأول ولا يزالون ينتظرون مجيء مسيحهم (المسيّا) رغم تأكيد المسيح لهم بأنه هو نفسه المسيّا (يوحنا 4/25 ـ 26).

عندما أخذ نبوخذ نصر اليهود سبايا إلى بابل، عام 586ق.م، خاطبهم نبيهم أرميا قائلاً: «ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. خذوا نساء ولدوا بنين وبنات وخذوا لبنيكم نساء وأعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلوا. واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام» (29/5 ـ 7). هذه هي الفلسفة السمحة التي بنيت على أسس المعتقدات اليهودية. ولقد حذرهم أرميا من الأخذ بأقوال الأنبياء والعرافين «لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرافوكم ولا تسمحوا لأحلامكم التي تتحلمونها» (29/8) ويحذرهم من الإصغاء إليهم لأنهم كذابون «إنما يتنبأون لكم باسمي بالكذب» (29/9). ومجمل الأنبياء (عاموس، أرميا، ميخا، إشعيا، إيليا) لم يوجهوا العبرانيين للاهتمام باستعادة سلطان زمني سياسي، ولقد حصروا اهتمامهم بدفع الظلم

عن بني قومهم، وبحثهم على عبادة الله، إلٰه الرحمة، والتمسك بأهداب الحق والفضيلة.

وقد كتب النبي إشعيا، عام 536ق.م، مؤيداً أقوال النبي آرميا، وعبارته المشهورة: «في العام المقبل سنكون في أورشليم» لم يقصد بها قوماً معيناً، بل عنى بها إحياء مملكة الله، التي ستكون نواة لمجتمع أمثل يسكنه مثاليون. وقد وصف هذا النبي في التوراة رسالة اليهودية بقوله: «ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم. وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إلٰه يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب. فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب في ما بعد» (إشعيا 2/ 2 ـ 4)[1].

من الملاحظ أن ما قاله آرميا وإشعيا مناقض للمرتكزات التي قامت على أساسها الصهيونية والتي أقامت دولة إسرائيل المعاصرة. آرميا طالبهم بالبقاء في بابل والأكثرية منهم فعلت ذلك، وطالبهم بالاختلاط والاهتمام بسلام بابل، وإشعيا لم يحصر العبادة في أورشليم باليهود، ولم يكن تصوره يذهب إلى قيام مملكة يهودية دنيوية فيها بل روحية يسودها العدل والإنصاف، وقد شدد على هذين الأمرين «إشعيا 11/ 4، 11/ 6، 32/ 11، 56/ 1) فهل شيء من ذلك له وجود في الممارسات الإسرائيلية منذ ولادة الكيان الصهيوني؟ وهل يعقل ـ كما يزعم الصهيونيون المسيحيون ـ أن تكون إسرائيل المعاصرة تحقيقاً لنبوءات حين تقوم سلطاتها بممارسات هي أبعد ما تكون عن العدل والإنصاف؟ المملكة التي أرادها المسيح روحية وليست بشرية سياسية «أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان

(1) الفرد ليلنتال، مصدر سبق ذكره، ص16 ـ 17.

خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود» (يوحنا 18/ 36) بينما اليهود كانوا يريدونه ملكاً زمانياً لهم دون سواهم (يوحنا 6/ 15). من ذلك يتضح الفارق بين مفهومهم لمسيحهم ومفهوم المسيحيين الحقيقيين لمسيحهم. فإنشاء دولة إسرائيل المعاصرة يلتقي مع مفهوم اليهود لمسيحهم ولا يلتقي مع مفهوم المسيحيين الحقيقيين لمسيحهم. وهكذا تتلاشى أطروحات الصهيونيين المسيحيين في محاولتهم الدمج بين المسيحيين.

اعتبر الصهاينة المسيحيون أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة وتوحيدها للقدس مؤشران على قرب مجيء المسيح، بينما المسيح تحدث عن خرابها «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خرابا» (متى 23/ 37 ـ 38)، «وفيما هو (المسيح) خارج من الهيكل قال له واحد من تلاميذه يا معلم انظر ما هذه الحجارة وهذه الأبنية، فأجاب يسوع وقال له أتنظر هذه الأبنية العظيمة. لا يترك حجر على حجر لا يُنقض» (مرقس 13/ 1 ـ 2).

في حرب الأيام الستة، 1967، اجتاحت القوات الإسرائيلية أورشليم، وهنا ارتفعت أصوات بعض المفسرين للكتاب المقدس بالقول: إن ما تنبأ به المسيح عن خراب أورشليم قد وقع عندما سبق له أن قال: «ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكمّل أزمنة الأمم» (لوقا 21/ 24). وقال هؤلاء المفسرون إنه باجتياح اليهود لأورشليم انتهى وقت الأمم وعادت أورشليم إلى قبضة اليهود، وهذه إحدى علامات المجيء الثاني.

ومشكلة هؤلاء المفسرين، أنهم يأتون بأفكار من الصعب جداً أن نجدها في النص أو في خلفيته، وهم من أصحاب التفسير النفسي والاجتماعي للكلمة المقدسة، وأصحاب هذه النظرية يأتون بأفكار جاهزة ومعدة سلفاً يعكسونها على الكتاب المقدس ليخرجوا بتأييد من الوحي لنظرياتهم، فالمسيح لم

يتحدث قط عن حكم اليهود لأورشليم ثانية، ولم يذكر مستقبل الأرض على أي حال، فكيف يستنتج هؤلاء المفسرون هذه التأويلات؟. أما أورشليم بالنسبة للسيد المسيح فلم تكن سوى المدينة التي أعلن فيها رسالته، وحوكم فيها، وحكم عليه بالموت، ولأن المدينة لم تقبل رسالة المسيح، ولم تتجاوب مع فكر الله، وفشلت في فهمه، لذلك أراد الله لها خراباً. وهكذا نرى أن عهد الله مع شعب معين سواء من وعد بأرض معينة، أو تأسيس دولة لم يعد له مكان، فهو ضرب من العنصرية لم يقبله سوى من لا يدرك عمق فكر الله واتساعه[1]. وهل من المنطق في شيء أن يكافئ المسيح الشعب الذي رفضه، ولا يزال بإقامة دولة اغتصاب تسيء لرسالته وتتنكر لتعاليمه؟ وهل من المنطق في شيء أن يفسر مفسرون اتخاذ أورشليم عاصمة لهذه الدولة مقدمة لمجيء المسيح الذي لا يزال مرفوضاً لديهم، ولا يزالون ينتظرون مسيحاً خاصاً بهم مختلفاً تماماً عن مسيح المسيحيين الحقيقيين؟ من الواضح أن تفسير هؤلاء مرده إما إلى شطط تعسفي لمآرب سياسية، وإما مدده من اختراق خارجي يهودي للفكر الصهيوني المسيحي. ولقد حدث هذا الاختراق بذكاء شديد لكي تتبنى الكنيسة فكرة الدولة الصهيونية المرفوضة تماماً من الكتاب المقدس[2]. إن قراءة التاريخ توضح لنا أن تأسيس دولة إسرائيل في عصرنا الحالي لم يكن سوى رد فعل لاضطهاد اليهود في أوروبا، ولرغبة الأوروبيين في التخلص من التجمع في جيتوات مغلقة لشعب عنيد، غير مندمج، متقوقع على ذاته، ولمحاولتهم التخلص من الشعور بالذنب من جراء الاضطهاد النازي لليهود[3]. وأنه لا علاقة لذلك بالنبوءات أو بالمجيء الثاني للمسيح.

يضع البعض علامات للمجيء الثاني ويحددون موعده، من بينها حدوث زلازل أو حروب أو أحداث ما غريبة، ومن أهمها قيام دولة إسرائيل. وهذه

(1) الفس اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص181 ـ 183.
(2) المصدر السابق، ص11 ـ 12.
(3) المصدر السابق، ص25 ـ 26.

العلامات قد اختلف بأمرها كثيرون، ونفاها كثيرون، في حين حدد البعض تواريخ معينة لهذا المجيء اتضح فيما بعد بهتانها. ومع ذلك، لا زال البعض يحاول توقيف بعض النبوات على أحداث معينة في التاريخ ليبرهن على قرب المجيء ويحدد موعده[1]. علماً بأن المجيء الأول وقع قبل ألفي سنة تقريباً، وأن المجيء الثاني لا يعرف أحد موعده. والاختلافات متعددة في كيفية وتفاصيل حصول المجيء، وهذه الاختلافات كانت الثغرة التي نفذت منها الصهيونية لتقنع بعض المسيحيين بأن إسرائيل كدولة علمانية عنصرية عسكرية، إحدى علامات المجيء الثاني، وأن التاريخ اليهودي هو الخلفية الأصلية للمسيحية والإسلام، ولذلك كان انسلاخ المسيحية من اليهودية من الأمور الصعبة، والتي حملت معها بعض الشوائب، أهمها توقع مجيء مسيّا العسكري الذي يحارب ويحكم العالم حكماً مادياً. وبهذا تعتبر المسيحية من وجهة نظرهم كإحدى الطوائف اليهودية، وإن لم يعلنوا هذا بوضوح فهم يؤمنون بأن المسيح في مجيئه الأول كان لأجل الأمم فقط، لذلك فرسالته تعتبر فرعاً من اليهودية الأصلية. وفي مجيئه الثاني سيأتي لأجل اليهود بنفس عقيدتهم القديمة من مسيّا القوة والعنف، وبهذا تعود المسيحية إلى الشجرة الأم، اليهودية، ويثبت عدم زيف عقيدتهم في المسيّا العسكري، مع التأكيد على وهم مسيّا السلام، فعقيدة مسيّا القومي لا زالت قائمة لديهم رغم نفي المسيح القاطع لها، وطبقاً لذلك فالمسيحية ليست إلا مرحلة وسطى تنتهي بانتهاء مهمتها، فعودة المسيح سوف تكون بصورة قوية تراجيدية إذ يأتي هذه المرة ليقف مع إسرائيل في مواجهة كل قوى الشر في العالم ويهزمها في موقعة دموية قاسية يقتل فيها ثلثا العالم، وبعد الانتصار على هذه القوى الشريرة، يقوم المسيح بحكم العالم، وكأنه صعب على هؤلاء أن يكون المسيح في مجيئه الأول بكل هذا الضعف، فلا بد وأن يأتي مرة ثانية بقوة، وليس بقوة فقط بل بعنف ودموية كما كانوا يتوقعونه في مجيئه الأول وخيّب رجاءهم.

(1) المصدر السابق، ص13 ـ 14.

لذلك سيأتي ويحكم لمدة ألف عام على الأرض، وبناء على هذا الفكر ظهر في تاريخ الفكر المسيحي اللاهوتي عدة نظريات لهذا المجيء أبرزها وأهمها «نظرية الملك الألفي السعيد»[1].

نظريات الملك الألفي السعيد

الألفيون هم أولئك الذين يؤمنون أن مملكة المسيح عمرها يدوم ألف سنة ستقوم بعودة المسيح الثانية ليقاتل المسيح الدجال. ويعتقدون أن الأرض ستتبدل وتختفي مظاهر المرض والفقر والظلم والحرب. ومن أولئك المتشبثين بهذه العقيدة «الصهيونيون المسيحيون» الذين يعتقدون أن العد العكسي السابق «للمملكة الألفية» قد بدأ بتأسيس دولة إسرائيل وبتوحيد القدس لاحقاً والمتبقي بعد ذلك تشييد «الهيكل الثالث» في القدس على أنقاض المسجد الأقصى المبارك. ويجادلون بأن المسيح الآتي لتأسيس «المملكة الألفية» ستسبق مجيئه حروب تنشب في إسرائيل والأراضي المحتلة، وتلي تلك الاضطرابات معركة «هرمجدون» (وهي معركة فيها تلميح واضح إلى وقائع حرب نووية). ويؤمن المتجددون أنهم سينجون من هذه المحرقة الجماعية، ويهتدي اليهود الذين ينجون منها إلى المسيحية[2].

كان من بين النتائج الواضحة للإصلاح الديني البروتستانتي ظهور الاهتمام بتحقيق النبوءات التوراتية المتعلقة بنهاية الزمان. وكان جوهر «العصر الألفي السعيد» الاعتقاد بعودة المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الله في الأرض والتي ستدوم ألف عام. واعتبر المؤمنون بالعصر الألفي السعيد مستقبل الشعب اليهودي أحد الأحداث الهامة التي تسبق نهاية الزمان. والواقع أن التفسير الحرفي لنصوص سفر «الرؤيا» قادهم إلى الاستنتاج بأن عودة اليهود كأمة «إسرائيل» إلى فلسطين هي بشرى الألف عام السعيدة، لكن تحول اليهود إلى المسيحية عنصر هام لتحقيق ذلك، بل إن بعض الفرق كانت تصر على اعتناق

---

(1) المصدر السابق، ص185 ـ 186.

(2) الحرب بين الكنائس، مصدر سبق ذكره، ص8 ـ 9.

اليهود للمسيحية قبل بعثهم، بينما اعتقد آخرون أن ذلك سيتم بعد عودتهم إلى فلسطين. فيما رأى أوغسطين في كتابه «مدينة الله» أن العصر الألفي السعيد حالة روحية وصلت إليها الكنيسة في عيد العنصرة، أي بعد موت المسيح وبعثه. بيد أن مذهب العصمة الحرفية الأميركي في القرن العشرين يصر على أن إسرائيل هي التحقيق الواقعي للنبوءة في العصر الحديث[1]. مع أن ذلك يتنافى مع جواب المسيح لتلاميذه عندما سألوه «قائلين يا رب هل من هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل. فقال لهم ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه» (أعمال الرسل 1/6 ـ 9) فإذا كان هذا جوابه فكيف يمكن للصهيونيين المسيحيين اليوم أن يعرفوا ذلك؟!

جاءت مجمل نظريات «العصر الألفي السعيد» نتيجة لما كُتب في سفر الرؤيا عن ملك المسيح لمدة ألف عام. وفيه يحكي يوحنا رؤيا كان قد رآها عن مستقبل العالم (رؤيا يوحنا 20/ 1 ـ 10)[2].

من المعروف أن يوحنا اللاهوتي كان كاهناً يهودياً من فرقة العرافين عرفت منذ زمن أليشع باسم «بني الأنبياء»، وأنه عاش في عهد الامبراطور الروماني دوميتيان (81 ـ 96م) في مدينة أفسوس، ومن جزيرة بطموس ادعى لنفسه صفة المبعوث من المسيح إلى «الكنائس السبع التي في آسيا»، وبتلك الصفة وجّه رسائله لهذه الكنائس. ورؤيا يوحنا كلها عبرانية وهو ما قرره الرجل صراحة إذ أعلن أنه نظر «وإذا قد انفتح هيكل خيمة الشهادة في السماء» (رؤيا يوحنا 15/ 5). ثم أعلن أنه عندما سمع «صوتاً عظيماً من الهيكل» (رؤيا يوحنا 16/ 1)، ثم أعلن أن «العرش» (عرش الله) الذي خرج منه الصوت العظيم مقام في «الهيكل» الذي في السماء (رؤيا يوحنا 16/ 17)، وكان قبل أن يسمع الصوت العظيم، قد رأى «هيكل الله وقد انفتح في السماء تابوت عهده في هيكله» (رؤيا يوحنا 11/ 19). ومجمل ما في سفر الرؤيا مأخوذ من رؤى

(1) ريجينا الشريف، مصدر سبق ذكره، ص38 ـ 39.

(2) القس اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص186 ـ 187.

العهد القديم، وبالأخص من حزقيال ودانيال. ويمكن التأكد من ذلك بمقارنة ما جاء في تلك الرؤيا ورؤيا حزقيال ودانيال:

رؤيا يوحنا اللاهوتي	رؤيا حزقيال
«نظرت وإذا باب مفتوح في السماء» (4/ 1)	«كان... أن السماء انفتحت» (1/ 1)
«كنت في الروح في يوم الرب» (1/ 10)	«فرأيت رؤى الله» (1/ 1)
«رأيت... شبه إنسان» (1/ 13)	«رأيت... شبه كمنظر إنسان» (1/ 26)
«وصوته كصوت مياه كثيرة» (1/ 15)	«كخرير مياه كثيرة كصوت الغدير» (1/ 24) «وصوته كصوت مياه كثيرة» (43/ 2)
«ورجلاه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون» (1/ 15)	«ومن منظر حقويه إلى فوق ومن منظر حقويه إلى تحت مثل منظر نار ولها لمعان النحاس من حولها» (1/ 27)
«هوذا يأتي مع السحاب» (1/ 7)	«سحابة عظيمة ونار متواصلة» (1/ 4)
«وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس» (4/ 2)	«وفوق المقبب (قبة السماء).. شبه عرش وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق» (1/ 26)
«وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد» (4/ 3)	«عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق.. ومنظر كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر» (1/ 26 و28)
«ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات» (4/ 5)	«لمعان ومن النار يخرج برق» (1/ 13)
«وقدام العرش بحر زجاج شبه البلور» (4/ 6)	«شبه مقبب كمنظر البللور الهائل» (1/ 22)

رؤيا حزقيال	رؤيا يوحنا اللاهوتي
«ملآنة عيوناً حواليها للأربع» (1/ 18)	«(والحيوانات» مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء» (4/ 6)
«أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها، ووجه ثور ووجه نسر من الشمال (اليسار) لأربعتها» (1/ 10)	«الحيوان الأول شبه أسد. والحيوان الثاني شبه عجل. والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان. والحيوان الرابع شبه نسر طائر» (4/ 7)
«ولكل حيوان أربعة أجنحة وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة» (1/ 6 و8)	«ولكل واحد منها ستة أجنحة حولها ومن داخلها مملوءة عيوناً» (4/ 8)
«ولما رأيته خررت على وجهي. . فقال لي يا ابن آدم قم على قدميك فأتكلم معك» (1/ 28 و2/ 1)	«فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت فوضع يده اليمنى علي قائلاً لا تخف» (1/ 17)
«فإن أنا مرسلك إلى بني إسرائيل» (2/ 3)	«فاكتب ما رأيت وما هو كائن وما هو عتيد أن يكون بعد هذا» (1/ 19)

وبالمقارنة مع دانيال نرى مدى أخذ يوحنا عنه:

رؤى سفر دانيال	رؤيا اللاهوتي
«وإذا مثل ابن إنسان أتى» (7/ 13)	«رأيت. . . شبه إنسان» (1/ 13)
«لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار» (7/ 9)	«وأما رأساه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار» (1/ 14)
«وكنت أرى أنه وُضعت عروش وجلس القديم الأيام» (7/ 9)	«وإذا عرش موضوع في السماء. . وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً» (4/ 2و4)

رؤيا اللاهوتي	رؤى سفر دانيال
«وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده.. وقوفاً أمام العرش.. هم أمام عرش الله ويخدمونه ليلاً ونهاراً في هيكله والجالس على العرش يحل فوقهم» (7/ 9 و15)	«(أمام العرش) ألوف ألوف تخدمه وربوات وربوات وقوف قدامه» (7/ 10)
«أربعة حيوانات حول العرش.. الحيوان الأول شبه أسد. والحيوان الثاني شبه عجل. والحيوان الثالث له مثل وجه إنسان. والحيوان الرابع شبه نسر طائر» (4/ 6 و7)	«وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة هذا مخالف ذاك. الأول كأسد وله جناحا نسر.. وحيوان ثان شبيه بالدب.. وآخر مثل النمر وعلى ظهره أربعة أجنحة طائر وله أربعة رؤوس وأعطي سلطاناً.. وحيوان رابع هائل وقوي وشديد جداوله أسنان من حديد كبيرة... وله عشرة قرون» (7/ 3 و4 و5 و6 و7).

ورؤيا يوحنا سفر يشكك البعض بقبوله ويعتبره منحولاً إلى العهد الجديد، كما يتبين من تحفظات أسقف قيصرية في القرن الرابع الميلادي: «أما رؤيا يوحنا فإنها سفر يرفضه البعض ويقبله البعض الآخر كسفر من الأسفار المعترف بها، وهو ما استقر عليه الأمر ولو أنه ما زال يثير جدلاً». ولقد وازى الأسقف بين رؤيا يوحنا اللاهوتي و«الرسالة إلى العبرانيين» وقال: إن الموافقة على إدراجها في العهد الجديد كانت لأنها اعتبرت «ذات جاذبية خاصة لأولئك العبرانيين الذين اعترفوا بالمسيح يسوع» لكن المسيح يسوع، الوديع المحب مختلف في الكثير من الأوجه عن المسيح في رؤيا يوحنا (1/ 16 و2/ 18 و5/ 5)[1].

(1) للتوسع راجع شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص225 ـ 260.

انقسم المسيحيون حول النظرية الألفية المبنية على رؤيا يوحنا (20/ 1 ـ 10) إلى فرق أربع:

1 ـ النظرية الأولى: نظرية القبل ألفيين التاريخية: يعتقد أصحاب هذه النظرية بأن عودة المسيح شخصياً إلى الأرض تسبق إقامة الملكوت الذي سيحكمه بنفسه لمدة ألف سنة. ولقد وجد هؤلاء في العهد القديم مقاطع كثيرة تؤيد فكرهم، خاصة في أسفار حزقيال ودانيال والإصحاحات الأخيرة من إشعيا والتي تتحدث عن عودة الشعب من سبي بابل وسيادة السلام، وطبقاً لهذه النظرية فهناك بعض الأحداث يجب أن تقع قبل المجيء الثاني للمسيح:

أ ـ الكرازة بالإنجيل لكل الأمم.

ب ـ الضيقة العظيمة (فترة تسودها اضطرابات وحروب ومجاعات وزلازل يموت خلالها ثلثا العالم).

ج ـ ظهور شخصية «ضد المسيح» (وهنا يتجسد إبليس في إنسان ملك أو رئيس له سلطان ويتحدى المسيح). وتنادي هذه النظرية بأن الكنيسة سوف تجتاز الضيقة العظيمة (سفر الرؤيا 7/ 14) التي تدوم سبع سنوات، وفكرة الضيقة مستلهمة من الإصحاح التاسع من سفر دانيال. ويؤمن أصحاب هذه النظرية بأن المسيح سوف يأتي بعد الضيقة، وعندما يأتي سوف يقوم الأموات المؤمنون به من القبور، والكل سوف يخطف لملاقاة المسيح في الهواء ثم بعد ذلك ينزلون معه إلى الأرض، وعدنئذ يقيّد إبليس وينتهي حكم «ضد المسيح على الأرض»، وهنا يعود اليهود إلى المسيح ويؤمنون به كالمسيا ويعترفون بخطاياهم. وهذه العودة الجماعية من اليهود إلى المسيح سوف تكون سبب بركة عظمى للعالم، عندئذ يبدأ ملك المسيح على الأرض لمدة ألف عام، وهذا الملك يكون حرفياً ومرئياً، فيه يصبح اليهود والأمم شعباً واحداً للرب. وأما الأمم التي سترفض حكم المسيح عليها، فسوف تحفظ في القبور

وتحكم بواسطة المسيح، وسوف تكون هذه الحقبة (الألف سنة) هي العصر الذهبي للإنسان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً فيسود العدل والسلام كل الأرض. وباقتراب نهاية الألف عام، يحل إبليس من قيوده، ويخرج ليضل الأمم مرة ثانية، ويجمع كل الأمم معه للمعركة الأخيرة ضد المسيح، فيجمع معه جوج ملك روش ويفسرونها ملك روسيا، وماجوج ملك تركيا والصين وإيران... إلخ. ويقودهم للهجوم على معسكر القديسين، «المسيح وشعبه في أورشليم» وتقع المعركة (هرمجدون)، ولكن تأتي فجاءة نار من السماء وتبيدهم، وبعد هزيمة الأمم، يقاد إبليس إلى البحيرة المتقدة بالنار (جهنم) ويبقى فيها إلى الأبد، وبعد نهاية الألف سنة يقوم غير المؤمنين من الأموات، ثم تكون الدينونة لكل البشر أمام عرش الله، وكل من يوجد اسمه مكتوباً في سفر الحياة سوف يدخل إلى السماء ويعيش مع الله إلى الأبد، ومن لا توجد أسماؤهم في سفر الحياة يلقون في بحيرة النار والكبريت إلى أبد الآبدين.

ولقد انتشرت هذه العقيدة بقوة بعد القرن الرابع الميلادي وقد أعلن أغسطينوس رفضه لهذه العقيدة، وإيمانه أن ملك المسيح لا بد وأن يكون ملكاً روحياً لا حرفياً.

عادت هذه العقيدة إلى الظهور بعد أن اختفت مع نهاية القرن الرابع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأصبحت العقيدة الشعبية السائدة أثناء الثورة الفرنسية (1789)، ولقد استخدمت استخداماً سياسياً، إذ فسرت شخصية «ضد المسيح» بأي شخص يقف ضد الثورة. ولقد ذهب أصحاب هذه العقيدة في ذلك اليوم وهم هنري دروماند وإدوارد أرفانج إلى أبعد من ذلك بإعلانهم أن الثورة الفرنسية حققت نبوءة يوحنا (سفر الرؤيا 13/ 11 ـ 18)، وأكدوا بناء على ذلك رفضهم لحكم روما وسلطان البابا عليهم، إذ اعتبروا البابا هو الوحش المذكور في سفر الرؤيا (666) (رؤيا يوحنا 13/ 18). وبهذا أخرج

أصحاب هذه العقيدة الثورة الفرنسية من قلب الكتاب المقدس، كما يخرجون دولة إسرائيل وحرب الخليج وغيرهما. وقد قاموا بتأييد الثورة الفرنسية بسلطان الوحي، وهذا يجعلنا نفهم لماذا يفسر أصحاب هذه العقيدة الوحش (666) على أنه هتلر، أو عبد الناصر، أو اليوم صدام حسين، ونفهم أيضاً تأييدهم لدولة إسرائيل، فهذه التفسيرات ليست بغريبة على أسلوبهم في تفسير الكتاب المقدس[1].

النظرية الثانية: القبل ألفين المحدثين (الحقبية).

تعتبر هذه النظرية امتداداً للنظرية السابقة القبل ألفين التاريخية والتي عملت بواسطة اللاهوتيين القدامى منذ القرن الثاني الميلادي، أما هذا التعليم المحدث للقبل ألفين، فهو يفصل فصلاً تاماً بين إسرائيل والكنيسة عكس التعليم الأول، وهذا ما يؤكد نظرية اختراق الفكر اليهودي للمسيحية. ويتفق أصحاب هذه النظرية التاريخية في أن المسيح سوف يحكم الأرض بصورة حرفية لألف سنة بعد مجيئه الثاني. لكن هناك فروقاً كثيرة بين النظرتين، وقبل الحديث عن الفروق علينا أن ندرك ملمحين أساسيين لهذه العقيدة:

1 ـ تبني التفسير الحرفي لكل الكتاب المقدس سواء، كان النص أخلاقياً أم أدبياً أم تاريخياً، وهذا خطأ فادح في فهم قواعد التفسير وتطبيقها، فلا شك أن هناك نصوصاً كثيرة لا تفسر حرفياً.

2 ـ تقسيم التاريخ الإنساني إلى حقب تبعاً لتعاملات الله مع الإنسان، واعتمدوا في ذلك على اختلاف أسلوب الله في تعامله مع الإنسان من حقبة لأخرى حسب تصورهم، ولذلك سموا (بالحقبيين) والحقبة في مفهومهم زمن يختبر فيه الإنسان إعلانات الله عن إرادته. ولقد حددوا الحقب بالآتي:

---

(1) القس اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص186 ـ 192.

ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص12 ـ 14.

أ ـ حقبة الطهارة وهي فترة ما قبل سقوط آدم في الخطيئة قبل الطرد من (الجنة).
ب ـ حقبة الضمير (المسؤولية الإنسانية) وهي الفترة من سقوط آدم إلى نوح.
ج ـ حقبة الحكومة البشرية وهي الفترة من نوح إلى إبراهيم.
د ـ حقبة الوعد وهي الفترة من إبراهيم إلى موسى.
هـ ـ حقبة الشريعة وهي الفترة من موسى إلى المسيح.
و ـ حقبة النعمة وهي الفترة من مجيء المسيح الأول إلى بداية الملك الألفي.
ز ـ حقبة الملكوت (الملك الألفي).

وهذا التقسيم يوضح نظاماً في منتهى التعقيد لكي يبين الفرق بين زمن وآخر، وهو يعتمد على تفسير حرفي ثقيل للنبوات، ويعتمد أيضاً على أن كل نبوة يجب أن تحقق بالحرف (بينما يظهر بالضرورة رغماً عنهم بعض الأجزاء تحتاج إلى تأويل وإلا ما استقام المعنى) وهذه قاعدة غير مقبولة في مبادىء التفسير العلمي الصحيح للنصوص المقدسة، حيث يجب الاعتماد على أسلوب واحد في النص الواحد. وتتحدث هذه النظرية عن عودة ثانية للمسيح قبل الألف سنة مباشرة وتقع بين الزمن السادس والسابع، وسوف تكون هذه العودة سرية بهدف اختطاف المؤمنين (الكنيسة) حيث يكونون في السماء أثناء الضيقة وقبل المجيء الثاني للمسيح، والذي يتم بالعلنية. وقد اقترح البعض منهم حرباً عالمية ثالثة، في نهايتها يظهر (ضد المسيح) وهو إنسان يأتي إلى العالم قبل أن تبدأ هذه الحقبة بمجد مادي غير عادي، كملك أو رئيس عظيم، يتلو ذلك حقبة السبع سنوات وفيها الضيقة العظيمة على العالم، وقد اقترح البعض الآخر تقسيم هذه الحقبة إلى جزأين، كل جزء منها 3,5 عام أو 42 شهراً أو 1260 يوماً لكل جزء، في هذه الأثناء يبدأ نشاط ضد المسيح هذا، ويقول عنه دانيال «ويتكلم بكلام ضد العلي ويبلي قديسي العلي ويظن أنه يغيّر الأوقات والسنَّة ويُسلَّمون ليده إلى زمان وأزمنة ونصف زمان» (7/ 25).

وفي أثناء هذه الضيقة سوف تؤمن غالبية إسرائيل بالمسيح كالمسيّا، وبسبب إيمان هؤلاء اليهود سوف يؤمن عدد كبير من الأمم بالمسيح، وفي ختام السبع سنوات يأتي المسيح ثانية بصورة علنية وبمجد حيث يدخل في معركة مع جميع أعدائه في موقعة (هرمجدون) ويدمرهم ويسحقهم بقوة، وفي ذلك الوقت يكون قد تم تجميع اليهود الذين آمنوا بالمسيح أثناء الضيقة العظيمة من كل أنحاء العالم ليستقبلهم حيث يكون وعددهم 144,000 (سفر رؤيا يوحنا 7/ 4)، وبمجرد دخول المسيح إلى أورشليم كملك يقيد إبليس ليملك المسيح ملكاً حرفياً لمدة ألف عام، وتحت هذا الحكم سيكون لليهود مكانة أعظم من كل الأمم، فيعاد خلالها بناء الهيكل في أورشليم وتقدم الذبائح عليه ثانية، ويملأ السلام والعدل والحب كل العالم، ويرث شعب الرب (اليهود) الأرض، ويدخلون إلى ملكوت الله كالشعب المختار، وفي نهاية الألف عام يحل إبليس من قيده ثم يهزم نهائياً، وعندئذ تكون القيامة العامة لكل البشر ويدان غير المؤمنين وتبدأ الحياة الأبدية للجميع سواء في الجحيم أو السماء.

إن مدرسة التفسير الحرفي للنبوات ضعيفة علمياً، فلغة النبوة ليست حرفية بصفة دائمةً ولا تفسر أبداً بهذا الأسلوب، ففي سفر العدد 12/ 6 «فقال اسمعا كلامي إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا ستعلن له في الحلم الكمه». فهو يقول إن الله سوف يتحدث للأنبياء برؤى وأحلام وليس بالحرف. وفي سفر هوشع 12/ 10 «كلمت الأنبياء وكثّرت الرؤى وبيد الأنبياء مثلت أمثالاً». وهنا يقول إن الأنبياء سيتحدثون بأمثال، فلذلك ليس من المستغرب أن الكثير من النبوات كتبت في شكل صور، أو لغة رمزية شعرية.

هناك بعض قواعد التفسير الأساسية التي لا يجب إغفالها وقد أغفلتها هذه النظرية:

1 ـ مبدأ البساطة أو المباشرة: فالكلمات تعني ما يريد قائلها أن يقوله من خلالها مباشرة، ربما هنالك ما هو وراء الكلمات، لكن الأولوية في التفسير هي في المعنى المباشر للنص لا ما وراء النص.

2 ـ مبدأ الانسجام: فالوحي هو أعظم مفسر لذاته ولا يتناقض مع بعضه البعض، ولذلك يجب أن نبحث دائماً عن الانسجام، فلا نلتقط جملة من هنا وآية من هناك لإثبات رأي ما، لكن علينا أن نتعرف إلى الاتجاه العام للوحي ككل.

3 ـ مبدأ الخلفية التاريخية (أسباب النزول): وهو ما نسميه خلفية النص، ويتلخص في محاولة الإجابة عن السؤال: ماذا كان في ذهن القائل وفي زمنه وفي موقعه؟ ما هي القضية التي كانت تلح عليه حينئذ؟ علينا أن نكتشف الظروف التي قيلت فيها النبوة وكيف فهمها المعاصرون آنذاك؟ لنأخذ مثلاً في حالتنا هذه، نبوة حزقيال (27/ 13) «لذلك تنبأ وقال لهم هكذا قال السيد الرب ها أنا افتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل». ترى متى تحقق هذا؟ لقد تحدث حزقيال بهذه النبوءة إلى الشعب أثناء نفيه في بابل بدأ عام 587ق.م على يد نبوخذ نصر وبسماع الشعب للنبوة، فهمها على أنها العودة من سبي بابل، ثم أصدر قراراً من السلطة بعودة كل الشعوب المنفية إلى بلادهم وهكذا تحققت النبوءة. إلا أن النص يحتمل أكثر من هذا وأعمق، وذلك عندما نستخدم مبدأ الانسجام، فعندما نقرأ هذه النبوءة بعيون اليوم (مبدأ الانسجام) نجدها تتحقق في عودة الناس إلى الله، فما ظهر على أنه تحقيق حرفي للنبوة في العهد القديم تحقق روحيا في العهد الجديد.

أما أولئك الذين يؤمنون بنظرية الأزمنة، فسوف يواجهون صعوبات جمّة في مبادىء التفسير، فهم لا يرون أي نبوءة في العهد القديم لها صلة بالكنيسة، فكل النبوءات تُفسر وبطريقة حرفية على إسرائيل، فالكنيسة تعيش على هامش التاريخ، فعندما رفض اليهود المسيح كالمسيا ظهرت الكنيسة، ولو كان اليهود قبلوا المسيح لما ظهرت الكنيسة أصلاً[1].

---

(1) القس اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص194 ـ 197.

ومن نافل القول أن الأقلية اليهودية التي تنصرت واجهت مضايقة من الأكثرية التي رفضت الإيمان الجديد، فلجأت هذه الأقلية إلى استخدام الرمزية والأحرف السرية والأرقام المقدسة يخفون تحتها دلالتها الحقيقية بما كانوا يؤمنون، ومن الأمثلة على ذلك الرمزية المعقدة التي استخدمها يوحنا في سفر الرؤيا المنسوب إليه[1].

النظرية الثالثة:

التفسير الروحي للحكم الألفي (لاحقو الملك الألفي «البعد ألفين»).

وهذا الرأي يعتبر أكثر استقامة من سابقيه، وأهم ما يميزه هو القول بأنه بالمجيء الثاني للمسيح سوف تقوم القيامة الدنيوية، وأن الملك الألفي ليس حرفياً، وليس لمدة ألف عام بالضبط، فتعبير الألف سنة، إنما هو زمن لفترة معينة تنتشر فيها الرسالة بين الأمم، وتعود فيها الأمم من المشارق والمغارب إلى الله، وهو الزمن الذي نعيشه اليوم بصورة روحية وليست حرفية، وأما بالنسبة لضرورة تقييد إبليس في هذه الحقبة، فقد قُيّد إبليس فعلاً بعمل المسيح، وقد صار إبليس خاضعاً لأبناء الله وغير قادر على إيذائهم، وفي نهاية هذه الفترة سوف تقوم عملية إحياء أو صحوة دينية، حيث يعود اليهود، إلى المسيح بطريقة طبيعية وبدون عنف أو قتل «فإني لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء».

«إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخلوا ملء الأمم وهكذا سيخلص جميع إسرائيل، كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب وهذا هو العهد من قبلي لهم متى نزعت خطاياهم» (رومية 11/ 25 ـ 27).

بعد ذلك يظهر إبليس بقوة على شكل إنسان الخطية «ثم نسألم أيها الأخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه أن لا تتزعزعوا سريعاً

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثالث مصدر سبق ذكره ص497.

عن ذهنكم ولا ترتاعوا ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا، أي إن يوم المسيح قد حضر. لا يخدعنكم أحد على طريقة ما لأنه لا يأتي إن لم يأت الارتداد أولاً ويستعلن إنسان الخطية ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلٰهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس في هيكل الله كإله مظهراً نفسه أنه إلٰه (بولس الثانية إلى تسالونيكي 2/1 ـ 4). سيكون هذا آخر حدث لهذا العصر وعندئذ يعود المسيح حرفياً في نهاية الألف عام للدينونة والحياة الأبدية. وأكثر من أيّد هذه العقيدة طائفة البيوريتانز التي ظهرت في إنكلترا.

أما نقطة الضعف في هذه النظرية، فهي أنها لا تفسر سبب نمو الشر باطراد في العالم، فالمفروض حسب فكرهم أن يتناقص الشر مع الزمن، وهم يقولون إنه في انتظار مجيء المسيح الثاني على المؤمنين أن يقوموا بالإصلاح الاجتماعي وإقرار العدالة الاجتماعية والعمل على حماية اليتيم والأرملة[1].

النظرية الرابعة: رافضو الملك الألفي:

تتفق هذه النظرية مع سابقتها على أن مجيء المسيح الثاني هو إعلان نهاية العالم والدينونة. ويتلخص رأي أصحاب هذه النظرية في أنه لا يجب أن تفسر النبوة بشكل حرفي، ففي خلال العصر الذي يتوسط المجيئين يكون حكم المسيح في السماء، ويكون إبليس مقيداً من خلال العمل الذي عمله المسيح على الأرض «ولكن إن كنت بأصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» (لوقا 20/11). ويكون امتداد عمل الله على الأرض مبنياً على شعب الرب وقرب نهاية حكم المسيح زمنياً في السماء، ستكون هنالك فرصة لإبليس لأن يحل ويعمل «ثم نسألكم أيها الأخوة من جهة مجيء ربنا يسوع المسيح واجتماعنا إليه أن لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا أي إن يوم المسيح قد حضر. لا يخدعنكم أحد على طريقة ما. لأنه لا يأتي إن لم يأت الارتداد أولاً ويُستعلن

(1) القس اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص200 ـ 204.

إنسان الخطية ابن الهلاك المقاوم والمرتفع على كل ما يدعى إلٰهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس في هيكل الله كإلٰه مظهراً نفسه أنه إلٰه» (تسالونيكي الثانية 2/ 1 ـ 4).

وفي هذه الفترة يعود بعض اليهود إلى المسيح (ليس كل مؤيدي هذه النظرية يقولون هذا) «فإني لست أريد أيها الأخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء. إن القساوة قد حصلت جزئياً إلى إسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم. وهكذا سيخلص جميع إسرائيل. كما هو مكتوب سيخرج من صهيون المنقذ ويرد الفجور عن يعقوب وهذا هو العهد من قبلي لهم متى نزعت خطاياهم» (رومية 11/ 25 ـ 27) ثم يهزم إبليس نهائياً بمجيء المسيح الثاني ثم القيامة والدينونة فالمدينة الجديدة.

ولقد تبنى هذه النظرية نخبة من أبناء الكنيسة في العصر الأول مثل كليمنت وبوليكاريوس وتعاليم الاثني عشر، وتبناها متأخراً أغسطينوس، ثم لوثر وكلفن، بعد ذلك، والاختلاف الأساسي بين أصحاب التفسير الروحي للملك الألفي ورافضيه هو رؤيتهم للمستقبل، فرافضو الملك الألفي يرفضون أية محاولة لتحديد مجيء المسيح الثاني «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب» (مرقس 13/ 32). وهم ينتظرون مجيء المسيح في أي وقت، وإن كان المسيح نفسه لا يعرف موعد المجيء، فالعلامة الوحيدة للمجيء هي المجيء ذاته. لذلك لا توجد أية علامة تشير إلى المجيء، وأصحاب هذه النظرية لا ينكرون أن هنالك أحداثاً سوف تتحقق قبل المجيء الثاني مثل عودة بعض اليهود إلى المسيح، وظهور إنسان الخطية، لكنهم يقولون إن هذه الأشياء يمكن أن تكون حادثة بالتدرج، وعندما تظهر بوضوح سيكون الوقت متأخراً جداً لعمل أي شيء، فالمجيء الثاني سوف يأتي دون علامة مؤكدة، ولقد انتقدت المدارس الثلاث هذه المدرسة الأخيرة في تبنيها لفكرة أنه لا يوجد تفسير حرفي للنبوات، لكن من تبنط هذه المدرسة يردون على ذلك بالقول إن نبوات العهد

القديم قد تحققت في أحداث قريبة آنذاك، ولا علاقة لها بأحداث اليوم، ولذلك فهم يعلنون بوضوح أن الكتاب لم يتحدث مطلقاً عن عودة اليهود إلى فلسطين، ولا عن ملك المسيح من أورشليم، ويؤكدون ذلك بالقول إن الحائط الذي كان يفصل بين اليهود والأمم قد أزيل «لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونفض حائط السياج المتوسط أي العداوة مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به» (أفسس 2/ 14 ـ 16).

هذا يعني أنه لا يوجد فارق بين يهودي وأممي أمام الله، وليس لليهود دور في التاريخ منفصل عن الأمم، وليس لديهم أي امتياز لدى الله، ولم يشر الكتاب المقدس أبداً إلى أن الفاصل بين اليهود والأمم سيبنى ثانية، لذلك لا معاملة خاصة لليهود من أي نوع، ولا وجود لهم كشعب الله، فقد ذابوا في الأمم وصاروا كأي شعب آخر يعود إلى الله.

وهناك من ينتقد هذه المدرسة بالقول إن عدم ربط أصحاب هذه النظرية للنبوات بالأحداث المعاصرة يعطي إحساساً ضعيفاً بعمل الله في التاريخ. ولكن أصحاب النظرية يردون بأن الله الذي عمل في تاريخ شعب الله في القديم من خلال النبوات التي تحققت في وقتها، يعمل اليوم من خلال شعبه من كل الأمم بقوة ووضوح، فالعصر الذي نعيشه هو عصر الله، وهو يحول ملكوت الله غير المرئي إلى ملكوت مرئي من خلال رجاله وأولاده وشعبه من كل أمة ولسان وشعب[1].

ومع أن نبوءات الماضي لا تنطبق على الحاضر لأنها تحققت بالفعل عند أغلبية الدارسين، فإن بعض النبوءات لم تتحقق على الإطلاق، الأمر الذي يجعلها موضع شك. ومن ذلك فإن يهوه كلّم حزقيال محرضاً إياه على صور

(1) المصدر السابق، ص204 ـ 208.

لأن صورا الشريرة «قالت على أورشليم هذه قد انكسرت مصاريع الشعوب. وقد تحولت إليّ. أَمْتلئُ إذ خُزيت» (حزقيال 26/ 1 ـ 2) وبطبيعة الحال، لم تقل صور ذلك لأحد وبخاصة لحزقيال القاعد هناك عند نهر الخابور على بعد مئات الأميال. والذي حدث في زمن حزقيال أن صورا هي الأخرى ظلت تعاني مثل ما عانته أورشليم والسامرة من هجمات بدأت على أيدي الآشوريين وواصلها البابليون. غير أنها ـ لكونها مدينة ساحلية حصينة ـ ظلت بمنجاة من الاجتياح والاستسلام تحت وطأة الحصار كما حدث للسامرة وأورشليم. وفوق هذا وذاك، كانت صور مصدر حسد لازدهارها بالتجارة ولوفرة ثرائها، وتنعم كهنوتها المنافس لكهنوت يهوه. ومنذ عهد سليمان ظل رخاء صور مثار حسد من «الشعب» وكهنة يهوه، يشهد بذلك «تنبؤ» حزقيال «على صور» بكلام كهذا «. . يا معمورة من البحار المدنية الشهيرة التي كانت قوية في البحر. .» (26/ 17)، و«أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب. . يا صور أنت قلت أنا كاملة الجمال»، و«ثروتك وأسواقك وبضاعتك وملاحوك وربابينك وقلّافوك والمتاجرون بمتجرك وكل رجال حربك الذين فيك وكل جمعك الذي في وسطك يسقطون في قلب البحار يوم سقوطك» (27/ 2 و3 و27). وأكد حزقيال أن يهوه سيخرّب صور ويمرغ أنفها في التراب «لأنه هكذا قال السيد الرب حين أصيّرك (يا صور) مدينة خربة كالمدن غير المسكونة حين أصعد عليك الغمر فتغشاك المياه الكثيرة. أهبطك مع الهابطين في الجب إلى شعب القدم وأجلسك في أسافل الأرض في الخرب الأبدية مع الهابطين في الجب لتكوني غير مسكونة. . أُصيّرك أهوالاً ولا تكونين وتُطلبين فلا توجدين بعد إلى الأبد يقول السيد الرب» (26/ 19 ـ 21).

غير أن خراب صور لم يحدث رغم حصار البابليين لها، ولم تسقط المدينة، ولم تهبط إلى الجب، ولم تصبح في أسافل الأرض. فلقد خرجت من حصار دام ثلاثة عشر عاماً بتسوية مع البابليين بحل وسط «وكان في السنة السابعة والعشرين في الشهر الأول في أول الشهر أن كلام الرب كان إلي

قائلاً. يا ابن آدم إن نبوخذنصر ملك بابل استخدم جيشه خدمة شديدة على صور.. ولم تكن له ولا لجيشه أجرة من صور» (29/ 17 و18).

فيهوه اعترف لحزقيال أن نبوخذ نصر خرج من حصاره لصور بخفي حنين، بعكس ما كان يهوه قد وعد به تبعاً لما ورد في الإصحاحات السابقة من سفر حزقيال. ولما كان يهوه قد اعتبر حصار نبوخذنصر لصور «خدمة» له، فإنه رأى ألا يخرج نبوخذنصر وجيشه «بلا أجرة (مقابل) خدمته التي خدم بها على صور»، ولذا فإن يهوه قرر، فيما قال لحزقيال، أن يعوض نبوخذنصر على النصر الذي لم يستطع أن يحققه له على صور: «لذلك هكذا قال الرب يهوه هأنذا أبذل أرض مصر لنبوخذنصر ملك بابل فيأخذ ثروتها ويغنم غنيمتها وينهب نهبها فتكون أجرة لجيشه، قد أعطيته أرض مصر لأجل شغله الذي خدم به (في حصار صور) لأنهم عملوا لأجلي، يقول الرب يهوه» (29/ 19 و20)[1]. وإذا كانت نبوءة حزقيال لم تصدق على صور أيام سبيه مع من سباهم نبوخذنصر، فهل يعقل اتخاذ نبواته أساساً للزعم بأن قيام دولة إسرائيل المعاصرة تحقيق لنبواته؟

ومن المدهش حقاً تلاقي الأصولية المسيحية الأميركية بالصهيونية اليهودية السياسية العلمانية حول شأن النبوءات. فلقد نشرت جريدة جيروزالم بوست في طبعتها الدولية، حديثاً دار بين الرئيس الأمريكي رونالد ريغان، والمدير التنفيذي للوبي الإسرائيلي (الإيباك). ولا يوضح هذا الحديث مجرد الزواج المدهش ما بين الأصولية المسيحية والصهيونية السياسية الحديثة، بل يشير أيضاً إلى كيفية معالجة أكبر رئيس دولة في العالم، أزمة الصراع العربي/ الصهيوني. فالعلاج عنده توراتي وأسطوري. ولنقرأ ما قاله الرئيس ريغان: «حينما أتطلع إلى نبوءاتكم القديمة في «العهد القديم»، وإلى العلامات المنبئة بهرمجدون، أجد نفسي متسائلاً عما إذا كنا نحن الجيل الذي سيرى ذلك

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص297 ــ298.

واقعاً. ولا أدري إذا كنت قد لاحظت مؤخراً أياً من هذه النبوءات، لكن صدّقني، إنها قطعاً، تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه»[1]. وفي محادثة أخرى تطرق الرئيس والسناتور هويل هفلين، من الأباما، إلى موضوع مشابه. وقد روى السناتور قائلاً: «رحنا نتكلم عن الكتاب المقدس قليلاً. تحدثنا عن كون الكتاب المقدس يذهب إلى أن معركة هرمجدون ستبدأ في الشرق الأوسط. كان الرئيس يحدثني عن الأسفار المقدسة وكنت أحدثه قليلاً عن الأسفار المقدسة. وهو يتأول الكتاب المقدس وهرمجدون بما يعني أن روسيا سوف تتوسط في المعركة».

هنا نشهد إحدى مفاتن المخطط الصهيوني المسيحي السابقي الكبرى. فدور إسرائيل في السيناريو السابق، كما يصفه هال ليندزاي وغيره، هو أن تهزم «روسيا حسب قراءتهم لحزقيال 38 ـ 39» (جوج وماجوج) ودانيال 9 وسفر الرؤيا[2].

وفي خضم هذه التأويلات العشوائية افترض الرئيس الأميركي الأسبق، ريغان، أن أعداء إسرائيل (أجوج وماجوج) هم الاتحاد السوفياتي وليبيا والحبشة، مماشياً قادة الأصوليين المسيحيين بحدوث حرب نووية استناداً إلى الإصحاحين 38 و39 من سفر حزقيال[3].

الخرافة اللاهوتية المسماة هرمجدون

تقول هذه الخرافة التي تؤمن بها الحركة المسيحية الأصولية «إن العصر الحالي محكوم بالشيطان. وإن الوقت قد اقترب عند نهاية العالم حينما تغزو جيوش السوفيات وإيران والعرب والأفارقة والصين دولة إسرائيل. وستباد

---

(1) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص172 نقلاً عن جيروزاليم بوست 28/10/1983.

(2) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص24.

George M. Marsden, OP. Cit, P52, 60.

(3) Grace Halsell, OP, Cit, P5, 6, 25, 49-50, 44.

جيوش الغزاة بواسطة قنبلة ذرية. وسيموت الملايين من الإسرائيليين. أما المتبقي منهم فإنه سيتم إنقاذه لكي يقبل يسوع كمسيح له».

وطبقاً لهذه النظرية، «فإن المؤمنين بالمسيحية والمنتصرين من اليهود، سوف يتم رفعهم من على الأرض جسدياً، ليتوحدوا في السماء مع المسيح، ثم سيعود المسيح إلى الأرض بجيش من القديسين لمعاقبة غير المؤمنين، وتحطيم القوى المعادية له في معركة الخير والشر المسماة هرمجدون، والواقعة في سهل المجدل في فلسطين. وستنتهي هذه المحنة بقبول اليهود للمسيح كمنقذ لهم وبزوغ فجر عصر الألف عام السعيد تحت حكم المسيح».

يقول أتباع هذه النظرية، إن تفاصيلها موجودة في التوراة... وإنها على وشك الحدوث... بسبب تصاعد القوة السوفياتية ونموّها، وإعادة ميلاد إسرائيل في عام 1948، وإعادة توحيد القدس في عام 1967[1].

وتتضح من كتابات القسين جيري فولول وهال لندسي، وغيرهما من الحرفيين الآريين أن عقيدة هرمجدون مؤسسة على الاعتقاد بأن العد التنازلي الإلهي للتاريخ البشري مذكور في التوراة. وقد رأت أجيال الحرفيين المتعاقبة في الأزمات التاريخية، وبخاصة في الحروب العالمية، والركود الاقتصادي في هذا القرن، أدلة على الفوضى التي تسبق الزمان الأخير على ما جاء وصفه في سفر دانيال ورؤيا يوحنا. ويفسر الحرفيون تنامي قوة السوفيات، وأحداث الشرق الأوسط على أنها دلائل على أن الاضطراب ـ المرحلة الأخيرة في التاريخ البشري ـ على وشك الحدوث. وفي نظر هؤلاء أن العصر القائم يسيطر عليه الشيطان، وأنه يدنو سريعاً من أزمة الحرب. وهذه الحرب ستكون ذرية ينجم عنها تدمير القوة السوفياتية، ولأن كل هذه الأحداث مدونة في نبوات التوراة فهي بذلك خطة إلهية وضعها الله للتاريخ البشري، ولا تستطيع حكومات أو اتفاقات لحصر التسلح، أن توقف العد التنازلي السابق لمعركة

---

(1) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص172.

هرمجدون. وأن أشد الكوارث فتكاً بالبشر خلال هذا الاضطراب ستحدث في الشرق الأوسط. ويتنبأ المبشرون بهرمجدون بأن الجيوش السوفياتية والأوروبية والإيرانية والعربية والأفريقية والصينية ستغزو إسرائيل. ومع أن ملايين اليهود سيموتون، غير أن بقية ستنجو وتتخذ يسوع المسيح ربا. وهذه الأحداث التي تعلن نهاية عصرنا الجاري ضرورية للتوطئة لمجيء يسوع المسيح الثاني. وقبل أن تبلغ البشرية مرحلة التدمير الذاتي سيعود المسيح بجيش من القديسين ليدمر قوات المسيح الدجال ـ عدو الله اللدود ـ في معركة هرمجدون، وسينتهي الاضطراب ببزوغ فجر المملكة الألفية، وهي عصر يستمر ألف سنة سلاماً، تحكمه «نخبة روحية» من المسيحيين المولودين من جديد.

ولعل ربط فولول الحرب الذرية بالنبوءات التوراتية هو التبدل الأهم في عقيدة هرمجدون منذ الحرب العالمية الثانية. وقد عمد كثير من الحرفيين في مساعيهم إلى تكييف التكنولوجيا الذرية بعقيدتهم لتفسير التوراة، إلى تحويل هذه التوراة «تحويلاً ذرياً». والمنظر الأول «للحرفيين الذريين» هال لندسي. ففي كتابه «المأسوف عليه كوكب الأرض العظيم» فسر «نار ماجوج التي يصفها حزقيال (38/ 22)، على أنها صواريخ ذرية ستفني الاتحاد السوفياتي. وجاراه في استنتاج قريب من استنتاجه فولول الذي اعتبر أن التوراة تنبأ باجتياح سوفياتي للشرق الأوسط. وأضاف يقول: «وفي ذلك الحين أعتقد أن محرقة نووية ستحدث على هذه الأرض... وستكون روسيا معتدية وستدمر تماماً في النهاية». والمؤمنون بهذه الحرب لا يخافونها لاعتقادهم بأن «المسيحيين المولودين» من جديد سينتشون ويرتفعون جسدياً، ويتحدون مع المسيح في الهواء قبل أن تنهال الكوارث على الأرض في نهاية الزمان[1].

ومما لا شك فيه أن الصهيونية اليهودية وجدت في الجماعات «الألفية» حليفاً قوياً مناصراً لإسرائيل، وكان ولا يزال لهذه الجماعات تأثير فاعل في

(1) الحرب بين الكنائس، مصدر سبق ذكره، ص43 ـ 48.

مركز صناعة القرار الأميركي الرسمي المتعلق بالصراع العربي/الإسرائيلي.

نظرة نقدية لنظرية هرمجدون

نبعت الصهيونية المسيحية من أمل انبنى على التلفيق وخداع النفس. أما التلفيق، فاتخذ منحى الخلق المفتعل بين من يقول إنه المسيح، وبين من يقول اليهود إنهم وعدوا به وما زالوا ينتظرون مجيئه ليحقق معجزاته الثلاث الكبرى. كما اتخذ ذلك التلفيق ـ وبالضرورة ـ موقف التعامي عن القضية الجوهرية في الحكاية كلها، وهي قضية «المجيء»، هل حدث بالفعل وسيحدث مرة ثانية كما يقول المسيحيون، أو لم يحدث بعد وسيحدث للمرة الأولى عندما تتوافر الشروط المطلوبة لحدوثه؟ وأما خداع النفس، فاتخذ منحى طفولياً من قبيل إيهام الطفل نفسه بأن ما يريد حدوثه حادث لا محالة لمجرد أنه يريده. والذي يريده المسيحيون أن يغير اليهود فيؤمنوا بالمسيح عندما يجيء للمرة الثانية، ويكفوا عن انتظار من ينتظرونه.

يريد الصهاينة المسيحيون من اليهود التخلي عن يهوديتهم لأنه بتحولهم إلى المسيحية يتحقق «الخلاص» للطرفين والعيش في فردوس العصر الألفي السعيد الذي سيأتي في آخر الأيام لمن سيخطفهم المسيح من مسيحيين أبرار ويهود تحولوا إلى المسيحية. أما كل من عدا أولئك فسوف يباد في معركة هرمجدون التي ستنشب في آخر الأيام ويباد فيها معظم البشر وبينهم اليهود المتمسكون برفضهم الإيمان بالمسيح. أما اليهود الذين آمنوا بالمسيح فسيحصلون على الخلاص، وعددهم 144 ألفاً وفق منظور يوحنا اللاهوتي.

وخلاص المسيحيين الأبرار واليهود الذين آمنوا بالمسيح سيكون من الموت أولاً لأن «الموت والهاوية سوف يطرحان في بحيرة النار» (رؤيا يوحنا 14/20)، أما «الهاوية، أي «الجب» المأخوذ من عقائد ما بعد الموت في حضارة الرافدين، أو «شيول» المستلهنة شبيهة هيدز في الميثولوجيا اليونانية، فمستقر الموتى في اليهودية. وأما «بحيرة النار» فالبحيرة التي تقوم فيها أرواح

الخطاة في الديانة المصرية، وقد تسربت فيما يبدو إلى رؤيا اللاهوتي من النهب الموسوي من الديانة المصرية، فاستخدمها كمستودع لحرق نفايات الشرور المصاحبة «للأرض القديمة والسماء القديمة»، ابتداء من الموت والهاوية، إلى «إبليس والوحش والنبي الكذاب وكل من لم يوجد اسمه مكتوباً في سفر الحياة من بني البشر» (يوحنا 20/ 10 و15).

وسيكون ذلك بعد معركة هرمجدون التي ستنشب بين قوى الظلام وقوى النور عندما يجتمع كل أشرار الأرض، ويصعدون مع جوج وماجوج فيحيطون بمعسكر القديسين وبأورشليم لأن «أرواح شياطين صانعة آيات (سوف) تخرج على ملوك العالم وكل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم، يوم الله القادر على كل شيء، عند الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدون» (رؤيا يوحنا اللاهوتي 16/ 13 و14).

وليست لفظة «هرمجدون» وحدها هي العبرانية، فرؤيا يوحنا اللاهوتي كلها عبرانية، وهو ما قرره الرجل صراحة قبل أن يتحدث عن «هرمجدون»، إذ أعلن أنه نظر «وإذا قد انفتح هيكل خدمة الشهادة في السماء» (يوحنا 15/ 5)، ثم أعلن أنه عندما سمع «صوتاً عظيماً من السماء» سمعه «من الهيكل» (يوحنا 16/ 1)، ثم أعلن أن «العرش» (عرش الله) الذي خرج منه الصوت العظيم مقام في «الهيكل» الذي في السماء (يوحنا اللاهوتي 16/ 17)، وكان قبل أن يسمع الصوت العظيم، قد رأى العين «هيكل الله وقد انفتح في السماء وظهر تابوت عهده في هيكله» (يوحنا اللاهوتي 11/ 19). فالرؤيا كلها عبرانية، أي مأخوذة عن العهد القديم، وعلى الأخص من سفري حزقيال ودانيال[1]. وهذا ما يحملنا على القول بأن «يوحنا» نصراني، أي يهودي اعتنق المسيحية ولم يتخلص من رواسب اليهودية.

وقد انتقد كثير من الزعماء الدينيين الكبار في الولايات المتحدة هذه

---

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص225 ـ 227.

الرؤيا انتقاداً شديداً. فأسقف ديترويت الكاثوليكي توماس غمبلتون مثلاً، تحدى هذه العقائد بقوله «إنها تنتهك الحقيقة العظمى في تراثنا الروحي اليهودي ـ المسيحي، وهي أن الله يريد الحياة لا الدمار للبشرية»[1]. كما أثار الحديث عن هرمجدون الذرية حفيظة مجموعات دينية كاثوليكية، وتبنت هذه المجموعات بالتعاون مع «المعهد المسيحي» بياناً وإعلاناً تلفزيونياً وإذاعياً واسع النشر والبث، ينتقد الرئيس ريغان في هذه المسألة، ويطالب المرشحين بالتنكر للنظرية اللاهوتية هرمجدون التي يدعو لها الرئيس ريغان والقس جيري فولول، والتي تقود إلى الاعتقاد بأن الحرب النووية لا مهرب منها (نيويورك تايمز 24/ 10/ 1984)[2]. ومن الواضح أن نظرية هرمجدون في تأويلها المنبىء بدمار العالم يتناقض مع وعظة المسيح على الجبل التي يدعو فيها للسلام لا للدمار (متى 5/ 21 ـ 48)[3].

يقول بطرس في رسالته الثانية (1/ 20 ـ 21): «عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس». ومع ذلك نجد قديماً وحديثاً من يقدمون على التنبؤ بالآخرة «هرمجدون» التي يعقبها نهاية العالم، ولا يكتفون بذلك بل يحددون أزماناً لتلك النهاية كلما حصلت أزمات سياسية أو اقتصادية أو حروب.

حدد مايكل ستيفل (Michael Stifel) نهاية العالم الساعة الثامنة قبل الظهر يوم التاسع عشر من تشرين الأول عام 1553، ومر ذلك التاريخ ولم تحدث نهاية العالم[4]. وفي الزمن الحالي حاول كثيرون، استناداً إلى التوراة،

---

(1) الحرب بين الكنائس، مصدر سبق ذكره، ص19.

(2) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص173.

(3) Grace Halsell, OP. Cit, P6.

(4) Samuele Baechivechi, Hal LIndsey, A Preophetic Puzzle Predictions that Failed, 2nd, ed. Michigan Bibilical Perspective, No3, 1985, P14.

تحديد زمن المجيء الثاني للمسيح، وحدوث معركة هرمجدون مستندين في تأويلاتهم على حدوث كوارث طبيعية، وعلى التسلح النووي، والانفجار السكاني، وتلوث البيئة، ونضوب الموارد الطبيعية، الأمر الذي دفع كثيرين للبحث عما يخبئه المستقبل فلجأ البعض إلى التنجيم (كشف الروح). ومن الفريق الأول، المستند إلى التوراة، القس هال ليندسي الذي تنبأ بالأحداث التي تسبق هرمجدون والمجيء الثاني، ويماشيه كثيرون معتبرين ولادة دولة إسرائيل (14/ 5/ 1948) بداية العد العكسي لهرمجدون ومجيء المسيح ثانية.

نشر القس ليندسي إسهاماته في هذا الموضوع بكتابه المشهور «كوكب الأرض العظيم الراحل»، الذي بيع منه أكثر من ثلاثين مليون نسخة بإحدى وثلاثين طبعة. وقد حوله إلى فيلم سينمائي، وركز فيه على أن أهم إشارة لنهاية التاريخ وعودة المسيح الثانية، هي عودة اليهود إلى أرض إسرائيل بعد آلاف السنين[1]. كما أشار فيه إلى أن «الاتحاد السوفياتي هو يأجوج (Gog) الذي يتعاون معه العرب وحلفاؤهم لمهاجمة إسرائيل»[2]. وأكد أن قوة إسرائيل العسكرية ستنتصر على قوى الشر تمهيداً للمجيء الثاني للسيح المخلص بعد معركة هرمجدون في سهل المجدل بفلسطين[3].

ورأى هال ليندسي أنه بعد قيام إسرائيل (1948) بأربعين سنة، أي في عام 1988، تكون كل النبوءات التي تسبق مجيء المسيح قد تحققت. ولقد تبين أن النبوءات الخمس التي أشار إليها لم تحدث: النشوة السرية لم تقع عام 1981 كما حددها، وهي وفق منظوره ومنظور الحرفيين الأصوليين عودة المسيح غير المنظورة السرية للأرض. مع أن بولس في رسالته الأولى إلى تسالونيكي يتحدث عن نزول الرب من السماء دون سرية «لأن الرب نفسه

(1) Hal Lindsey, the Late Great Planet Earth, New York, Bantann Books, 1970, P136.

(2) Ibid, P150.

(3) Perry D. Young, God's Bullies, New York, Reinhart and Winston, 1982 P.19.

بهتاف بصوت رئيس الملائكة وبوق الله ينزل من السماء والأموات في المسيح يقومون أولاً . .» (4/ 15 ـ 17). وسقطت النبوءة الثانية المتعلقة بدور المسيح الدجال الذي حدد أنه من ضمن الأقطار العشرة في السوق الأوروبية المشتركة الذي سيظهر كديكتاتور فرنسي إذ لم يبرز ذلك الدجال إلى الوجود، وسقطت النبوءة الثالثة المتعلقة ببناء الهيكل الثالث الذي حدد ليندسي موعد بنائه في منتصف الثمانينات (متى 27/ 51)، (عبرانيين 11/ 14، 8، 13). والهيكل الوحيد الذي يورده العهد الجديد هو ما جاء في رسالة بولس إلى أفسس «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب الذي فيه أنتم مبنيون معاً مسكناً لله في الروح» (2/ 20 ـ 22). وفي اعتقاد اليهود الأرثوذكس أن المسيا وحده هو الذي سيعيد بناء الهيكل[1]. ومفهوم الهيكل عند المسيح مختلف تمام الاختلاف عن مفهوم اليهود له «أجاب يسوع وقال لهم (لليهود) انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه. فقال اليهود في ست وأربعين سنة بني هذا الهيكل أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه. وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يوحنا 2/ 19 ـ 21).

افترض ليندسي أن الهجوم المصري/ السوفياتي على إسرائيل، وفقاً للنبوءة، سيحدث في أواسط الثمانينات حالاً بعد تدشين الهيكل الثالث وتدنيسه من قبل المسيح الدجال، واعتبر أن ما ورد في سفر دانيال (11/ 40) بأن ملك مصر هو عبد الناصر، مع العلم أن عبد الناصر توفي عام 1970، وكان مريضاً يوم تنبأ ليندسي، ومات في العام نفسه، ولم يحدث هجوم على إسرائيل، ولم تصبح مصر قوة عظمى، وعلى العكس من ذلك عقدت صلحاً مع إسرائيل[2].

ومن تنبوءات ليندسي المتهافتة هجوم الاتحاد السوفياتي على إسرائيل

(1) Samuel Baccionechi, OP. Cit, P9, 14-15, 29, 33, 44-46, 48-49, 50-51.

(2) Ibid, P. 52 - 53, 54.

استناداً إلى سفر دانيال 11/ 40 «ملك الشمال»، وسفر دانيال 11/ 39 ـ 45) وسفر حزقيال 38. فالاتحاد السوڤياتي انهار ولم تتحقق نبوءة ليندسي، وعلى العكس من ذلك فلقد أصبحت روسيا على أوثق علاقات مع إسرائيل. وليس من المعقول أن يتكلم أي من هؤلاء «الأنبياء» عن روسيا التي لم يكن لها وجود في زمنه، فمملكة روسيا تأسست في القرن الثاني عشر الميلادي. وهذا ما يثبت بطلان التنبؤ المستقبلي استناداً إلى رؤى توراتية تبنى عليها تأويلات اعتباطية[1].

ومن هذه التنبؤات التي أظهرت الوقائع زيفها ما ذهب إليه القس بات روبرتسون إبان الهجوم الإسرائيلي على لبنان، عام 1982، بأنه مؤشر على اقتراب حدوث معركة هرمجدون، وعلى قيام الاتحاد السوڤياتي بهجوم على إسرائيل[2]. وبالطبع لم يحدث ذلك الهجوم. وفي لقاء بين وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق مع جماعة من الصهيونيين المسيحيين، إبان غزو إسرائيل للبنان، قال أحد أفراد هذه الجماعة له: إن الهجوم الإسرائيلي هو حرب مقدسة، وهذه الحرب تطبيق لنبوءة توراتية، وإن ذلك مؤشر على اقتراب حدوث معركة هرمجدون[3].

المسيح يوضح مؤشرات الآخرة

يتضح من مراجعة العهد الجديد (متى 24/ 4 ـ 6، 25 ـ 26، 33، 42)، (تسالوينكي الثانية 2/ 3، 7 ـ 8)، (تيموتاوس الثانية 3/ 1 ـ 5)، (رومية 13/ 12)، (رومية 15/ 19 ـ 24)، بطرس الأولى 4/ 12، 7)، (رسالة يوحنا الأولى 4/ 20) أن هذه الإشارات بناها كاتبوها بشأن «المجيء» استناداً إلى تطورات دينية وسياسية واجتماعية حدثت في زمنهم. ولا يوجد تطابق فيما بينها،

---

(1) Ibid, P56-58.

(2) Grace Halsell, OP. Cit, P16.

(3) Ibid, P61.

وبالتالي فلا يصح لهال ليندسي الاعتماد عليها لتحديد المجيء الثاني[1]. ومتى تأتي الساعة فأمر لا يمكن التكهن به «اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم» (متى 24/ 42)، (متى 24/ 3 ـ 4)، (متى 25/ 13)، (متى 16/ 3)، (مرقس 13/ 10)، (مرقس 13/ 6 ـ 9)، (مرقس 13/ 18)، (لوقا 21/ 8)، (بطرس الثانية 3/ 12).

إن الهدف من وراء الإشارات إلى علامات المجيء الثاني المرتقب يكمن في تقوية الإيمان والتطلع إلى الخلاص لا بالقيام في تحديد زمان المجيء بل لإبقاء المؤمنين في حالة استعداد وترقب وتشوف لرؤية مملكة الله تهزم قوى الشر في النهاية[2].

في العهد القديم يرد ذكر «المجيء» في صورتين متعارضتين: قريب الحدوث وبعيد الحدوث. «ليرتعد سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب» (يوئيل 2/ 1)، (عاموس 5/ 18 ـ20)، (قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً» (صفنيا 1/ 14)، (إشعيا 12/ 6). وهناك إشارات لبعد زمن المجيء (إشعيا 13/ 10)، (صفنيا 3/ 8)، (صفنيا 3/ 9 ـ 20)، (عاموس 8/ 8 ـ 9). وأحياناً للإيحاء بقرب أو بعد المجيء (يوئيل 2/ 28 ـ 29)، (حزقيال 38/ 16)، (آرميا 30/ 8)[3]، (إشعيا 2/ 2).

وفي العهد الجديد إشارات لقرب المجيء الثاني، ولكنها غير محددة زمنياً بالشكل الذي يحدده ليندسي. «فاعلموا أنه قريب على الأبواب (مرقس 13/ 29 ـ 30)، (متى 10/ 23)، (كورنتوس الأولى 15/ 51 ـ 52)، (يعقوب 5/ 8 ـ 9)، (رؤيا يوحنا 22/ 20). وهناك إشارات لبعد هذا المجيء (متى 24/ 6)، (متى 24/ 14)، (متى 24/ 48)، (مرقس 13/ 7). بيد أن ليندسي تخطى

---

(1) Samuele Baecioechi, P72-75.

(2) Ibid, P89.

(3) Ibid, P93-94.

كل ذلك محدداً زمن المجيء، متجاهلاً ما جاء في إنجيل مرقس «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب». (مرقس 13/ 32)[1]. ومع ذلك نجد جماعات أصولية بروتستانتية في الولايات المتحدة خاصة تحدد، بين حين وآخر، زمن المجيء الثاني، بتقديمها تأويلات تعسفية لا تستند إلى منطق أو أدلة يقينية مستقاة من الكتاب المقدس، فتخدم بهذه التأويلات الصهيونية اليهودية، وتحاول بافتراضات سطحية أن تبرز، من غير أدلة مقنعة، أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة، وتوحيدها المقدس، مؤشرات على اقتراب موعد المجيء الثاني، الذي يسبقه تشييد «الهيكل الثالث».

الهيكل الثالث

من افتراضات الأصولين الصهيونيين المسيحيين أن إعادة بناء الهيكل الثالث هو المؤشر الأخير على مجيء المسيح الثاني بعد تحقق المؤشرين الأولين: قيام دولة إسرائيل (1948)، وتوحيد القدس (1967). ولقد آمن اليهود بمركزية الهيكل، حتى أصبح للهيكل سلطان اقتصادي وسياسي بجانب سلطانه الديني، مع أن بعض الأنبياء ـ مثل إشعيا ـ قد رفضوا هذا الفكر ونادوا بفتح الهيكل لغير اليهود، إلا أن السيد المسيح ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ اعتبر أن الهيكل قد أصبح بسبب ممارسات الكهنة ورؤساء اليهود مركزاً للشر والشرير وأعلن أن علاقة الإنسان بالله لا تتم من خلال الهيكل بل مباشرة بينه وبين الله بصورة فردية[2]. والهيكل الذي عظّم شأنه اليهود اتخذوه متجراً «ووجد (يسوع) في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارفة جلوساً. فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل. الغنم والبقر وكب دراهم الصيارفة وقلب موائدهم» (يوحنا 2/ 14 ـ 15). ومفهوم الهيكل عند المسيح

---

(1) Ibid, P95-110

(2) اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص52.

ليس مكاناً مبنياً من حجارة كما يفهمه اليهود (يوحنا 2/ 21)، «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم. إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيفسده الله لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو» (كورنتوس الأولى 3/ 16 ـ 17)، «فإنكم أنتم هيكل الله الحي» (كورنتوس الثانية 6/ 16).

مؤسسة جبل المعبد (الهيكل)

وهي من المؤسسات الصهيونية المسيحية ذات الأهداف الصهيونية المحددة. ولهذه المؤسسة علاقات بإسرائيل وعديد من الهيئات المساندة لها في الولايات المتحدة والمتورطة بعلاقات يهودية إسرائيلية. وممولها الأول في إسرائيل هو ستانلي غولد فوت، الأفريقي الجنوبي مولداً المواطن الإسرائيلي حالياً.

ويؤثر عن مؤسسة جبل الهيكل أنها تبرعت بأموال لصندوق هيئة الدفاع القضائية عن الإرهابيين المتعصبين اليهود في إسرائيل، لكن جهودها الرئيسية متجهة صوب بناء «الهيكل الثالث» من أجل تعجيل المجيء الثاني، وهذا يفترض أولاً إزالة مجمع مساجد الحرم الشريف، في القدس، وهو أمر يحقق بالوسائل السلمية، مع أن الوسائل الأخرى لا تبدو مستبعدة[1].

يقع مقر مؤسسة جبل المعبد في لوس أنجلوس، في ولاية كاليفورنيا، وقد تفرع عنها عدة لجان ومنظمات ومعاهد لخدمة أغراضها، من بينها «المنتدى الأميركي للتعاون المسيحي اليهودي» ويرئس هذا المنتدى رجل أعمال يدعى تيري رايز نهوفر من ولاية أوكلاهوما. وكذلك اللجنة الإنجيلية وتعمل في مدينة القدس، وتترأسها قيادة ثلاثية تضم إضافة إلى رايز نهوفر رجل أعمال من كاليفورنيا هو تشاك كريغر، وكذلك رجل دين بروتستانتي وأصولي جيمس ديلوش. كما أسس كريغر ورايز نهوفر معهداً سمياه «معهد

(1) الحرب بين الكنائس، مصدر سبق ذكره، ص15 ـ 16.

البحث عن المعبد في القدس». وتم تسجيله في الولايات المتحدة الأميركية كمؤسسة دينية معفاة من الضرائب[1].

وقد برزت نشاطات اللجنة الإنجيلية وفروعها في مطلع عام 1983 حينما دافعت عن المعتقلين من الإسرائيليين المتطرفين، الذين قاموا بتخريب وإتلاف أجزاء من المسجد الأقصى في 10/ 3/ 1983. فبعد ثلاثة أسابيع من هذا التاريخ نُشر إعلان في صحيفة «جيروسالم بوست» يطالب بالإفراج عن المعتقلين، ويشيد بهم على اعتبار أنهم «أبناء إسرائيل المخلصون». ولوحظ أن الجهة التي تبنت هذا الإعلان هي اللجنة الإنجيلية التي وصفت نفسها بأنها «المهتمة بحرية العبادة في جبل المعبد». ويشكل بناء المعبد عند هذه المنظمة الصهيونية المسيحية واحدة من آخر الإشارات التي تسبق العودة الثانية للمسيح[2].

ويقول الصهيوني المسيحي القس هال ليندسي: لقد تحققت نبوءات التوراة، فها هي إسرائيل تولد من جديد في فلسطين.. وها هي تمسك بالقدس القديمة والأماكن المقدسة الأخرى، وسوف تعيد بناء معبدها القديم في موقعه التاريخي. ومن أجل هذه الغاية، فإن أعداداً من المسيحيين الأصوليين الأميركيين يجمعون الأموال، ويمارسون الضغط في سبيل إقامة هذا المعبد مكان المسجد الأقصى بعد هدمه كما يدفعون الرسوم القانونية، وأتعاب المحاماة، للدفاع عن الإسرائيليين المعتقلين بتهمة محاولة تخريب المسجد الأقصى، وإقامة معبد يهودي مكانه[3].

وفي عام 1983 قدّم رايزنهوفر حوالى خمسين ألف دولار كمساهمة من أجل بناء مقر لمؤسسة المعبد في إسرائيل. وتسلم هذا المبلغ ستانلي

---

(1) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص138.

(2) المصدر السابق، ص138 ـ139.

Graee Halsell, OP. Cit, P96-98.

(3) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص139.

غولدفوت الذي يعمل سكرتيراً لهذه المنظمة في القدس. وقد سبق له أن عمل كرجل استخبارات لمصلحة منظمة شتيرن الصهيونية في الأربعينات من القرن العشرين. وله صلات واسعة مع جماعة غوش إيمونيم اليهودية المتطرفة في إسرائيل. وهذا الأخير يهودي من أفريقيا الجنوبية، وكان واحداً من أشرس عصابة شتيرن في الأربعينات، وهو على صلة واسعة مع جماعة غوش إيمونيم وحركة كاخ. ويسند أعمال هؤلاء جميعاً في الكنيست الإسرائيلية بوفال نعمان[1].

وقال واحد من شركاء مجموعة رايز نهوفر ـ كريغر، هو الأب تشاك سميث القس المعمداني من كوستاميزا، بولاية كاليفورنيا في لقاء: «أتريدون متطرفاً حقيقياً؟ إليكم بستانلي غولد فوت، إنه رائع. خطته من أجل جبل الهيكل هي أن يأخذ أصابع متفجرات وبعض البنادق إم ـ 16) وينسف قبة الصخرة والمسجد الأقصى ثم أن يطالب بالموقع»[2].

وتفوقت حماسة الأب سميث لغولدفوت على نفسها حين استضاف ذلك المتحمس المتعصب لجبل الهيكل في كنيسته من أجل جمع الأموال، فأخذ يحض أبناء رعيته الثلاثة آلاف على بذل العون المالي إلى الرجل الذي يود أن يأتي بهرمجدون. ولا بد أن نذكر أيضاً أن استفتاء في أيار 1983 أجرته صحيفة هآرتس أظهر أن 3، 18 في المائة من الإسرائيلين الذين استفتوا يرغبون في أن يبدأ بناء الهيكل الثالث على الفور[3].

أما القس ديلوش، راعي الكنيسة المعمدانية الثانية في مدينة هيوستن، ويدير في الوقت نفسه فرع منظمة جبل المعبد في هيوستن، فقد أعلن «أن الدفاع القانوني عن أولئك الذين اقتحموا المسجد الأقصى يكلفنا المال

---

(1) المصدر السابق، ص139.
الحرب بين الكنائس، مصدر سبق ذكره، ص83.
(2) المصدر السابق، ص83 ـ 84.
(3) المصدر السابق، ص84.

الكثير». ويضع ديلوش في إصبعه خاتماً من الألماس رسم عليه الصليب ونجمة داود معاً، ويحمل على صدره شارة رسم عليها العلمان الأميركي والإسرائيلي[1]. وتتحدث الكاتبة الأميركية غريسي هالسيل عن الخطط اليهودية والمسيحية الأصولية لتدمير المسجد وبناء المعبد اليهودي، فتقول: «إن الزائر لمدينة القدس يسمع المتطرفين اليهود وهم يتحدثون بصراحة وعلانية عن خططهم لهدم المسجد، وبناء هيكل سليمان مكانه؛ ويتحدث المرشدون السياحيون الإسرائيليون عن الخطط الجاهزة لذلك، بما فيها مواد البناء، وإعداد لوازم الهيكل، والثياب الحريرية التي سيرتديها كهنة الهيكل بعد إنجازه». وتقول أيضاً على لسان عالم آثار أميركي يعيش في القدس اسمه غوردون فرانز: «يوجد مسيحيون متعصبون يشاركون اليهود القول بهدم المسجد الأقصى... كما شكّل الصهاينة من المسيحيين واليهود مؤسسة هدفها بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وتضيف الكاتبة أيضاً على لسان أحد المرشدين السياحيين الإسرائيليين الذي كان يقود رحلة إلى عدد من رجال الدين الأصوليين الأميركيين: أن بناء الهيكل ستفهمه شعوب الأرض على أنه تم بناء على إرادة الله... وأننا نفضل أن يكون المكان خالياً لبناء الهيكل... ومن الممكن أن ينهار المسجد الأقصى والصخرة بإرادة الله أو نتيجة زلزال أو أي شيء آخر[2]. ومن جهة أخرى تقوم «مؤسسة معبد القدس»، بتقديم المساعدات المالية لتدريب عدد من الكهنة على كيفية خدمة المعبد المنوي بناؤه. كما يتعاون معها الدكتور لامبرت دولفن، وهو من العلماء البارزين في «معهد أبحاث ستاندفور» في ولاية كاليفورنيا ـ ويتولى هذا العالم تزويد المؤسسة بأجهزة حديثة للتصوير والتنقيب المتعلق بالآثار، ويضع خبراته ومعداته وأبحاثه لخدمة غرض التنقيب الأرضي عن المعبد. وقد أمضى عدة أسابيع عام 1983 في القدس، في مهمة لحساب مؤسسة جبل المعبد.

---

(1) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص139.

(2) المصدر السابق، ص140.

وقام خلالها باستخدام أجهزة رادارية للبحث وتصوير الأراضي تحت المسجد الأقصى والصخرة[1].

ويبدو أن فريق رايزنهوفر ـ كريغر على صلة مباشرة بالبيت الأبيض ووزارة الخارجية الأميركية وهما مثل مايك إيفانز يضغطان على إدارة ريغان من أجل دفع سيناريو هرمجدون الذي يؤمنان به. ومن آخر الأمثلة على صلتهما المباشرة بالبيت الأبيض، الخطب والاستقبال الذي أقامته الرئاسة الأميركية في التاسع عشر من آذار 1984، وضم أكثر من مائة وخمسين من الزعماء الحَرْفيين المسيحيين وزعماء المنظمات الصهيونية كان مؤسس إيباك (اللوبي الصهيوني) ا. ل. كينان والمدير التنفيذي لمنظمة الأميركيين العاملين لأمن إسرائيل ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية وما يزيد على خمسين آخرين، وكانت قائمة المدعوّين من قادة المسيحيين الصهيونيين أشبه بدليل شامل لزعماء الحركة، وضمت القس هال ليندسي والقسيسيين جيمي سواغرت وجيم باركر والخبيرين في الاستراتيجية السياسية تيم لاهاي واد ماكاتير وكثيرين غيرهم[2].

ويبدو التطابق بين الصهيونية المسيحية والأصولية اليهودية بشأن بناء «الهيكل الثالث» على أنقاض المسجد الأقصى، ويبدو التطابق في الأفكار والممارسات الفاشية لدى الفريقين، فما يفعله الصهيونيون اليهود بالفلسطينيين، فعله الأصوليون المسيحيون بالهنود الحمر من منطق أيديولوجي متماثل[3].

بعض مظاهر نشاط الصهيونيين المسيحيين في دعم إسرائيل

التقت في مطلع عام 1980 عدة جماعات ومنظمات وقيادة صهيونية غير يهودية تحت مظلة واحدة وشكلت تحالفاً من أجل إسرائيل سمي مؤتمر «القيادة المسيحية الوطنية لأجل إسرائيل» واتخذ مدينة نيويورك مقراً له. وقد

---

(1) المصدر السابق، ص141.

(2) المصدر السابق، ص141.

الحرب بين الكنائس، مصدر سبق ذكره، ص84 ـ 85.

(3) Grace Halsell, OP. Cit, P107, 114.

أسس هذا التجمع الصهيوني المسيحي فرانكلين ليتيل، ويرأسه حالياً الأب أدوارد فلانيري. وقد شكّل الاهتمام ببقاء ودعم إسرائيل، ورفاهيتها، القضية الوحيدة التي تعاونت فيها المنظمات المشكلة لهذا التجمع.

تمارس هذه المنظمة الصهيونية المسيحية نشاطاتها بأشكال وأساليب متعددة، منها النشاطات اللاهوتية والمؤتمرات والمسيرات، ووسائل الضغط المنظمة والإعلانات. وعقدت في تشرين الأول 1981 مؤتمرها السنوي في واشنطن العاصمة وكُرّس لخدمة إسرائيل. وقد تحدث فيه العديد من رجال الكونغرس، أمثال النائب جاك كيمب، والنائب الديمقراطي السابق روبرت درينان.

وقد دعا مؤتمر القيادة في 15 حزيران 1982 للتظاهر دعماً لغزو إسرائيل للبنان. وتحدث المشاركون في التظاهرات التي شملت عدة مدن أمريكية، عن دعم إسرائيل عسكرياً واقتصادياً. وبعث المؤتمر ببرقية في اليوم نفسه إلى المنظمات والمؤسسات المسيحية الرئيسية، يشير فيها إلى «فهم القيادات المسيحية لحاجة إسرائيل الماسة لحماية شعبها ضد الإرهاب»[1].

وفي الأول من آب 1982، نشرت صحيفتا «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» وعدد من كبريات الصحف الأميركية إعلانات على صفحة كاملة، تحت عنوان «مسيحيون متضامنون مع إسرائيل» ضم أسماء وتوقيعات أكثر من مائة قيادة أمريكية بارزة بينها رجال دين، ورؤساء كنائس، ومنظمات مسيحية، ورؤساء جامعات، وصحافيون، وحكام ولايات، ونجوم الكنيسة المرئية، من أمثال جيري فولويل، وأدوارد ماك أتير، وديفيد لويس، وبات روبرتسون. وقد تبنى هذه الإعلانات مؤتمر القيادة المسيحية الوطني لأجل إسرائيل. وبررت هذه الإعلانات عملية الغزو الإسرائيلي للبنان[2].

وفي 11/11/1982، عقد «مؤتمر القيادة المسيحية الوطني لأجل

(1) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص141 ــ 142.

(2) المصدر السابق، ص142 ــ 143.

إسرائيل» مؤتمراً في أحد المعابد اليهودية في واشنطن العاصمة، تحت شعار «مواجهات المسيحية الأصولية والقيادة اليهودية»، وحضرته قيادات بروتستانتية، وكاثوليكية، من بينها القس جيمي ألين من كنيسة مؤتمر المعمدانيين الجنوبي، وكذلك جيري فولول، وأدوارد ماك أتير، وعدد آخر من أساتذة اللاهوت والرهبان والقساوسة.

وقد أصدر المجتمعون في نهاية المؤتمر بياناً يؤيد إسرائيل والجماعة اليهودية الأمريكية، ويؤكد على الالتزام بأمن إسرائيل، وبأن «كل الأراضي المقدسة هي ملك للشعب اليهودي... وأن القدس هي العاصمة الموحدة الأبدية لإسرائيل، التي لا يجوز تدويلها أو أن تكون محلاً للتفاوض أو الحلول الوسط... وأن الشعب اليهودي في أي مكان سيظل شعب الله المختار الذي يبارك الله من يباركه ويلعن من يلعنه»[1].

وبمناسبة مرور أربعين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصدر مؤتمر القيادة المسيحية الوطني لأجل إسرائيل بياناً وجهه إلى جميع المسيحيين ونشره كإعلان في جريدة نيويورك تايمز جاء فيه: «أعطوا اهتماماً خاصاً لمعنى إسرائيل في فكر الشعب اليهودي وعقيدته وحياته خلال تاريخه الطويل... وارفعوا أصواتكم عالياً ضد اللاسامية التي تختفي وراء معاداة الصهيونية». وطالب البيان هيئة الأمم المتحدة التبرؤ من قرار الجمعية العامة الخاص بإعلان الصهيونية شكلاً من العنصرية، واعتبر أن هذا القرار قد ولّد شكوكاً جدية في التزامات الأمم المتحدة بمبادئها التي أنشئت على أساسها، وساهم في فقدان الأمم المتحدة لمصداقيتها. واعتُبر قرار الأمم المتحدة الذي أصدرته الجمعية العامة في 10 تشرين الثاني 1975 «فضيحة لا بد من إزالتها من سجل الأمم المتحدة... وقد وقعت هذا البيان المئات من الكنائس البروتستانتية والقيادات الدينية»[2].

---

(1) المصدر السابق، 143.

(2) المصدر السابق، ص143.

وبالفعل مارس الرئيس الأميركي السابق، جورج بوش، ضغوطاً على الجمعية العامة للأمم المتحدة، فتم إلغاء قرارها الذي يصف الصهيونية بأنها شكل من أشكال العنصرية.

ومن الجماعات الأميركية الدينية الداعمة لإسرائيل سياسياً ومادياً، جماعة «مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل». وقد أسس هذه الجماعة، في تموز 1945، القس الكاثوليكي الأصولي ديفيد لويس الذي تكررت زياراته لإسرائيل واجتماعاته مع المسؤولين الرسميين فيها، ومع الضابط اللبناني المنشق عن الجيش الشرعي، سعد حداد.

وتصدر منظمة ديفيد لويس مجلة «ساعي القدس ومختار النبوءة» الفعلية إضافة إلى نشرة إخبارية شهرية. وتعكس هاتان المطبوعتان الفكر اللاهوتي الصهيوني المسيحي «وتبدوان غالباً كأنهما نسخة عن الإعلام الإسرائيلي وبيانات الحكومة الإسرائيلية».

وينظم القس لويس ويقود مجموعات سياحية، بمعدل مرتين سنوياً إلى إسرائيل، حيث يرتب لها اجتماعات مع عناصر سياسية رئيسية إسرائيلية. كما تشارك هذه المجموعات في الاحتفالات الدينية اليهودية التي تنظمها السفارة المسيحية الدولية بالقدس.

ويعتقد لويس بأن الغزو الإسرائيلي للبنان في عام 1982 قد «حرر شمال إسرائيل من التهديدات المستمرة لإرهاب منظمة التحرير الفلسطينية. كما خدم قضية تحرير الشعب اللبناني، وحفظ العالم من احتلال سوڤياتي للشرق الأوسط.. ومن كساد اقتصادي في العالم الغربي ومن حرب عالمية ثالثة.

ومن المنظمات المسيحية الأصولية الأمريكية «المصرف المسيحي الأمريكي لأجل إسرائيل»، ويشارك هذا المصرف بقية تلك المنظمات التي تكرس نفسها لخدمة إسرائيل وسياساتها التهويدية والتوسعية، وخاصة في شراء الأراضي العربية أو السيطرة عليها لبناء المستوطنات فيها. وقد أسستها وتديرها

السيدة بوبي هروماس لتكون مظلة ووكيلة لعدد كبير من الحركات المسيحية الأصولية، وقناة لنقل الأموال الأمريكية مباشرة إلى إسرائيل، ولاستخدام هذه التبرعات والمساهمات المالية، في شراء الأراضي في الضفة الغربية المحتلة، وتمويل عمليات بناء وتوسيع المستوطنات فيها. ولا يقتصر عمل هذه المجموعة على توريد الأموال إلى إسرائيل، بل يتعداه إلى توفير فرص التدريب العسكري والتقاني المتقدم للإسرائيليين في الولايات المتحدة الأمريكية[1].

وفي 30 أيلول 1980 أنشأ الصهيونيون المسيحيون سفارة لهم بالقدس بطلب من رئيس وزراء إسرائيل، آنذاك، مناحيم بيغن[2]. وجرى افتتاح السفارة في احتفال حضره تيدي كوليك رئيس بلدية القدس وممثلون عن حكومة بيغن. أما غايتها فكانت إنشاء «سفارة» بالقدس من أجل مسيحيي العالم الذين يودون تأييد سياسات إسرائيل وشد أزرها. وقد صمم توقيت الافتتاح بحيث يغطي على تأثير انسحاب سفارات عدة من القدس إلى تل أبيب احتجاجاً على إعلان إسرائيل القدس «عاصمة أبدية لها».

تنخرط «السفارة» في عدد من المشاريع التي تبدي التعاون الوثيق مع القيادة السياسية الإسرائيلية، منها: العمل في اللوبي، ولا سيما في الولايات المتحدة، الترويج للبضائع الإسرائيلية، بيع سندات إسرائيلية، مسابقات سنوية مثل عيد الخيم، العمل في اللوبي من أجل توطين اليهود السوفييت بإسرائيل، هبات الدم للقوات المسلحة الإسرائيلية، الكتابة في الصحافة العلمانية للدفاع عن المواقف السياسية الإسرائيلية، الدعوة إلى الصهيونية المسيحية في الغرب.

و«السفارة» شديدة النشاط في الدول التالية: الولايات المتحدة، كندا، إنكلترا، هولندا، ألمانيا، سويسرا، النروج، فنلندا، أوستراليا، نيوزيلندا،

---

(1) المصدر السابق، ص144 ـ 146.

(2) Grace Halsell, OP. Cit P199.

جنوب أفريقيا. وقد فتحت في هذه البلدان فروعاً تدعى «قنصليات». وتقوم «السفارة» انطلاقاً من هذه القواعد بتعبئة الدعم السياسي والمالي لمتابعة أنشطتها.

وفي آب 1985 نظمت «السفارة» المؤتمر الصهيوني المسيحي الأول ببازل بسويسرا، في القاعة نفسها التي عقد فيها تيودور هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول في آب 1897. وعقدت المؤتمر الثاني بين10 و15 نيسان 1988، ليوافق الذكرى الأربعين لإنشاء إسرائيل. وقد كانت خطب المؤتمر وبياناته واستراتيجيته السياسية مصممة كلها على نحو يرتقي بالصهيونية المسيحية الأصولية الشديدة التسيس وينسجم وسياسات الحكومة الإسرائيلية[1]. و«السفارة» في كل ذلك تستند إلى مقاربة مسيحية أصولية للكتاب المقدس وتستعمل المقاربة القدرية السابقية التي ترى في إسرائيل تحقيقاً للنبوءة التوراتية وعودة أرض الميعاد إلى «شعب الله المختار» وترى أن بناء الهيكل الثالث يكمل المقدمات للمجيء الثاني للمسيح. ويضرب الصهاينة المسيحيون بعرض الحائط رفض الله لمشروع داود ببناء هيكل للرب، لأنه أراد أن يقيم حكماً عسكرياً سياسياً على أشلاء الشعوب الأخرى «وقال داود لسليمان: قد كان في قلبي أن أبني بيتاً لاسم الرب إلهي. فكان إليّ كلام الرب قائلاً قد سفكت دماً كثيراً وعملت حروباً عظيمة فلا تبنِ بيتاً لاسمي لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامي» (أخبار الأيام الأول 22/ 7 ـ 8). ومع ذلك، فالأصوليون المسيحيون مندفعون لإعادة بناء الهيكل رغم اقتراف إسرائيل المذابح وسفكها للدماء، وأنه بالماضي لقي اليهود عقاباً على سفك الدماء «اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم ورؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة. وهم يتوكلون على

(1) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص25 ـ 27.

الرب قائلين أليس الرب في وسطنا. لا يأتي علينا شر. لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خرباً وجبل البيت شوامخ وعر» (ميخا 3/ 9 ـ 12). ونقرأ أيضاً: «ويل للباني مدينة بالدماء والمؤسس قرية بالإثم» (حبقوق 2/ 12)، «وحلّ علي روح الرب وقال لي قل. هكذا قال الرب. هكذا قلتم يا بيت إسرائيل وما يخطر ببالكم قد علمته قد كثّرتم قتلاكم في هده المدينة وملأتم أزقتها بالقتلى... قد فزعتم من السيف فالسيف أجلبه عليكم يقول السيد الرب. وأخرجكم من وسطها وأسلمكم إلى أيدي الغرباء وأجرى فيكم أحكاماً. بالسيف تسقطون. في تخم إسرائيل أقضي عليكم فتعلمون أني أنا الرب... في تخم إسرائيل أقضي عليكم. فتعلمون أني أنا الرب الذي لم تسلكوا في فرائضه ولم تعملوا بأحكامه بل عملتم حسب أحكام الأمم الذين حولكم» (حزقيال 11/ 5 ـ 12)، «قد حرثتم النفاق حصدتم الإثم أكلتم ثمر الكذب. لأنك وثقت بطريقك بكثرة أبطالك. يقوم ضجيج في شعوبك وتخرب جميع حصونك كإخراب شلمان بيت أربئيل في يوم الحرب. الأم مع الأولاد حُطّمت. هكذا تصنع بكم بيت إيل من أجل رداءة شركم. في الصبح يهلك ملك إسرائيل هلاكاً» (هوشع 10/ 13 ـ 15). ولم يتعظ قدامى اليهود بالعقوبات التي أنزلها ربهم بهم لكثرة شرورهم، ومن بينها السبي إلى بابل، وها هم اليوم يكررون ما فعله أسلافهم. إنهم «يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم» مجدداً، غير آبهين بعبر الماضي، ويصرون على اتخاذ المدينة المقدسة عاصمة موحدة لدولة إسرائيل.

انفصال المسيحية عن اليهودية

رفض المسيح الناموس كأساس للوصول إلى الله ووضع محله الإيمان والعلاقة الخاصة معه. وكانت العناصر الأساسية للخلاص عند اليهود ثلاثة: الاختيار (اختيار الشعب اليهودي من الله) ـ العهد (عهد الله مع إبراهيم) ـ الناموس (ناموس شريعة موسى).

لكن بتعليم المسيح لم يعد لاختيار اليهود مكان، فقد اختلف معنى الاختيار، فكل من يؤمن بالله أصبح مختاراً منه. وهذا الاختيار لا يقتصر على شعب معين أو عنصر ما، فالذي يقبل تعليم المسيح ويعترف بشخصه وعمله يصبح مختاراً من الله، وهكذا تحرر الاختيار من الجنس والعنصر وبالتالي لا مكان للعهد الذي يقوم على قطعة أرض وذبيحة، إذ أصبح العهد الجديد يبنى على علاقة شخصية بين الله والإنسان، ويكون المسيح هو وسيط هذا العهد. فيولد الإنسان من جديد على هذا الأساس، حينئذ تكتب وصايا الله على قلوب المؤمنين، وقد حلّ الإيمان محل الناموس والشريعة. ولقد بدأت المسيحية في أحضان اليهودية ثم لم تعد مقبولة لجراءة تعاليمها وبعدها عن العنصرية[1].

خلال الحكم الروماني ثار اليهود عام 66م وتمكن تيطوس من احتلال أورشليم وهدم الهيكل فيها عام 70م، وثاروا ثانية ما بين عامي 128 ـ 132 وتمكن الرومان ثانية، عام 135م، من سحق الثورة والاستيلاء على المدينة المقدسة[2]. ولقد كان للكارثتين الأثر في وضع نهاية لتاريخ الدولة اليهودية. وقد وضح هذا في أمرين:

الأمر الأول: الانفصال النهائي بين اليهودية والمسيحية. فقد بدأت كتابات المسيحيين تتجه إلى العالم اليوناني والأمم بصورة عامة منفصلة تماماً عن اليهودية. ومن الملاحظ أن إنجيل لوقا ومعه إنجيل يوحنا يتجهان مباشرة إلى الأمم يؤكدان مع رسائل بولس أن الأمم يحملون تراثاً أخلاقياً، وأنه يمكن للأممي بتراثه الغني أن يصبح مسيحياً دون المرور باليهودية كدرجة تمهيدية، فقد حطم خراب أورشليم الكنيسة اليهودية المسيحية في أورشليم والتي كانت تصر على التصاق اليهودية بالمسيحية، وأن الذي يرغب في أن يكون مسيحياً عليه أن يتهود أولاً. ولقد أخذت المسيحية حينئذ من اليهودية الكثير: التوراة،

---

(1) اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص53 ـ 54.

(2) المصدر السابق، ص53 ـ 54.

وكتب الأنبياء والحكمة وأخذت أسلوب العبادة وشكل الهيكل وسلطان الكهنوت.

ولم يكن هنالك فارق جوهري بين اليهودية والمسيحية إلا في عقيدة المسيح، حيث آمن المسيحيون بألوهية المسيح بينما رفضه اليهود تماماً، واتهموه بالجنون والسفه، ولم يقبلوه حتى كنبي. وقد استمر الحال هكذا حتى جاء الإصلاح الكنسي في القرن السابع عشر، فرفض الهيكل والكهنوت وحرّر المسيحية من كل المؤثرات اليهودية، وأكمل الانفصال بين اليهودية والمسيحية والذي بدأ عام 70م.

وباتجاه المسيحية إلى العالم اليوناني، دعا اليهود إلى محاربة المسيحية، وبدأوا يصلون يومياً ضد الهرطقات والبدع، ويقصدون بها المسيحية على وجه الخصوص.

الأمر الثاني: التغيير الجذري في طبيعة الأنشطة اليهودية وتركيزها. فمن عام 70م إلى ما بعد عام 135م ظهرت اليهودية كعقيدة قومية في شكل مرئي مادي. فقد عاد اليهود إلى التركيز على مملكة داود، وإصلاح الملك يوشيا، والعودة من السبي، وما قام به عزرا ونحميا، وانتصار المكابيين، وتنقية الشعب اليهودي من المتهودين، وبعد عام 135م تكامل هذا الاتجاه في الفكر، فقد دعاهم الخراب إلى التقوقع والإحساس بالعنصرية، وبعد أن كان اليهود يحاولون المساهمة في الحضارة الإنسانية العامة، عادوا إلى حياة الانسحاب يبثون عنصريتهم وتعصبهم وكراهيتهم للعالم شيئاً فشيئاً، وعادوا ينتظرون دولة السلام الكامل التي يعيشون فيها مع المسيا الذي لم يأت بعد[1]. والمسيا في المنظور اليهودي ليس المسيح، المسيا إلههم الخاص بهم وهو لم يأت بعد، بينما مسيح المسيحيين أتى ولم يعترفوا به. والله في المنظور المسيحي عالمي لكل الأمم والشعوب. غير أن اليهود أخضعوا إلههم

(1) المصدر السابق ص54 ـ 55.

لهم وجعلوه إلهاً قومياً قبلياً، وهذا ما جعلهم يتنكرون للمسيح[1]. أرادوا مسيحهم أن يحكم مادياً لكنهم وجدوا أن دعوة المسيح لم تكن للمملكة الأرضية «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا 18/ 36) لذلك رفضوه ورفضوا دعوته ورسالته[2].

لماذا ثار المسيح على اليهود

ثار المسيح على العقدة الكبرى في نفوس اليهود، ألا وهي أنهم وحدهم أبناء إبراهيم، وأنهم في عصمة من العذاب والعقاب «أجابوا وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني. .» (يوحنا 88/ 39 ـ 40)، «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» (يوحنا 8/ 44). ولم يتردد المسيح في أن يترجم غضبه عليهم بتخليه عن الوعظ والإرشاد، ولجوئه إلى الشدة والعنف. وعندما دخل الهيكل (معبد اليهود) رأى فيه الصرافين وباعة الحمام، فأخرجهم، وهو يقول لهم «مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (متى 21/ 13). ومن على جبل الزيتون خاطب السيد المسيح جموعاً من اليهود بقوله: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً» (متى 23 ـ 38).

ومن التقريع إلى السخرية من المعتقدات اليهودية المقرونة بالقدح «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان أنتم دائماً تقاومون الروح القدس كما كان آباؤكم كذلك أنتم. أيّ الأنبياء لم يضطهده آباؤكم وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه. الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أعمال الرسل 7/ 51 ـ 53). وفيما يصر

(1) ندرة اليازجي، مصدر سبق ذكره، ص46 ـ 47.

(2) المصدر السابق، ص81 ـ 82.

اليهود على أن الله لهم وحدهم ينبري بولس ساخراً من زعمهم «أم الله لليهود فقط. أليس للأمم أيضاً. بلى للأمم أيضاً» (رومية 3/ 29). ويتحدث بولس عن أبوة إبراهيم مؤكداً أن الأبوة المقصودة ليست من ناحية التناسل، كما يزعم اليهود، بل أبوة الإيمان الذي آمن به إبراهيم «فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم بل ببر الإيمان. لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد» (رومية 4/ 13 ـ 14)، وخلافاً للمزاعم اليهودية في حصر أبوة إبراهيم باليهود، فإبراهيم أب لأمم كثيرة (رومية 4/ 17، 18)، ويستطرد بولس في دحض هذه المزاعم (فيلبي 3/ 3 ـ 6)، ويحسم موضوع أبوة إبراهيم بقوله «اعلموا إذا أن الذين هم من الإيمان أولئك بنو إبراهيم» (غلاطية 3/ 7)، «لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد. . . أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً» (رومية 9/ 6 ـ 7)، وفي المجال ذاته خاطب يوحنا المعمدان الفريسيين والصدوقيين اليهود قائلاً: «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. . ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» (متى 3/ 7 ـ 10).

بقي اليهود في غالبيتهم متحجرين في معتقداتهم مصرين على الرفض القاطع لتعاليم المسيح ولبشارات تلامذته. فمن الإصرار على الادعاء بأبوة إبراهيم لهم دون سواهم، إلى الاعتقاد بمسيح خاص بهم يحكم حكماً زمنياً، وهو الأمر الذي رفضه يسوع كلياً «مملكتي ليست من هذا العالم» (يوحنا 18/ 36)، «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويخطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده» (يوحنا 6/ 15). كذلك بقوا متمسكين بحرفية الناموس بشأن السبت فقال لهم يسوع: «إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (لوقا 6/ 5) وسخر من انتقادهم له لأنه شفى مريضاً في يوم السبت (يوحنا 7/ 23). واستمروا في اعتبار أنفسهم شعباً مميزاً لدى الله فقال لهم بولس «ليس

عند الله محاباة» (رومية 2/ 11)، «لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن ربا واحداً للجميع غنيا لجميع الذين يدعون به» (رومية 10/ 12). وبقي مفهومهم للهيكل على أنه بناء حجري فأفهمهم أنه ليس كذلك «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم (كورنتوس الأولى 3/ 16)، كما بقي تمسكهم بطقوس الختان التي لا تنفع شيئاً «ليس الختان شيئاً وليست الغرلة شيئاً بل حفظ وصايا الله» (كورنتوس الأولى 7/ 19). وبقوا يعتبرون أن إلههم خاص بهم دون غيرهم رغم قول المسيح لهم «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يوحنا 8/ 12). ومع ذلك رفضوه ولم يتبعوه ولم يؤمنوا به لذلك قال لهم: «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني» (يوحنا: 1/ 26 ـ 27).

وهكذا كانت المسيحية في واقع الأمر أكبر ثورة تصحيحية على أباطيل اليهود، وكان السيد المسيح نفسه هو رافع علم الثورة، فقد تصدى للعصبية اليهودية، والانتساب إلى إبراهيم كطريق للخلاص والعصمة، ودعا إلى طهارة القلوب أولاً، لا إلى طهارة الجسد بالاختتان أو بالانتماء إلى إبراهيم.

وإلى هذه المعاني وأمثالها أشار المؤرخ الشهير الأستاذ جيبون في كتابه «اضمحلال الامبراطورية الرومانية» حيث قال: «إن المسيحية انتشرت لأنها صححت الكثير من تطبيقات اليهود لعقيدتهم في الرب ووسائل عبادته. وبعد أن كان الوعد برضاء الله محصوراً في ذرية إبراهم ـ تميزاً وتحزباً ـ أصبح في المسيحية قدراً مشترطاً للأحرار والعبيد، واليونانيين والبربر واليهود والأمميين على السواء»[1].

استمر الانفصال بين اليهودية والمسيحية منذ أواخر القرن الأول الميلادي حتى بزوغ الحركة الإصلاحية البروتستانتية في القرن الخامس عشر التي أعادت قسراً اللحمة بين الديانتين بعد انفصال طويل، بتشديدها على

(1) شؤون عربية، عدد 1، مصدر سبق ذكره، ص173 ـ 175.

عصمة الكتاب المقدس بعهديه القديم (التوراة) والجديد (الأناجيل والرسائل).
ومما زاد في هذا التشدد ظهور النظريات العلمية كالداروينية والشيوعية وأفكار الثورة الفرنسية وممارساتها في أواخر القرن الثامن عشر، وظهور النزعة الليبرالية في الغرب لا سيما في الولايات المتحدة[1]. وكانت خاتمة المطاف اعتراف الفاتيكان بإسرائيل في كانون الأول عام 1993، رغم استمرار اليهود في عدم اعترافهم بالمسيح وبمجيئه الأول، وعدم تقبلهم للمسيحية، واستمرارهم بالتحجر في طقوسهم ومعتقداتهم التي حاربها المسيح، وبقوا يتمسكون بمقولة «الوعد» و«أرض الميعاد». وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية تؤكد أن المسيح لم يتكلم قط عن ملكوت أرضي بل عن ملكوت روحي يؤلفه المؤمنون بالمسيح، والأرض المذكورة هي الكنيسة، وهي ليست أرضاً بالمعنى الحرفي الحصري بل جسد المسيح السري، ولن تكون أرضاً في أي زمان أو مكان بالمعنى الحرفي. إن المسيح يستوطن القلوب المؤمنة، فحيث المسيح هناك ملكوت الله[2].

العهد الجديد حسم فصل المسيحية عن اليهودية

لم يكن صدفة سير قطاع واسع من الأمم المسيحية في الغرب اليوم بركاب اليهود في تطلعاتهم وتمسكهم بمقولات «الوعد» و«أرض الميعاد» و«الشعب المختار». ولقد ولدت هذه التطلعات مع ولادة البروتستانتية قبل أن تولد الحركة الصهيونية بقرون ثلاثة على الأقل. ويعود ذلك للتمسك الصارم بحرفية الكتاب المقدس وعلى الأخص بالعهد القديم منه، ومحاولة الربط بينه وبين العهد الجديد عن سوء فهم جهلاً أو تجاهلاً أو عن تسخير الدين لمآرب سياسية بحته.

ومن التدقيق غير الانتقائي، البعيد عن التعسف في التأويل، نرى

---

(1) محمود أمين العالم، إشراق، الأصوليات الإسلامية في عصرنا الراهن، القاهرة، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، 1993، ص21، 22، 32، 36.

(2) جريدة الوسط العربي، لوس أنجلوس، العدد 30، 21 تموز 1994، ص41.

بوضوح أن المسيحية لم تقر التوراة بالشكل الذي اتبعه المؤولون، لكن المسيحيين الذين جهلوا أو تجاهلوا البشارة الجديدة أقروها. فعلى عكس اليهودية، فإن المسيحية ديانة عالمية غير مقتصرة على عرق أو أمة أو شعب بعينه، وهي تقوم على المحبة والتآخي والتسامح لا على التعصب والقوة وسفك الدماء ومحاباة الله للشعب اليهودي. ولا يمكن بحال من الأحوال اتخاذ الحوار في الأناجيل الثلاثة (متى ومرقس ولوقا)، ومن رسائل بولس إلى اليهود لتبشيرهم بالمسيحية أساساً للربط بين المسيحية واليهودية. فبمجيء المسيح تنتهي أسطورة «الشعب المختار» وتبدأ حقيقة كون كل الشعوب أبناء الله «فليكن معلوماً عندكم أن خلاص الله قد أُرسل إلى الأمم وهم يسمعون. ولما قال هذا مضى اليهود ولهم مباحثة كثيرة فيما بينهم» (أعمال الرسل 28/ 28 ـ 29)، «الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم» (مرقس 14/ 9)، «وعلى اسمه يكون رجاء الأمم» (متى 12/ 21)، «بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» (أعمال الرسل 10/ 35)، «لأن كل خليقة الله جيدة» (تيموتاوس الأولى 4/ 4)، «إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل» (أفسس 3/ 6). بيد أن غالبية اليهود لم تقتنع بذلك رغم الحوار معهم الذي قام به الإنجيليون، وعلى رأسهم متى، والرسل وعلى رأسهم بولس.

حوار الإنجيليين والرسل العقيم مع اليهود

1 ـ حوار الإنجيلي متى:

على الرغم من مراعاته لشعائر اليهودية بغية اجتذاب اليهود إلى المسيحية، لم يفلح في ما هدف. ومؤامرة هيرودوس على يسوع ليهلكه بدأت وهو لا يزال طفلاً، الأمر الذي جعل يوسف يهرب به مع أمه إلى مصر (متى 2/ 13 ـ 14)، حيث بقوا فيها حتى وفاة هيرودوس (متى 2/ 15) ثم عادوا إلى فلسطين بعد تلك الوفاة» (متى 2/ 21).

وفيما كان يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية، خاطب جموعا من الفريسيين والصدوقيين (اليهود) الذين أتوا إلى معموديته قائلاً: «يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي... لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم... أنا أعمدكم بماء للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني... هو سيعمدكم بالروح القدس ونار» (متى 3/ 7 ـ 11).

وفي حين سعى متى لاجتذاب اليهود في محاورته معهم إلى المسيحية مشيراً إلى المحافظة على «الناموس» بقوله لهم على لسان المسيح: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل» (متى 5/ 17) نرى في الواقع نقضاً كلياً للناموس «قد سمعتم أنه قيل للقدماء... وأما أنا فأقول..» (متى 5/ 21 ـ 44). وفي حين كان اليهود يتوهمون أن الملكوت مقصور عليهم دون سواهم، قال لهم يسوع: «إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السماوات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» (متى 8/ 11). وعبثاً حاول المسيح حمل اليهود على تقبل رسالته الموجهة للعالم كله، والعزوف عن التحجر والانغلاق وعن التمسك بشعائرهم الجامدة. لقد أزعج الفريسيين إقدام تلاميذ المسيح على قطف سنابل القمح يوم السبت. فرد عليهم قائلاً «إني أريد رحمة لا ذبيحة. فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (متى 12/ 7 ـ 8) غير أن الرد لم يرق لهم، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم ليهلكوه (متى 12/ 14). ومرة ثانية أزعجهم شفاؤه مريضاً في يوم سبت، فخاطبهم قائلاً: «يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم» (متى 12/ 34). وفيهم تمت «نبوءة إشعيا القائلة تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأن قلب هذا الشعب (اليهود) قد غلظ وآذانهم قد ثقل سماعها. وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم» (متى 13/ 14 ـ 15). ويمضي في تقريعه لهم وللكتبة قائلاً:

«يا مراؤون حسناً تنبأ عنكم إشعيا قائلاً يقترب هذا الشعب بفمه ويكرمني بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً. وباطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس» (متى 5/ 7 ـ 9). ويبلغ التقريع حده الأعلى بقلبه موائد الصيارفة في الهيكل (متى 21/ 12 ـ 14). ونراه لرفضهم رسالته يقول لهم: «إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره» (متى 21/ 43). ويقول: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون» (متى 23/ 13).

أصرّ اليهود على رفضهم تقبل رسالة «الناصري» لأنهم أرادوا مسيحهم الخاص بهم وحدهم، أرادوا مسيحهم ملكاً محارباً منحازاً لهم، ولما خيّب المسيح أملهم أصروا على بيلاطوس مطالبين بصلبه قائلين: «دمه علينا وعلى أولادنا» (متى 27/ 25). وكان لهم ما أرادوا؛ رغم ذلك يزعم الغرب المسيحي عامة اليوم، أن ولادة إسرائيل تمت بإرادة سماوية مع أنها تمت بالسيف، والمسيح يقول: «لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (متى 26/ 52). ويقول: «أنتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (متى 19/ 28). اليهود لم يعترفوا بالمسيح، ولذلك فهو لم يعترف بهم «فكل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السماوات. ومن ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السماوات» (متى 10/ 32 ـ 33) وهكذا نجد ذهاب الإنجيلي متى في محاورته اليهود، رغم مراعاته في بعض شعائرهم، لم يثمر ولا يزال كذلك. وهذا يعني عدم التلاقي بين اليهودية والمسيحية خلافاً لتأويلات مسيحية غربية تعسفية.

2 ـ إنجيل مرقس:

انحصر تبشير مرقس في بيئة يهودية ـ مسيحية، فلم تكن مراعاته لمشاعر اليهود متماثلة مع مشاعر متى المقصور تبشيره على اليهود ـ فمرقس ـ خلافاً

لمتى ـ لم يضع تسلسلاً سلالياً للمسيح ليربطه بنسل داود كما فعل متى (متى 1/1 ـ 16) مسايرة لمن يبشر. والعهد الجديد أقامه المسيح على أنقاض العهد القديم «ليس أحد يخيط رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق وإلا فالملك الجديد يأخذ من العتيق فيصير الخرق أردأ» (مرقس 2/ 21). وفي مجال التمسك اليهودي بالعتيق استنكار الفريسيين إقدام تلاميذ المسيح على قطف السنابل في أحد السبوت، وقد رد عليهم قائلاً: «.. السبت إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» (مرقس 2/ 27) وفعل الشيء ذاته رداً على استنكارهم شفاء مريض في يوم سبت «هل يحل في السبت فعل الخير أو فعل الشر. تخليص نفس أو قتل» (مرقس 3/ 4 ـ 5). كما وبخهم لتمسكهم بالقشور في لومهم للتلاميذ لأنهم أكلوا دون غسل أياديهم تبعاً لتقاليد شيوخهم، فأجابهم يسوع: «حسناً تنبأ إشعيا عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب. هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فمبتعداً عني بعيداً. باطلاً يعبدونني وهم يُعلّمون تعاليم هي وصايا الناس» (مرقس 11/ 1 ـ 7). ولقد تأكد ذلك عندما دخل المسيح إلى الهيكل فوجده سوقاً للباعة والصيارفة «أليس مكتوباً بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الأمم وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (مرقس 11/ 17).

أرادوا مسيحاً يقيم مملكة أرضية لهم فأفهمهم ما هو مغاير لما يريدون (مرقس 12/ 17). أرادوا التشبث بطقوسهم بتقديمهم المحرقات والذبائح فأفهمهم ما هو أهم وأجدى «محبة القريب كالنفس هي أفضل من جميع المحرقات والذبائح» (مرقس 12/ 33). وفي حين كان اليهود ينتظرون مجيء مسيحهم من نسل داود، أنكر يسوع أن يكون كذلك «فداود نفسه يدعوه ربا فمن أين هو ابنه» (مرقس 12/ 37) يتنبأ بعض القساوسة الغربيين اليوم باقتراب حدوث الآخرة، ويذهب الشطط بفئة منهم إلى تحديد زمن معين، استناداً إلى تأويلات مبنية على رؤى توراتية، وقد سبق للمسيح التحذير من هذه التخرصات «لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكي

يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً» (مرقس 13/ 22)، «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب» (مرقس 13/ 32).

أراد المسيح أن يكرز اليهود ببشارته ورسالته بين جميع الأمم 14/ 9)، ولكنهم رفضوا تقبل البشارة وحمل الرسالة، ويتضح هذا الرفض والقيام بالدور المطلوب في المثل الذي ضربه المسيح حول الكرم والكرامين (مرقص 12/ 1 ـ 9)، ويتكرر المثل نفسه عند متى (21/ 33). وكانت عاقبة ذلك: هوذا «ملكوت الله ينزع منكم (أي من اليهود) ويعطى لأمة تحمل أثماره (متى 21/ 43). وأنيط بالتلاميذ القيام بذلك الدور «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها. من آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يدن» (مرقس 16/ 15 ـ 16). ومن المعلوم أن اليهود لم يؤمنوا ولم يعتمدوا.

3 ـ إنجيل لوقا:

على الرغم من أن توجه الإنجيلي لوقا في التبشير بالمسيحية كان محصوراً في بيئة يهودية/ مسيحية، وكانت الضرورة تقضي بمسايرة اليهود في معتقداتهم أملاً منه في اجتذابهم للمسيحية الصرفة، فإنه ـ خلافاً لمتى ـ لم يورد نسب المسيح لربطه بسلالة داود بشكل تفصيلي وإن يك قد مر بإشارة عابرة إلى ذلك «ها أنت «مريم العذراء» ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع. هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب كرسي داود أبيه. ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية» (لوقا 1/ 31 ـ 33). ربما كانت هذه الإشارة العابرة مقدمة لعدم تنفير اليهود من تقبل المسيحية، لكننا نلحظ لاحقاً تصحيحاً لهذه الإشارة «وقال لهم كيف يقولون إن المسيح ابن داود. وداود نفسه يقول في كتاب المزامير قال الرب لربي اجلس عن يميني. . . فإذا داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه» (لوقا 20/ 40 ـ 41). ونراه يورد تعنيفاً لغرور اليهود بتعاليهم في الادعاء بأنهم نسل إبراهيم «يا أولاد

الأفاعي.. لا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» (لوقا 3/7 ـ 8). وفي مجال التوهم بأن اليهود هم «شعب الله المختار، يذكر لوقا على لسان المسيح دحض هذا الوهم «وبالحق أقول لكم إن أرامل كثيرة كنَّ في إسرائيل في أيام إيليا.. ولم يرسل إيليا إلى واحدة منها إلا إلى امرأة أرملة (أممية غير يهودية) إلى صرفة صيدا. وبرص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمن اليشع النبي ولم يطهّر واحد منهم إلا نعمان السرياني (أممي) (لوقا 4/25 ـ 27) وردًّا على لوم الفريسيين في لومهم فعل ما لا يحل فعله في السبوت قال لهم المسيح «إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (لوقا 6/5). ومع ذلك بقوا مصرين على التمسك بمعتقداتهم وطقوسهم، ومن هذا المنطلق كان رفضهم القاطع للمعمودية «وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه» (لوقا 7/30). كما بقوا مصرين على تمايزهم عن بقية الشعوب بمحاباة الله لهم، وذلك مجافاة للحقيقة «ويأتون من المشارق والمغارب ومن الشمال والجنوب (أمم) ويتكئون في ملكوت الله. وهوذا آخرون (أمم) يكونون أولين وأولون (يهود) يكونون آخرين» (لوقا 13/29 ـ 30)، «وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برص فوقفوا من بعيد، ورفعوا صوتاً قائلين يا يسوع يا معلم ارحمنا. فنظر وقال لهم اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة... وفيما هم منطلقون طهروا. فواحد منهم لما رأى أنه شفي رجع يمجد الله... وكان سامريا.. فأجاب يسوع وقال أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة ألم يوجد من يرجع ليعطي مجداً لله غير هذا الغريب الجنس» (لوقا 17/12 ـ 18)، «ولما سمع يسوع هذا تعجب منه (من قائد المائة الروماني الأممي)... والتفت إلى الجمع الذي يتبعه وقال أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل أيماناً بهذا المقدار» (لوقا 7/2 ـ 10).

أراد اليهود مسيحاً يقيم لهم مملكة أرضية، لكن مملكة المسيح لم تكن كذلك «فقال لهم أعطوا إذا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (لوقا 20/25). ولكي

يفهمهم رفض ما أرادوا لم يدخل أورشليم دخول الفاتحين بل دخلها دخول المتواضعين (لوقا 19/ 33 ـ 34). وخلافاً لتمسكهم بحرفية الناموس فيما يتعلق بتقديس السبوت، رفض انتقادهم لعدم أخذه بمطلبهم (لوقا 6/ 5)، (6/ 6 ـ 10) وبقوا ولا يزالون متحجرين بهذا التمسك الصارم. وخلافاً لانغلاقهم وكراهيتهم لغيرهم من الشعوب وتعاليهم عليهم، دعا يسوع إلى المحبة والتسامح «أيها السامعون أحسنوا إلى مبغضيهم. باركوا لاعنيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم. من ضربك على خدك الأيمن فأعرض له الآخر أيضاً» (لوقا 6/ 27 ـ 29). لكن دعوته لم تلق استجابة «وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه» (لوقا 7/ 30). فكان تنديده بهم عنيفاً «ويل لكم أيها الفريسيون... ويل لكم أيها الناموسيون... ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وآباؤكم قتلوهم» (لوقا 11/ 42 ـ 47)، «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين...» (لوقا 13/ 34)، «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (لوقا 19/ 46)، ولذلك فإنهم «يقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم. وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكمّل أزمنة الأمم» (لوقا 21/ 24).

4 ـ إنجيل يوحنا:

يتميز يوحنا عن سواه (متى، مرقس، لوقا) أنه تبنى المسيحية الصرفة المجردة من اليهودية. وفي إنجيله يندر أن نجد ذكراً لعلاقة ما باليهود أو باليهودية إلا في موضع أو موضعين، حتى إنه لا يذكر كلمة يهود في الغالب بل إسرائيل، وهذه الكلمة تعني المسيحيين المؤمنين. كما أننا لا نجد ذكراً لولادة المسيح ونسبه كما هي الحال عند متى. فالعرقية اليهودية تختفي وعالمية الدعوة تبدأ. وفي متون إنجيله لا يأتي المسيح لبني إسرائيل فقط بل للأمم أجمعين، وفي إنجيله أيضاً لا يكمل المسيح موسى، بل ليس هناك اعتراف بموسى سوى أنه أعطي الناموس الملغى. فالمسيح لا يكمل أحداً، بل

يحقق الله على الأرض. يعترف يوحنا الإنجيلي بيوحنا المعمداني فقط وينطلق منه، فيقول على لسان المعمداني «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يوحنا 1/ 34).

لم يقبل المسيح شهادة من أي كان قبله، لأنه لم يكن محتاجاً لذلك «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» (يوحنا 15/ 26)، «لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني، والآب الذي أرسلني يشهد لي» (يوحنا 5/ 37)، «وأنا لا أقبل شهادة من إنسان» (يوحنا 5/ 34)، «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق» (يوحنا 8/ 14).

يعترف يوحنا أن الذين أتوا قبل المسيح، أنبياء اليهود، «هم سراق ولصوص» (يوحنا 10/ 8)، ولا نرى في إنجيله أي أثر لفكرة المجيء، ذلك لأن المسيح قد جاء وأنهى: «جاء المنتهى»، فاكتمل الزمان واكتمل بالحكمة والروح والحقيقة، وتحقق الكل. وإذا كان المسيحيون التقليديون يجدون في رؤيا يوحنا نبوءة يربطونها بالقديم فإنهم يخطئون. فالشعب الجديد، وأورشليم الجديدة، وغيرهما من الموضوعات المذكورة لا تحمل أي معنى حرفي، بل إنها تشتمل على دلالة روحية.

وفي إنجيل يوحنا لا نجد أي ذكر لإعادة مملكة داود أو بعثها أو أن المسيح يملك على بيت داود، بل نجد في المسيح ملكاً روحياً وأن الرب هو رب إسرائيل وليس رب اليهود. وإسرائيل في سفر الرؤيا هي شعب الله الذي آمن، أي المسيحيون، لكن لأن هذه ارتبطت بالتوراة، فقد ترجمت وفسرت لصالح اليهود. وهذا خطأ فادح. وفي هذا الإنجيل نجد أيضاً أن المسيح الكوني هو كلمة الله المعطاة للناس أجمعين. ويوحنا يعترف بيوحنا المعمدان فقط ولا يقيم للتوراة وزنا، بل لا يذكرها ولا يذكر أنبياء اليهود[1].

(1) ندرة اليازجي، مصدر سبق ذكره، ص99 ـ 102.

يمكن القول بأن يوحنا كان أكثر من الإنجيليين الثلاثة الذين سبقوه ابتعاداً عن اليهودية، وتتضح هذه الحقيقة من التدقيق في كافة إصحاحات إنجيلية، جاء يوحنا «ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته. لم يكن هو النور بل ليشهد للنور. كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتياً إلى العالم. . . إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يوحنا 1/6 ـ 12). ومن الثابت أن اليهود لم يتقبلوا ذلك النور الذي هو المسيح، الذي به أعطيت النعمة «لأن الناموس بموسى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار» (يوحنا 1/ 17). فهذه النعمة لم تطل اليهود لأنهم أصروا على التنكر للمسيح رافضين «النور» مستمرين في الظلمة، وهم بذلك يلقون وزر هذا التنكر «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دِينَ لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد. وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحبَّ الناس (اليهود) الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله. وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (يوحنا 3/ 16 ـ 21). فالذين آمنوا بالنور لهم حياة أبدية والذين لم يؤمنوا لن يروها. «الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يوحنا 3/ 36). وغني عن القول أن اليهود لم يؤمنوا بالابن الذي هو المسيح، وأنهم لا يزالون ينتظرون مسيحهم «المسيا» رغم تأكيده للمرأة السامرية أنه هو نفسه «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيًّا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء قال لها يسوع أنا الذي أكلمك هو» (يوحنا 4/ 25). . ولذ آمنت المرأة بما قال لها وآمن به سواها من السامريين «وقالوا للمرأة إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن. لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم» (يوحنا 4/ 42). وخلافاً لهؤلاء الذين آمنوا بقي اليهود على عنادهم برفضهم الإيمان به وبإصرارهم على التشبث بناموس موسى فلاموه وعزموا على قتله لشفائه مريضاً

في يوم سبت (يوحنا 5/ 16). ومضوا في عنادهم غير متقبلين سماع كلماته «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يوحنا 5/ 24)، فالدينونة بانتظارهم لعدم سماع كلامه، ولا غرابة في ذلك، فإنهم من قبل لم يسمعوا كلام موسى «لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني» (يوحنا 5/ 46). ولم يكن عدم تصديقهم له مستهجنا لأن المسيح الذي ينتظرون مجيئه مختلف عن المسيح الذي لم يصدقوه، يريدون مسيحاً يملك أرضيا، لكن مملكة المسيح ليست كذلك. «أما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده» (يوحنا 6/ 15). وزاد من تذمرهم منه قوله لهم: «الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز الحقيقي من السماء بل أبي... أنا هو خبز الحياة. من يُقبل إلي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش. ولكني قلت لكم إنكم رأيتموني ولستم تؤمنون... من يقبل إليّ لا أخرجه خارجاً» (يوحنا 6/ 32 ـ 38). ولكنهم لم يقبلوا، وهكذا يصبحون خارجين عنه. يظهرون التمسك بحرفية الناموس ولكنهم لا يعملون به «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلوني» (يوحنا 7/ 19). يتعجبون لشفائه مريضاً يوم سبت، وهم يختنون الناس أيام السبوت «أفتسخطون عليَّ لأني شفيت إنساناً كله في السبت» (يوحنا 7/ 20 ـ 23)، «ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون» (يوحنا 7/ 49). يخاطبه الكتبة والفريسيون بقولهم له إن موسى أوصاهم برجم الزانية، وإن هذه المرأة زانية ملحين عليه الأخذ بحرفية الناموس، لكنه «انتصب وقال لهم من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها أولاً بحجر» (يوحنا 8/ 5 ـ 8). وقال للمرأة «اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (يوحنا 8/ 11).

يبدو أن تمسك اليهود بالانقطاع عن أي عمل أيام السبوت تمسكاً بالناموس، لم يكن مقروناً بالعمل به، وكذلك كان التمسك بادعاءاتهم أنهم

نسل إبراهيم «قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. . أنتم تعملون أعمال أبيكم. . . أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. . فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي. الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يوحنا 8/ 39 ـ 47). وقال له اليهود «ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات من تجعل نفسك. أجاب يسوع. . أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح. . الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن. فرفعوا حجارة ليرجموه» (يوحنا 8/ 53 ـ 59). ومن التغني بأنهم نسل إبراهيم إلى التغني بموسى وناموسه والانزعاج من خرق المسيح لحرمة السبت بإبصاره لأعمى أقرَّ بما حدث له «فشتموه وقالوا أنت تلميذ ذاك (المسيح). وأما نحن فإننا تلاميذ موسى. نحن نعلم أن موسى كلّمه الله وأما هذا فما نعلم من أين هو» (يوحنا 9/ 16 ـ 29). فرد عليهم قائلاً: «أنا باب الخراف جميع الذين أتوا قبلي سراق ولصوص. . أنا هو الباب إن دخل بي أحد فيخلص» (يوحنا 10/ 26 ـ 28) مؤكداً أن خرافه ليست يهودية «ولي خراف ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يوحنا 10/ 16). فاعتبروه مجدفاً «فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه» (يوحنا 10/ 31). فقال لهم: «فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيَّ وأنا فيه» (يوحنا 10/ 38). ومع كل ذلك لم يؤمنوا، وتعجب منه تلاميذه، بعد كل ذلك، حين أراد الذهاب إلى اليهودية لكون اليهود يعتزمون أن يرجموه، فخاطبهم قائلاً: «إن كان أحد يمشي في النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم. ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه» (يوحنا 11/ 8 ـ 9). غير أن اليهود أصروا على البقاء في الظلمة «فقال لهم يسوع النور معكم زماناً قليلاً بعد. فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام. والذي يسير في الظلام لا يعلم إلى أين يذهب. ما دام لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يوحنا 12/ 35 ـ 36)، «أنا قد

جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة» (يوحنا 12/ 46). غير أن اليهود أصروا على البقاء في الظلمة «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية. وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم... لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية. وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي. لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم أبغضوني بلا سبب» (يوحنا 15/ 23 ـ 25).

لم يقف الأمر عند حد البغض ورفض «النور» لأن يسوع خيّب آمالهم. أرادوا مسيحاً يقيم لهم وحدهم مملكة دنيوية، مسيحاً محارباً وليس مسالماً، فأجابهم «مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أُسلّم إلى اليهود. ولكن الآن مملكتي ليست من هنا» (يوحنا 18/ 36). وعلى الرغم من قول بيلاطس لهم «أنا لست أجد فيه علة واحدة» (يوحنا 19/ 5)، لقد أصروا على صلبه «قائلين اصلبه اصلبه، قال لهم بيلاطس خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة. أجابه اليهود لنا ناموس وحسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه ابن الله» (يوحنا 19/ 6 ـ 7) ـ عبثاً حاول بيلاطس إطلاق سراحه، فلقد أخذت جموع اليهود بالصراخ «قائلين إن أطلقت هذا فلست محباً لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكاً يقاوم قيصر» (يوحنا 19/ 12)، وكان لهم ما أرادوا (يوحنا 19/ 18).

أعمال الرسل

من الملاحظ أن بقاء بعض الرواسب اليهودية الدينية لدى بعض اليهود المتنصرين الأوائل تبدو جلية في الأناجيل الثلاثة الأول (متى، لوقا، مرقس)، وكذلك الأمر لدى بعض الرسل، ومن هؤلاء يعقوب وبطرس «وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الأخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا (أعمال الرسل 15/ 1)، «ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين وقالوا إنه ينبغي أن يُختنوا ويوصوا بأن يحفظوا

ناموس موسى» (أعمال الرسل 15/ 5)، واستمروا بتأثير معتقدات يهودية، في المطالبة بقيام مملكة يهودية دنيوية «أما هم المجتمعون فسألوه قائلين يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل» (أعمال الرسل 1/ 6)، مع أن المسيح سبق له مؤكداً تكراراً بأنّ مملكته روحية وليست دنيوية، ولأن مملكته تختلف عن مملكتهم المزمعة لم يؤمنوا به ونجحوا في العمل على صلبه «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه رباً ومسيحاً» (أعمال الرسل 2/ 36)، «إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إله آبائنا مجّد فتاه يسوع الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه (أعمال الرسل 3/ 13)، «فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات. . هذا هو الحجر الذي احتقرتموه أيها البناؤون الذي صار رأس *الزاوية. وليس بأحد غيره الخلاص.* لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أعمال الرسل 4/ 10 ـ 12). ولم يكن غريباً تنكر اليهود للمسيح، فقد تنكروا لأنبيائهم من قبل «أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم صرتم مسلميه وقاتليه، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أعمال الرسل 7/ 25).

دأب اليهود على عدم تقبلهم للمسيح ورسالته لأنهم في مفهومهم أرادوا مسيحهم الخاص بهم، وأن يكون الخلاص مقصوراً عليهم، بيد أن المسيحية جاءت مخيبة لما أرادوا «بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده» (أعمال الرسل 10/ 35)، «إذا أعطى الله الأمم أيضاً التوبة للحياة» (أعمال الرسل 11/ 15). ولم يقف الأمر على عدم تقبلهم، فلقد عمل بعضهم على إفساد نفوس الأمم «ولكن اليهود غير المؤمنين غروا وأفسدوا نفوس الأمم على الأخوة» (أعمال الرسل 12/ 2)، فكانوا بذلك غير جديرين بحمل الرسالة المسيحية، التي لم يتقبلوها، إلى العالم، وكان لا بد أن يقوم بها سواهم.

«إنكم غير مستحقين للحياة الأبدية. هوذا نتوجه للأمم. قد أقمتك نوراً للأمم لتكون أنت خلاصاً إلى أقصى الأرض» (أعمال الرسل 13/ 46ـ 47).

تصوروا أن الله إلههم وحدهم وبنوا هيكلاً لسكناه «لكن العلي لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي» (أعمال الرسل 7/ 48)، «الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه هذا إذ هو رب السماء والأرض لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي... إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء. وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض» (أعمال الرسل 17/ 24 ـ 26). وهذا يعني بوضوح أن كل الأمم من دم واحد من صنع الله، وأنه لا مفاضلة عند رب السماء بين أمة وأخرى من حيث العرق، فالمفاضلة تقوم على الإيمان المقرون بصدق الممارسات عند الأفراد والجماعات. ومن الواضح أن اليهود برهنوا عن الافتقار إلى الإيمان بالمسيح وعن عدم تقبلهم لرسالته، وهو الأمر الذي سبق لهم الافتقار إلى الإيمان من قبل «قائلين لهارون اعمل لنا آلهة تتقدم أمامنا. لأن هذا موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فعملوا عجلاً في تلك الأيام وأصعدوا ذبيحة للصنم وفرحوا بأعمال أيديهم» (أعمال الرسل 7/ 40 ـ 41).

رسائل الرسل:

أ ـ بولس إلى رومية:

كان بولس أحد القلائل من اليهود الذين تقبلوا المسيحية، ولقي بذلك اضطهاداً من بني قومه. ومن الملاحظ أنه على العموم تخلص من رواسب اليهودية، ونادراً ما نجد من مثل هذه الرواسب التي من بينها، كما أورد متى» أن المسيح من نسل داود «الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن أبيه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد» (رومية 1/ 2 ـ 3)، وهو الأمر الذي رفضه المسيح (لوقا 20/ 44)، (مرقس 12/ 37). وفي رسائله لأهل رومية يتضح أمران رئيسيان: أولهما عالمية الله وعدم محاباته بين أمة وأخرى خلافاً للتصور اليهودي، وأن إبراهيم أب لأمم وليس أباً بالجسد لليهود المعاندين

وحدهم. وثانيهما نهاية الناموس بمجيء المسيح وقصر الخلاص به وحده. فيما يتعلق بأسطورة «الشعب المختار يقول بولس «ليس عند الله محاباة» (رومية 2/ 11)، «أم الله لليهود فقط أليس للأمم أيضاً. بل للأمم أيضاً» (رومية 3/ 29)، «لأن الله واحد هو الذي سيبرر الختان بالإيمان والغرلة بالإيمان» (رومية 3/ 30)، «لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع غنياً لجميع الذين يدعون به. لأن كل من يدعو باسم الرب يخلص» (رومية 10/ 12 ـ 13)، «حتى أكون خادماً ليسوع المسيح لأجل الأمم مباشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً بالروح القدس» (رومية 15/ 16). أما ما يختص بالمزاعم اليهودية في الادعاء بأنهم جسدياً من نسل إبراهيم، فتأكيد بولس واضح بأن المقصود بنسل إبراهيم هم أولئك الذين يؤمنون إيمانه من كل الأمم وليس اليهود وحدهم كما يزعمون. «فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله أن يكون وارثاً للعالم بل ببر الإيمان. لأنه إن كان الذين من الناموس هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد. لأن الناموس ينشىء غضباً إذ حيث ليس ناموس ليس أيضاً وعد. لهذا هو من الإيمان كي يكون على سبيل النعمة ليكون الوعد وطيداً لجميع النسل ليس لمن هو من الناموس فقط بل أيضاً لمن هو من إيمان إبراهيم الذي هو أب لجميعنا. كما هو مكتوب أني قد جعلتك أباً لأمم كثيرة» (رومية 4/ 13 ـ 17)، «فهو على خلاف الرجاء آمن على الرجاء لكي يصير أباً لأمم كثيرة كما قيل هكذا يكون نسلك» (رومية 4/ 18)، «لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد. . أي ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً» (رومية 9/ 6 ـ 8). ولكن اليهود أحجموا عن تقبل هذه المفاهيم «أما من جهة إسرائيل فيقول طول النهار بسطت يدي إلى شعب معاند ومقاوم» (رومية 10/ 21). ويستذكر بولس ما قاله إيليا عن هذا الشعب «يا رب قتلوا أنبياءك وهدموا مذابحك وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي» (رومية 11/ 2 ـ 3)، وبما يقول عنهم هوشع «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي والتي ليست محبوبة محبوبة» (رومية 9/ 25).

وفيما يتعلق بنهاية العمل بالناموس بمجيء المسيح يقول بولس: «لأنه بأعمال الناموس كل ذي جسد لا يتبرر أمامه. لأن بالناموس معرفة الخطية. وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء. برّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون. لأنه لا فرق. إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدّمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله، لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بسيوع. فابن الافتخار قد انتفى. قد انتفى. بأي ناموس. أبناموس الأعمال. كلا بل بناموس الإيمان. إذ نحسب أن الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس» (رومية 3/ 20 ـ 28)، «فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رومية 5/ 1 ـ 2)، «والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت لكثيرين. . . الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح» (رومية 5/ 15، 17)، «عالمين هذا أن إنساناً العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نستعبد أيضاً للخطية» (رومية 6/ 6)، «فإنّ الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة» (رومية 6/ 14)، «وأما الآن فقد تحررنا من الناموس إذ مات الذي كنا ممسكين فيه حتى نعبد بجدة الروح لا بعتق الحرف» (رومية 7/ 6)، «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رومية 8/ 2)، «إن الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر. البر بالإيمان. ولكن إسرائيل وهو يسعى في أثر ناموس البر لم يدرك ناموس البر» (رومية 9/ 30)، «لأن غاية الناموس هي المسيح للبر لكل من يؤمن» (رومية 10/ 4). بيد أن كل كرازة بولس هذه لم تلق استجابة من اليهود فكان لا بد من توجهه بالرسالة المسيحية إلى الأمم. وبما أن اليهود لم يؤمنوا بالمسيح ولم يؤمنوا بموته وقيامته ـ وهما شرطان للخلاص ـ ففي

المنظور المسيحي محرومون من ذلك «لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت» (رومية 10/ 9).

ب ـ رسالتا بولس إلى أهل كورنتوس:

يتابع بولس في رسالتيه هاتين تخليص المسيحية من رواسب اليهودية. من ذلك إعطاء مضمون للهيكل مغايراً لمضمونه في اليهودية «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم. إن كان أحد يفسد هيكل الله لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو» (كورنتوس الأولى 3/ 16 ـ 17)، «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم» (كورنتوس الأولى 6/ 19). ولا يكتفي بذلك في محاولاته الجادة لقطع الصلة بين اليهودية والمسيحية، وفي ذلك يقول: «نقوا منكم الخميرة العتيقة لكي تكونوا عجيناً جديداً. .» (كورنتوس الأولى 5/ 7). وفي حين تعتبر اليهودية الختان أمراً جوهرياً يؤكد بولس عكس ذلك «ليس الختان شيئاً وليست الغرلة شيئاً بل حفظ وصايا الله» (كورنتوس الأولى 7/ 19). وفي حين تعتبر اليهودية الناموس أساساً مبدئياً تعتبر المسيحية رسالة المسيح هي الأساس المبدئي «متى جاء الكامل (المسيح) فحينئذ يبطل ما هو بعض (الناموس). (كورنتوس الأولى 13/ 10) «أما شوكة الموت فهي الخطية. وقوة الخطية هي الناموس» (كورنتوس الأولى 15/ 56). وبإشراق فجر العهد الجديد ينتهي دور الناموس الموسوي وينتهي التمسك بحرفيته «الذي جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد. لا الحرف بل الروح لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي» (كورنتوس الثانية 3/ 6 ـ 7)، «وليس كما كان موسى يضع برقعاً على وجهه لكي لا ينظر بنو إسرائيل إلى نهاية الزائل. بل أغلظت أذهانهم لأنه حتى اليوم ذلك البرقع العتيق نفسه عند قراءة العهد العتيق باق غير منكشف الذي يبطل في المسيح» (كورنتوس الثانية 3/ 13 ـ 14)، «إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (كورنتوس الثانية 5/ 17).

جـ ـ رسالة بولس إلى أهل غلاطية:

يستهل رسائله إلى أهل غلاطية بإظهار تحوله عن اليهودية إلى المسيحية «فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها. وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثير من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرة من تقليدات آبائي. ولكن لما سرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيَّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحماً ودماً» (غلاطية 1/ 14 ـ 16). وبولس خلافاً لبطرس ويعقوب، تخلص من رواسب اليهودية، وبات يصف الذين بقيت تلك الرواسب في نفوسهم بأنهم الأخوة الكذبة «لكن لم يضطر ولا تيطس الذي كان معي وهو يوناني أن يختتن. ولكن بسبب الأخوة الكذبة المدخلين خفية الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا التي لنا في المسيح كي يستعبدونا. الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق الإنجيل» (غلاطية 2/ 3 ـ 5). ولا يكتفي بالتلميح إلى أولئك «الأخوة» بل يعتمد التصريح «لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودي تعيش أممياً لا يهودياً فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا. نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الأمم خطاة. إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح آمنَّا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما» (غلاطية 2/ 14 ـ 16). وفي أنطاكية قاوم بولس بطرس مواجهة «لأنه كان ملوماً. لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان» (غلاطية 2/ 11 ـ 12).

ترتكز مقاومة بولس في رسالته لأهل غلاطية على قاعدتين في دحض مفاهيم المتنصرين غير المتخلصين من رواسب اليهودية. القاعدة الأولى تأكيده أن المؤمنين هم أبناء إبراهيم من أي عرق كانوا، المؤمنين إيمانه لا المنحدرين من ذريته كما يزعم اليهود والمسيحيون المتهودون «اعلموا أن الذين هم من

الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم. . إن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم» (غلاطية 3/ 7 ـ 8)، «لتصير بركة إبراهيم للأمم في المسيح يسوع لننال بالإيمان موعد الروح القدس» (غلاطية 3/ 14)، «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله. لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد وفي نسلك الذي هو المسيح». (غلاطية 3/ 16).

ترتكز القاعدة الثانية على انتهاء دور الناموس بمجيء المسيح «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح. . . لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما» (غلاطية 2/ 16)، «ولكن إن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر لأن البار بالإيمان يحيا. . . المسيح افتدانا من لعنة الناموس» (غلاطية 3/ 11 ـ 13)، «لأنه لو أعطي ناموس قادر أن يحيي لكان بالحقيقة البر بالناموس» (غلاطية 3/ 21)، «ولكن قبلما جاء الإيمان كنا محرومين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يعلن. إذا قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان. ولكن بعدما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب. لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. . . فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم حسب الموعد ورثة» (غلاطية 3/ 23 ـ 29)، ويكرر تأكيده بأن الختان اليهودي لا ينفع شيئاً «إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً. . قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس سقطتم من النعمة. فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء برّ لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبة» (غلاطية 5/ 2 ـ 6)، «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة» (غلاطية 6/ 15).

د ـ رسالة بولس إلى أهل أفسس:

يتابع بولس في رسائله إلى أهل أفسس خطواته التبشيرية بالعهد الجديد واضعاً حداً للفصل بين اليهودية والمسيحية، وفي هذا الصدد يقول: «لذلك اذكروا أنكم أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين غرلة من المدعو ختاناً

مصنوعاً باليد في الجسد. إنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم. ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح. لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط. أي العداوة. مبطلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً. ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به» (أفسس 2/ 11 ـ 16)، «إن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل» (أفسس 3/ 6)، «وأما أنتم فلم تتعلموا المسيح هكذا إن كنتم قد سمعتموه وعُلّمتم فيه كما هو حق في يسوع. أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور. وتتجددوا بروح ذهنكم. وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أفسس 4/ 20 ـ 24).

هـ ـ بقية رسائل بولس:

لا يختلف مضمون بقية رسائل بولس عن مضمون رسائله السابقة إن بالتركيز على البشارة المسيحية، وإن برفض الادعاء اليهودي بتمييز الله لليهود عن بقية الأمم والشعوب «لا تكذبوا بعضكم على بعض إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله. ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه. حيث ليس يوناني ويهودي وختان وغرلة بربري سيكثي عبد حر. بل المسيح الكل وفي الكل» (كولوسي 3/ 9 ـ 11). ويشير بولس في رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي إلى رفض اليهود لتقبل البشارة بالمسيح وإلى مخاصمتهم للمسيحيين «فإنكم أيها الأخوة صرتم متمثلين بكنائس الله التي هي في اليهودية في المسيح يسوع لأنكم تألمتم أنتم أيضاً من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها كما هم أيضاً من اليهود. الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن. وهم غير مرضين لله وأضداد لجميع الناس يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكي يخلصوا حتى يتمموا خطاياهم كل حين. ولكن قد أدركهم الغضب إلى

النهاية» (تسالونيكي الأول 2/ 14 ـ 16). وفي رسالته إلى أهل تيطس تحذير بعدم الإصغاء لخرافات يهودية «فلهذا السبب وبخهم بصرامة لكي يكونوا أصحاء في الإيمان لا يصغون إلى خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدين عن الحق» (تيطس 1/ 13 ـ 14). ويتجلى ابتعاد المسيحية عن اليهودية في رسائله إلى العبرانيين «فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال. إذ الشعب أخذ الناموس عليه. وإذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن آخر على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هارون. لأنه إن تغير الكهنوت فبالضرورة يصير تغيّر الناموس أيضاً» (عبرانيين 7/ 11 ـ 12)، «فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها. إذ الناموس لم يكمّل شيئاً ولكن يصير إدخال رجال أفضل به. نقترب من الله» «عبرانيين 7/ 18 ـ 19)، «على قدر ذلك قد صار يسوع ضامناً لعهد أفضل» (عبرانيين 7/ 22)، «فإن الناموس يقيم أناساً بهم ضعف رؤساء كهنة. وأما كلمة القسم التي بعد الناموس فتقيم ابناً مُكمَّلاً إلى الأبد» (عبرانيين 7/ 28). وفي نقض اعتقاد اليهود بالوصول إلى الخلاص عن طريق تقديم القرابين يقول بولس: «وأما المسيح وهو قد جاء رئيس كهنة للخيرات العتيدة فبالمسكن الأعظم والأكمل غير المصنوع بيد أي الذي ليس من هذه الخليقة. وليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداء أبديا. لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشوش على المنجَّسين يُقَدِّس إلى طهارة الجسد. فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدّم نفسه لله بلا عيب يطهّر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي. ولأجل هذا هو وسيط عهد جديد لكي يكون المدعوون إذ صار موت لفداء التعديات التي في العهد الأول ينالون وعد الميراث الأبدي» (عبرانيين 9/ 11 ـ 15)، «لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عبرانيين 10/ 4) ورفع الخطايا حصل بدم المسيح «فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة» (عبرانيين 10/ 10). وبما أن اليهود لم يأخذوا بهذه التقدمة فقد تم حرمانهم من المواعيد. «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم

لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عبرانيين 11/ 13).

رسائل الرسل الآخرين

نلحظ في رسائل بطرس محاولات للتخلص من رواسب اليهودية نسبياً بتركيزه على المسيح كحجر الزاوية، ذلك الحجر الذي رفضه اليهود «إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح. الذي إذ تأتون إليه حجراً حياً مرفوضاً من الناس (أي من اليهود) ولكن مختار من الله كريم. كونوا أنتم أيضاً مبنيين كحجارة حية بيتاً روحياً كهنوتياً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح. لذلك يتضمن أيضاً في الكتاب ها أنذا أضع في صهيون حجر زاوية مختاراً كريماً والذي يؤمن به لن يخزى. فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة وأما للذين لا يطيعون فالحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية وحجر صدمة وصخرة عثرة الذين يعثرون غير طائعين للكلمة الأمر الذي جُعلوا له. وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي أمة مقدسة شعب اقتناء الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب» (رسالة بطرس الأولى 2/ 3 ـ 9)، «فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح كأولاد الطاعة لا تشاكلوا شهواتكم السابقة في جهالتكم» (بطرس الأولى 1/ 13 ـ 14). وفي رسالته الثانية يحذر منكري المسيح اليهود من عواقب هلاكهم «ولكن كان أيضاً في الشعب أنبياء كذبة كما سيكون فيكم أيضاً معلمون كذبة الذين يدسون بدع هلاك وإذ هم ينكرون الرب الذي اشتراهم يجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً. الذين بسببهم يُجدف على طريق الحق. وهم في الطمع يتجرون بكم بأقوال مصنعة الذين دينونتهم منذ القديم لا تتوانى وهلاكهم لا ينعس» (بطرس الثانية 2/ 1 ـ 3). بيد أن يوحنا في رسائله كان أكثر وضوحاً من بطرس في تقريع منكري المسيح «من هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح. هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والابن. كل من ينكر الابن ليس له الآب أيضاً ومن يعترف بالابن فله الآب أيضاً» (رسالة يوحنا الأولى 2/ 22 ـ 23). ومن

المؤكد أن اليهود هم الذين لم يعترفوا بالابن الذي هو المسيح، وعدم اعترافهم هذا يترتب عليه يجعلهم ليسوا من الله في شيء. «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم أنه يأتي والآن هو في العالم» (يوحنا الأولى 4/ 2 ـ 3)، «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله. وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً» (يوحنا الأولى 5/ 1). وفي رسالته الثانية يقول: «لأنه قد دخل إلى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً في الجسد. هذا هو المضلّ والضد للمسيح... كل من تعدى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والابن جميعاً. إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلام. لأن من يسلّم عليه يشترك في أعماله الشريرة» (يوحنا 2/ 7 ـ 11). ومن المؤكد أن اليهود هم الذين لم يعترفوا بالمسيح ولم يتقبلوا هذا التعليم.

رؤيا يوحنا اللاهوتي

يرى بعض الدارسين أن رؤيا يوحنا اللاهوتي عبرانية قلباً وقالباً، وهو ما قرره الرجل صراحة، إذ أعلن أنه نظر «وإذا قد انفتح هيكل خيمة الشهادة في السماء» (يوحنا 15/ 5)، ثم أعلن أنه عندما سمع «صوتا عظيماً من الهيكل (يوحنا 16/ 1)، وأعلن أيضاً أن «العرش» (عرش الله) الذي خرج منه الصوت العظيم مقام في «الهيكل» الذي في السماء (يوحنا 16/ 17). وكان قبل أن يسمع الصوت العظيم قد رأى «هيكل الله في السماء وظهر تابوت عهده في هيكله» (يوحنا 11/ 19). من ذلك يتضح أن الرؤيا في مجملها «عبرانية» أي مأخوذة من رؤى العهد القديم، وبالأخص من حزقيال ودانيال، وقد كان الأجدر، بدلاً من وضع رؤيا يوحنا كحاشية في ذيل العهد الجديد، توضع كمعبر أو كهمزة وصل بين «العهدين»[1].

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص226 ـ 227.

قراءة فاحصة لرؤيا يوحنا اللاهوتي

تكمن أهمية هذه الرؤيا بإلحاقها بالعهد الجديد لإيجاد لحمة بين العهدين: القديم والجديد، بعد أن فصلت المسيحية إلى حد بعيد بينهما. ومرد هذه اللحمة إلى أخذ معظم مادته من العهدين المذكورين، وعلى الأخص الطوائف البروتستانتية الغربية. ومما ساعد على عملية هذا التهويد لدى هذه الطوائف التمسك الحرفي بالعهد القديم والإغراق في تأولات واجتهادات حول تفسير «النبوءات». ولما كان سفر الرؤيا مشبعاً بالأخذ من مضمون العهد القديم العبراني الطابع، ونظراً لاتخاذ كاتب الرؤيا الأسلوب الرمزي الذي يكتنفه الغموض، أفسحت هذه الرمزية لتأويلات وتفسيرات متشعبة ومتنوعة، وهي في النهاية تصب على الركائز التي يستند عليها المسيحيون المتهودون من الطوائف البروتستانتية الغربية في الزمن الراهن، خاصة في الولايات المتحدة، في التعاطف مع اليهود ومع الصهيونية، وفي دعم إسرائيل المطلق، دون الأخذ بعين الاعتبار الاهتمام بمعرفة هوية كاتب الرؤيا، والباعث على استخدام الرمزية في كتابتها، والهدف المقصود من تأليفها، والغرض من التنبؤ المستقبلي بنهاية العالم ونهاية التاريخ.

هوية يوحنا والباعث على كتابة الرؤيا والهدف من وراء ذلك

يقودنا موضوع وأسلوب وزمن وهدف كتابة يوحنا لإنجيله، ويوحنا اللاهوتي لكتابة رؤياه، إلى الاستنتاج بأنهما كاتبان اثنان وليسا واحداً كما رأى البعض. ومما أدى إلى الالتباس بين هوية الكاتبين أنهما يحملان الاسم نفسه عدا عن رمزية الأسلوب وغموضه وهما يبعثان على اجتهادات متضاربة إن بالنسبة للهوية وإن بالنسبة لتفسير غموض الرئيا.

ترى غالبية الباحثين الموضوعيين أن كاتب الرؤيا اللاهوتية يوحنا هو شخص آخر وليس بالضرورة أنه يوحنا نفسه كاتب الإنجيل الرابع. ومن الأدلة على ذلك أنه لم يضم نفسه إلى الرسل عند ذكره إياهم. (رؤيا 18/

20)، (21/ 14)[1]. كما أن هناك فارقاً كبيراً بين أسلوب الكاتبين. والفارق واضح بين كتابة رؤى بأسلوب رمزي يكتنفه غموض، وبين كتابة بأسلوب صريح بعيد عن الرمزية والغموض. ويرى بعض الباحثين أن كاتب الرؤيا كان يهودياً كون مضمونها مشبعاً بمعان وألفاظ وتعابير توراتية[2]. ومن المعروف أن يوحنا اللاهوتي كان كاهناً يهودياً من فرقة العرافين عرفت منذ زمن اليشع باسم «نبي الأنبياء» (الملوك الثاني 6/ 1) وأنه عاش في عهد الامبراطور الروماني دوميتيان (81 ـ 96م)، في مدينة أفسوس[3].

وفي رأي بعض الباحثين أن الباعث على وضع يوحنا اللاهوتي للرؤيا بأسلوب رمزي، ناجم عن الاضطهاد الروماني للمسيحيين واليهود خلال حكمي، الامبراطورين نيرون ودوميتيان. والبعض يرى أن زمن تأليف الرؤيا كان إبان حكم نيرون في العقد السابع من القرن الأول الميلادي، بينما يرى البعض الآخر أن ذلك كان خلال حكم دوميتيان عام 95م[4]. ومن المرجح أن حصول ذلك تم في زمن حكم دوميتيان الذي طالب في آخر حياته أن يكرس أبناء امبراطوريته له الولاء والعبادة، الأمر الذي شكّل تحدياً للمسيحيين الذين لقوا اضطهاداً وكان من بينهم الرائي يوحنا الذي عاين الاضطهاد وكتب الرؤيا في منفاه بجزيرة بطمس في البحر الإيجي[5]. أما الهدف الرؤيوي فهو التلويح بأمل سوف يحدث مستقبلاً لشعب تتحلقه المتاعب وضروب الشقاء. والمؤلفات الرؤيوية وضعت كلها في أوقات أزمات شديدة لإعطاء أمل بقرب تدخل يهوه لصالح شعبه. وكان وضع يوحنا اللاهوتي مؤلفه الرؤيوي في أشد

---

(1) Neil S. Fujita, Introducing the Bible, New York Ramsey Paulist Press, 1981, P193.

(2) Charles F. Lfeiffer, Old Testasment. etd. The Wyeliffe Bible Commentary of Chicago, The Moody Bible Institute of Chicago, 1960, P1491-1501.

(3) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص228.

(4) Charles F. lfeiffer, Everette F. Harrison, OP. CIt, P1491-1501.

(5) Neil S. Fujita, OP. Cit, P194.

أوقات المصاعب تأزماً في تاريخ اليهود، إبان الحرب اليهودية، أي الحرب التي خاضتها روما للقضاء على التمرد اليهودي، ويبدو أن ترحيله إلى جزيرة بطمس حيث سُخّر للعمل في محاجرها كان لاتهامه من قبل السلطات الرومانية بالاشتغال بالتهييج السياسي والديني:

وفي تلك المرحلة بالذات من التاريخ اليهودي، أكثر من أية مرحلة سابقة من القلق والخوف من المستقبل، كان التحرك المألوف للتطلعات المسيحانية (التطلع لمجيء المسيح المخلص المنتظر) ودخولاً بتوجهات سياسية قوية.

«فذلك الذي ثبت عجز البشر الفانين عن تحقيقه سوف يحققه (لليهود المغلوبون على أمرهم في مواجهة جبروت روما) إله اليهود يهوه بجنده السماوي تحت قيادة المسيح المحارب، سليل بيت داود، وابن الله، وسيكون ذلك المسيح الذراع اليمنى للملك المنشود، ولسوف تبيد أنفاسه ذاتها الأشرار الذين جرأوا على الوقوف في وجه قصد يهوه المتمثل في أن يحكم شعبه المختار العالم»[(1)].

تتضح لنا جملة من المسلمات: أولها أن الاضطهاد الروماني كان الدافع لاستخدام الرائي يوحنا الأسلوب الرمزي خشية سيف الامبراطور. وثانيها استلهامه رؤيا كل من حزقيال ودانيال. ذلك أن حالات اضطهاد اليهود على يد البابليين بالماضي تماثل حالات اضطهادهم على أيدي الرومان في أيام يوحنا. وهكذا تصبح بابل في سفر الرؤيا كناية عن روما، ويصبح نبوخذ نصر كناية عن نيرون أو دوميتيان. وثالثها التنبؤ عن سقوط بابل كناية عن التنبؤ بسقوط روما. ورابعها تقوية عزائم اليهود إبان الشدائد بالإيحاء لهم بأن يهوه لن يتخلى عن شعبه، وأنه سيعمل على خلاصه. ذلك الإيحاء ورد عند حزقيال ودانيال إبان الاضهاد البابلي لليهود والإيحاء ذاته يجدده الرائي يوحنا إبان اضطهاد الرومان لليهود.

---

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص231 ـ 233.

وعندما يتحدث الرائي يوحنا عن «بابل العظيمة أم الزواني ورجاسات الأرض» (رؤيا 17/ 5)، فإنه يقصد روما، وعندما يتحدث عن «كأس من ذهب في يدها مملوءة رجاسات ونجاسات زناها» (رؤيا 17/ 4)، فإنما يعني عبادتها الوثنية وثراءها الباذخ، وعندما يتحدث عن «امرأة جالسة على وحش قرمزي مملوء أسماء تجذيف له سبعة رؤوس وعشرة قرون» (رؤيا 17/ 3) يلمح إلى أن «الزانية العظيمة» هي روما، عدوة اليهود في زمانه[1]. ويمضي معرباً عن المصير التعيس الذي سيحيق بالزانية «بابل» وهو يقصد روما «وسيبكي وينوح عليها ملوك الأرض الذين زنوا وتنعموا معها حينما ينظرون دخان حريقها، واقفين من بعيد لأجل خوف عذابها قائلين ويل ويل المدينة العظيمة بابل. المدينة القوية لأنه في ساعة واحدة جاءت دينونتك» (رؤيا 18/ 9 ـ 10)، «ويل ويل» المدينة العظيمة المتسربلة ببزٍ وأرجوان وقرمز والمتحلية بذهب وحجر كريم. لأنه في ساعة واحدة ضرب غنى مثل هذا» (رؤيا 18/ 16 ـ 17)، «ويل ويل. المدينة العظيمة التي فيها استغنى جميع الذين لهم سفن في البحر من نفائسها لأنها في ساعة واحدة ضربت» (رؤيا 18/ 19)، «سترمى بابل المدينة العظيمة ولن توجد في ما بعد» (رؤيا 18/ 21)، «سقطت سقطت بابل المدينة العظيمة لأنها سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها» (رؤيا 14/ 8).

وفيما اعتبر إشعيا الملك الفارسي كورش مسيحاً لأنه كان «المخلص» لليهود بإنقاذهم من عبودية بابل لهم (إشعيا 45/ 1) اتجه الرائي يوحنا إلى وعدهم بمخلص مماثل من عبودية الرومان لهم، ولم يكن ذلك المخلص سوى ربهم (يهوه). «وبعد هذا سمعت صوتاً عظيماً من جمع كثير في السماء قائلاً هللويا. الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلٰهنا. لأن أحكامه حق وعادلة إذ قد دان الزانية العظيمة التي أفسدت الأرض بزناها وانتقم لدم عبيده

(1) المصدر السابق، ص231 ـ 234، 235، 245، 263، 273.

Neil S. Fujita, OP, Cit, P197.

من يدها. وقالوا ثانية هللويا. ودخانها يصعد إلى أبد الآبدين» (رؤيا 19/ 1 ـ 2)، «ثم سمعت صوتاً آخر من السماء قائلاً اخرجوا منها يا شعبي لئلا تشتركوا في خطاياها ولئلا تأخذوا من ضرباتها. لأن خطاياها لحقت السماء وتذكر الله آثامها. جازوها كما هي جازتكم وضاعفوا لها ضعفاً نظير أعمالها» (رؤيا 18/ 4 ـ 6). وواضح أن يوحنا يبعد بذلك الإحباط عن شعبه، ويبعث في نفوسهم الأمل بأن الخلاص من أيدي الظالمين الرومان آتٍ لا محالة، تماماً كما حصل خلاصهم من قبل على يد المسيح كورش.

مضمون الرؤيا

لفظة رؤيا يونانية الأصل تعني كشف ما كان خفياً بإيحاء إلهي لإنسان. وقد استعملت بأشكال مختلفة (لوقا 17/ 30)، (رومية 8/ 18)، (كورنتوس الأولى 1/ 7)، (تسالوينكي الثانية 1/ 7)، (بطرس الأولى 1/ 7، 13)، (بطرس الأولى 4/ 13)، (بطرس الأولى 5/ 1). وسفر الرؤيا نبوءة توضح أحداثاً مستقبلية، وتؤكد على تزايد الاضطرابات والعنف بقيادة الشيطان للحؤول دون تمكين المسيح من إقامة حكمه الملكي على الأرض، وينجم عن الصراع اندحار قوى الشر وإنشاء مملكة المسيح الأبدية، ويتخلل هذه المرحلة سلسلة من المؤامرات لقهر ملك الملوك، غير أنها تتهاوى جميعها وينتهي الصراع الذي تعقبه الدينونة النهائية وظهور أورشليم الجديدة، وبداية الحياة الأبدية.

ومن الثابت أن يوحنا اللاهوتي كان على معرفة عميقة بمضمون الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. ولكي يضفي صفة القدسية على نبوته أخذ بما جاء في رسالة بطرس الثانية «علمني هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص. لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تلكم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» (2 بطرس 1/ 20 0 21). ونراه يستهل رؤياه بالقول: «إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليري عبيده ما لا بد

أن يكون عن قريب وبيّنه مرسلاًبيد ملاكه لعبده يوحنا ـ الذي شهد بكلمة الله وبشهادة يسوع المسيح بكل ما رآه» (رؤيا يوحنا 1/ 1 ـ 2).

ومع أن النص المشير إلى أحداث وشيكة الوقوع (عن قريب) فقد قاد غموض الرؤيا ورمزيتها إلى شطحات خيالية في التفسير، وإلى تعسف عشوائي في التأويل. من ذلك محاولات عدة لتفسير الأحداث في عصرنا هذا، تطبيقاً لما جاء في رمزية الرؤيا (الادعاء بأن الوحش 13/ 11 ـ 18) إنما هو هتلر. ومما لا شك فيه أن هذه الشطحات تشويهات عبثية، فسفر الرؤيا يجب أن يفهم في وضعه نفسه، ذلك الوضع الذي مارس فيه دوميتيان اضطهاد اليهود، وكان الهدف حث المسيحيين للمحافظة على أصالة إيمانهم، لأن الأمل بالخلاص مقصور على المجيء الثاني للمسيح، وهذا أمر مفروغ منه، وفي ذلك تشديد لعزائم المسيحيين بوجه الاضطهاد الذي يتعرضون له[1].

يتألف سفر يوحنا اللاهوتي من مقدمة (1/ 1 ـ 8)، وخاتمة (22/ 6 ـ 21)، ومن سبع رسائل موجهة إلى سبع كنائس في آسية الصغرى (1/ 9 ـ 3/ 22) التي كانت قائمة في نهاية القرن الميلادي الأول. وهذه الرسائل متشابهة في لغتها الأدبية، ويتضح من خلالها أن كاتبها كان على بينة من أوضاع المجتمعات التي كانت فيها تلك الكنائس، حيث شاع وجود حواريين منافقين وهرطقات وارتداد ونزاع مع اليهود، ولا مبالاة وحالات روحية معدومة، لكن بعض الكنائس بقيت مجتمعاتها على إيمان بالمسيح. وتنتهي كل رسالة من الرسائل السبع بوعد نهائي بالنصر، وبحياة سعيدة أبدية لجميع الذين بقوا مخلصين في إيمانهم.

ومن الرسائل إلى الرؤى السبع (5/ 1 ـ 22/ 5) تصورات لأمور ستحصل. الرؤيا الأولى سفر مختوم بسبعة أختام أمكن فضها بالخروف

(1) Neil S. Fujita, Ibid, P194.

المذبوح «المسيح» (5/ 1 ـ 8) الأربعة الأولى مفضوضة: الحرب، الصراع، القحط، الموت. يقع عند فض الخامس إعلان أنه في نهاية الزمان يحدث انتقام الشهداء، ويتبع فض الختم السادس اهتزاز عنيف للكون، يعقب ذلك مشهد رؤيوي لجمع عظيم من (المعذبين) الشهداء ذوي الأردية البيض مختومين بختم إلهنا على جباههم (إصحاح 7). بفض الختم السابع يخيم صمت على السماء، وصلاة الشهداء يمكن سماع الله لها، يكسر هذا الصمت رعود وزلازل تعطي الملائكة السبعة الإشارة لنفخ أبواقهم.

الرؤيا للسبعة أبواق تكوّن الرؤيا الثانية عند الرائي (8/ 2 ـ 11/ 19). وعندما تصدح الأبواق تحل على الأرض كوارث مدمرة: خراب شيطاني ومزق دمار، والمحصلة لذلك أن الأشخاص الذين يعوزهم ختم الله يقعون تحت عذاب شديد، يطلبون الموت فلا يجدونه. صوت البوق السابع استهلال للمجموعة الثالثة من التخيلات فيما يتعلق بمملكة التنين (12/ 1 ـ 18). تبدأ الرؤيا بامرأة حبلى تلد بعد مخاض موجع ذكراً، وهذا الطفل سيحكم العالم. لكن يوجد عدو مرعب هو التنين الممثل للقوى الشريرة. تحتدم الحرب في السماء بين الملائكة والتنين، يُقهر التنين، ويطرح إلى الأرض، لكنه يذهب إلى تلك المرأة.

الرؤيا الرابعة تتعلق بالوحوش الذين يمنحهم التنين قوته (13/ 1 ـ 18). السكان كلهم يخافون ويعبدون القوى الكافرة. هذه إشارة لعابدي الامبراطور الروماني. الوحش الأول، على ما يظهر يمثل الامبراطورية، والثانية، بالحقيقة، الأمبراطور نيرون نفسه البادىء باضطهاد المسيحيين. يرجح تخيلنا للرقم 666 (13/ 18) والقيصر نيرون المهجأ بالعبرية له ذلك المعنى العددي، ويظن الدارسون أيضاً أن هذه لا تشير إلى نيرون فقط بل إلى أباطرة آخرين مثل دوميتيان الذي أعيد إحياؤه وكأنه نيرون. والسلسلة الثانية من الرؤيا (14) تبين المسيح كحَمَل مع مجموعة ملائكة تحث على الإيمان بالمسيح، وتحث أيضاً على الحكم لعابدي الوحش.

السلسلة الخامسة الرئيسية من الرؤيا تصور الأوبئة السبعة من الدينونة (متمثلة بصب ضربات غضب الله السبع) على يد الملائكة السبع (15/ 1 ـ 16/ 21). وهذه السلسلة تعتبر موازية إلى أوبئة الأختام السبعة والأبواق السبعة، ولكنها تمثل ذروة غضب الله. ويتبع هذه السلسلة رؤيا سقوط بابل (المقصود روما) والتي تشخص كعاهرة (17/ 1 ـ 19/ 10). وروما تحاول إغراء العالم بعبادة إله وهمي هو الامبراطور الروماني، ذو السلطة والمال والجمال، ولكن روما تلتهمها النيران، فيما الملائكة بالسماء ترتفع أصواتهم قائلين «هللويا الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا. لأن أحكامه حق وعادلة إذ قد دان الزانية العظيمة (روما) التي أفسدت الأرض» (19/ 1 ـ 10).

السلسلة السابعة والأخيرة من الرؤى ترد في السفر 19/ 11 وتنتهي بالسفر 22/ 5، وهي تصف الانحدار الأخير للوحش وجمعه على يد المسيح وملائكته. التنين هو رمز الشر (الشيطان) يتم تقييده بالسلاسل، ويقوم الشهداء للمشاركة في حكم المسيّا لمدة ألف عام على الأرض قبل الدينونة الأخيرة (الألفية الاعتقاد بمرحلة وسطية لحكم المسيح على الأرض قبل الدينونة الأخيرة) وكانت فكرة مبكرة عند آباء الكنيسة المسيحيين، مع أنها لاحقاً خمدت. فكرة مماثلة نشأت عند اليهود والسمرة قبل مرحلة المسيحية.

بعد هذه المرحلة يطلق سراح الشيطان ويهاجم الأتقياء في المدينة المقدسة، لكنه يُغلب ويرمى في النار الأبدية، وكل الأموات يبعثون أحياء وتجري الدينونة حسب الأعمال. الرؤيا الأخيرة تبيّن سماء جديدة وأرضاً جديدة، وتختفي السماء القديمة والأرض، والقدس الجديدة تهبط من السماء موحدة الأرض والسماء مكونة بذلك محور العالم الجديد، والبعد الجديد ويكون اسمها «عروس المسيح» (عن القدس الجديدة). في هذا العالم الجديد لا ألم ولا نواح حيث يسكن الله مع الإنسان (21/ 3 ـ 4) وينتهي بذلك سفر الرؤيا، وبانتهائه ينتهي العهد الجديد.

يبدأ الكتاب المقدس بعملية خلق العالم (تكوين 1) وينتهي في إعادة

خلق عالم الله[1]. ونجد هذا التقابل في مواضع عدة (تكوين 1/ 1 ورؤيا 21/ 1)، (تكوين 1/ 5 ورؤيا 21/ 25)، (تكوين 1/ 16 ورؤيا 21/ 23)، (تكوين 2/ 17 ورؤيا 21/ 4)، (تكوين 3/ 16 ورؤيا 21/ 4)، (تكوين 3/ 17 ورؤيا 23/ 3)، (تكوين 3/ 1 و4 ورؤيا 20/ 10)، (تكوين 3/ 22 ـ 24 ورؤيا 22/ 2)، (تكوين 3/ 24 ورؤيا 22/ 4)، (تكوين 2/ 10 ورؤيا 22/ 1). وهناك آيات لا حصر لها في العهدين القديم والجديد تشير إلى إرجاع الحياة إلى حالتها الأولى التي كانت مقررة للإنسان قبل عصيانه وصية الخالق. ويبدو لنا مدى استلهام يوحنا اللاهوتي في رؤياه من ينابيع العهدين في محاولة توفيقية، غير فالحة لتغلب يهوديته على مسيحيته، وتركيزه على معاناة اليهود بشكل خاص من اضطهاد الرومان لهم، ومن الثابت أنه عندما يكثر من التنبؤ عن خراب بابل، إنما يقصد خراب روما، وحافزه لذلك بعث الأمل في نفوس اليهود بالنصر والخلاص على يد «المسيّا» المحارب، تماماً كما حصل بالماضي ذلك الخلاص على يد «مسيح الرب كورش».

من اللافت للنظر أن الكنائس الغربية اعتبرت مبكراً سفر الرؤيا ملحقاً بالعهد الجديد، وأصبح يقرأ في تلك الكنائس، لكن الكنائس الشرقية عارضت تبني هذا الاعتبار، ولم توافق على هذا الإلحاق حتى القرن الرابع الميلادي. وفي منتصف القرن الثالث وافق مطران الإسكندرية على إلحاقه، وتبعه مطران قرطاجة بالموافقة عام 397م، وتتابعت بعد ذلك الموافقات الكنسية على هذا الإجراء الكاثوليكي والبروتستانتي[2].

أدى غموض «الرؤيا» بأسلوبها الرمزي لتفسيرات متعددة منذ زمن أوغسطين حتى يومنا هذا. فمن المفسرين من رأى أن الهدف من الرؤيا ليس التنبؤ المستقبلي لما سيقع من أحداث، بل إن الهدف البعيد تشجيع

(1) I bid, P. 195 - 198.

(2) Charles F. Pfeiffer &; Everrett, F. Harrison, OP. Cit P1491-1501.

المسيحيين على التمسك بالمبادىء الروحية الأساسية، والإيمان بقوة الله وبلوغ النصر النهائي على يد المسيح، ويبدو أن أصحاب هذا الرأي بنوا تأويلهم على ما جاء في «السفر» من ظهور أعداء المسيح يتم التغلب عليهم في معركة هرمجدون. ويرى بعض المفسرين أن يوحنا كان يشير لأحداث عاصرها حصلت خلال الحكم الروماني أيام الامبراطورين نيرون ودوميتيان. ويرى آخرون أن «الرؤيا ترتبط بالكنيسة منذ القرن الميلادي الأول حتى الأزمان المعاصرة، ويتوسعون بتأويلات كالزعم أن دينونة الأبواق تمتد من 495 ـ 1453م، والبعض يزعم أن الزلزال (11/ 9) يعود للثورة الفرنسية (1789). ومثل هذه التفسيرات الاعتباطية تقود أصحابها للتوهم بأن كل ما يحدث قد أنبأت «الرؤيا» عنه مسبقاً. ومما زاد من انتشار هذه التفسيرات اختراع القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية اللتين قد تحدثان دماراً شاملاً للكون مماثلاً للدمار الذي سيحدث، وفق الرؤيا، قبل نهاية العالم[1].

يمكن إيجاز مضمون سفر الرؤيا بالنقاط التالية:

1 ـ رؤيا المسيح الممجد ورسائله إلى الكنائس السبع بآسيا (1/ 9 ـ 3/ 22).

2 ـ فض الأختام السبعة بالسماء، وإعلان الأحداث الأرضية (4/ 1 ـ 6/ 17).

3 ـ شروط خلاص القديسين على الأرض وفي السماء معلناً عنها بالأبواق السبعة (7/ 1 ـ 9/ 21).

4 ـ حكم عدو المسيح. أعتم ساعة في تاريخ العالم (10/ 1 ـ 13/ 18).

5 ـ الإعلانات التحضيرية من السماء والسبع قرعات للدينونة (13/ 1 ـ 16/ 21).

6 ـ سقوط بابل ومعركة هرمجدون (17/ 1 ـ 19/ 21).

---

(1) Ibid, P1465.

7 ـ العصر الألفي، الدينونة الأخيرة، القدس الجديدة، الأبدية / 21/ 1 ـ 22/ 5) الخاتمة (22/ 6 ـ 21)[1].

تستوقفنا في «الرؤيا» عدا الإبهام وتباين تأويله، عدة أمور: تكرار بعض الأرقام خاصة الرقم 7، معركة هرمجدون، التأويلات الحديثة لهذه المعركة.

اغتراف كاتب الرؤيا معظم تخيلاته من التوراة، عبرنة المسيحية

شيوع الرقم سبعة وسواه

تكررت في الكتاب المقدس أعداد معينة، لكن أكثرها شيوعاً كان الرقم «7»، مفرداً أو مركباً «17»، أو معقوداً «70»، أو معطوفاً «57»، أو مئوياً «700»، أو مؤلفاً «7000»، زهاء 500 مرة. وعلى سبيل المثال ما جاء في سفر التكوين (2/ 2 ـ 3)، (7/ 2 ـ 4)، (8/ 10 ـ 12)، (21/ 28 ـ 32)، (29/ 18 ـ 20)، (29/ 27)، (21/ 23)، (26/ 27)، (50/ 3)، (41/ 26 ـ 30)، (8/ 4)، (23/ 1).

ويتكرر الأمر نفسه في سفر الخروج: (2/ 16)، (12/ 15 ـ 19)، (24/ 9 ـ 10)، (16/ 27 ـ 30)، (24/ 16)، (29/ 29)، (31/ 15). وكذلك الأمر في سفر اللاويين (13/ 14 ـ 16)، (8/ 33 ـ 35)، (12/ 1 ـ 5)، (13/ 26 ـ 27)، (16/ 14 ـ 19)، (23/ 15 ـ 18). وكذلك في سفر العدد (19/ 11 ـ 19). وفي سفر يشوع (6/ 4 ـ 21). وفي سفر الملوك الأول / 20/ 15 ـ 29)، والملوك الثاني (10/ 1)، (4/ 35)، (5/ 14)، (8/ 1 ـ 3)، (12/ 1)، (18/ 9). وفي سفر التثنية (7/ 1 ـ 2)، (5/ 12)، (16/ 1 ـ 9). وفي سفر أستير (2/ 9)، (2/ 16). وفي سفر الأخبار الأول (18/ 3 ـ 4)، (19/ 18). وفي سفر القضاة (4/ 12)، (4/ 17)، (16/ 7 ـ 8)، / 16/ 13)، (16/ 19). وفي سفر صموئيل الأول (6/ 1)، (16/ 10)، (31/ 13)، وفي سفر صموئيل

---

(1) Ibid, P1465.

الثاني (2/ 11)، (10/ 18)، (21/ 9)، (13/ 15). وفي سفر أيوب (2/ 13)، (42/ 2)، (42/ 8). والسفر الوحيد الذي يخلو من الرقم «7» هو «نشيد الإنشاد».

وفي سفر الرؤيا الملحق بالعهد الجديد يتكرر هذا الرقم كما في التوراة، ويبدو التأثر بها واضحاً. (1/ 4)، (1/ 12)، (1/ 16)، (2/ 14)، (2/ 17)، (3/ 7)، (3/ 9)، (3/ 12)، (3/ 1)، (4/ 5 ـ 6)، (5/ 6)، (5/ 1)، (8/ 1 ـ 2)، (10/ 3 ـ 4)، (12/ 3)، (13/ 1)، (15/ 1) (15/ 6 ـ 8)، (16/ 1)، (17/ 1)، (17/ 7).

ومن الملاحظ أمران: قدسية هذا العدد، وتكراره في الديانات السماوية وغير السماوية، واستلهام يوحنا اللاهوتي في رؤياه لهذا الرقم مجازياً بذلك التوراة، وما ورد في الديانات القديمة كافة على وجه العموم:

1 ـ رؤساء الملائكة السبعة عند الكلدانيين والعبرانيين.

2 ـ الأرواح العظيمة السبعة التي يبتهل إليها الفرس.

3 ـ الأرواح الشريرة السبعة عند البابليين.

4 ـ الآثام الكبيرة السبعة عند المصريين.

5 ـ القرابين المقدسة السبعة عند المسيحيين.

6 ـ نضح الدم على المذابح المصرية سبع مرات.

7 ـ البوابات السبع في طيبة.

8 ـ الأبواب السبعة في كهف متراس.

9 ـ سبع أبواب جهنم (سورة الحجر 43 ـ 44).

10 ـ السماوات السبع والأرضون السبع (سورة الطلاق 12).

11 ـ الطبقات السبع في برج بابل.

12 ـ المزمار ذو القصبات السبع في يد «بان» إله الماشية عند اليونان.

13 ـ القيثارة ذات الأوتار السبعة المتفرعة من شجرة الحياة الآشورية.

14 ـ الأحجار السبعة المخصصة للكواكب السبعة في لاكوينا.

15 ـ تقسيم الناس سبع مراتب في كل من مصر والهند[1].

ومن الملاحظ أن ما ورد في حكاية «الأرواح السبعة التي أمام عرش الله» (رؤيا 1/4) عند يوحنا مأخوذة عن سفر زكريا (4/ 2 ـ 7)، وهي بالأصل زرداشتية أخذتها عنها اليهودية، لكن يوحنا اللاهوتي عدّلها بحيث جعل الأرواح السبعة عدداً سحرياً لروح الله الواحد تم ربط بين السبعة والواحد بشكل حميم جعل السلام والنعمة يستمدان من السبعة مثلما يستمدان من الواحد[2].

كان القدماء يعتقدون أن حظ الإنسان في الحياة رهن بحركات الأجسام السماوية، وكانوا يعرفون الشمس والقمر وخمسة من الكواكب السيارة. وبأسماء هذه الأجرام السماوية السبع أسميت أيام الأسبوع في مصر وبابل وغيرهما. ونجد شيئاً من ذلك في بعض اللغات الأوروبية كالإنجليزية، وقد سبقت عبادة الناس للقمر عبادتهم للشمس. ويتم القمر دورته في ثمانية وعشرين يوماً، ولدورته صلة بالحيض الذي يعتري الإناث كل ثمانية وعشرين يوماً. وبقسمة العدد 28 على 4 ينتج الرقم 7 وهو عدد أيام الأسبوع. وقد شاركت هذه الأسباب في إكساب هذا الرقم ما له من قدسية، ومن ثم كثر ظهوره في أديان شتى. وقد ورد ذكره في القرآن في سبعة وعشرين موضعاً نذكر منها قوله «يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» (يوسف 46)[3].

لم تتوقف قدسية الرقم سبعة وسحريته عند حدود الديانات السماوية

---

(1) عصام الدين حفني ناصف، مصدر سبق ذكره، ص263.

(2) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص236، ص237.

(3) عصام الدين حفني ناصف، مصدر سبق ذكره، ص263 ـ 264.

وغير السماوية في الزمن الغابر، فقد برزت هذه القدسية في زمننا الحاضر بظهور «حركة الإدارة الإلٰهية»، وهي حركة أُخروية لاقت رواجاً شعبياً من مبدأ أمرها نظراً لما لوحت للجماهير العريضة به من أمل في قرب «الخلاص» وبدء عصر النعيم في القريب العاجل نظراً لأن «المجيء وشيك».

وقد استمدت الحركة اسمها من «فلسفة إيمانية للتاريخ» انبنت على النظر إلى التاريخ باعتباره مساراً من سبع مراحل: (1) مرحلة البراءة في جنة عدن، قبل السقوط في الخطيئة الأصلية، (2) مرحلة الضمير التي أعقبت الطرد من الجنة، (3) مرحلة الإدارة الإنسانية لشؤون العالم، في ظل العهد الذي قطعه يهوه مع إبراهام بإعطاء نسله الأرض من النيل إلى الفرات، و(5) مرحلة الشريعة، في ظل العهد الذي قطعه يهوه مع موسى بجعل «بني إسرائيل» شعبه المختار وأمته المقدسة، و(6) مرحلة النعمة الإلٰهية في ظل العهد الذي قطعه يهوه من خلال المسيح، و(7) مرحلة العصر الألفي السعيد في آخر الأيام في ظل حكم صهيون للعالم[1].

وطبقاً لإيمانيات الحركة، ظلت كل مرحلة من تلك المراحل تنتهي ـ نظراً لفساد الطبيعة الإنسانية ـ بعصيان البشر لله ورفضهم لنعمته، وعملاً على «غربلة» العالم واستخلاص الأبرار من الأشرار، يقول الإداريون الإلٰهيون إن المسيح سوف يدعو الأبرار المؤمنين بملوكيته، في الفترة الحرجة بين المرحلة السادسة والسابعة للاجتماع به في الهواء في غمار ما يدعونه بـ«الخطف». ومفهوم «الخطف» هذا نشأ عن قول بولس الرسول في الرسالة الأولى لأهل تسالونيكي «وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح (الشهداء) سيقومون أولاً. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء» (4/ 16 و17). وفيما خلا مفهوم الخطف هذا تظل الحرية في أساسياتها مدينة لرؤيا يوحنا اللاهوتي بمحتواها العبراني وتطلعها

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص273.

المسيحاني. وقد كان أول ظهور لها في كتابات جون نلسون داربي (1800 ـ 1882) القس المطرود من كنيسة إيرلندا، وأحد قادة «إخوان بليموت»، وهي شيعة إنجيلية إنكليزية ظهرت في مطلع القرن التاسع عشر وباشرت تأثيراً قوياً على البروتستانتية، سواء في إنكلترا أو أميركا[1].

والواقع أن اللاهوتي أمعن في يهوديته إلى حد قرّبه كثيراً مما تطورت اليهودية سحرياً في القبالة، قبل القباليين بوقت طويل. فهو يتحدث عن «الحكمة» ويتحدث عن «اسم الوحش وعدد اسمه» ويقول: «هنا الحكمة من له فهم فليحسب عدد الوحش فإنه عدد إنسان. وعدده ستمائة وست وستون» (18/13). وقد فُسّر الموضوع بأن «عدد الوحش» هذا، 666، هو حاصل جمع القيم العددية لأحرف «القيصر نيرو» (مع حذف النون الأخيرة)، أي الحرف الذي ينطق بصوت النون الأخيرة في ذلك الاسم)، وتلك القيم هي 10 + 60 + 200 + 50 + 200 + 6 + 50 = 666!

وقد اعترض البعض على ذلك بقولهم إن اللاهوتي كان يكتب باليونانية، في حين أن هذه القيم العددية قيم حروف ساكنة عبرية. إلا أنه من الواضح أن الفكر الذي عبّر عنه الرجل باليونانية كان عبرياً. ولما كان اللاهوتي قد رأى في روما أفظع خطر يهدد اليهودية في زمانه، ولذلك أسماها باسم بابل التي كان على يدها سبي اليهود، فإنه ـ كالسائد في زمانه ـ جسّد جبروت روما في شخص نيرون، مثلما جسّد أسلافه جبروت بابل في شخص نبوخذ نصر[2].

يعود تفسير الأعداد وتأويلها إلى مذهب القبالة الصوفية اليهودية. والقبالا أو القبالة مصطلح يراد به التعليم الباطني المتعلق بالله والكائنات. وهي بالأصل قامت على علم التنجيم والسحر اللذين تعاطاهما كثيرون وسموا «الحكماء»، وجعلوا هذا الاسم يتضمن المعنى الباطني لتفسير «الناموس والأنبياء».

---

(1) المصدر السابق، ص274.

(2) المصدر السابق، ص235.

درسوا التلمود ثم اجتازوه إلى تعاليم هي أعلى وأبعد. كان كتابهم (الإشراق» (الزوهر) دستورهم المقدس. والقبالة السرية تبدو على طول المدى أنها كشفت عن أسرارها للعالم الخارجي، وهي تحتوي على آراء جميع الربانيين في الشؤون الدينية والمدنية. ويعود منشؤها إلى ذلك الزمن الذي كان فيه الفعل اليهودي في خلال السبي، منغمساً في الآراء الشرقية ودين الفرس وزردشت. وعلى الرغم مما أخذته القبالة من الزرداشتية من جموح وخيال وتطوح، ما أعطاها صفة ميثولوجية، فقد بقيت في جوهرها موسوية يهودية. ومنشئو القبالة يردون أصلهم «المعنوي» الروحي، إلى كلمات سفر دانيال، ودانيال كما نعلم من رجال السبي اشتهر بتفسير الهواجس النفسية والأحلام والرؤى وقراءة المستقبل السياسي. وفي الفصلين الأخيرين من سفره التوراتي تكلم عن ملك الشمال وملك الجنوب، وعن المركبات والسفن والفرسان والحرب وذهاب دولة وقيام أخرى، وهو يريد من خلال هذا كله أن يرمز إلى عودة اليهود إلى «أرض الميعاد» على يد نوع من الرجال اليهود. أما كلمات دانيال التي اتخذها القباليون دستورهم وقالوا: إنما نحن المعنيون بهذا، لا غيرنا، فهذه هي: «والفاهمون يضيئون كضياء الجَلَدَ، والذين ردوا كثيراً إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور (13/ 3). وقال القباليون نحن «الحكماء» الذين أشار إليهم دانيال. ولم تبق القبالة مقصورة على اليهود في القرون الوسطى، فلقد تأثر الأوروبيون بها بعد قيام حركة الإصلاح الديني البروتستانتية[1]، ودخلت بذلك في المعتقدات لدى بعض الجماعات المسيحية.

ومع القبالة يداً بيد، بدأ اجتياح رؤى المسيحانية (المسيح المنتظر) والعصر الألفي السعيد الذي سيعقب مجيئه. وأصحاب هذه الرؤى المسيحانية من المسيحيين انبنت على أن المجيء المنتظر حدث بالفعل. غير أن ذلك التناقض نُحّي جانباً بخفة يد لاهوتية باعتبار أن المجيء المنتظر سيكون المجيء الثاني، بصرف النظر عن أن ذلك الادعاء ـ طبقاً للعهد القديم وكنوز الحكمة

(1) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مصدر سبق ذكره، ص502 ـ 510.

اليهودية ـ كاذب من أساسه، لأن «ذلك الذي يمحى ذكره واسمه، الذي لقي ميتة حقيرة مشنوقاً على وثن(أي الصليب) جزاء وفاقاً له على جرائمه وتضليله» ليس بالوسع الادعاء بأنه البطل المخلص الذي وعد يهوه به شعبه المختار.

أما التناقض الآخر الأخطر فتمثل في أن ذلك المنتظر عندما يأتي، طبقاً للديانة اليهودية، سيأتي لمحاربة الأغيار أعداء «الشعب المختار» ويهزمهم ليقيم الهيكل الثالث وملك صهيون العالمي الذي يخرج من الناموس (الشريعة اليهودية) إلى كل الأمم التي يأتي ملوكها ورؤساؤها على ركابهم ليقدموا فروض الولاء والطاعة. لكن هذا التناقض أيضاً نُحّي بخفة اليد اللاهوتية نفسها بالقول بأن المسيح الذي سيأتي هو الناصري الذي جاء قبلاً والذي سيكون مجيئه الثاني لإقامة ملكوت الإله الأب الرحيم سماوياً لكل البشر، وأن اليهود سوف يؤمنون بأنه المسيح أخيراً فيدخلهم الملكوت لينعموا بالعصر الألفي السعيد في نسخته المسيحية لا اليهودية[1].

العصر الألفي السعيد ونهاية التاريخ

أطلقت رؤيا يوحنا اللاهوتي برمزيتها وغموضها واستقاء كاتبها غالبية رؤاه من العهد القديم، لا سيما من سفري دانيا وحزقيال، العنان الخيالي الجامح لجماعات من الطوائف البروتستانتية بتأويلات افتراضية تزعم أن رؤيا يوحنا تنبىء بأحداث مستقبلية ستقع وفق إرادة إلٰهية، على اعتبار أن كل شيء في الكون مدبر وفق خطة إلٰهية مبرمجة شاملة. وبرأي كبرى الكنائس الأميركية البروتستانتية، «الكنيسة التدبيرية» أن ما سيحدث على الأرض هو تحقيق لخطة إلٰهية تحكم مسار التاريخ وأحداثه، تتحرك وفق تدبير إلٰهي.

يقول س. أي. سكوفيلد: «كل قدر دور من الزمان يمتحن فيه البشر حسب ما أوحاه الله من وحي مخصوص». ويزعم المذهب الحديث في

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص85 ـ 86.

القدرية أن الله قد جعل في التاريخ مسارين متوازيين: أحدهما يعمل من خلال إسرائيل والثاني من خلال الكنيسة. ويجمع منظرو القدرية في معظمهم على سبعة أقدار تدل على تطور علاقة الله بالبشر. والقدر الحالي هو سادس هذه الأقدار، وهو «دور الكنيسة والنعمة»، وينتهي بعودة المسيح لإقامة مملكته الألفية [أي التي تدوم ألف سنة]، وذلك هو الدور السابع، وعندها سوف «تختطف» الكنيسة من التاريخ وتستأنف إسرائيل دورها الأصيل كأداة الله في الأيام الأخيرة. وسوف تحدث إعادة مسيحانية لعرش داود لمدة سبعين أسبوعاً بعد إعادة بناء أورشليم، وذلك حسب الفقرتين الأساسيتين اللتين تستعملان لتسويغ هذه العقيدة (دانيال 7 ـ 9 ورؤيا 16)[1].

وخطة الله المستقبلية في منظور الكنيسة التدبيرية، تتضمن العودة الثانية للمسيح للتبشير بمملكة الله، على أن ذلك مشروط باستعادة إسرائيل، كشعب مختار، لأرضها الموعودة من أجل تمهيد المكان للمجيء الثاني للمسيح. فإنشاء دولة إسرائيل عام 1948، وتوحيد القدس عام 1967، لأول مرة منذ أكثر من ألفي عام، هما أبرز الإشارات الدالة على أن العودة الثانية للمسيح على وشك الحدوث. وفي هذا المنظور أن كل الأشخاص أو المجموعات والدول التي تعارض أو تناهض إسرائيل يعتبرون أعداء الله لأنهم يعيقون تحقيق النبوءات التوراتية التي تضمنت التنبؤ بولادة دولة إسرائيل، وقد تحقق هذا التنبؤ. ومن بين ملايين الأميركيين المؤمنين بهذه المزاعم الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر، فقد ذكر في بيانه الانتخابي أن «تأسيس دولة إسرائيل المعاصرة هو تحقيق للنبوءة التوراتية»[2]. مثله في ذلك مثل الطائفة البروتستانتية المعمدانية التي ينتسب إليها.

وقبل تأسيس دولة إسرائيل المعاصرة كان الإيمان اللاهوتي لهذه الملايين ينصب على ضرورة عودة اليهود إلى الأرض الموعودة، وإقامة كيان

(1) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص12.

(2) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص11 ـ 12، 83.

يهودي فيها تمهيداً لمجيء المسيح الثاني، وتأسيس مملكة الألف عام السعيدة. وبعد قيام دولة إسرائيل ساد الاعتقاد لدى هذه الملايين بأن قيام تلك الدولة دليل ساطع على صحة معتقداتهم اللاهوتية. وصار المؤمن بهذه المعتقدات يرى في دعم وتثبيت دولة إسرائيل تعجيلاً وتسريعاً ليوم الخلاص بعودة المسيح الثانية، وصارت «أهم إشارة إلى نهاية التاريخ وعودة المسيح الثانية، قيام دولة إسرائيل بعد آلاف من السنين والتشرد»[1]. ومن اللافت للنظر أن هذه الجماعات التي تؤمن بهذه الفرضيات تتعامى عن الحقيقة التاريخية التي لا تقبل الجدل والمتعلقة بقيام دولة إسرائيل، المبنية على دوافع سياسية استعمارية أملاها تزاوج المصالح الصهيونية اليهودية العلمانية مع المصالح الامبريالية الغربية الاستعمارية.

تستند هذه الجماعات في منطلقاتها العقدية على سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، وبخاصة الإصحاح 20/ 1 ـ 6)، وتؤمن بالعودة الثانية للمسيح إلى الأرض لإرساء حكم يقيم سلاماً على مدى ألف عام. ويؤمن هؤلاء «الألفيون» أن حال العالم ستسوء طالما استمر حكم الشيطان وسيطرة المسيح الدجال، ما يحتم حدوث معركة نهائية في هرمجدون (سهل مجدو في فلسطين) وعودة المسيح. ويعتقدون أن دور الكنيسة المسيحية لن يكون أساسياً مثل الدور الذي ستعلبه إسرائيل في المرحلة الأخيرة من التاريخ. فإسرائيل هي التي ستظهر كقوة عسكرية وتهزم القوة الشيطانية الشمالية (وهي في عرفهم الاتحاد السوڤياتي) قبل المجيء الثاني للمسيح (انظر حزقيال الإصحاحين 38 و39) وسيعود المسيح عندئذ ليقيم مملكة سلام تستمر ألف عام[2]. ومن المدهش إصرار «الألفيين على عقيدتهم رغم انهيار الاتحاد السوڤياتي بعوامل داخلية وخارجية دون أن يكون ذلك الانهيار ناجماً عن القوة العسكرية الإسرائيلية، واستمرارهم في الأصرار على أن إسرائيل هي التطبيق للنبوءات

(1) المصدر السابق، ص52.

(2) الحرب بين الكنائس الأميركية والعربية، مصدر سبق ذكره، ص55 ـ 56.

التوراتية، وأن دعمها يتماشى مع الرغبة السماوية للتعجيل بالمجيء الثاني للمسيح ولبداية حكمه على الأرض لمدة ألف عام.

جوهر العقيدة «الألفية»

أدت الافتراضات التأويلية لرؤيا اللاهوتي يوحنا الرمزية لظهور ثلاثة مواقف متمايزة تمايزاً أساسياً بالنسبة إلى اعتقاد «العقيدة الألفية». «فالسابقية» هم القائلون بأن عودة المسيح شخصياً إلى الأرض سابقة على إقامة الملكوت الذي سيحكمه بنفسه لمدة ألف سنة يعلن فيها الإنجيل على الخلائق كلها. أما «اللاحقية» فيقولون إن عودة المسيح لإقامة ملكوت لاحقة لإعلان الإنجيل على الخلائق كلها. لم تزل هذه النظرية التقليدية المتعارفة لدى معظم الإنجيليين الغربيين منذ الإصلاح البروتستانتي، ولكنها قد بدأت تتراجع أمام السابقية في السنوات القليلة الماضية. أما الموقف الثالث، وهو «اللاألفية» فيتأول العقيدة الألفية تأولاً رمزياً ولا يقبل بالتأويل الحرفي[1]. ولقد جارى لوثر وكالفن الكاثوليك في محاربة عقيدة «الألفيين»[2].

وينقسم السابقيون إلى مذهبين متميزين، فأما «السابقية التاريخية» فيزعمون أن عودة المسيح وإقامة الملكوت الألفي إنما هو موقف تاريخي في المسيحية ويستشهدون بارنياوس ويوستينوس الشهيد وغيرهما ممن قالوا هذا القول. وأما «السابقية المستقبلية» أو «القدرية»، فهو مذهب محدث برز أصلاً في القرن التاسع عشر بأعمال جون نيلسون داربي وس. أي سكوفيلد، وكثير غيرهما. وقد تطورت عقيدة «الصهيونية المسيحية» الأصولية الحديثة في كنف المذهب المستقبلي من السابقية، وإن كان ثمة نفر غير قليل ممن يجتازون إلى الصف التاريخي وغيره من المذاهب الإنجيلية[3].

---

(1) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص13.
(2) شفيق مقار مصدر سبق ذكره، ص89، اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص205.
(3) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص13.

المسيح الدجال: يعتقد دعاة القدرية السابقية أن التاريخ سيتزايد فساده المتسارع حتى يحكم «المسيح الدجال» العالم. وهذه الفكرة مستلهمة من سفر دانيال 9، وتشير إلى تجل جديد للشيطان الذي سيحاول أن يحكم العالم بواسطة حكومة عالمية واحدة ربما اعتبرت الأمم المتحدة عند بعضهم أو حلف شمال، الأطلسي عند بعضهم الآخر، إلى ما هنالك. وقد استجرَّت هذه الصيغة من عقيدة المسيح الدجال الكثير من التفكير على مدى التاريخ. وقد اقترح بعض المفكرين المحدثين عدداً من الأسماء لهذه الشخصية، ومنهم البابا، لينين، هتلر، الخميني. ويذهب دعاة السابقية في تأويلهم للرؤيا 16/16 إلى أن المسيح الدجال سيقضى عليه في معركة هرمجدون[1].

الشدائد وآخر أيام التاريخ: ومع فساد الحياة على الأرض يأتي زمن الشدائد، أو حكم الإرهاب الذي ينزله المسيح الدجال بكل من لا ينقادون لطاعته. ويؤدي توقيت زمن الشدائد إلى تفرق المذاهب بين قائل باختطاف الكنيسة من التاريخ قبل زمن الشدائد أو بعده أو إبانه. ويستشهد السابقيون بدانيال 7 و9 والرسالة الأولى إلى التسالونيكيين 4 ـ 5 والرؤيا 6 ـ 20 في معرض احتجاجهم بالأصول الكتابية على دعواهم. ولكن على الرغم من حجج المفكرين السابقين من أمثال هال ليندزي وجون والفورد، فإن غالبية علماء الكتاب المقدس لا يجدون إلا أدلة غير كافية لهذه العقائد في الكتاب المقدس وأدلة أضعف منها في تاريخ المسيحية[2].

وفيما يتعلق بنظريات الملك الألفي السعيد، فقد افترقت النظريات هذه في التحليل، وانقسم المسيحيون إلى أربع فرق: **الأولى**: نظرية القبل ألفين التاريخية (سابقو العصر الألفي)[3].

الثانية: القبل ألفين (الحقبية)[4]. وهذه النظرية لم تضع خطاً فاصلاً بين

(1) المصدر السابق، ص13 ـ 14.
(2) المصدر السابق، ص14.
(3) اكرام لمعي، مصدر سبق ذكره، ص186 ـ 192.
(4) المصدر السابق، ص192 ـ 196.

التفسير الحرفي والتفسير الرمزي[1]. وقد سبق تفصيل هذه النظرية من قبل[2]. فلا داعي للتفصيل مجدداً. النظرية **الثالثة**: التفسير الروحي للحكم الألفي (لاحقو الملك الألفي البعد ألفين»[3]. النظرية **الرابعة**: رافضو الملك الألفي[4]. وكما تضاربت الآراء في هذه النظريات، فقد تضاربت النصوص حول «اليوم الأخير» هرمجدون. من ذلك أن ما ورد في رؤيا يوحنا اللاهوتي 16/ 14 و16 هو غير ما ورد في يشوع (12/ 21) وزكريا (12/ 11). ونقرأ في يوئيل (3/ 2 و12) أن الله سيجمع جميع الأمم (وليس جوج ومأجوج فقط) من كل ناحية إلى وادي يهوشافاط لأنه سيجلس هناك ويحاكمهم حيث تكون المحاكمة. (يوئيل 3/ 14). ونقرأ في حزقيال (38/ 2 و15) ذكر جوج من أرض ماجوج، بينما نقرأ في رؤيا يوحنا (20/ 8) «جوج ومأجوج». وتقرأ في (أخبار الأيام الأول) أن جوج حفيد يوئيل من سبط رأوبين (5/ 4. وفي سفر حزقيال (38 و39) على أنه أمير روش ماشك وتوبال. وورد في سفر التكوين (10/ 1 ـ 2) أن مأجوج ابن يافث. وفي أخبار الأيام الأول أنه ابن يافث حفيد نوح (1/ 5) بينما عند حزقيال «جوج أرض ماجوج» (38/ 1 ـ 2.

ومن المثير للتساؤل أن الدارسين لم يعطوا تفسيراً لهذا التضارب، وانحصر تفسير بعضهم بقوى الشر التي ستخوض المعركة الفاصلة مع قوى الخير، تلك المعركة المسماة معركة هرمجدون، والتي ستكون محصلتها النهائية اندحار قوى الشر وحلول الملك الألفي السعيد.

المحاولات المعاصرة لتطبيق الماضي على الحاضر والمستقبل ـ التدبيرية

تنتشر في الولايات المتحدة الأميركية جماعات بروتستانتية منضوية أساساً

(1) المصدر السابق، ص196 ـ 197.
(2) المصدر السابق، ص197 ـ 199.
(3) المصدر السابق، ص200 ـ 204.
(4) المصدر السابق، ص204 ـ 208.

في كنيسة كبيرة هي الكنيسة التدبيرية (دسبنسيشناليزم)، وجماعات هذه الكنيسة تأخذ بعقيدة التفسير الحرفي للتوراة، وتسمي نفسها جماعة «الصهيونيين المسيحيين». ويعتقد هؤلاء أن العد العكسي السابق «للمملكة الألفية» قد بدأ بتأسيس دولة إسرائيل، وتلاه ضم القدس الشرقية، وسيتبع ذلك بناء «الهيكل الثالث» في القدس. ويجادل كثيرون منهم بأن المسيح الآتي لتأسيس «المملكة الألفية» ستسبق مجيئه اضطرابات وحروب في إسرائيل والأراضي المحتلة. وتلي هذه الاضطرابات وتلك الحروب «معركة هرمجدون» (رؤيا يوحنا 16/ 16)، وهي بزعمهم معركة يتم فيها استخدام الأسلحة النووية ودمار القوة السوفياتية، ولما كانت هذه الأحداث مذكورة في نبوءة التوراة، فإنها تشكل خطة الله للتاريخ البشري. وأنه بالتالي لا يمكن لأية معاهدة تحظر انتشار الأسلحة النووية أن تحول دون حرب نووية وفق بداية العد العكسي في التدبير الإلهي لنشوب معركة هرمجدون. «وأشد الكوارث قتلاً في هذا الاضطراب ستحدث في الشرق الأوسط. ويتنبأ جيري فولول وغيره من المبشرين بهرمجدون، بأن الجيوش السوفياتية والأوروبية والإيرانية والعربية والأفريقية والصينية ستجتاح إسرائيل، ومع أن ملايين اليهود سيموتون فإن بقية منهم ستنجو وتقبل يسوع المسيح رباً».

«هذه الأحداث التي ستكون خاتمة للعصر القائم هي تمهيد ضروري للمجيء الثاني ليسوع المسيح. وقبل أن يصل الجنس البشري إلى مرحلة التدمير الذاتي، سيعود يسوع بجيش من القديسين ليدمر قوى المسيح الدجال ـ عدو الله الأكبر ـ في معركة هرمجدون. وسينتهي الاضطراب ببزوغ فجر السنوات الألف، وهي حقبة من ألف سنة من السلام تحكمها «نخبة روحانية» من «المسيحيين المتجددين».

ومن الأشخاص الذين يبدو أنهم اعتنقوا هذه الرؤيا للتاريخ، الرئيس رونالد ريغان. ويتكهن عدد من اللاهوتيين بأن أناساً مثل ريغان تقبلوا هذه العقيدة لأنها تمدهم بالجانب اللاهوتي لقناعاتهم الاستراتيجية التي تؤكد أنه

يمكن «كسب» حرب ذرية، ورغم أن العلماء يؤكدون العكس، فلا أحد من الحرفيين يساوي الحرب الذرية بزوال البشرية. على العكس فكثير منهم يتطلع إليها بشوق جامح.

وقد انتقد كثير من الزعماء الدينيين الكبار في الولايات المتحدة هذه الرؤيا انتقاداً شديداً. فأسقف ديترويت الكاثوليكي توماس غمبلتون مثلاً، تحدى هذه العقائد بقوله: «إنها تنتهك الحقيقة العظمى في تراثنا الروحي اليهودي ـ المسيحي، وهي أن الله يريد الحياة لا الدمار للبشرية»[1].

تقول هذه الخرافة اللاهوتية المسماة هرمجدون»: «إن العصر الحالي محكوم بالشيطان، وإن الوقت قد اقترب عند نهاية العالم حينما تغزو جيوش السوڤييت وإيران والعرب والأفارقة والصين دولة إسرائيل. وستباد جيوش الغزاة بواسطة قنبلة ذرية. وسيموت الملايين من الإسرائيليين. أما المتبقي منهم فإنه سيتم إنقاذه لكي يقبل يسوع كمسيح له». وطبقاً لهذه النظرية، «فإن المؤمنين بالمسيحية والمتنصرين من اليهود، سوف يتم رفعهم جسدياً من على الأرض، ليتوحدوا في السماء مع المسيح، ثم سيعود المسيح إلى الأرض بجيش من القديسين لمعاقبة غير المؤمنين، وتحطيم القوى المعادية له في معركة الخير والشر المسماة هرمجدون الواقعة في سهل المجدل (الأصح مجدو) في فلسطين. وستنتهي هذه المحنة بقبول اليهود للمسيح كمنقذ لهم، وبزوغ فجر عصر الألف عام السعيد تحت حكم المسيح»[2].

هذه التأويلات لا أثر لها في اللاهوت اليهودي الديني، ذلك أن اليهود لا يؤمنون بالمجيء الأول للمسيح، ومن المعروف أنهم أنكروه ولا يزالون. هذا من جهة، ومن جهة ثانية من المفترض تهاوي هذه التأويلات بعد انهيار الاتحاد السوڤياتي، وبعد إبرام اتفاقيات كامب ديفيد وأسلو والعقبة بين أنظمة

(1) الحرب بين الكنائس.. مصدر سبق ذكره، ص17 ـ 19.

(2) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص172.

عربية وإسرائيل. فهذه الأحداث وغيرها تلغي هذه التأويلات التعسفية. ومن اللافت للنظر أن المؤمنين بهذه التأويلات لا يزالون ـ رغم ذلك ـ على إيمانهم. وها هو القس الأميركي جيري فولول المشهور يقرر أن حزقيال تنبأ قبل 2600 سنة بقيام أمة شريرة إلى الشمال من فلسطين قبيل موعد المجيء الثاني للمسيح. وقال: «إننا نقرأ في الإصحاحين 38 و39 من سفر حزقيال أن تلك الأمة سيكون اسمها «روش» مكتوب هذا في الآية 2 من الإصحاح 38 من سفر حزقيال من الكتاب المقدس، بالحرف «روش»، بل وإن حزقيال يحدد بالاسم مدينتين من مدن «روش» هما ماشك وتوبال. وكل هذا في الآية 2 من الإصحاح 38 والإسمان قريبان للغاية من اسمي موسكو وتبلسك. ماشك ـ موسكو، وتوبال ـ تبلسك. وكلتا المدينتين من المدن العاصمية الرئيسية في روسيا اليوم. وقد ذكر حزقيال في الآية 3، أن تلك الأمة ستكون معادية لله، ولذا فإن الله سيعاديها. وقال حزقيال أيضاً إن روسيا، أو روش ستغزو إسرائيل في آخر الأيام، وذلك في الآية 8، ثم قال إن ذلك الغزو سيكون بمساعدة حلفاء روش، وذلك في الآيتين 5 و6، وحدد أولئك الحلفاء بالاسم: إيران (التي كنا نسميها فيما مضى فارس) وجنوب أفريقيا أو الحبشة، وشمال أفريقيا أو ليبيا، وأوروبا الشرقية (المدعوة بجومر هنا في حزقيال 38) وقوازق جنوب روسيا واسمهم في ذلك الإصحاح توجرمه».

فالقس فولول منطلق على هواه لا يعوقه شيء، حتى الكتاب الذي يستشهد بالآيات منه. لأن «روش» لا تعني روسيا، بل تعني «رأس» أو «رئيس»، وماشك وتوبال لا تعنيان موسكو وتبلسك، بل هما اسمان وردا في سفر التكوين لاثنين من أبناء يافث، وكذلك «جومر» لا تعني أوروبا الشرقية، فماشك وتوبال وجومر وماجوج من أسماء بني يافث (تكوين 10/2)، وأسماء أقوام سكنت آسية الصغرى. لكن القس جيري فولول قرّر أنها كلها أسماء أماكن معاصرة، روسيا، وموسكو وتبلسك وأوروبا الشرقية، تنبأ حزقيال بأنها ستهاجم إسرائيل مع حلفائها الأشرار إيران، ليبيا، والحبشة، أو جنوب

أفريقيا. وأخذ ذلك الاعتقاد عنه ـ مع استبعاد جنوب أفريقيا ـ الرئيس الأميركي المولود ثانية رونالد ريغان[1].

غير أن اجتهادات فولول تضاربت مع اجتهادات القس بات روبرتسون. ففي حين أكد جيري فولول أن «روش» هي روسيا، رأى بات روبرتسون أن «روش» هي الحبشة، أما روسيا فهي جوج وماجوج. وفي حين أكد جيري فولول أن «جومر» هي أوروبا الشرقية، أكد بات روبرتسون أن «جومر» هي اليمن الجنوبية. وفي حين أكد فولول أن «توجرمه» هم القوزاق، أكد روبرتسون أنهم الأرمن، وأن اسمهم التوراتي «بث توجرمه». أما ليبيا فأطلق عليها روبرتسون اسم «بوت». وبكل تأكيد، لم تعرف ليبيا في أي وقت باسم «بوت»[2].

لقد أسقطت الوقائع غالبية الافتراضات التنبؤية لا بل جميعها التي استند عليها المفسرون والمؤولون المعاصرون الذين تنبأوا بهزيمة روسيا استناداً في قراءاتهم لحزقيال (38 و39) «جوج وماجوج»، ودانيال (9) وسفر الرؤيا[3]. فروسيا انهار نظامها الشيوعي تلقائياً دون حدوث معركة هرمجدون، وانحاز نظامها الجديد إلى إسرائيل بتسهيل هجرة اليهود منها إلى إسرائيل، وكذلك الأمر بالنسبة لأوروبا الشرقية. ونظام مانغستو هيلامريام انهار في الحبشة، وتم تهجير «الفلاشا» إلى فلسطين. كما أن علامات المجيء الثاني التي رددها كثيرون من المعاصرين من أمثال القس هال ليندسي، في كتابه الشهير «كوكب الأرض العظيم الراحل» الصادر عام 1970 لم تثبت صحتها. ويعتقد بعض الباحثين أن هرمجدون الورادة في سفر الرؤيا، ليست إلا أحداثاً خاصة بموت المسيح، وبعث وتدمير معبد القدس في عام 70م. كما يرى آخرون في هرمجدون أنها مثال تصويري للصراع الروحي بين الخير والشر[4].

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص396 ـ 397.
(2) المصدر السابق، ص397.
(3) ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية، مصدر سبق ذكره، ص24.
(4) يوسف الحسن، مصدر سبق ذكره، ص175.

وفي حين يعتقد المسيحيون بأن يسوع المسيح الذي تضمنت الأناجيل تاريخه وتعالميه في «العهد الجديد» هو المسيح الذي بشرت بمجيئه نبوءات العهد القديم، يرفض اليهود ذلك ويتمسكون بأن المسيح الموعود لم يأت بعد مستندين إلى نصوص توراتية (حزقيال 39/ 38)، (إشعيا 60/ 11 و12) (حزقيال 38/ 15 و16 و18 ـ 23)، (إشعيا 11/ 15 و16)، (زكريا 14/ 3 و4 و8)، (إشعيا 2/ 4)، (زكريا 14/ 9). وبما أن نبوءات هؤلاء الأنبياء لم تتحقق حتى عصر الهيكل الثاني، يتعين انتظار المسيح الموعود ليقود جيش «أبناء النور» ضد جيش «أبناء الظلمة»، أي ضد جيش جوج والشعوب الشريرة المعادية للشعب المختار، ويُمحق فيه أبناء الظلام وتتحقق النبوءات ويبدأ العصر الألفي السعيد الذي تحكم فيه صهيون كل الأمم، والنتيجة التي لا مهرب منها لكل ذلك هي أن الناصري يسوع ادعى باطلاً أنه «مسيح الرب»[1].

يبدو مما تقدم جملة من الحقائق حول المغالطات الشائعة لدى جمهور كبير من المسيحيين في الغرب في تأويلات تعسفية للنبوءات ولرؤيا يوحنا، فإضافة إلى ظهور تضاربات في التأويل، تبدو مجافاة الأحداث لافتراضات التأويل، خاصة ما يتعلق منها بإقحام السياسة في اللاهوت المسيحي، وفي محاولات عبثية للتوفيق والتلفيق بين شخصيتين متباعدتين كل البعد هما مسيح المسيحيين ومسيح اليهود. فمسيح المسيحيين أتى ومسيح اليهود لم يأت بعد. ومن الواضح أن المضايقات التي واجهها اليهود أيام الأسر البابلي، وأيام حكم اليونان والرومان، كانت الباعث على صدور النبوءات لتقوية العزائم بأن الخلاص بقدرة إلهية أمر حتمي. ومن الافتراضات التأويلية التعسفية المنتشرة في الغرب أن قيام دولة إسرائيل ومن ثم توحيد القدس مؤشرات على اقتراب المجيء الثاني للمسيح، الذي سيتبعه ـ بعد تشييد الهيكل الثالث ـ حصول معركة هرمجدون التي سيعقبها حكم المسيح على الأرض مدة ألف عام، ومع نهاية هذه المدة تكون نهاية العالم.

---

(1) شفيق مقار، مصدر سبق ذكره، ص57 ـ 60.

من المؤكد أن مصدر هذه الافتراضات بشكل رئيسي سفر دانيال بالعهد القديم، وسفر رؤيا يوحنا الذي أضيف إلى العهد الجديد. وسفر دانيال بما تضمن من رؤى وآمال بالخلاص كان الباعث على سبكها، معاناة اليهود على يد خلفاء الإسكندر السلوقيين، ورؤى يوحنا وآمال بالخلاص، كان الباعث على وضعها معاناة اليهود على يد الرومان. ومن الثابت أن يوحنا استقى رؤياه من العهد القديم خاصة من سفري دانيال وحزقيال. ومجمل هذه الرؤى ناجمة عن اضطهاد اليهود، وباعثة على إحياء الأمل بالخلاص بقدرة إلهية. ولقد أفسحت هذه الرؤى بأسلوبها الرمزي المجال الواسع للتخيلات الجامحة والافتراضات العشوائية التي من بينها أنها تنطبق على الزمن الحاضر. ولقد شكلت رؤيا يوحنا جسراً بين العهدين: القديم والجديد.

دور يوحنا اللاهوتي في عبرنة المسيحية

منذ بداية الرؤيا تظهر عبرانية يوحنا رغم ادعائه لنفسه صفة المبعوث من المسيح إلى «الكنائس السبع في آسيا»، وبتلك الصفة وجّه رسائل ـ اقتداءً ببولس ـ، وفكرة المسيح عنده مؤطرة بإطار شمعدان «المينورا» اليهودي. «ولما التفت رأيت سبع منائر من ذهب وفي وسط السبع منابر شبه ابن إنسان متسربلاً بثوب إلى الرجلين» (رؤيا 1/ 12)، و«هذا يقوله الممسك السبعة كواكب في يمينه الماشي في وسط السبع منابر الذهبية» (2/ 1). ورغم أن اللاهوتي عني بالقول بأن «شبه ابن الإنسان» الذي رآه فُسّر له «سر السبعة كواكب التي رأيت عن يميني والسبع منابر الذهبية (بقوله): السبعة كواكب هي ملائكة الكنائس السبع، والمنابر السبع التي رأيتها هي السبع كنائس» (1/ 20)، فإنه من الواضح تماماً أن «المنابر السبع التي من ذهب» هي «المنارة التي من ذهب نقي» التي قال موسى إن يهوه أمره بأن يصنعها من سبع شعب» (خروج 25/ 31 ـ 40)، وصنعها بعلئيل طبقاً للتصميم الذي أعطاه يهوه لموسى في الجبل (خروج 37/ 17 ـ 24)، وتلك المنارة أو «المينورا» ذات الأفرع السبعة (منابر يوحنا اللاهوتي الذهبية السبع)، قد تبدو كما لو كانت مجرد رمز من

رموز اليهود الشعائرية لكنها: «رمز ذو مغزى كوني فهي تمثل الأنوار التي في جلد السماء، (أو الكواكب السبع)، أو (نظراً لأن عدد شمعدانات المينورا ذات الأفرع السبعة، في الهيكل كان عشرة) الأمم السبعين»[1].

فالرمزية الموحى بها في «المناير السبع الذهبية» في رؤيا اللاهوتي، رمزية يهودية صرف، وفي الوقت ذاته رمزية مسيحانية، لكنها لا ترمز إلى «المسيح» الناصري، بل إلى المسيح المحارب الذي ينتظر اليهود مجيئه: فالمينورا «هي تحديداً ما يمكننا التحدث عنه متى شئنا أن نتحدث عن الرمزية اليهودية من حيث إن الرمزية اليهودية تتسيدها المينورا ذات الأفرع السبعة، التي تشكل ـ أكثر مما يشكل أي رمز آخر ـ الرمز اليهودي الأعظم أصالة والأكثر شيوعاً».

ورؤيا اللاهوتي تنتمي أصلاً إلى نوع أدبي/ ديني لا خلاف على يهوديته ذي طبيعة تلفيقية قائمة على الاجتهاد في التوفيق بين معتقدات دينية متنافرة مستمدة من أصول ثقافية مختلفة، وقد ظهر ذلك النوع، أول ما ظهر، في غمار خبرة السبي الرضية. واتجه إلى إدماج أفكار «الحكمة اليهودية» المأخوذة من مصر، والرؤى النبوئية التي درج العرافون والكتبة اليهود «النبيّون» على استخدامها في إحكام قبضة الطبقة الكهنوتية على أعناق «الشعب في ظل معتقدات دينية، أخذت من مصر وبابل وفارس[2].

والملاحظ أن جهوداً كثيرا بذلت لتأصل ذلك النوع من التأليف الأدبي/ الديني يهودياً. غير أن طبيعته التلفيقية ـ التي أقحمت على الفكر الديني اليهودي أفكاراً غريبة عنه دخيلة عليه لا أصل لها فيه عن عالم آخر، لم ترق اليهودية إلى التفكير في وجوده أصلاً ـ أدت إلى إحباط كل تلك الغريبة. وبذلك ظلت انبثاقات الرؤى النبوئية عن الأخرويات أشبه بأعراض حمى في

---

(1) المصدر السابق، ص228 ـ 229.

(2) المصدر السابق، ص230.

الروح لم تجد الروح مهرباً من عذابها إلا في أحلام «الخلاص» التي تتداول بها عن طريق التطلع إلى تدخل سماوي على مستوى كوني يضع نهاية لتاريخ معاكس مليء بالإحباط والضياع ويبدأ تاريخاً جديداً يحكم الإله العالم فيه حكماً مباشراً كملك أرضي ليمنع تكرار ما سبق من شرور ومظالم.

وقد ظل الإسهام اليهودي الأصيل الوحيد في تلك العملية التلفيقية التي أفرخت الرؤى النبوئية عن «آخر الزمان» و«الخلاص»، و«السماء الجديدة والأرض الجديدة» من خلال التدخل السماوي لصالح المختارين الصالحين ضد الأشرار الظالمين، قاصراً على المبدأين الأساسيين اللذين رُسِّخا في جذور الديانة اليهودية، إذ دقهما موسى وكهنته في أدمغة «الشعب» دقا متواصلاً ولحوحاً وهما: أن يهوه يذود عن «شعبه» ويحارب عنه طالما عبده «الشعب» واتبع وصاياه وامتنع عن مناهيه، وأن يهوه إلٰه/ ملك. أما كل ما زاد على ذلك عن «عالم آخر» وحياة بعد الموت، وأمل في البعث، فكلها دخيل على اليهودية. ولا غرو إن استُبعد من العهد القديم سفر كسفر أخنوخ الذي نلمس تأثيره واضحاً في رؤيا يوحنا اللاهوتي، وغير ذلك من أسفار «أخروية». لقد كان الغرض من التأليف الرؤيوي هو التلويح بأمل سوف يحدث مستقبلاً لشعب تتحلقه المتاعب وضروب الشقاء. فالمؤلفات الرؤيوية وضعت في أوقات أزمات وأزمنة شدائد لإعطاء أمل بقرب تدخل يهوه لصالح شعبه. وكان وضع يوحنا اللاهوتي مؤلفه الرؤيوي في أشد أوقات المصاعب تأزماً في تاريخ اليهود إبان خوض روما الحرب للقضاء على التمرد اليهودي[1].

إنه لممّا لا يدع مجالاً للشك أن رؤيا يوحنا اللاهوتي عبرانية الطابع، وتظهر بصمات العهد القديم فيها واضحة كل الوضوح. فمن سقوط بابل (8/14)، ويوحنا لم يعاصر ذلك السقوط، ولقد ذكر بابل وهو يقصد روما،

(1) المصدر السابق، ص230 ـ 232.

مذكراً بالخلاص الذي حصل لليهود على يد كورش من الأسر البابلي، وحمل إشعيا على اعتباره مسيحاً (45/ 1)، والهدف من التذكير بعث الأمل بخلاص اليهود من روما كما حصل في خلاصهم من البابليين، إلى إيراده تعابير توراتية متعددة «أن يأكل من المن» (2/ 17)، «يا شعبي» (18/ 4)، «وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم إلٰهاً لهم» (21/ 3)، (وهذه التعابير تذكرنا بالشعب المختار)، «جوج وماجوج» (20/ 8)، «مفتاح داود» (3/ 7)، «هوذا قد غلب الأسد الذي من سبط يهوذا أصل داود» (5/ 5)، «فجمعهم إلى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدون» (16/ 16)، «وإذا قد انفتح هيكل خيمة الشهادة» (15/ 5)، «وظهر تابوت عهده في هيكله» (11/ 19)، «متمسكين بتعليم بلعام» (2/ 14)، «تدعى روحيا سدوم» (11/ 8)، «وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً» (12/ 1) والعدد 12 هو عدد أسباط بني إسرائيل، «الفداء بالدم» (7/ 14)، «صوت بوق» (1/ 10). ومثل هذه التعابير قد نجد ميثلاتها في العهد القديم. من ذلك: «تابوت العهد» (خروج 25/ 10)، «جوج ماجوج» (حزقيال 38/ 1 ـ 2)، «جوج ماجوج» (حزقيال 39/ 1 و6)، «ماجوج» (تكوين 10/ 2)، «ماجوج» (أخبار الأيام الأول 1/ 5)، «الفداء بالدم» (لاويين 17/ 11) و«خروج 24/ 6 ـ 8). ومع ذلك لم تغب كلياً مضامين مسيحية، ولكنها غير صافية. في الرؤية التي رأى يوحنا بها «المسيح» «شبه ابن إنسان متسربلاً بثوب إلى الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب. وأما رأسه وشعره فأبيضان كالصوف الأبيض كالثلج وعيناه كلهيب نار، ورجلاه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون» (1/ 13 ـ 15). وهذه كلها مستعارة من حزقيال ودانيال، وقد أضاف اللاهوتي إليها سيفاً «وسيف ماض ذو حدين يخرج من فمه (1/ 16). وترد في مواضع أخرى تسميات مسيحية، لكنها لا تتطابق مع صفات المسيح: «ابن الله الذي له عينان كلهيب نار ورجلاه مثل النحاس النقي» (2/ 18) «الذي له سبعة أرواح الله والسبعة كواكب» (3/ 1)، «القدوس الحق الذي له مفتاح داود الذي يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح» (3/ 7)،

«الأسد الذي من سبط يهوذا أصل داود» (5/5)، «خروف قائم كأنه مذبوح له سبعة قرون وسبع أعين هي سبعة أرواح الله المرسلة إلى كل الأرض.. وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش.. ربوات ربوات وألوف ألوف قائلين بصوت عظيم مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة. وكل خليقة مما في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة: للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين» (5/ 6 و11 ـ 13).

بعض هذه التسميات مثل «ابن الإنسان»، و«ابن الله» و«الخروف» الواردة في رؤيا يوحنا اللاهوتي، يمكن أن تعتبر إشارات إلى الناصري، حيث إنه دعي بها واستخدم هو بعضها، وبخاصة «ابن الإنسان» في الإشارة إلى نفسه. غير أن الناصري لم يوصف ـ وهو الذي يطالعنا من صفحات العهد الجديد وديعاً صبوراً ومحباً ـ بأن «عينيه كلهيب نار»، أو بأنّ «رجليه شبه النحاس النقي كأنهما محميتان في أتون»، أو بأن له «سبعة قرون وسبع أعين»، أو بأنه «ممسك بسبعة كواكب في يمينه» أو بأنه يحمل «سيفاً ذا حدين»، كما وصفه اللاهوتي. فكل هذه تهاويل مسيحانية تشير إلى أن من «رآه» اللاهوتي كائناً محارباً ضارباً كأسد، مسحور له سبعة قرون وسبع أعين، وصاحب سيف ذي حدين. ولعل أوضح مفتاح يمكننا العثور عليه بين ركام رموز اللاهوتي وتلغيزاته، مفتاح يزودنا به ذلك «السيف ذو الحدين» وتحدده لنا تلك «الكواكب السبعة التي في يمينه».

فالسيف لم يرد له ذكر في حكاية الناصري كلها إلا في قوله: «أنا لم آت لألقي سلاماً بل سيفاً» بمعنى أن لم آت لأهادن في «تكميل الناموس» بل لأحارب في سبيل ذلك بدعوتي. غير أن مجمل الرؤيا يشير إلى أن يوحنا عندما يتحدث عن «ذلك الذي له السيف الماضي ذو الحدين» (2/ 12) يحكي عن السيف الذي ارتبط بالإله المحارب يهوه، رب الجنود، ورجل الحرب،

والذي تقول الرؤى المسيحانية إن يهوه سيسلمه لا «مسيحه» الذي وعد اليهود به ليقود جيوشه في مذبحة الأمم التي سيقام من خلالها ملك صهيون على كل الأرض. ولقد كان من أهم أسباب رفض اليهود للناصري واستخفافهم به أنه من مبدأ الأمر قال: «طوبى لصانعي السلام» (متى 5/ 9)، ولم يقل مجداً لصانعي الحرب[1]. وهكذا تبدو مسيحية يوحنا اللاهوتي في رؤياه مشوبة باليهودية مستلهمة من التوراة.

الاستلهامات التوراتية

يتضح للمدقق في رؤيا يوحنا اللاهوتي أنها تحاكي في أسلوبها الرؤيوي وفي مضمونها وأهدافها رؤى كل من حزقيال ودانيال على الأخص. ويتأكد لنا ذلك من تطابق في المقارنات بين اللاهوتي وكل منهما. وكما أمل حزقيال بانبعاث صهيون بعد السبي البابلي وعودة اليهود إلى «أرض الميعاد»، وإعادة بناء الهيكل بمساندة يهوه لشعبه (حزقيال 36/ 35 و37/ 1 ـ 12). وهذا ما قرره بقوله: «هكذا قال السيد الرب. ها أنذا آخذ بني إسرائيل من بين الأمم التي ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتي بهم إلى أرضهم. . . فيكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلٰهاً» (37/ 21 ـ 23)، «لذلك هكذا قال السيد الرب الآن أرد سبي يعقوب وأرحم كل بيت إسرائيل وأغار على اسمي القدوس فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التي خانوني إياها عند سكنهم في أرضهم مطمئنين ولا مخيف. عند إرجاعي إياهم من الشعوب وجمعي إياهم من أراضي أعدائهم وتقديسي فيهم أمام عيون أمم كثيرين. يعلمون أني أنا الرب إلٰههم بإجلائي إياهم إلى الأمم ثم جمعهم إلى أرضهم. ولا أترك هنا أحداً منهم. ولا أحجب وجهي عنهم بعد لأني سبكت روحي على بيت إسرائيل يقول السيد الرب» (39/ 25 ـ 29)، وكذلك أمل يوحنا اللاهوتي الذي اقتفى خطى حزقيال في رؤيته بانبعاث صهيون بعد تدمير الرومان للهيكل الثاني، وتشتيتهم لليهود.

(1) المصدر السابق، ص258 ـ 260.

وقد سبقت الإشارة في مقارنات بين يوحنا وكل من دانيال وحزقيال أظهرت دليلاً على استلهام يوحنا من سفريهما.

وتخفي الرمزية عند دانيال ويوحنا سياسة أرضية متعلقة بالملك والسلطان والكهنوت أفصح عنها يوحنا اللاهوتي في الترنيمة الجماعية للخروف المذبوح (المسيح الذي «قطع» أي ذبح في رؤيا دانيال): «لأنك ذبحت واشتريتنا (فديتنا) لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة وجعلتنا لإلٰهنا ملوكاً وكهنة فسنملك الأرض» (سفر الرؤيا 5/ 9 و10). وبالوسع القول إن اللاهوتي استخدم رمز الخروف المذبوح (المأخوذ من دانيال) رمزاً للمسيح المسيحي الذي «ذبح» على الصليب ليفتدي المسيحيين بدمه تبعاً لما يعلم به العهد الجديد، لولا: أن اللاهوتي قال: «اشتريتنا بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة»، أي كان فداؤك لنا بوصفنا الشعب المختار الأخص من بين الشعوب وهو ادعاء بالخصوصية قاصر على اليهود وحدهم. ولولا: أنه قال «وجعلتنا لإلٰهنا ملوكاً وكهنة» أي جعلتنا مملكة كهنة وأمة مقدسة» وهو ادعاء لم يدّع به إلا كهنة اليهود لشعبهم، وقال «ولأنك اصطفيتنا شعباً أخص وجعلتنا أمة مقدسة) فسنملك الأرض»، وهو طموح للتسيد على العالم وامتلاكه لم يطمح إليه إلا اليهود. فرؤيا يوحنا اللاهوتي، على الرغم من كل آلهياتها وطوباوياتها، مفصحة في النهاية عن أنها يهودية المنابع، يهودية الروح والفكر، يهودية التوجهات، ومنبئة عن أن دوافع من «رآها» أرضية سياسية متعلقة بامتلاك العالم. وذلك كله، تحديداً، هو ما نطقت به الرؤى الواردة في سفر دانيال «والمملكة والسلطان وعظمة الملك تحت كل السماء تعطى لشعب قديسي العلي» (7/ 27)[1].

وفي حين ظل يهوه يسرد على دانيال تاريخاً سياسياً من الماضي ومن المستقبل على امتداد إصحاح بأكمله هو الإصحاح الحادي عشر والذي حاكاه

(1) المصدر السابق، ص237 ـ 241 و245 ـ 247.

فيه اللاهوتي برؤياه التي انبجست من الأوضاع السياسية المتأزمة نفسها لليهود التي نبع منها سفر دانيال. مع فرق واحد هو أن سفر دانيال بما ضمنه من رؤى دار حول صراع اليهود مع خلفاء الاسكندر السلوقيين، أما سفر اللاهوتي برؤياه فقد دار حول الصراع اليهودي مع الرومان. وفي كلتا الحالتين كان الصراع سياسياً مدخولاً بالدين، وفي المرتين كان صراعاً يهودياً مع الأغيار، فلا غرابة أن ينسخ اللاهوتي في رؤياه وصياغته ورمزيته عن رؤيا دانيال لتشابه الظروف التي حصلت فيها كلتا الرؤيتين[1].

استلهامات اللاهوتي من العهدين القديم والجديد

لم يتوقف يوحنا عند الغرف من رؤيتي دانيال وحزقيال، فلقد غرف في مواضع كثيرة من العهدين مقيماً تداخلاً بينهما. من ذلك ما نجده حول أرواح الشهداء وصرختهم (رؤيا 6/ 9 ـ 11) مقارنة بما ورد في متى (24/ 9 و10) و(مرقس 13/ 9 ـ 13) ولوقا (21/ 12 و18)، وما ورد في الرؤيا (6/ 12 ـ 14) حول الكون المهشم مقارنة مع ما ورد مع عاموس (8/ 8) وحزقيال (38/ 39) ويوئيل (2/ 10) وحجي (2/ 6) ومتى (24/ 7) وكلها إشارات للزلازل، وما ورد حول الظلام (رؤيا 6/ 12 ـ 14) بالمقارنة مع عاموس (8/ 9) وإشعيا (13/ 10) وإشعيا (5/ 30) وحزقيال (32/ 7) ويوئيل (2/ 31) ومتى (24/ 29) ومرقس (13/ 24) ولوقا (23/ 45)، وما ورد عن تساقط النجوم (رؤيا 6/ 12 ـ 14) بالمقارنة مع إشعيا (34/ 3) ومتى (24/ 29) وما ورد حول زمن الرعب (رؤيا 6/ 15 ـ 17) بالمقارنة مع إشعيا (13/ 6 و8) وصفنيا (1/ 14) ويوئيل (2/ 1) وميخا (1/ 1 ـ 4) وملاخي (3/ 1 ـ 3) وهوشع (10/ 8) ولوقا (23/ 30) وما ورد هول النجاة (رؤيا 7/ 1 ـ 3) بالمقارنة مع متى (24/ 31) ومرقس (13/ 27)، وما ورد حول ختم الله (رؤيا 7/ 4 ـ 8) بالمقارنة مع حزقيال (9/ 4) وحزقيال (2/ 3) و(مرقس (13/ 27).

---

(1) المصدر السابق، ص245.

غير أن مقارنة اللاهوتي بين العهدين تبدو غير متطابقة أحياناً، فالناجون عنده في معركة هرمجدون هم اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية من أسباط بني إسرائيل «وسمعت عدد المختونين مئة وأربعة وأربعين ألفاً مختومين من كل سبط من بني إسرائيل. .» (رؤيا 7/ 4)، بينما نجد أسباط إسرائيل في العهد الجديد هي غير ما قصده يوحنا. فالعهد الجديد يقول إن الكنيسة حلت محل إسرائيل، وإن «الأمة» الإسرائيلية قد فقدت كل حقوقها وامتيازاتها وإن الكنيسة قد كسبت كل تلك الحقوق والامتيازات «رومية 9/ 6 ـ 7)، (غلاطية 6/ 16)، (غلاطية 3/ 14)، (غلاطية 3/ 16)، (فيلبي 3/ 3). ومن الملاحظ أن هناك تبايناً في ذكر الأسباط الإثني عشر، إن من حيث الترتيب، وإن من حيث التبديل، وذلك بالمقارنة بين ذكر الأسباط في سفر التكوين (49/ 3 ـ 37)، وسفر العدد (1/ 20 ـ 47). وفي السفر الأخير استُبدل سبط لاوي بسبط منسى، ومن الملاحظ أيضاً إسقاط سبط دان في رؤيا يوحنا (7/ 4 ـ 8) واستبداله بسبط منسى. ويبقى أن نقول إن تأثر اللاهوتي يوحنا بالعهد القديم كان أكثر من تأثره بالعهد الجديد، ويعود إليه الفضل في إيجاد تواصل بين العهدين مع تمايز في الأسلوب الذي اتبعه القائم على رؤى تماماً كما هي الحال عند إشعيا وحزقيال ودانيال.

الخاتمة الأولى

من الواضح أن الباعث على اعتماد يوحنا الأسلوب الرمزي في رؤاه كان اضطهاد الرومان للمسيحيين، وهو مماثل لاضطهاد البابليين واليونانيين لليهود، في زمن حزقيال ودانيال، وفي ذلك اتقاء للعواقب. والباعث على رؤيا يوحنا هو الباعث نفسه على رؤيا كل من حزقيال ودانيال، والهدف من ذلك شد عزائم اليهود إبان المحن، وبعث الآمال بتجاوزها بقدرة إلٰهية، تعيدهم إلى «أرض الميعاد».

على الرغم من أن النبوءات التوراتية قد تحققت ولم تحدث نبوءة جديدة

بعد تدمير الهيكل الثاني على يد تيطس الروماني عام 70م، وعلى الرغم من أن الوعد التوراتي بأرض الميعاد كان مشروطاً، وقد خالف اليهود شروطه بخروجهم تكراراً على الوصايا والناموس، والشواهد التوراتية متعددة، ويمكن الاستدلال ببعضها في أسفار حزقيال 6/ 9) و(8/ 10 و36/ 17، 18 و9/ 9 و21/ 5) وفي أسفار هوشع (1/ 2 و4/ 12)، وفي أسفار آرميا (2/ 7 ـ 8، و3/ 12 و4/ 22 و16/ 11 و7/ 8) وأسفار (إشعيا 1/ 2، و57/ 3 و3/ 8 و3/ 16 ـ 25) وفي سفر ميخا (3/ 1 ـ 12) وفي سفر الخروج (15/ 11، 32، 25/ 1 ـ 5) وفي سفر التثنية 10/ 17). ولقاء ذلك كانوا ينالون عقاباً سماوياً، كما نجد ذلك في العديد من الأسفار التوراتية، وعلى سبيل ذلك ما نجده في سفر حزقيال (6/ 11، 7/ 2، 24، 16/ 41 ـ 42، 8/ 18، 23 ـ 47)، وفي سفر هوشع (9/ 15، 2/ 2 ـ 3، 4/ 14)، وفي سفر آرميا (27/ 6، 32/ 29 و11/ 22) ويقول آرميا صراحة إن اليهود نقضوا العهد الإلٰهي «قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدي الذي قطعته مع آبائهم. لذلك هكذا قال الرب هأنذا جالب عليهم شراً لا يستطيعون أن يخرجوا منه» (إشعيا 11/ 10). ويقول ميخا: «اسمعوا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوّجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالإجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب في وسطنا. لا يأتي علينا شر. لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خرباً وجبل البيت شوامخ وعر» (ميخا 3/ 9 ـ 12).

والوعد السماوي المعطى لإبراهيم ولذريته لم يكن خاصاً باليهود وحدهم وليسوا هم وحدهم نسل إبراهيم «فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم» (سفر التكوين 7/ 5)، «وأجعل نسلك كتراب الأرض» (تكوين 13/ 16)، «وابن الجارية (إسماعيل) سأجعله أمة لأنه نسلك» (تكوين 21/ 13)، «وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض»

(تكوين 12/ 3). ومن المؤكد أن اليهودية ديانة غير قائمة على نقاوة عرقية، وفي التوراة أدلة وافرة على حدوث زواج مختلط حتى بين الرموز اليهودية. (فمن زواج إبراهيم (تكوين 16/ 4) إلى زواج إسحاق (تكوين 25/ 20)، إلى زواج يعقوب تكوين 29/ 28 ـ 29)، إلى زواج موسى (خروج 2/ 21) إلى زواج (صموئيل الثاني 11/ 27) إلى زواج سليمان (الملوك الأول 21/ 1 ـ 3). وعلى نطاق أوسع ما وردت الإشارات إليه في سفر عزرا (الإصحاح 9 و10) وفي سفر نحميا (الإصحاح 13). ولقد استمر الزواج المختلط حتى يومنا هذا. وعدا عن ذلك فقد تهودت شعوب من عروق مختلفة باعتناقها الديانة اليهودية. ففي القرن الميلادي الأول انتشرت اليهودية في اليمن بعد تدمير بيت المقدس عام 70م على يد تيطس. «ولو تفحصنا أسماء اليهود المقيمين في الجزيرة لرأينا أن معظمهم أراميون وعرب متهودون وليسوا من ذرية إبراهيم الخليل. . . وآخر ملوك حمير وهو ذو نواس كان يهودياً. . . وإلى هذا تعزى مذبحة نصارى نجران في تشرين الأول سنة 523م»[1]. ومن المؤكد أن اليهود المعاصرين، وعلى الأخص الإشكنازيين الأوروبيين لا يمتون بأصلهم العرقي إلى إبراهيم وليسوا من العرق السامي[2]. وأنهم من الخزر الذين اتبعوا ملكهم بولان، عام 740م، في تحوله إلى اليهودية. ومن المغالطات المفضوحة ادعاء قادة الصهيونية الاشكنازيين أنهم ساميون، وأنهم من نسل إبراهيم رغم عرقهم الخزري[3]. وبالإضافة إلى ذلك فإن الميثاق السماوي مع إبراهيم مبني على إيمان إبراهيم وطاعته لربه، وليس مبنياً على أصل عرقي. «فإنه ليس بالناموس كان الوعد لإبراهيم أو لنسله وإرثاً للعالم بل ببر الإيمان. لأنه إن كان الذين من الناموس (اليهود) هم ورثة فقد تعطل الإيمان وبطل الوعد» (رسالة بولس

---

(1) فيليب حتي، أدورد جرجي، جبرائيل جبور، تاريخ العرب، مصدر سبق ذكره، ص81 ـ 82.

(2) Theodore Winaton Pike, Israel our Duty, our, Dilemma Oregen City, Big Sky press, 1988, P13.

(3) Ibid, P291-303.

إلى رومية 4/ 13 ـ 14)، «لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعاً أولاد. . . أي ليس أولاد الجسد أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً» (رومية 9/ 6 ـ 8)، «اعلموا أن الذين هم من الإيمان هم بنو إبراهيم» (غلاطية 3/ 7)، «فإن كنتم للمسيح فأنتم إذاً نسل إبراهيم وحسب الموعد ورثة» (غلاطية 3/ 29)، «لتصير بركة إبراهيم للأمم في المسيح يسوع لننال بالإيمان موعد الروح» (غلاطية 3/ 14). من هذا نفهم أن بركة إبراهيم لا تطال اليهود لأنهم لم يؤمنوا بالمسيح لتصير إليهم البركة، وهم ليسوا للمسيح، فلذلك هم ليسوا من نسل إبراهيم. وهم لم يعودوا بعد مجيء المسيح ـ كما يزعمون ويزعم الصهيونيون المسيحيون بأنهم «الشعب المختار». «لأن ليس عند الله محاباة» (رومية 2/ 11)، «لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً للجميع غنياً لجميع الذين يدعون به» (رومية 10/ 12). ومفهوم الاختيار كان روحانياً لحمل رسالة التوحيد كتلك التي حملها يونان إلى نينوى وليس تفضيل عرق على آخر. ومن المفارقات تعامي الصهيونيين المسيحيين في الغرب عن كل ذلك، وتعاميهم عن الموقف اليهودي العدائي من المسيح والمسيحية المستمر حتى يومنا هذا، ومناقضة نصوص العهد الجديد بتبرئة اليهود من صلب المسيح، ومن تعسفهم في تأويل قيام دولة إسرائيل المعاصرة بأنه تحقيق لنبوءات توراتية، واستمرارهم في اعتبار اليهود الشعب المختار رغم تنكر هذا الشعب للمسيح والإساءة إليه.

ومن ضمن هذه المفارقات أن أقطاب الصهيونية ليسوا متدينين أصلاً، وأن عودتهم تمت بالقوة وليس بمشيئة ربانية كما يزعم الصهاينة المسيحيون، ومن المعلوم أن بطاركة الصهيونية الأوائل لم يكونوا متدينين، ولقد اعتبر أب الحركة الصهيونية تيودور هرتسل أن الصهيونية عقيدة قومية لم تنشأ عن الديانة اليهودية، بل نشأت عن الحركات القومية الأوروبية التي ظهرت في القرن التاسع عشر. ولم يكن هرتسل يصدر في عمله هذا عن الدين، إذ قال: «إني لا أنقاد هنا إلى دافع ديني». وقال أيضاً: إن القضية اليهودية، بالنسبة إليّ،

ليست بقضية اجتماعية، ولا بقضية دينية: «إنها قضية قومية». والأمر الذي كان يهمه، لم يكن الأرض المقدسة: بل هو يقبل، في تحقيق أهدافه القومية، أوغندا أو طرابلس الغرب أو الأرجنتين، بلا تمييز[1]. ومن الواضح أن آباء الصهيونية سخروا الدين لأغراض سياسية محضة، وقد كان دافيد بن غوريون مثلاً باهراً في استغلال الدين بأسلوب منتظم، وفي عام 1956، أعلن في الكنيست، رغم إلحاده وتفاخره بتجاهل تعاليم الديانة اليهودية، ثالث أيام الحرب، أن السبب الحقيقي هو «إعادة مملكة داود وسليمان إلى حدودها التوراتية»[2].

ومن المؤكد أن ولادة الحركة الصهيونية لم تكن متأتية عن عامل ديني، إنها كانت ردة فعل على اللاسامية وعلى حركة التنوير اليهودية (هسكلاه) التي أنشأها في ألمانيا موشيه مندلسون (1729 ـ 1786). ومن المفارقات قيام علاقات وثيقة بين الصهاينة واللاساميين. فهرتسل ربط نفسه بالكونت فون بليهفي الوزير اللاسامي في حكومة القيصر نيقولا الثاني، وجابوتنسكي عقد ميثاقاً مع تيليورا القائد الأوكراني الذي نفذ مذابح قتل فيها مئة ألف يهودي بين عامي 1918 ـ 1921. والأنكى من ذلك الابتهاج الذي أبداه بعض القادة الصهاينة بصعود هتلر إلى السلطة، لأنه يشاركهم الاعتقاد بأولوية «العرق» وبمعارضته لاستيعاب اليهود ضمن العرق «الآري»، فهنأوا هتلر بمناسبة انتصاره على العدو المشترك: قوى الليبرالية[3]. وجرى تعاون وثيق بين الوكالة اليهودية ممثلة بالدكتور كستنر والنازية ممثلة بأيخمان خلال الحكم النازي بألمانيا[4]. ولم يكن الهدف الأساسي للصهاينة إنقاذ حيوات اليهود من أيدي

(1) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة حافظ الجمالي وصياح الجهيم، لبنان دار عطية للنشر، 1996، ص14 ـ 15.

(2) إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية، وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة صالح علي سوداح، بيروت، بيسان للنشر، 1995، ص19، 57.

(3) المصدر السابق، ص108 ـ 109.

(4) إيلان هاليفي، مصدر سبق ذكره، ص206 ـ 210.

النازيين، ولكنه كان خلق دولة يهودية في فلسطين، وقد أوضح ذلك بن غوريون يوم 7/ 12/ 1938 أمام القادة الصهاينة لحزب العمل «أنه لو كان يعرف أن من الممكن إنقاذ كل أطفال اليهود في ألمانيا بأخذهم إلى إنكلترا، أو إنقاذ نصف الأطفال بحملهم إلى أرض إسرائيل فإنه سيختار الحل الثاني. ذلك أن علينا أن لا أن نحسب حساب حياة هؤلاء الأطفال، بل علينا أيضاً أن نركز الاهتمام على تاريخ شعب إسرائيل»[1]. وعدا ذلك فكافة القادة الصهاينة الأوائل، بمن فيهم مؤسس الحركة الصهيونية لا يمتون بصلة إلى العرق السامي، وأنهم من العروق الخزرية، ولا صلة عرقية لهم بقدامى العبرانيين، وفوق كل ذلك ليسوا متدينين ولا يؤمنون بالنبوءات وتحقيق العودة إلى أرض الميعاد بقدرة إلهية. و«الخلاص» بالماضي كان يتم بقدرة إلهية «وأما بيت يهوذا فارحمهم وأخلصهم بالرب إلههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب وبخيل وفرسان» (هوشع 1/ 7)، وهو الشيء الذي لم يحصل الآن بقيام دولة إسرائيل كما يزعم الصهيونيون المسيحيون والأصوليون الحرفيون اليهود. ذلك ما عبّر عنه الدكتور يهوذا ماغنس، في خطاب افتتاح العام الدراسي بالجامعة العبرية في القدس عام 946 «إن الصوت اليهودي الجديد يتكلم عن طريق أفواه البنادق... إن هذا هو التوراة الجديدة لأرض إسرائيل. إن العالم قد اقتيد إلى الجنون والقوة المادية. وليحمنا الله من جر اليهودية وشعب إسرائيل إلى هذا الجنون. إن هذه يهودية وثنية قد غزت جزءاً كبيراً من قوت الشتات. وكنا قد فكرنا في زمن الصهيونية الرومانطيقية أن صهيون تستعاد بالاستقامة. إن كل يهود أميركا يحملون مسؤولية هذه الخطيئة، أو هذا التحول.. وكذلك أولئك الذين لا يتفقون في الرأي مع مناورات الإدارة الوثنية، ولكنهم يبقون هادئين في مقاعدهم لا يتحركون، إن خدر الحس الأخلاقي يؤدي إلى اختناقه»[2].

وخلافاً لمزاعم اليهود الأرثوذكسيين والصهيونيين المسيحيين لم تنشأ

---

(1) روجيه غارودي، مصدر سبق ذكره، ص67.

(2) المصدر السابق، ص20.

دولة إسرائيل المعاصرة بإرادة إلهية، ولم يكن قيامها تحقيقاً لنبوءة. إنها نشأت بدافع سياسي لا ديني. نشأت بتزواج مصالح بين البرجوازية اليهودية وبين التطلعات البريطانية الاستعمارية. تيودور هرتسل غير المتدين بنى الفكرة الصهيونية كردة فعل على النزعة اللاسامية الأوروبية وعلى حركة التنوير اليهودية، وليون روتشيلد المتمول البرجوازي اليهودي وأمثاله قدموا الدعم المادي لتجسيد تلك الفكرة بمؤازرة بريطانية[1].

إسرائيل بالماضي لم تحفظ شريعة الله رغم تحذيره على لسان أرميا: «أصلحوا طرقكم وأعمالكم فأسكنكم في هذا الموضع.. لأنكم إن أصلحتم إصلاحاً طرقكم وأعمالكم إن أجريتم عدلاً بين الإنسان وصاحبه. إن لم تظلموا الغريب واليتيم والأرملة ولم تسفكوا دماً ذكياً في هذا الموضع ولم تسيروا وراء آلهة أخرى لأذائكم. فإني أسكنكم في هذا الموضع في الأرض التي أعطيت لآبائكم من الأزل وإلى الأبد» (أرميا 7/ 3 ـ 7)، ولكن إسرائيل لم تأخذ بهذا التحذير «ها إنكم متكلون على كلام الكذب الذي لا ينفع. أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها» (أرميا 7/ 8 ـ 9). هذا في الماضي وبسببه كان العقاب السماوي، ولا تختلف مواقف إسرائيل وممارساتها بالحاضر عما كانت عليه في أيام أرميا، فالعدل غائب والظلم قائم، وسفك الدماء مستمر. والصهيونية السياسية أحلت دولة إسرائيل محل إله إسرائيل. إن الصهيونية السياسية التي أسسها تيودور هرتسل (والتي دانها حينئذ جميع حاخامي العالم باعتبارها خيانة للإيمان اليهودي) تنبع، لا من الإيمان اليهودي، بل من القومية والنزعة الاستعمارية[2]. ويرى الحاخام المربيرجر أنه ليس من المقبول، لدى أي إنسان، ذلك الادعاء بأن الزرع الحالي لدولة إسرائيل (في الأراضي العربية) يمكن أن يكون تحقيقاً لنبوءة، وعلى ذلك، فإن كل الأعمال التي يقوم بها

---

(1) Theodore Winston Pike, OP. Cit, P125, 273, 275.

(2) روجيه غارودي، مصدر سبق ذكره، ص199.

الإسرائيليون لإقامة دولتهم، وللإبقاء عليها، أعمال لا يصادق عليها الله مباشرة. إن السياسة الحالية لإسرائيل قد قضت، أو على الأقل طمست الدلالة الروحية لإسرائيل (المعنى الروحي للوجود الإسرائيلي)[1].

ومن الأفكار الخاطئة عن اليهودية، وهي شائعة بين المسيحيين أو المتأثرين بالثقافة والتراث المسيحي، هي الفكرة المضللة القائلة بأن اليهودية «ديانة توراتية»، وأن العهد القديم يحتل في اليهودية المركز نفسه والسلطة الشرعية نفسها التي للتوراة لدى البروتستانت أو حتى الكاثوليك. ومعظم الآيات التي تصف التصرفات والالتزامات الدينية، تفهم لدى اليهودية الكلاسيكية وأرثوذكسية الوقت الحاضر بمعنى يختلف تماماً أو يتناقض مع معناها الحرفي الذي يفهمه المسيحيون أو غيرهم من قراءة العهد القديم، الذين ينظرون إلى النص الصريح[2].

ومن المفاهيم الخاطئة المتفشية في الوقت الحالي ترويج عبارات مثل «التقاليد اليهودية ـ المسيحية» أو «القيم المشتركة لأديان التوحيد». ومن هذه المفاهيم الأوهام الشائعة بأن الديانة اليهودية ديانة توحيد. مع أن قراءة متأنية للعهد القديم بسهولة تظهر في بعض الأسفار حضور وسلطة لأرباب آخرين معترف بهم صراحة، لكن يهوه أقوى الأرباب «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. . لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور» (خروج 20/ 3، 5)، «فينطلق مدن يهوذا وسكان أورشليم ويصرخون إلى الآلهة يبخرون لها فلن تخلصهم في وقت بليتهم» (أرميا 11/ 12)، «هكذا يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود. أنا الأول والآخر ولا إله غيري: ومن مثلي ينادي فليخبر به» (إشعيا 44/ 7)[3].

---

(1) المصدر السابق، ص34.

(2) إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي ـ الديانة اليهودية، مصدر سبق ذكره، ص58.

(3) إسرائيل شاحاك، الديانة اليهودية، مصدر سبق ذكره، ص50.

إنه لمن المرفوض منطقياً القول بوجود قيم مشتركة بين أديان التوحيد أو في التقاليد المسيحية ـ اليهودية. فالتوحيد لم يظهر إلا في نهاية التوراة لدى بعض الأنبياء المتأخرين الذين أنكروا وجود أرباب معتبرين أن يهوه هو الإله الأوحد[1]. واليهود لم يعترفوا بالمسيح، وأصروا على انتظارهم لمجيء مسيحهم «المسيّا» ولا يزالون، رغم تأكيد المسيح لهم بأنه هو ذاته «قالت المرأة أنا أعلم أن مسيّا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شيء. قال لها يسوع أنا الذي أكلمك هو» (يوحنا 4/ 25 ـ 26) اليهود أرادوا المسيح أن يكون ملكاً دنيوياً لهم فرفض طلبهم «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً انصرف أيضاً إلى الجبل وحده» (يوحنا 6/ 15)، «أجاب يسوع مملكتي ليست من هذا العالم. لو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أُسلَّم إلى اليهود. ولكن ليست مملكتي من هنا» (يوحنا 18/ 36)، «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مرقس 12/ 17) ومتى (22/ 21).

وليس من المنطق في شيء أن يشطح الصهيونيون المسيحيون والأرثوذكسيون اليهود في تأويلهم أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة جاء تحقيقاً لنبوءات توراتية، وأن انتصارها في حرب الأيام الستة كان بقدرة إلهية، وأن بناء الهيكل الثالث سيكون المرحلة السابقة للمجيء الثاني للمسيح الذي سيعقبه حكمه لألف سنة سعيدة. من المعروف أن اليهود لم يؤمنوا بالمجيء الأول للمسيح، وأن مفهومهم للمسيح مختلف تمام الاختلاف عن مفهوم المسيح لدى المسيحيين. ومن المعروف أيضاً أن الحركة الصهيونية التي أقامت دولة إسرائيل حركة علمانية لا دينية، وأن الفكرة الصهيونية لم تقم على أي أساس ديني، فلا يجوز ربط قيامها بالنبوءات، علماً بأن النبوءات التوراتية قد تحققت من قبل ولم تظهر نبوءة جديدة بعد دمار الهيكل الثاني سنة 70م تشير إلى قيام

---

(1) المصدر السابق، ص49 ـ 50.

دولة إسرائيلية مجدداً، ولا يتضمن العهد الجديد أية إشارة لقيام تلك الدولة.

يتضمن العهد الجديد (الأناجيل الأربعة، أعمال الرسل ورسائلهم) جملة من الحقائق التي لا تحتمل التأويل أو الجدال:

ـ ثورة المسيح على تحجر اليهودية.

ـ ثورة اليهود المضادة على المسيح والمسيحية.

ـ إسرائيل الجديدة هي الكنيسة المسيحية وليس قيام إسرائيل الصهيونية.

ـ معاداة اليهودية المزمنة للمسيحية.

ـ التأويلات الباطلة في تحديد زمن المجيء الثاني.

أقلية ضئيلة من اليهود تقبلت المسيحية لأن السيد المسيح ثار على تحجر اليهودية، وعلى تمسك اليهود الصارم بأساطير «الشعب المختار»، والادعاء ببنوتهم لإبراهيم وازدرائهم لغير اليهود. أرادوه ملكاً دنيوياً لهم متحزباً لهم يردد أساطيرهم وينطق بمفاهيمهم، غير أنه ثار على هذه المفاهيم دون مهادنة، فقاوموا رسالته بقوة ووصموه بأقبح الصفات، من بينها أنه رئيس الشياطين (متى 12/ 34)، (متى 9/ 34)، ومنها أنه مضلل (متى 27/ 63)، وأنه يجدف (يوحنا 10/ 33)، وأن به شيطان (يوحنا 8/ 48). ورغم تحذيره لحمل اليهود على الإيمان به وبرسالته «الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يوحنا 3/ 36). ولكنهم بقوا معاندين «والآب الذي أرسلني يشهد لي. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته. وليست لكم كلمته ثابتة فيكم. لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به» (يوحنا 5/ 37 ـ 38). ولم يقف الأمر عند المعاندة والإيمان بالمسيح ورسالته، فقد أساءوا إليه تكراراً وأرادوا قتله «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل. لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية. لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه» (يوحنا 7/ 1)، «فأجاب يسوع أنا ليس بي شيطان لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني» (يوحنا 8/ 49)، «وكان الفريسيون أيضاً يسمعون هذا كله وهم

محبون للمال فاستهزأوا به» (لوقا 16/ 14)، «فابتدأ قوم يبصقون عليه ويغطون وجهه ويلكمونه ويقولون له تنبأ. وكان الخدام يلطمونه» (مرقس 14/ 65) «حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه. وآخرون لطموه. قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك» (متى 26/ 67 ـ 68)، «وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم» (متى 27/ 39).

إزاء هذه السلبيات التي قابل بها اليهود المسيح ثار على معانداتهم وإساءاتهم له فخاطبهم بما يستحقون «يا أولاد الأفاعي» (متى 3/ 7)، «الحق أقول لكم لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا» (متى 8/ 10)، «يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار» (متى 12/ 34)، «وقال لهم مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» (متى 21/ 13)، «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون» (متى 23/ 13)، «يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين» (متى 23/ 27)، «ويل لكم أيها الفريسيون» (لوقا 11/ 42)، «يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين» (لوقا 21/ 24)، ويقعون بفم السيف وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تُكَّمل أزمنة الأمم» (لوقا 21/ 24)، «أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا» (يوحنا 8/ 44)، «الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله» (يوحنا 8/ 47).

صممهم هذا عن سماع كلام السيد المسيح دفعه إلى نبذهم «ولكنكم لستم تؤمنون لأنكم لستم من خرافي» (يوحنا 10/ 26)، «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره» (متى 21/ 43)، (لوقا 13/ 22 ـ 30).

هذا ولم تكن مواقف اليهود السلبية مقتصرة على السيد المسيح الذي وجّه تحذيراته لتلامذته منهم «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم» (يوحنا 15/ 20)، (متى 16/ 12)، (متى 10/ 16 ـ 17)، وهذا ما حصل بالفعل (أعمال الرسل 4/ 2 ـ 3)، (9/ 23)، (13/ 50)، (14/ 4 ـ 5)، (14/ 5 ـ 6)، (14/

19)، (18/ 12 ـ 17). لقد كانت سلبياتهم تهدف إلى وأد المسيحية في مهدها بمحاصرتهم لنشاط تلامذة المسيح الذين حملوا رسالته.

وفيما يختص بمسؤولية اليهود المباشرة عن صلب السيد المسيح، فالنصوص تضع المسؤولية كافة عليهم. أما عدم تحميلهم المسئولية وتبرئتهم، فالنصوص تدحض ذلك بوضوح، وغفران المسيح بتسامحه لإثمهم لا يعفيهم من المسؤولية. بيلاطس قال: «إني بريء من دم هذا البار.. فأجاب جميع الشعب. وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» (متى 27/ 24 ـ 25)، «فأجاب بيلاطس أيضاً وقال لهم فماذا تريدون أن أفعل بالذي تدعونه ملك اليهود، فصرخوا أيضاً اصلبه» (مرقس 15/ 12 ـ 13)، «فناداهم بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع فصرخوا قائلين اصلبه اصلبه. فقال لهم ثالثة فأي شر عمل هذا. إني لم أجد فيه علة للموت.. فكانوا يلجون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب» (لوقا 23/ 20 ـ 23)، «وكان استعداد الفصح.. فقال لليهود هوذا ملككم. فصرخوا خذه خذه اصلبه. قال لهم بيلاطس أأصلب ملككم. أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر» (يوحنا 19/ 14 ـ 15). ونقرأ في أعمال الرسل: «أيها الرجال الإسرائيليون.. وبأيدي آثمة صلبتموه» (2/ 22 ـ 23)، «فليعلم يقيناً جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً» (2/ 36)، «إنه إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلٰه آبائنا مجّد فتاه يسوع الذي أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس.. ورئيس الحياة قتلتموه أمام الله» (3/ 13 ـ 14)، «فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأموات» (4/ 10)، (5/ 28)، (5/ 30)، (7/ 52)، (10/ 39)، «ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يقتل» (13/ 28).

على ضوء ما تقدم، فإن التلاقي بين المسيحية واليهودية لا يستند إلى منطق. فاليهود أنكروا المسيح وتنكروا للمسيحية، قاوموا المسيح وحواريه وعادوا المسيحية ولا يزالون. والتلمود، بفصيح عباراته يظهر العداء للمسيح

والمسيحية. إنه يحتوي على مقاطع معادية جداً ووصايا موجهة أساساً ضد المسيحية. على سبيل المثال، إضافة إلى الاتهامات الجنسية البذيئة ضد يسوع، ينص التلمود أن عقوبة يسوع في الجحيم هي إغراقه في غائط يغلي. كما يمكن التذكير بالوصية التي يؤمر اليهود بموجبها بإحراق أي نسخة من الإنجيل علانية إذا أمكن. ففي الثالث والعشرين من آذار عام 1980 أحرقت مئات من نسخ الإنجيل علانية وبصورة احتفالية في القدس تحت رعاية «ياد لعاخيم»، وهي منظمة دينية يهودية تتلقى المعونات المالية من وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية[1]. ولا يقف عداء التلمود للسيد المسيح وللسيدة مريم العذراء عند هذا الحد، فإن الطعن بطهارة مريم يبدو في وصف المسيح بأنه «ابن بانديرا» حيناً، وحيناً آخر بأنه «ابن ستادا»[2]. وإن السيدة العذراء زانية[3]. وخلافاً للتلمود فالقرآن الكريم يدحض بشكل قاطع هذه الافتراءات ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران 3/ 45]، ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 156]، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: 78].

ووفق ما ورد في التلمود، فقد أُعدم المسيح تنفيذاً لحكم محكمة دينية سليمة، بتهمة الوثنية وتحريض اليهود على عبادة الأوثان، واحتقار السلطات الحاخامية. وكل المصادر اليهودية الكلاسيكية التي تذكر إعدامه، سعيدة تماماً بتحمل مسئولية ذلك، وفي القصص التلمودية لا يرد ذكر الرومان أبداً[4].

ومما يجعل التلاقي بين اليهودية والديانتين التوحيديتين: المسيحية

---

(1) المصدر السابق، ص28 ـ 29.
إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي ـ الديانة اليهودية، مصدر سبق ذكره، ص35 ـ 36.
Theodore Winston Pike, OP. Cit, P82-83.

(2) Theodore Winston Pike, Ibid, P79.

(3) Ibid, P77.

(4) إسرائيل شاحاك، التاريخ اليهودي ـ الديانة اليهودية، مصدر سبق ذكره ص149.

والإسلامية، نظرة اليهودية إلى غير اليهود. ففي إحدى الفقرات الأولى من صلاة الصبح اليومية، يشكر اليهودي الورع الله لأنه لم يجعله غير يهودي. والفقرة الختامية في الصلاة اليومية تبدأ بما يلي: «يجب أن نحمد الرب.. لأنه لم يجعلنا مثل أمم الأرض.. لأنهم ينحنون للعبث والعدم ويصلون لإله لا يقدم العون». وفي الجزء الأكثر أهمية في الصلاة الأسبوعية، المباركات الثماني ـ لعنة خاصة موجهة أصلاً ضد المسيحيين واليهود المرتدين إلى المسيحية وغيرهم من المنشقين اليهود، «وليفقد المرتدون كل أمل وليفن جميع المسيحيين على الفور». عدا الصلوات اليومية الثابتة، يتوجب على اليهودي أن يلفظ دعوات قصيرة خاصة في مناسبات عديدة. بعض هذه الدعوات الموسمية، تعمل على غرس مشاعر الكراهية والاحتقار ضد كل غير اليهود، من ذلك يتوجب على اليهودي أن يتلفظ بلعنة عندما يمر بالقرب من مقبرة لغير اليهود. وهناك قاعدة مماثلة تنطبق على الأحياء، وهكذا، عندما يرى اليهودي جمعاً يهودياً كبيراً وجب عليه أن يحمد الله، أما إذا رأى جمعاً من غير اليهود فعليه أن يلفظ لعنة، والمباني ليست معفاة أيضاً، فالتلمود يعلن أن على اليهودي الذي يمر بالقرب من مبنى يسكنه غير اليهود، أن يدعو الله أن يدمره، أما إذا كان المبنى مدمراً فعليه أن يشكر الله لانتقامه.. وقد أصبح من المعتاد أن يبصق اليهودي (ثلاث مرات عادة) عندما يرى كنيسة أو صليباً[1].

وموسى بن ميمون، طبيب صلاح الدين الأيوبي، الذي قال فيه اليهود: من موسى (النبي) إلى موسى (بن ميمون) لم يظهر مثل موسى سوى موسى، يطفح كتابه «ميشنا توراه» بأسوأ النعوت لكل الأمم، وبالهجمات الصريحة على المسيحية والمسيح، الذي كان الكاتب يضيف بعد اسم المسيح «ليختف اسم الشرير». ويحتوي كتابه «دليل المحتار» عدا عن معاداة غير اليهود خاصة المسيحيين، فإنه يتضمن نزعة عنصرية صريحة فجة[2]. ومع كل ذلك فأكثر

(1) المصدر السابق، ص142 ـ 143.

(2) المصدر السابق، ص40 ـ 41.

من طائفة بروتستانتية بالغرب تتعسف بتأويلات اعتباطية عن وجود قيم يهودية ـ مسيحية مشتركة وتطرح في شطحات تعسفية تأويلات بعيدة عن الحقيقة والمنطق وعن نصوص الكتاب المقدس في افتراضات خيالية بأن قيام دولة إسرائيل المعاصرة وتوحيد مدينة القدس ما هو إلا تحقيق للنبوءات وأن نهاية الزمان قد اقتربت التي سيسبقها معركة هرمجدون التي سيعقبها حكم المسيح على الأرض لمدة ألف سنة سعيدة تنتهي بنهايتها نهاية العالم، مع أن النص الإنجيلي صريح وواضح بأن زمان هذه النهاية غير محدد ولا يستطيع أحد التكهن بحدوثه «وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون» (متى 16/ 3)، «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماوات إلا أبي وحده» (متى 24/ 36)، «اسهروا إذا لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم» (متى 24/ 42)، «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب» (مرقس 13/ 32 ـ 33)، «فسألوه قائلين يا معلم متى يكون هذا وما هي العلامة عندما يصير هذا. فقال انظروا ولا تضلوا. فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين إني أنا هو والزمان قد قرب فلا تذهبوا وراءهم» (لوقا 21/ 7 ـ 8).

خلاصة القول من كل ما تقدم أن مزاعم الصهيونيين المسيحيين كافة في الغرب، ومزاعم الأرثوذكسيين اليهود كافة بأن قيام دولة إسرائيل المعاصرة، وتوحيدها للقدس كان تحقيقاً لنبوءات توراتية، هي مزاعم باطلة يدحضها الكتاب المقدس بعهديه دحضاً تاماً، وكل المزاعم بأسطورة «الشعب المختار» وبقية الأساطير حول معركة هرمجدون وحلول الألف سنة ومن ثم نهاية العالم. وكما ثبت بطلان «الوعد الإلٰهي» لـ«الشعب المختار» بالعودة إلى «أرض الميعاد» فإن البرهان العلمي الموضوعي يدحض المزاعم الباطلة بادعاءات الصهيونيين المسيحيين واليهود ـ على السواء ـ بالحق التاريخي لليهود بفلسطين.

الفصل الخامس

نقض الادعاء بالحق التاريخي

من الحقائق الموضوعية المتفق عليها عالمياً هي أن حق أي شعب بوطن يرتكز على قاعدتين: الأسبقية في السكن والاستقرار المتواصل دون انقطاع، وهاتان القاعدتان غير متوفرتين للشعب اليهودي بالدليلين التوراتي والتاريخي، وهما متوفران بهذين الدليلين للعرب الفلسطينيين. وليس من حق إرادات دولية إسباغ حق لا يستند إلى هاتين القاعدتين لشعب ما بوطن لاحق له فيه[1]، كما حدث في إصدار هيئة الأمم المتحدة يوم 29/ 11/ 1947 قرار التقسيم الذي نص على إنشاء دولة يهودية على جزء من أرض فلسطين.

ومع أن التوراة لا يمكن الوثوق بها كلياً كمصدر تاريخي، لأن مؤلفيها لم يزامنوا أحداثها وأن تدوينهم لها بعد القرن السابع قبل الميلاد قد بدأ الشروع فيه، عدا ذلك، فرغم عمليات الحفريات والتنقيب لم تظهر شواهد آشورية أو بابلية أو مصرية تدعم السرد التاريخي التوراتي في المرحلة التي سبقت قيام مملكة داود. وتقول عالمة الآثار، كاثلين كينون أثناء استعراضها للمخلفات المعمارية في القدس: «مع أنه يمكن اقتراح مسار الأسوار المحيطة، إلا أنه أصبح للأسف واضحاً أنه لم يبق شيء في عهد سليمان أو

(1) Sami Hadauri, OP. Cit, P30-32.

سلفه أو خلفه»[1]. ولو كان صحيحاً ما ورد في سفر الملوك الأول من أن سليمان كان «متسلطاً على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر. .» (الإصحاح 4/ 21)، لكانت السجلات المصرية والآشورية المعاصرة قد أشارت إليها بالتأكيد بأسمائهما. وهو ما لم تفعله هذه السجلات. والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، من أقصاها إلى أقصاها، وأن بقاء العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودُرست وأُرّخت، في حين أنه لم يعثر في أي مكان كان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة إلى أي حد بالتاريخ التوراتي[2]. وعبثاً حاولت أجيال من المنقبين المهتمين بالتوصل إلى معلومات ثابتة تاريخياً بشأن شخصية إبراهيم، لما لها من الأهمية الدينية، أو لشخصية يوسف في مصر، وليس هناك في المدونات المصرية القديمة ما يشير إلى خروج اليهود من مصر بقيادة موسى، أو إلى أي وجود لشعب اسمه إسرائيل في بلاد مصر بأي وقت[3]. ويسود الرأي بين العلماء بأن الأجزاء القصصية من التوراة ـ ومعظمها محصور بأسفار التكوين والخروج والعدد ـ هي في الواقع مزيج من التاريخ الشعبي والأساطير والخرافات، تم جمعها ثم تنسيقها فضبطها في زمن متأخر نسبياً من تاريخ بني إسرائيل. ويرى البعض أن الأسفار الخمسة الأولى تم جمعها وتنسيقها في وقت متأخر، ربما بعد السبي البابلي، من أصول مختلفة. وسفر التكوين، ما هو إلا مجموعة من الأساطير التي يتعدى قدمها قدم اليهودية ونصوصها المكتوبة بأجيال وأجيال. ومن هذه الأساطير، ولا شك، ما طرأ عليه تغيّر قليل أو كثير على مر الزمن عن طريق الرواية الشفوية

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص111، 117، 121.

(2) كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، مصدر سبق ذكره، ص39، 50.

(3) كمال الصليبي، خفايا التوراة، مصدر سبق ذكره، ص91، 152، 204 ـ 205.

من جيل إلى جيل، وذلك بإدخال تفاصيل إضافية عليها من قبل القاصّين والرواة، أو بتغيير معالمها عن قصد أو عن غير قصد. من ذلك أسطورة الطوفان[1]. ومع ذلك يمكن ـ استناداً إلى التوراة ـ دحض الادعاء الإسرائيلي ـ الصهيوني المسيحي ـ بالحق التاريخي لليهود في فلسطين اعتماداً على قاعدتي الأسبقية العربية والاستمرارية المتواصلة منذ فجر التاريخ.

دحض الادعاءات بالحق التاريخي

تحدد التوراة بدء تاريخ العبرانيين بهجرة إبراهيم من بلاد الرافدين إلى فلسطين عن طريق حاران، حيث أقام مع قبيلته قرب الخليل (حبرون)، في حين أقام حفيده يعقوب بن إسحاق في «فدان أرام» عدداً من السنين. وقد نال يعقوب بركة والده بمساعي والدته، وأصبح زعيماً للعبرانيين، وأطلق على نفسه أو أُطلق عليه) اسم «إسرائيل». وينتسب العبرانيون إلى إبراهيم الذي لقب بالعبري، إما لعبوره نهر الأردن أو نهر الفرات كما تذكر بعض الروايات، وإما تيمناً باسم أحد أحفاده المدعو «عبير» كما تذكر روايات أخرى. ويعتقد أن العبرانيين البدو الأوائل استوطنوا أرض كنعان على ثلاث هجرات، اثنتان منها أسطوريتان، والثالثة تاريخية. وقد تحركت الأولى من بلاد الرافدين في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وعاصرت غزو الهكسوس لمصر، وتحركت الهجرة الثانية مع الآراميين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، في حين انطلقت الهجرة الثالثة من مصر بقيادة موسى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد[2]. ويبقى هذا الاعتقاد مجرد فرضيات ما دامت شواهد الحفريات لا تظهر هذه المعلومات.

وفيما يتعلق بهوية إبراهيم، الذي يزعم اليهود أنهم من نسله، نقرأ في سفر التكوين أنه عبراني (14/ 13)، ونقرأ في سفر التثنية أنه أرامي (36/ 5).

(1) المصدر السابق، ص6، 10، 13، 22، 47 ـ 72.

(2) الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص184.

وعلى كل حال ما يعنينا، استناداً إلى التوراة نفسها، أن أسبقية السكن والاستقرار الحضاري المتواصل كانت لقبائل عربية، قاومت باستمرار الغزو العبراني غير المستقر. فإبراهيم لم يولد في فلسطين بل في «أور الكلدانيين» بالعراق، (تكوين 11/ 31)، ومنها انتقل إلى «حاران» (تكوين 11/ 31) ومن حاران إلى «أرض كنعان» (تكوين 12/ 5)، «وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض» (تكوين 12/ 6). وفي ذلك أول دلالة على أسبقية الوجود الكنعاني بفلسطين. ولم تطل إقامة إبراهيم في فلسطين فلقد انتقل منها إلى مصر (تكوين 12/ 10) ومنها عاد إلى «أرض كنعان» (تكوين 13/ 12). ونقرأ في السفر نفسه أن إبراهيم كان يقر بغربته أثناء وجوده بفلسطين «وتغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة» (21/ 34)، وعندما وافت المنية زوجته سارة قال: «أنا غريب ونزيل عندكم أعطوني ملك قبر معكم لأدفن ميتي من أمامي» (تكوين23/ 4). وبقي الإقرار بالغربة قائماً حتى عند أحفاد إبراهيم «وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان» (تكوين 37/ 1). ومن الملاحظ تكرار عبارتي «أرض كنعان» و«أرض الفلسطينيين في أكثر من سفر توراتي (تكوين 42/ 29)، (42/ 32)، (45/ 25)، (خروج 3/ 17)، (6/ 4)، (13/ 11)، (العدد 13/ 1)، (34/ 1)، بينما لم يرد في السرد «أرض العبرانيين»، أو «أرض الإسرائيليين»، أو «أرض اليهود». وعدا أسبقية واستمرارية القبائل العربية المستقرة في «أرض كنعان» من «الحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين» (خروج 3/ 17) فإن مظاهر حضارية لوجود هذه القبائل نقرأها في الأسفار الخمسة التوراتية الأولى، المنسوبة إلى موسى. من ذلك ما هو ديني «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي. وباركه وقال مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض» (تكوين 14/ 18 ـ 19)، ومنها ما هو سياسي «فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار» (تكوين 26/ 1)، ومنها ما هو عسكري «غير أن الشعب الساكن في الأرض (بفلسطين) معتز والمدن حصينة عظيمة جداً. وأيضاً قد رأينا بني عناق

هناك. العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر على جانب الأردن» (العدد 13/ 28 ـ 29)، «كل هذه كانت مدناً محصنة بأسوار شامخة وأبواب ومزالج سوى قرى الصحراء الكثيرة جداً» (تثنية 3/ 5)، ومنها ما هو زراعي «أرض لبن وعسل» (خروج 3/ 17). ونقرأ أيضاً أن سكان فلسطين الأقدمين قاوموا الغزو العبراني منذ البداية وباستمرار (خروج 17/ 8)، (العدد 13/ 29)، (14/ 45)، (21/ 21 ـ 35)، (31/ 7 ـ 11)، (تثنية 1/ 44)، (2/ 33 ـ 35)، (3/ 1 ـ 5). وهذا ما يتضح فيما بعد على الدوام حتى إخماد الرومان لآخر انتفاضة يهودية عام 135م.

وفي الأسفار الأربعة التي تلي سفر التكوين (الخروج، اللاويين، العدد، التثنية) المنسوبة كتابتها إلى موسى (تثنية 31/ 24) سرد لخروج اليهود من مصر بزعامة موسى الذي مات ولم تطأ قدماه «أرض الميعاد» (تثنية 34/ 5)، «ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم» (تثنية 34/ 6). ففي سفر الخروج رواية فرار موسى من مصر إلى مديان، وزواجه من ابنة كاهن مديان «رعوئيل» (خروج 2/ 15 ـ 21) حيث رعى الغنم عند حميه «يثرون» (خروج 3/ 1). لا ندري لماذا ورد اسم حميّه أول الأمر «رعوئيل» ومن ثم «يثرون»!. ومن مديان عاد إلى مصر لإنقاذ شعبه من ظلم المصريين «فقلت أُصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً» (خروج 3/ 17). وهذا يعني أن شعب موسى كان خارج فلسطين بينما هذه الشعوب كانت مستقرة فيها بشكل متواصل.

ومن مديان عاد موسى إلى مصر (خروج 4/ 20)، التي حلت فيها ضربات بسبب إذلالها لليهود فيها (الإصحاحات 8 ـ 11) «وقال موسى هكذا يقول الرب إني بعد نصف الليل أخرج في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة» (خروج 11/ 4 ـ 5). وتبع الخروج من مصر والتيه في

الصحراء ندم (خروج 17/ 3). وتوجه موسى إلى حمّيه يثرون وسمع منه عظته حول تعليم شعبه الشرائع والطقوس (خروج 18/ 17 ـ 24)، وعاد ليقود شعبه «وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر» (خروج 13/ 18)، ومنها إلى برية سيناء (خروج 19/ 1). وفي التيه تذمر شعب موسى على خروجهم من مصر «ليتنا متنا في مصر» (عدد 14/ 2)، «وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت في البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف» (عدد 21/ 5).

اللافت للنظر أن الضربات التي نزلت بمصر كانت من جراء اضطهاد المصريين لبني إسرائيل، وهو الأمر الذي دفع موسى لإخراجهم من أرض مصر. بينما تجد في موضع آخر أن المصريين لم يفعلوا ذلك «لا تكره أدوميا لأنه أخوك. لا تكره مصرياً لأنك كنت نزيلاً في أرضه» (تثنية 23/ 7). والظاهر أن تيودور هرتسل تناسى هذه الوصية عندما التقى به الزعيم المصري مصطفى كامل فكتب في مذكراته «إنه في رحلة أخرى لجمع المشاعر المؤيدة لقضية الشعب المصري الذي يسعى للخلاص من السيطرة البريطانية. . . إن سليل مضطهدينا في مصرايم (مصر) يتنهد اليوم من عذاب الرق، وتقوده طريقه إليّ، أنا اليهودي، طالباً مساعدتي الصحفية» (يوميات هرتسل، 24 آذار 1897، ص527 (ت. ع س 62)[1].

تولى خادم موسى يشوع بن نون زعامة بني إسرائيل، وعبر بشعبه إلى فلسطين واستمرت مقاومة سكانها الأصليين لغزوه (يشوع 6/ 20)، (7/ 4)، (8/ 99)، (10/ 1 ـ 40)، (12/ 1 ـ 24). ولا توجد أية إيماءة بأن سكان فلسطين الأصليين قد غادروا ديارهم، وتوجد إشارات كثيرة على حضارتهم واستقرارهم (يشوع 6/ 5)، (17/ 18). وفي سفر القضاة تستمر المقاومة للغزاة

(1) حسان علي حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897 ـ1909، بيروت، جامعة بيروت العربية، 1978، ص238 ـ 239.

(1/1 ـ 10)، (3/51)، (4/2، 23)، (6/1ـ 2)، (13/1)، (16/21). ويشير النص إلى بقاء السكان بعد الغزو العابر في ديارهم «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم» (قضاة 1/ 21) و(1/ 19) و(1/ 27).

وفي عصر الملوك الذي عقب عصر «القضاة» استمرت المقاومة للغزاة. من ذلك في أيام كافة هؤلاء الملوك (صموئيل الأول 4/ 1 ـ 3)، «فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته» (صموئيل الأول 4/ 10)، ودأب الفلسطينيون على المقاومة في عهد الملك شاول (صموئيل الأول 13/ 5)، (14/ 47)، (14/ 52)، وفي أيام داود (17/ 1)، (17/ 53)، (19/ 8)، (23/ 5)، (28/ 1). وفي إحدى المعارك تمكن العمالقة من سبي امرأة داود (30/ 5)، «وحارب الفلسطينيون إسرائيل فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيين. . . فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفك واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويفجوني. فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً. فأخذ شاول السيف وسقط عليه» (31/ 1 ـ 4). ونقرأ في سفر صموئيل الثاني استمرار المقاومة للغزاة اليهود (5/ 17 ـ 24)، (8/ 1 ـ 6)، (21/ 15)، (23/ 9 ـ 17)، كل ذلك إبان حكم الملك داود، ومع أنه احتل حصن صهيون بالقدس فإن سكانها اليبوسيين لم يتزحزح أحد منهم عنها.

يوصي داود ـ قبل وفاته ـ أن يخلفه ابنه سليمان (الملوك الأول 1/ 30) وينبئه إلهه بانقسام مملكته بعد وفاته (11/ 11)، وهذا ما حصل إذ ملك ابنه رحبعام على مملكة يهوذا (12/ 17)، وابنه يربعام على مملكة إسرائيل (12/ 20). «وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إلى أورشليم. وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان» (14/ 25 ـ 26). واستمرت الحرب «بين رحبعام ويربعام كل أيام حياته» (15/ 6).

وفي سفر الملوك الثاني أن شلمناصر ملك آشور حاصر السامرة عاصمة

مملكة إسرائيل «وسبى ملك آشور إسرائيل إلى آشور» (18/ 9 ـ 11)، وأن سنحاريب «ملك آشور صعد على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها» (18/ 13)، وأن نبوخذ ناصر ملك بابل استولى على أورشليم وسبى من فيها من اليهود إلى بابل (24/ 11 ـ 14) و«لم يبق أحد إلا ساكني شعب الأرض» (24/ 14).

في سفر أخبار الأيام الأول تكرار لبعض ما ورد في الأسفار الأربعة السابقة. ومن ذلك تنصيب داود ملكاً (11/ 3)، وحروبه مع الفلسطينيين (11/ 13 ـ 15) و(18/ 1)، وبقاء اليبوسيين في القدس «وقال سكان يبوس لا تدخل إلى هنا. فأخذ داود حصن صهيون. هي مدينة داود. وقال داود إن الذي يضرب اليبوسيين أولاً يكون رأساً وقائداً. . . وكان داود حينئذ في الحصن وحفظه الفلسطينيون حينئذ في بيت لحم» (11/ 5 ـ 6، 16). وهكذا لا نجد أي تلميح لنزوح اليبوسيين أو الفلسطينيين عن ديارهم. ومن داود انتقل الملك إلى سليمان (23/ 1). وفي سفر أخبار الأيام الثاني انقسام المملكة بعد موت سليمان بين رحبعام (10/ 17) ويربعام (11/ 4). ونشبت بينهما حروب (12/ 15). وفي نهاية السفر إشارة إلى اجتياح البابليين لمملكة يهوذا وأخذ غالبية سكانها اليهود إلى المنفى في بابل (36/ 18)، وبقائهم فيها «إلى أن ملكت مملكة فارس» (36/ 20) وأتاح لهم كورش، الملك الفارسي الذي اعتبره إشعيا مسيحاً (45/ 1) العودة إلى فلسطين، ومن الملاحظ أن النفي كان مقصوراً على اليهود، وليس على سكان فلسطين الأصليين من كنعانيين ويبوسيين وأدوميين وسواهم.

في سفر عزرا سرد إخباري لعودة المسبيين اليهود من بابل إلى القدس على دفعتين (2/ 1) و(8/ 1 ـ 5) مع إشارة إلى معارضة سكان البلاد الأصليين لإعادة بناء العائدين أسوار المدينة والهيكل (4/ 4). وفي سفر نحميا إشارة لاستمرار المعارضة (2/ 10)، (2/ 19)، (4/ 7)، وإشارة إلى عودة ثالثة (6 ـ 69). ولكنَّ الغالبية الساحقة فضلت البقاء في المنفى ببابل، بعد أن ازدهرت

أحوالها، وبعد أن اعتادت على أن تقيم طقوسها الدينية في غير معبد أورشليم، في «الكنيس اليهودي» الذي أقامته هناك لهذه الغاية. أما الذين عادوا إلى أورشليم من الأسر فهم الذين حملوا معهم فكرة الوطن القومي اليهودي وشعب الله المختار. . . وقد ظلت هذ الفكرة تراود أفكار قادتهم الذين تولوا حكمهم في ظل الامبراطورية الفارسية وما عقبها من حكم اليونان والسوريين والرومانيين[1].

وكما آثرت أكثرية اليهود البقاء ببابل، آثر اليهود الذين رافقوا بطليموس إلى مصر عام 320 ق.م. البقاء فيها، ولم يفكروا إطلاقاً بالعودة إلى أورشليم، فقد استقر معظمهم في الإسكندرية وتأثروا بالبيئة اليونانية المحيطة بهم، كما تركوا بدورهم أثرهم في هذه البيئة بما حملوه من تعاليم دينية. وكان من نتائج هذا الاختلاط أن ترجمت التوراة إلى اللغة اليونانية، لأن اليونانية كانت قد حلت محل الآرامية والعبرية بين يهود مصر[2].

العودة إلى التاريخ

وفي الانتقال من التوراة كمصدر لا يمكن الاعتماد عليه تاريخياً، لأن الحفريات على كثرتها في فلسطين وعامة الأقطار المحيطة بها لم تبين شواهد أثرية تتطابق مع الروايات التوراتية، بينما أثبتت الحفريات والتنقيبات عن وجود حضاري مستقر ومستمر ومغرق في القدم، وهو الأمر الذي تؤكده التوراة نفسها. وحوالى منتصف الألف الثالث ق.م حدثت هجرة سامية حملت الأموريين إلى الهلال الخصيب وكان بين تلك العناصر التي تألفت منها هذه الموجة الجديدة الكنعانيون وقد حلوا غربي الشام وفلسطين بعد 2500 ق.م. وكانت موجة سامية قد سبقت هذه الموجة منطلقة من جزيرة العرب في أواسط الألف الرابع قبل الميلاد واستقرت في بلاد الرافدين. وبين سنتي 1500 و1200

---

(1) الفرد ليلنتال، ثمن إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص17.

(2) المصدر السابق، ص21.

ق.م. تسرب العبرانيون إلى جنوب الشام أي فلسطين، وتسرب الآراميون إلى الشمال إلى سهل البقاع[1]. وهذا يعني أسبقية سكنى الكنعانيين في فلسطين بزمن مديد قبل وصول العبرانيين إليها. ويرى بعض المؤرخين بأن أصل العبرانيين من صحراء شبه الجزيرة العربية، خلافاً لما يراه آخرون بأنه يتحدد بخروج إبراهيم من أور. وقد أظهر البحث العلمي أن أصول الديانة العبرانية تنم عن أصل صحراوي.

وعرجت قبائل العبرانيين على سيناء والنفود في أثناء خروجها من مصر إلى فلسطين حوالى سنة 1225 ق.م. وتنقلت في تلك الربوع زهاء أربعين سنة. ولقد قطع بنو إسرائيل العهد الإلٰهي في مدين وهي تضم جنوبي سيناء الواقعة إلى الشرق منها وأخذ موسى لنفسه امرأة عربية هي ابنة كاهن مدين (والتوراة تشير إلى ذلك (خروج 2/ 21) وأبوها مؤمن بدين يهوه فتعلم منه موسى أسرار العبادة الجديدة. ويخيل لنا أن يهوه إلٰه قبلي كان يعبده المدينيون أو سواهم من أهل الشمال. وهو أحد آلهة البادية طبعه البساطة والشدة، يسكن خيمة، ولعبادته طقوس ليست على شيء من الإتقان والتعقيد، وهي تتناول الأعياد البدوية والتقدمات والمحروقات يقدمونها من الماشية[2]. ويرى الدكتور كمال الصليبي أن أرض التوراة كلها في غرب شبه الجزيرة العربية فيما يعرف اليوم بعسير والجزء الجنوبي من الحجاز. والواقع هو أن القرآن الكريم يقول بكل وضوح إن مقام إبراهيم كان ببكة (سورة آل عمران 96 ـ 97) وليس هناك في النص القرآني ما يشير إلى أية علاقة بين بني إسرائيل وأرض فلسطين. والوجود اليهودي القديم في شبه الجزيرة العربية مشهور به في التواريخ العربية والشعر الجاهلي. وقد كانت اليهودية ديانة آخر ملوك حمير باليمن[3].

(1) فيليب حتي، أدورد جرجي، جبرائيل جبور، مصدر سبق ذكره، ص11 ـ 12.
(2) المصدر السابق، ص51.
(3) كمال الصليبي، التوراة جاءت من شبه جزيرة العرب، مصدر سبق ذكره، ص27، 15.

يجاري المؤرخون التوراة في التركيز المتكرر على الوجود الكنعاني والعموني والمؤابي والآدومي والفلسطيني بزمن مديد قبل غزو اليهود العابر إليها، وهو ما تؤكده التوراة نفسها، كما تؤكد أن هذا الوجود كان وجوداً حضارياً مستقراً. فالإشارات التوراتية التي أثبتتها الحفريات تؤكد وجود مدن محصنة بأسوار، وإلى معرفة سكانها المعادن، واستخدام العربات، وإلى الاشتغال بالزراعة والتجارة، وأن سكان فلسطين الأقدمين من الكنعانيين واليبوسيين وسواهما لم يبرحوها عند الغزو العبراني لها، وقد أكدت التوراة ذلك «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم» (قضاة 1/ 21)، «ولم يطرد منسى أهل بيت شان وقراها ولا تعناك وأمصارها ولا سكان دور وقراها ولا سكان يبلعام وقراها ولا سكان مجدو وقراها. فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض. وكان لما تشدد إسرائيل أنه وضع الكنعانيين تحت الجزية. ولم يطرد أشير سكان عكو ولا سكان صيدون واحلب واكزيب وحلبة ورفيق ورحوب. فسكن الأشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض لأنهم لم يطردوهم. ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض. فكان سكان بيت شمس وبيت عناة تحت الجزية لهم» (قضاة 1/ 27 ـ 35)(1).

ومما يؤكد وجود استقرار حضاري في فلسطين وجوارها سابق بزمن مديد لنشوء نظام مركزي عبراني موحد تحت زعامة الملك شاول في زمن متأخر (صموئيل الأول 10/ 1)، وجود عدة ممالك آرامية وعمونية وأدومية وكنعانية كانت قد تشكلت لقرون خلت، وهذا ما تقره التوراة نفسها (يشوع 8/ 2، 9/ 1 ـ 2)، (يشوع 10/ 15، 11/ 10، 12/ 9 ـ 24)، (قضاة 3/ 14، 4/ 2، 4/ 23، 5/ 19). وفيما يتعلق بإنجازات داود وسليمان وانتصارهما على جميع

(1) أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص4 ـ 7.

Walid Khalidi, ed, OP. Cit, P5-7.

الممالك الموجودة في بلاد الشام وفق ما ترويه أسفار صموئيل والملوك من التوراة، فإن هذه الروايات غير مدعومة إطلاقاً بمصادر الممالك المعادية وغير المعادية، كما لا تعطي المخلفات الأثرية من جميع مواقع العصر الحديدي أية براهين على صحة هذه الروايات رغم كثرة المواقع التي تم التنقيب فيها، ورغم المحاولات التي تبذل لربط المخلفات الأثرية بهذه الروايات، والتي تصل إلى درجة التحريف وسوء تفسير الشواهد الأثرية والابتعاد عن ماهيتها وما يمكن أن تبرزه من معلومات لها علاقة مباشرة بالتطور الاجتماعي والاقتصادي في المنطقة[1].

تحدد التوراة بدء تاريخ العبرانيين بهجرة إبراهيم من أور إلى أرض كنعان. وفي ظل الافتقار إلى شواهد تاريخية، فإن عامة المؤرخين جاروا التوراة بذلك، وصولاً إلى زوال مملكتي إسرائيل على يد الآشوريين (722قم)، ، ومملكة يهوذا على يد البابليين (586ق.م) الذين ساقوا أعداداً من اليهود إلى المنفى ببابل، ثم عودة قسم منهم على يد ملوك فارس إلى القدس (539ق.م). ويكتنف مرحلة الحكم الفارسي الكثير من الغموض[2].

بين عامي 334ق.م وعام 332ق.م. تمكن الاسكندر المقدوني من احتلال بلاد الشام، وقضى بذلك على الامبراطورية الفارسية. وخلال الحكم اليوناني تعرضت الديانة اليهودية لتطورات شتى فتغير الكثير من تقاليدها وطرقها. وكان للمدنية اليونانية تأثير عميق في اليهودية؛ فقد فضل الجيل اليهودي الجديد أساليب الحياة اليونانية المتحررة من القيود الدينية المتزمتة. ولكن هذا الفريق تعرض لحملات عنيفة من المحافظين الذين اتخذوا من التوراة

---

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص120.

(2) المصدر السابق، ص122 ـ 131.

أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص5 ـ 9.

Walid Khalidi, ed, OP. Cit, P5-9.

Sami Hadauri, OP, Cit, P30-31.

والتلمود مصادر تفكيرهم، بعكس المتحررين الذين رفضوا التلمود وراحوا يفسرون التوراة تفسيرات شتى تساير التطور. وراح الفريقان يتبادلان التهم، ولم يلبث التيار المتزمت المحافظ أن فرض نفسه على تطور الأحداث التالية التي بدأت حين قرر الملك السلوقي اليوناني أنطيوخوس أن يدعم وحدة مملكته الداخلية بمحاولة دمج اليهود في الحياة العامة، والقضاء على نفوذهم وتفردهم وتباعدهم عن مجتمعهم الذي يعيشون بين ظهرانيه. وأصدر لهذه الغاية مرسوماً بإلغاء اليهودية كدين، ومنع إجراء طقوسها، واستولى على الهيكل في أورشليم، وأمر اليهود بعبادة الآلهة الوثنية، ووضع على مذبح هيكل أورشليم تمثالاً للإله اليوناني «زفس». ولكن هذه التدابير أثارت حفيظة اليهود فقام بينهم كاهن (ماتاثياس) وأنشب ثورة ضد السلوقيين، ولما مات استمرت الثورة بقيادة ابنه يهودا الذي أصبح يعرف بالمكابي. واستطاع المكابيون الاستيلاء على القدس، في حين كان أنطيوخوس مشغولاً بحربه مع الفرس، فلم يكترث بثورة اليهود وأرجأ أمرها حتى يفرغ من إخضاع الفرس، ولكن الموت عاجله. وبدأ القادة الإغريق يتقاتلون تنازعاً على الحكم، وعلى أثر سلسلة الحروب ضد السلوقيين برزت طبقة حاكمة بين اليهود، وأعلن يوحنا ابن هيركانوس نفسه ملكاً بعد يهودا المكابي، وكان النزاع ينشب بين الأسر الكبيرة في كل مرة ينصّب فيها ملك. ولقد استمرت حرب المكابيين ضد السلوقيين أربعين سنة (175 ـ 135ق.م) وانتهت بقيام الأسرة الحشمونية التي قضى بومبي، القائد الروماني عليها سنة 63ق.م لما احتل القدس. فأصبحت فلسطين جزءاً من الدولة الرومانية، شأنها في ذلك شأن جميع بلاد الشام(1).

---

(1) أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص10 ـ 11.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص145 ـ 146.

Sami Hadauri, OP. Cit, P31.

Andrew J. Hurley, OP. Cit, P14-15.

Walid Khalidi, OP. Cit, P10.

تسالقت الأسر اليهودية اليهودية المتنازعة فيما بينها على خطب ود الرومان والتزلف إليهم. وبعد كثير من الدسائس والخصومات بين زعماء اليهود، نجح أحدهم واسمه «هيرود الأكبر» بمعونة الرومان في جعل نفسه سيداً على البلاد، واعترف به الرومان ملكاً على اليهود تحت حمايتهم. ولكن هيرود نفسه كان نصف يهودي لأن أمه كانت آدومية من قبيلة عربية تعيش جنوبي البحر الميت، ولذا لم يكن على وفاق مع المتعصبين اليهود. على أن «هيرود» وطّد مركزه بإظهار احترامه للدين اليهودي وتقاليده، دون أن يوغر صدر الرومان، وبعد موته تنافس أولاده على الحكم وغرقت البلاد بالفوضى. وحين ولد السيد المسيح في بيت لحم كان (هيرود انتيباس) ابن هيرود الأكبر يحكم في القدس، وحين سعى به اليهود لصلبه بعد ثلاثة وثلاثين عاماً كانت المملكة الهيرودية قد انتهت وحكم البلاد حاكم روماني اسمه «بونتيوس بيلاطس». وكان اليهود يرتقبون المسيح الذي تنبأ بقدومه أنبياؤهم، ولذا التفوا حوله حين سمعوا به، وتنصر فريق منهم، ولكن الكهنة الذين وجدوا فيه خطراً يهدد مخططاتهم السياسية وامتيازاتهم مكروا به، وأعلنوا أنه دجال وطالبوا بدمه، وكانوا مشغولين عن دعواته باستعادة مملكتهم في هضاب فلسطين. ولكن السيد المسيح أعرض عن مكر الكهنة الصدوقيين الذين كانوا يتشبثون بحرفية التعاليم التوراتية وسفّه أحلامهم التواقة للسلطان الزمني، ونسف عقيدتهم القائمة على التفوق العنصري والانغلاق المذهبي. وكان من الطبيعي أن لا يستصوب الكهنة ذلك، فينتهروا السيد المسيح كما انتهروا أنبياءهم من قبل، وساروا وراء أدعياء نبوة كل منهم يدعي أنه المسيح المخلص، وهم في حقيقتهم محترفو سياسة يتسترون بستار الدين، وكنتيجة حتمية لظهور هؤلاء الأدعياء، قامت عدة ثورات ضد روما، قادها المتطرفون اليهود. وفي عام 66م نجح اليهود في الاستيلاء على أورشليم، فعاقبهم الامبراطور الروماني تيطس بقساوة وأحرق أورشليم ودمر الهيكل عام 70م، وأرسل الألوف من أسرى اليهود إلى روما. وظن الرومان أن التدابير القمعية سوف تفضي إلى اندماج

اليهود كما اندمجت القبائل الإسرائيلية العشرة في آشور من قبل، ولكن اقتناع اليهود بصحة ديانتهم وبأنهم شعب الإلٰه المختار، من جهة أخرى جعلهم ينكمشون على أنفسهم لأن الرب «يخضع الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا» (مزامير 47/ 3). وهكذا اصطدم الرومان باليهود الذين حاربوهم بقيادة «باركوبا» عام 132م يسانده الحاخام «أكيبا» وحاولوا جمع بني دينهم تحت رايتهم، ودامت ثورته ثلاث سنوات، ولكن القائد الروماني «تينيوس روفوس» أخمد الثورة وهدم أورشليم عام 135م، وبنى معبد جوبيتر مكان هيكلها المتهدم وغادر البلاد من بقي فيها من اليهود في كل اتجاه إلى الشمال إلى آسيا الصغرى وأوروبا وإلى الجنوب حيث استقروا في مصر على طريق الحجاز وفي يثرب، وتسرب بعضهم إلى اليمن وتكامل بذلك تشتت اليهود، ولم يعد يسمع لهم أي ذكر، ومُحي لهم كل أثر في فلسطين[1].

الخاتمة الثانية

تبين في الخاتمة الأولى انتفاء أي ادعاء يهودي ديني بأي حق لهم في فلسطين، استناداً إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، بالإضافة إلى المصادر المتنوعة الموضوعية. ويمكن الجزم بانتفاء أي ادعاء بأي حق تاريخي استناداً إلى المتعارف عليه قانونياً من حق أي شعب بوطن ما. ومن المتعارف عليه أن هذا الحق يرتكز على الولادة في ذلك الوطن، فإبراهيم الذي يعتبره اليهود جدهم الأول لم يولد في فلسطين وكذلك عشيرة آبائه وأجداده وظل حتى وفاته يعتبر نفسه غريباً في أرض كنعان (فلسطين)، وكذلك اعتبر بنوه وأحفاده، ولم تكن إقامته دائمة في فلسطين. وموسى الذي تبتدىء به الديانة اليهودية لم يولد في فلسطين ولم يعش فيها، ومات دون أن تطأ قدماه أرضها.

---

(1) أحمد طربين، مصدر سبق ذكره، ص10 ـ 13.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص173 ـ 182.

Andrew J. Hurley, OP. Cit, P15-22.

Walid Khalidi, OP. Cit, P11.

وحسب التوراة للافتقار إلى شواهد تاريخية، فإن الغزو العبراني للمناطق الجبلية الداخلية الذي تم في عصر القضاة جوبه بمقاومة مستمرة من قبل سكان البلاد الأصليين المستقرين فيها باستمرار متواصل. وهؤلاء السكان بفعل الأقدمية والاستقرار المتواصل هم أصحاب الحق كل الحق بفلسطين.

أما عصر ملوك إسرائيل فلم يمتد أكثر من أربعمائة سنة، وقد انتهى على يد الآشوريين والبابليين، وفي حين تم سبي معظم اليهود من فلسطين إلى العراق، فإن سكان فلسطين الأصليين بقوا على أرض فلسطين ولم يغادروها إلى أي مكان آخر قبل السبي ولا بعده، وحتى إن وجودهم استمر داخل مدينة القدس إبان حكم داود وسليمان ومن خلفهما. وهذا يعني أن مجيء اليهود إلى فلسطين إبان عصر القضاة وإبان عصر الملوك لم يكن أكثر من غزو عابر للمناطق الداخلية من فلسطين.

وعندما أتاح لهم كورش الفارسي العودة من المنفى بالعراق لم تعد إلا أقلية منهم، بينما الأكثرية بقيت في بابل. ووفق ما ورد في سفري عزرا ونحميا فإن محاولة بناء هكيل سليمان المدمر من جديد، وبناء أسوار لمدينة القدس قوبل بمقاومة سكان البلاد الأصليين. وإبان الحكم اليوناني حدثت انتفاضة يهودية بزعامة يهوذا المكابي لم يتمكن القادة اليونانيون من إخمادها للنزاعات فيما بينهم. وأعقب ذلك بسط الرومان سيطرتهم على فلسطين وما حولها، وقام اليهود بانتفاضة تمكن تيطس الروماني من إخمادها وتشتيت اليهود مجدداً، بينما بقي سكان فلسطين الأصليون فيها، وآثر القسم الأكبر من هؤلاء المشتتين البقاء في الشتات خاصة في الاسكندرية، وكانت آخر انتفاضة بقيادة باركوخبا عام 135م، تمكن الرومان من إخمادها وتم التشتت النهائي.

من ذلك يتضح بطلان أي ادعاء بحق تاريخي، إن من حيث الولادة على أرض فلسطين، وإن من حيث أقدمية السكن فيها، وإن من حيث الاستمرار الحضاري المتواصل فيها، ولو جاز للغزو اليهودي العابر امتلاك فلسطين، لجاز للعرب استرجاع الأندلس التي حكموها ثمانية قرون ونيف. وبأي منطق

يجيز ليهود أوروبا غير المنحدرين من ذرية إبراهيم ولا المولودين على أرض فلسطين أن يدعوا بحق تاريخي بها وباقتلاع سكانها منها؟

لا بد في خاتمة المطاف من الإشارة إلى انفصال المسيحية عن اليهودية، خلافاً لما يذهب إليه البعض من المسيحيين. فلقد تميزت الفترة التي عبرت بفلسطين من أيام أغسطوس الروماني إلى احتلال تيطس لبيت المقدس بالسلبية في موقف اليهود العدائي نحو الهلينية حضارة وفكراً وفلسفة، ونحو الدولة الرومانية، لأن اليهود كانوا قد رسخوا عقائدهم الدينية وربطوها بأمور كثيرة أصبح ضيق الأفق الصفة الملازمة لتصرفهم. ذلك أن الجماعة الدينية اليهودية المقدسية، فضلاً عن إيمانها بالتوحيد، قد اتخذت لها قواعد دينية غريبة عن القوم، فكانت تجعلها، كجماعة مضطرة إلى اعتزال الآخرين اجتماعياً كي يتم لها خلاصها. لكن أهم حتى من قواعد الطعام والطهارة هناك قضايا، كانت تُشعِر الآخرين بأن اليهود كانوا شيئاً يختلف عنهم تماماً. وهذه يمكن تلخيصها فيما يلي: (1) أن الله اختار شعباً خاصاً به هو الشعب اليهودي. وهو وحده الشعب الذي وجهت إليه الرسالة، وهو يقبلها وينشرها داخلياً بين أفراد هذا الشعب وأبنائه فقط، بحيث إن الأمر كله كان حكراً. وإذا كانت الأسرة الحشمونية قد فرضت التهود على أهل الجليل وأدوم، فقد كانت وراء هذه الحركة دوافع سياسية لا دينية لأن اليهودية لا تقبل دخول غير اليهود فيها. ومع أن الأدوميين أصبحوا يهوداً (سياسياً) فقد ظل اليهود يعتبرون قادتهم أجانب. (2) يعتقد اليهود أن مملكة ـ أو ملكوت السماوات ـ ستقوم على الأرض، وأنها آتية لا ريب في ذلك، وأن مجيئها أصبح وشيكاً. وهذه المملكة الإلٰهية المنتظرة هي يهودية بطبيعة الحال. (3) وهذه المملكة ستحقق وجودها على يد مخلص منقذ (مسيّا)، وفي هذه المملكة يعود إلى الشعب اليهودي عصره الذهبي. (4) أصبح للهيكل مكانة خاصة (أكثر بكثير من ذي قبل) في الحياة الدينية اليهودية، فطقوس العبادة على تنوعها، لا يجوز أن تغيّر قط، فضلاً عن ذلك فإن العبادة الصحيحة يجب أن تتم في الهيكل.

كان الفريقان الرئيسيان في المجتمع الديني اليهودي، عند ولادة المسيح مكوّناً من الفريسيين والصدوقيين. كان الفريسيون يرون أن القيام بالطقوس الدينية بحرفيتها وبدقة يعطي المؤمن ما يشبه الرصيد للمستقبل. أما الصدوقيون فقد كانوا أكثر اهتماماً بالنفوذ السياسي والسلطة. في هذا الجو جاء المسيح برسالته التي تتلخص بأن ملكوت الله هو هبة الله للبشر أجمعين، وأنه يتم بإرادة الله. والحصول عليه يتم بالتوبة ـ بالولادة الثانية ـ والتنازل عن متاع الدنيا. والوصول إلى هذا الملكوت يصبح أمراً روحياً داخلياً في نفس كل مؤمن، ولا يكون الانضمام إلى مملكة على هذه الأرض. وحملت دعوة المسيح تحريراً للإنسان من القيود والأربطة التي لفتها الجماعات الدينية اليهودية المقدسية حوله، فقيدت المجتمع فرادى وجماعات.

إن المسيحية كانت ثورة روحية على تقيد المجتمع اليهودي بطقوس وعبادات، المسيحية اهتمت بالطهارة القلبية والإيمان بالروح أكثر من الاهتمام بالطقوس. وقد أشار المسيح إلى ذلك غير مرة في تعاليمه. والمسيحية اعتبرت الناس جميعاً سواء، بينما اقتصرت اليهودية على «شعب مختار من الله». واهتمت اليهودية بالهيكل، بينما دعا المسيح إلى تنقية القلب وتطهيره بحيث يصبح مكاناً لائقاً لأن يُعبد الله فيه في كل وقت ومكان.

وقد ظهر للمسيحية اتجاهان بعد انتشارها الأول المحدود: فقد كانت هناك ما يسميه المؤرخون المسيحية اليهودية والمسيحية الهلينية. فقد كان المسيحيون، خاصة في بيت المقدس يعتبرون فرقة يهودية، وكانوا يقبلون بعضاً من طقوس اليهود ويؤمنون بأن المسيح هو المخلص (المسيّا) المنتظر. وكانوا يتوقعون المجيء الثاني للمسيح. ولأن اليهود لم يقبلوا السيد المسيح على أنه «المسيّا» المنتظر، فقد كانوا يعتبرون هؤلاء المسيحيين خوارج على الدين اليهودي. لذلك اعتدوا عليهم واضطهدوهم.

أما المسيحية الهيلينية فقد بدأت في القدس أيضاً، لكن سرعان ما ظهرت خصائصها في أنطاكية (وفي هذه المدينة سُمي المسيحيون بهذا الاسم

لأول مرة). وأبرز ما في هذه الخصائص أن هؤلاء المسيحيين لم يروا أنفسهم «طائفة يهودية» أو «فئة يهودية». هذه المسيحية هي التي اعتبرت نفسها ديانة جامعة عامة. وقد تخلت عن الطقوس اليهودية. ويعتبر بولس أكبر المفسرين لها. وبهذا تكون المسيحية المسيحية قد تخلصت كلياً من الالتصاق باليهودية وأصبحت ديانة جديدة تماماً[1].

رفض اليهود المسيح والمسيحية في الماضي والحاضر، وانتظروا «المسيًّا» المخلص لإقامة مملكة أرضية لشعبه المختار بعد أن أفهمهم المسيح «أن مملكته ليست من هذا المعالم». والخلاص الذي حصل بقيام دولة إسرائيل لم يتم على يد «المسيا»، وإنما تم على يد الحركة الصهيونية العلمانية بمؤازرة استعمارية غربية. ومن المستغرب جداً والمستهجن ادعاءات جماعات صهيونية مسيحية بالاسم بأن قيام دولة إسرائيل جاء تحقيقاً لمشيئة سماوية، في وقت لا يعتقد فيه غالبية المجتمع الإسرائيلي العلماني بذلك. وتبقى الحقيقة العلمية الموضوعية انتفاء التخرصات اليهودية والتخرصات الصهيونية/المسيحية في الغرب بوجود أي حق ديني أو تاريخي لليهود في فلسطين، وأن قيام دولة إسرائيل المعاصرة تم بقدرة بشرية يهودية وغربية، وليس بقدرة سماوية على الإطلاق.

إنه مما لا شك فيه أن الأصولية المسيحية في الغرب وعلى الأخص بالولايات المتحدة، قد عمدت إلى تسييس الدين المسيحي بادعاءات باطلة لا تستند إلى حقائق. ومن بين هذه الادعاءات اعتبار المسيحية امتداداً لليهودية، واعتبار المسيح نفسه يهودياً، وإلى إعطاء اليهود الحق الديني، بالرجوع إلى النبوءات التوراتية، مع أن هذه النبوءات تحققت في الماضي، ولم تظهر نبوءة جديدة تلمح إلى عودة ثانية بعد دمار الهيكل الثاني عام 70م. ومن جهة ثانية

(1) الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره، ص183 ـ 184، 207.

فاليهود ماضياً وحاضراً يرفضون اعتبار المسيحية امتداداً لليهودية. وفي يمينا «شمال تل أبيب» سنة 70م وضع يوحنا بن زكاي انطلاقة جديدة للدين اليهودي اعتبر فيها المسيحيين هراطقة فأصبح المسيحيون رسمياً منبوذين في نظر الدين اليهودي، ولم يكن المسيح يسير حسب التقاليد اليهودية التي اكتسبها اليهود بعد سبي بابل 756 قبل الميلاد.

لقد أصبحت هذه التقاليد المسماة بالمشناة دستوراً دينياً، وأخذت أبعاداً قومية ودينية متشددة، وكان يسوع وتلاميذه يسيرون ضد هذه التقاليد التي هاجمها باستمرار «السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت»، لقد سار المسيح ضد تيار الزمرة الدينية وكان دائماً ملاحقاً منهم فهاجموه تارة بالرجم وأخرى بتحريض الناس ضده وأخيراً الحكم عليه بالصلب، فكيف إذاً عاش المسيح ومات يهودياً؟!(1).

إن آباء الصهيونية الأوائل لم يخطر ببالهم قط في مشروعهم الاستيطاني بفلسطين أنهم يحققون به النبوءات التوراتية التي يشدد عليها الأصوليون المسيحيون في الغرب. فهجرة الجماعات اليهودية للاستيطان في فلسطين لا تحددها حركيات التاريخ أو الطبيعة اليهودية أو الدينية، وإنما تحددها حركيات الاستعمار الغربي، ولا سيما الاستعمار الأنغلوساكسوني. ولا تشكل إسرائيل استثناء لهذه القاعدة، فهي جزء من نمط ومن حركة غربية هي الإمبريالية الغربية التي جعلت العالم مسرحاً لنشاطها. والمشروع الصهيوني هو جزء لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني في الغرب، وما كان يمكنه أن يتحقق من دون إمكانات الإمبريالية الغربية ومن دون طموحاتها أو آلياتها. واستيطان اليهود في فلسطين هو نقل لفائض بشري غربي يتم تحويل هذا الفائض إلى دولة وظيفية استيطانية لخدمة مصالح الغرب لقاء أن يقوم هو على حمايتها. ويمكن القول إن يهود الشرق والعالم الإسلامي قد تم تحويلهم إلى

(1) مجلة النعمة، العدد 25، القدس، حزيران 1997، ص13 ـ 14.

مادة استيطانية تابعة للتشكيل الاستيطاني الغربي من خلال مدارس الأليانس والدعاية الصهيونية، وهجرة أعداد ضخمة من اليهود الاشكناز إلى العالم العربي، إذ إن هذه العمليات كلها أفقدتهم مختلف هوياتهم المحلية وأحلت محلها هوية يهودية عالمية اسماً، لكنها استيطانية فعلاً، جوهرها فك الصلة بين اليهودي ووطنه ومن ثم استيعابه في المنظومة الاستيطانية[1].

وما دامت الصهيونية كذلك، فهذا يعني أولاً وأخيراً، أن قيام دولة إسرائيل المعاصرة لا علاقة لها بالنبوءات التوراتية كما ترى الصهيونية المسيحية في الغرب، والصهاينة اليهود الساسة عندما يضربون على الوتر نفسه، فإنما ذلك بالتأكيد لمكاسب سياسية دعائية لا إيمانية دينية. ولهذا نجد أن بعض اليهود يرفضون الصهيونية من منظور ديني. والذين يرفضونها من منظور ديني ينقسمون إلى قسمين: الأرثوذكس والإصلاحيون، ويعترض بعض اليهود الأرثوذكس (جماعة نطوري كارتا مثلاً) على الحركة الصهيونية باعتبارها حركة علمانية تجعل من اليهود أمة بالمعنى العرقي العلماني للكلمة بما يتنافى مع تعليم الدين اليهودي، الذي يجعل اليهود شعباً بالمعنى الديني فحسب، ترتبط هويته بمدى تنفيذه للأوامر والنواهي. ويرى هؤلاء الأرثوذكس أن الصهيونية حركة مشيحانية زائفة تتحدى الإرادة الإلهية، إذ بدلاً من دعوة اليهود إلى الانتظار بصبر وأناة إلى أن يأذن الرب لهم في العودة، فإنها تحرضهم على أخذ زمام الأمور في أيديهم والعودة إلى فلسطين لاستيطانها.

أما الإصلاحيون فهم يسقطون الجانبين الإثني والقومي في اليهودية، ويجدون في الصهيونية عودة إلى القبلية وضيق الأفق وحرفية التفسير. ويرى كثير من المتدينين أن الدولة الصهيونية حلت في الوجدان اليهودي محل الإله، وحل الولاء لها ودعمها محل إقامة الشعائر. وكما قال الحاخام الإصلاحي

---

(1) صبري جريس وأحمد خليفة، (تحرير)، دليل إسرائيل العام، بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1997، ص494.

ألكسندر شندلر: يتصور اليهود الآن أن إسرائيل هي معبدهم وأن رئيس حكومتها هو حاخامهم الأكبر. وقد وصفها حاخام أرثوذكسي بأنها مثل العجل الذهبي، أي عبادة وثنية قربانية تحل محل العبادة الحقيقية[1]. والإصلاحيون على صواب بإسقاطهم الجانبين الإثني والقومي. ومن المؤكد أنه لا صفاء عرقيًا ولا نقاوة سلالية عند اليهود، ولا يمكن موضوعياً وعلمياً بناء قومية على أسس دينية، إذ لو جاز ذلك لأصبح كل دين أساساً لقومية، وذلك محال. وكلمة «يهودي» ليس لها مدلول واضح محدد يشبه في وضوحه وتحدده مثل «ألماني». فالألماني هو فرد ينتمي إلى الفرع النوردي من الجنس الأبيض من الناحية العرقية، وإلى الحضارة الغربية من الناحية الحضارية العامة، وإلى الثقافة الجرمانية من الناحية الأثنية. وهو يتحدث الألمانية، وينتمي إلى الشعب الألماني. والعناصر المشتركة بين أفراد هذا الشعب كثيرة ومهمة. ولذا فهي ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية تفوق بمراحل العناصر غير المشتركة بينهم (تعدد اللهجات ـ تنوع الألوان المحلية ـ انقسامهم إلى طبقات).

ويتحدث كثير من الدارسين عن اليهود وكأنهم كتلة واحدة متماسكة ومتجانسة فعلاً، ويصبح افتراض الوحدة والتماسك والتجانس أقل كموناً وأكثر وضوحاً حينما يتحدث الباحث عن اليهود باعتبارهم «الشعب اليهودي» و«الأمة اليهودية»، وهو ما يعني أن اليهود ينتمون إلى تشكيل حضاري واحد، وأن لهم تاريخاً واحداً، ومصيراً واحداً، ومستقبلاً واحداً، وربما عرقاً واحداً، وانتماء ثقافياً واحداً، وأن مصالحهم واحدة وتطلعاتهم واحدة، وأن العناصر المشتركة بين يهود العالم أكثر أهمية من العناصر غير المشتركة.

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان ثمة عناصر مشتركة بين يهود العالم، فما هي؟ وهل هذه العناصر المشتركة أكثر تفسيرية وأهمية من العناصر غير المشتركة[2]؟ وهل هناك أدنى صحة لما جاء في إعلان «الاستقلال» بقيام

(1) المصدر السابق، ص501.

(2) المصدر السابق، ص467.

دولة إسرائيل (14/ 5/ 1948) بأن المستند الحقوقي لهذا القيام هو «الحق التاريخي»؟

التاريخ اليهودي

إن فكرة «التاريخ اليهودي» ليست أكثر من مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تاريخ جميع الشعوب والأمم، وهو مفهوم تتفرع عنه وتستند إليه جميع مفاهيم الاستقلال الأخرى. ومفهوم التاريخ اليهودي يفترض أن لهذا التاريخ مراحله التاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص، بل أيضاً قوانينه الخاصة. وهو تاريخ يضم اليهود أساساً، يتفاعلون داخله مع عناصر مقصورة عليهم، من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة. واستقلالية أي بناء تاريخي تعني استقلالية بناه الاقتصادية والاجتماعية، وكذلك استقلالية البنى الحضارية والرمزية المرتبطة به، وتجانسها النسبي في كل مرحلة من مراحله. كما أن هذا البناء التاريخي يضم جماعة من الناس لا وجود لها خارجه، ولا يمكن فهم سلوكها إلا في إطار تفاعلها معه. لكن من الثابت تاريخياً أن الجماعات اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم كانت توجد في مجتمعات مختلفة تسودها أنماط إنتاجية وبنى حضارية اختلفت باختلاف الزمان والمكان. فيهود اليمن في القرن التاسع عشر، كانوا يعيشون في مجتمع صحراوي قبلي عربي، أما يهود هولندا فكانوا في الفترة ذاتها يعيشون في مجتمع حضري رأسمالي غربي. ولكل هذا، نجد أن سلوك اليهودي اليمني ورؤيته للكون تحكمها إلى حد كبير عناصر البناء التاريخي العربي الذي يعيش فيه، تماماً كما تحكم سلوك يهود هولندا ورؤيتهم مكونات البناء التاريخي الغربي الهولندي[1].

وإذا افترضنا جدلاً وجود تاريخ يهودي فعلاً، فما هي أحداث هذا

---

(1) المصدر السابق، ص467.

التاريخ؟ هل الثورة الصناعية على سبيل المثال، هي من ضمن أحداث هذا التاريخ، أم أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي؟ في الواقع أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ الغربي، ترك أعظم الأثر في يهود العالم الغربي، وأحدث انقلاباً في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر، لكن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي. وفي الوقت نفسه لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى في بداية الأمر. أما يهود أثيوبيا فلم يتأثروا إلا على نحو سطحي، لأن المناطق التي كانوا يعيشون فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى وبقيت ذات طابع قبلي حتى الوقت الحاضر. لذا، يمكن القول إن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء في مجتمع ما، فإذا تأثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته[1].

وإذا كان من الصعب قبول مقولة «التاريخ اليهودي»، فإنه يصبح من الصعب بالتالي الحديث عن «الهوية اليهودية» أو عن «الشخصية اليهودية»، إذ إن من الواضح أن أعضاء الجماعات اليهودية هم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التي يعيشون في كنفها، يتفاعلون معها تأثيراً وتأثراً، شأنهم في هذا شأن أعضاء الأغلبيات والأقليات. وإن الموروث الثقافي لهذه الجماعات باللغات التي تتواجد في ربوعها، وإن التقاليد الأدبية والفنية التي يبدع المؤلفون والفنانون اليهود من خلالها هي تقاليد البلاد التي يقطنونها. ولا يمكن فهم إبداعات هؤلاء الحضارية إلا بالرجوع إلى موروثات تلك البلاد. ولو عاد الباحث إلى مفهوم الهوية اليهودية العامة والعالمية لضل سواء السبيل تماماً. وقل الشيء نفسه عن الأزياء والأطعمة والطرز المعمارية[2]. ومن الملاحظ أنه حتى اليوم داخل إسرائيل، رغم جهود السلطات في عمليات

---

(1) المصدر السابق، ص468.

(2) المصدر السابق، ص469.

الصهر، لا تزال الجماعات اليهودية تحمل موروثات وتقاليد وعادات وأزياء وحضارات البلدان التي هاجرت منها، وخير مثال على ذلك الاختلاف في تلك الموروثات بين الاشكناز والسفارديم والفلاشا وسواهم.

واليهودي في الشرع والموروث الديني اليهوديين هو أنه من ولد لأم يهودية أو تهود بحسب الشريعة. وهذا يعني أن هناك أساساً عقائدياً (التهود والإيمان باليهودية) وأساساً عرقياً (الأم يهودية)، كما أن اليهودي الملحد يظل يهودياً على الرغم من إلحاده (وهذا أمر ينفرد الشرع اليهودي به دون الإسلام أو المسيحية)[1]. ومن الواضح أنه في كلتا الحالتين: التهود أو الولادة من أم يهودية دون أن يكون الأب يهودياً انتفاء للنقاوة العرقية الأثنية، ناهيك بارتفاع نسبة الزواج المختلط، وزواج اليهودي من غير يهودية. وحتى الآن لا يوجد تحديد رسمي في الدستور الإسرائيلي حول: من هو اليهودي، كما لا يوجد في هذا الدستور تحديد لجغرافية أرض دولة إسرائيل، وهي الدولة الوحيدة في العالم التي لا تنظر إلى نفسها باعتبارها ممثلاً للمستوطنين فيها فحسب، وإنما باعتبارها «دولة الشعب اليهودي» في شتى أنحاء المعمورة، كما ورد في «إعلان الاستقلال». وبحسب «قانون العودة» الإسرائيلي، يمكن لكل يهودي اكتساب الجنسية في إسرائيل بمجرد الهجرة إليها بنية الاستيطان فيها. ولأنها تمنح هذا الحق لليهود فقط، وتحجبه عن سواهم، بمن فيهم أهل البلد الأصليون الفلسطينيون، وتميز من وقع منهم تحت احتلالها، فإن إسرائيل تعتبر في العرف الدولي السائد دولة عنصرية، الأمر الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة (1975) في قرارها رقم 3379[2].

يبدو واضحاً ومؤكداً مما تقدم أنه لم يكن لعامة اليهود تاريخ مستقل، وتاريخ الجماعات اليهودية جزء لا يتجزأ من تاريخ أماكن تواجدهم، شأنهم

(1) المصدر السابق، ص470.

(2) المصدر السابق، ص91.

في ذلك شأن بقية الأقليات الأثنية في الأوطان التي تعيش فيها تلك الأقليات. كما بدا فيما مر بالفصول السابقة بانتفاء الادعاء أن بالحق الديني أو التاريخي، وبدا واضحاً دون أي لبس أن الحركة الصهيونية الأوروبية المنشأ هي حركة استعمارية استيطانية ولدت إبان المد الاستعماري الاستيطاني الأوروبي وكانت نسخة عنه ارتبطت مصالحها بمصالح الإمبريالية الغربية ولا يزال هذا الترابط العضوي قائماً لأنه لا غنى لأحد الطرفين عن الآخر، وتتهاوى أمام هذه الحقائق الدامغة مجمل التبريرات في الادعاءات الخرافية الباطلة بالحقين المزعومين الديني والتاريخي المتخذين ذريعة للتستر على الغزو الاستعماري الاستيطاني للأرض الفلسطينية العربية، ومما يؤكد ذلك، التمسك الإسرائيلي بالجولان بذريعة استراتيجية الهضبة عسكرياً ولكونها مصدراً للمياه من دون الاستناد للادعاء بالحق الديني أو التاريخي، ويبقى هذا الادعاء بعيداً عن الأسانيد العقلية والمنطقية والشرعية.

المصادر والمراجع

المصادر العربية:

1 ـ **أبحاث مؤتمر طرابلس حول الصهيونية والعنصرية**، الصهيونية حركة عنصرية ترجمة عدنان كيالي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1979.

2 ـ إبراهيم (أبو لغد (إعداد) **تهويد فلسطين**، ترجمة أسعد رزوق، بيروت مركز الأبحاث ورابطة الاجتماعيين الكويت 1972.

3 ـ إبراهام ليون، **المفهوم المادي للمسألة اليهودية**، ترجمة عماد نويهض، بيروت دار الطليعة، 1973.

4 ـ إبراهيم العابد، **دليل القضية الفلسطينية**، بيروت، مركز الأبحاث 1969.

5 ـ أحمد بيضون، **الحجاز والدولة الإسلامية**، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983.

6 ـ أحمد بيضون، **تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول**، بيروت، دار اقرأ، 1985.

7 ـ أحمد أمين، **فجر الإسلام**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1961.

8 ـ أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، جـ1، بيروت، دار الكتاب اللبناني (لا.ت).

9 ـ أحمد سوسه، **العرب واليهود في التاريخ**، بغداد، وزارة الإعلام، 1982.

10 ـ أحمد طربين، **فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (1897 ـ 1922)** القاهرة، مطابع دار النشر للجامعات المصرية، 1970.

11 ـ إدوار سعيد، **الاستشراق**، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981.

12 ـ إسرائيل شاحاك، **التاريخ اليهودي ـ الديانة اليهودية**، ترجمة صالح علي سوداح، بيروت، بيسان للنشر، 1995.

13 ـ أسعد رزوق، **إسرائيل الكبرى**، بيروت، مركز الأبحاث، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1973.

14 ـ الفرد لينتتال، **ثمن إسرائيل**، ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري، بيروت، دار الكشاف، 1954.

15 ـ **القرآن الكريم**، بيروت، دار الفجر الإسلامي، الدار الشامية للمعارف، دمشق دار الإيمان دمشق، 1984.

16 ـ **الكتاب المقدس (الطبعة الكاثوليكية)** دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت 1992.

17 ـ **الكتاب المقدس**، (الطبعة البروتستانتية، القاهرة، دار الكتاب المقدس 1969.

18 ـ اكرام لمعي، **الاختراق الصهيوني للمسيحية**، القاهرة ـ بيروت، دار الشروق، 1991.

19 ـ ألن تايلور، **تاريخ الحركة الصهيونية**، ترجمة بسام أبو غزالة، (1897 ـ1947)، بيروت دار الطليعة، 1966.

20 ـ **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام (أربعة مجلدات) دمشق، 1984.

21 ـ **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، الدراسات الخاصة (ستة مجلدات) بيروت، 1990.

22 ـ أمين عبد اللّه محمود، **مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، الكويت، عالم المعرفة، 1984.

23 ـ إيان لوستك، **الأصولية اليهودية في إسرائيل**، ترجمة حسين زينة، بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1991.

24 ـ إيلان هاليفي، **المسألة اليهودية**، ترجمة فؤاد شديد، دمشق، مكتب الخدمات للطباعة، 1986.

25 ـ أنيس القاسم، **نحن والفاتيكان وإسرائيل**، بيروت، مركز الأبحاث، 1966.

26 ـ بوانداريفسكي، **سياستان إزاء العالم العربي**، ترجمة خيري الضامن، موسكو، دار التقدم، 1975.

27 ـ **بيان نويهض الحوت**، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (1917 ـ 1948) بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981.

28 ـ **تقرير مجلس كنائس الشرق الأوسط عن الحركات الإنجيلية الغربية الحديثة حيال الشرق الأوسط**، دار الوحدة، 1988.

29 ـ جورجي كنعان، **الأصولية المسيحية**، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع 1995.

30 ـ حسان علي حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية (1897 ـ 1909) بيروت، جامعة بيروت العربية، 1978.**

31 ـ حنا صلاح (إعداد) **فلسطين وتجديد حياتها، نيويرك**، المطبعة التجارية السورية الأميركية، 1919.

32 ـ خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه**، (1908 ـ 1918) بيروت، مركز الأبحاث 1971.

33 ـ رشاد الشامي، **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية**، الكويت عالم المعرفة، 1986.

34 ـ روجيه غارودي، **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، ترجمة حافظ الجمالي وصياح الجهيم، لبنان، دار عطية للنشر، 1996.

35 ـ ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية**، جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة عبد الله عبد العزيز، الكويت، عالم المعرفة، 1985.

36 ـ شفيق مقار، **المسيحية والتوراة**، لندن ـ قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، 1992.

37 ـ صادق العظم، **دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية**، بيروت، دار الطليعة، 1970.

38 ـ صالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين**، بيروت، دار الفتح 1970.

39 ـ عبد الوهاب محمد المسيري، **الأيديولوجية الصهيونية**، الكويت عالم المعرفة، 1982.

40 ـ عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972.

41 ـ عبد الوهاب الكيالي، **وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية** (1918 ـ 1939) بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بغداد، جمعية صندوق فلسطين، 1968.

42 ـ عجاج نهويض، **بروتوكولات حكماء صهيون**، بيروت، دار الاستقلال للدراسات والنشر، 1990.

43 ـ عزت طنوس، **الفلسطينيون ماض مجيد ومستقبل باهر**، بيروت، مركز الأبحاث، 1982.

44 ـ عصام الدين حفني، **موسى وفرعون بين الأسطورية والتاريخية**، القاهرة، دار العلم الجديد، 1975.

45 ـ عصام الدين حفني ناصف، **اليهودية بين الأسطورة والحقيقة**، بيروت، دار المروج، 1985.

46 ـ فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، بيروت، دار الكلمة، 1982.

47 ـ فرنسيس أملي نيوتن، **خمسون عاماً في فلسطين**، ترجمة وديع البستاني بيروت، مطابع صادر ـ ريحاني، 1947.

48 ـ فيليب حتي، إدورد جرجي، **جبرائيل جبور، تاريخ العرب، جـ1، بيروت، دار الكشاف، 1965.**

49 ـ قيس مراد قدري، **الصهيونية وأثرها على السياسة الأميركية**، بيروت مركز الأبحاث، 1982.

50 ـ كارل ماركس، **المسألة اليهودية، ترجمة محمد عيتاني**، بيروت، مكتبة المعارف، 1952.

51 ـ كمال الصليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1985.

52 ـ كمال الصليبي، **خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**، لندن، دار الساقي 1988.

53 ـ لوتسكي، **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، ترجمة عفيفة البستاني، بيروت، دار الفارابي، 1980.

54 ـ مارتن لوثر، **نفاق اليهود، ترجمة عجاج نويهض، بيروت، دار الفكر، 1974.**

55 ـ **مجلس كنائس الشرق الأوسط، ما هي الصهيونية المسيحية الأصولية،** ترجمة؛ حسني زينة، بيروت، 1991.

56 ـ محمد حسنين هيكل، **حرب الخليج**، أوهام القوة والنصر، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992.

57 ـ محمد السماك، **الصهيونية المسيحية**، بيروت، دار النفائس، 1993.

58 ـ محمد عزة دروزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها**، جـ1، بيروت، دار الكلمة للنشر، 1979.

59 ـ محمد أمين العالم، **الأصوليات الإسلاميات في عصرنا الراهن، القاهرة**، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، 1993.

60 ـ محمود مفلح البكر، **الروح الأخضر**، بيروت، دار الحضانة الجديدة، 1992.

61 ـ **من الفكر الصهيوني المعاصر**، بيروت، مركز الأبحاث، 1968.

62 ـ منير البعلبكي، **المورد**، بيروت، دار العلم للملايين، 1985.

63 ـ نبيل علقم ووليد ربيع، **ظاهرة الهجرة في المجتمع الفلسطيني**، لوس أنجلوس باسايك برس، 1990.

64 ـ ندرة اليازجي، **رد على التوراة**، دمشق، دار الغربال، 1974.

65 ـ هاني مندس، يفغيني يفسييف، **الصهيونية في الاتحاد السوفياتي**، بيروت، كومبيوتر، 1991.

66 ـ وديع بشور، **الميتولوجيا السورية**، 1947.

67 ـ يوسف الياس ضاهر، **مجموعة رسائل إلى قداسة البابا**، بوانس إيرس، **1985.**

68 ـ يوسف الحسن، **البعد الديني في السياسة الأميركية تجاه الصراع العربي ـ الصهيوني**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، **1990.**

الدوريات:

1 ـ مجلة ـ الحوادث تاريخ 16/ 2/ 196.

2 ـ مجلة ـ المستقبل عدد 29، بيروت 1981.

3 ـ مجلة ـ المشرق، عدد 23، 1899.

4 ـ مجلة ـ الفكر الديمقراطي عدد 1، 1988.

5 ـ مجلة ـ شؤون فلسطينية، عدد 84، 1978.

6 ـ مجلة ـ شؤون فلسطينية، عدد 68 ـ 69، 1977.

7 ـ مجلة ـ شؤون فلسطينية عدد 235 ـ 236 ـ 237، 1992.

8 ـ مجلة ـ الكاتب الفلسطيني، عدد 24 ـ 25، 991.

9 ـ مجلة ـ الكاتب الفلسطيني، عدد 22، 1991.

10 ـ مجلة ـ شؤون عربية، عدد1، 1981.

11 ـ مجلة ـ المجلة، 16 ـ 22/ 1/ 1994.

الصحف:

1 ـ الرأي ـ عمان 5/ 11/ 1991.

2 ـ الوطن ـ لوس أنجلوس 6/ 2/ 1996.

3 ـ أبناء العرب، لوس أنجلوس، 10/ 2/ 1994.

4 ـ الوسط العربي، لوس أنجلوس عدد 30، 1994.

5 ـ مجلة النقمة، العدد 25، القدس حزيران 1997.

المصادر الأجنبية:

1 - Abram Leon Sachar, History of the Jews, N,Y, Alfred A. Knoph, 1966.

2 - Alfred Lilienthal, what Price Peace, Chicago H. Ragnery Company, 1953.

3 - Alfred Lilienthal, The Zionist Connection 116 what Price Peace, New Jersy, Dodd mead &; Co. 1982.

4 - Andrew J. Hurley Israel and the New World Order, santa Barbara, Fithian Press, 1991.

5 - And rej Kreutz, vatican Policy on the Palestinian Israeli Conflict, N.Y. Green Wood Press, 1990.

6 - Barbara W. Tuchman, Bible and sword, England and Palestine from the Bronze Age to Balfour, London, Alvin Redman, 1957.

7 - Christopher Sykes, Cross Road to Israel London, Colins, 1965.

8 - Chaim Weizman, Jrial and Error, N.Y. Harper &; Brothers, 1949.

9 - Donald K. me Kim, What Christians Believe about the Bible, tennesse, Nashville, 1985.

10 - Dauid J. Goldberg and John D. Rayner, the Jeuish people, their History and their Religion, Middlesex - England, viking, 1987.

11 - Ernest Sandeen, The Roots of Fundamentaliem, Chicago, the University of Chicago Press, 1970.

12 - Frank E. Manuel, The Realities of American Palestine relations, Wachington, Public Affairs Press, 1949.

13 - Galina Nikitina, The state of Israel, moscow, Progress Publishers, 1973.

14 - George M. Marsden, Fundamentalisim and American Culture (1870-1925) N.Y. ox ford University Press, 1982.

15 - Grace Halsell, Prophecy and Politics, Militant Evangelists on the Rood To Nuelear War, West-Port Conn, Lawrence Hill &; Co. 1986.

16 - Hanna Arendt, Eichmann in Jerusalem, N.Y. The viking Press, 1963.

17 - Hal Lindsey, The Late Great Planet Earth N.Y Bantam Books, 1970.

18 - Harry Howard, The King-Crane Commission, Beirut, Khayat, 1963.

19 - Henry Feingold, Zion in America, The Jeuish Experience from Colonial Times to the Present, N.Y. Hippacrine books, 1974.

20 - Hertzel Fishman, American Protestantism and a Jewish State, Detroit, Wayne State University Press, 1973.

21 - Isidore Epstein, Judaisim, London, Penguim Books, 1959.

22 - Jacob Bernard Augs, The Meaning of Jewish Hsitory, N.Y Abelard schuman, 1963.

23 - J. C. Hurewitz, The Struggle for palestine, N.Y. W.W. Norton Co. Ime. 1950.

24 - Jerry Falwell ed The Fundamentalist Phenomenon N.Y. Doubleday &; Company, 1981.

25 - Joseph B. Schechman, The United states and the Jewish Mouvement, N.Y. Herzl press, 1966.

26 - Kamal Salibi, Who was Jesus, A Conspriracy in Jerusalem, London-N.Y I.B Touris &; Co. Ltd 1992.

27 - Kathleen Kenyon, Archaeology in the Holy Land, London, E. Benn, N.Y. W.W Norton, 1979.

28 - Khalid Kishtiany, Palestine in Pers Pective, Beirut, Palestine Research Center, 1971.

29 - Leo Schwarz ed. Great Ages and Ideas of the Jewish People, N.Y Random House 1956.

30 - M.A. Beek, Loncise History of Israel from Abraham to Bareochba Rebillian, N.Y. Harber &; Row. 1963.

31 - Merrill Simon, Jerry Falweel and the Jews, N.Y. Jonthan David Publishers, 1984.

32 - Michael Palumbo, The Palestinian Catastrophe, London, Faber and Faber, 1987.

33 - Naim Istfan Ateek, A palestinian Theolgy of Liberation, N.Y. Orbis Books marymoll, 1989.

34 - Neil S. Fujita, Introducing the Bible N.Y. Ramsey Paulist press, 1981.

35 - Paul Findley, They Dare to speak, west port Connectient, Lawrence Hill &; Co. 1985.

36 - Perry D. Young, God's Bullies, N.Y. Reinhart and winston, 1982.

37 - Petter Grose, Israel in the Mind of America, N.Y. Alfred Knoph, 1983.

38 - R.C. Macrides, Foreign Policy in World Polities, New Jersey, Prentice Hall, 1976.

39 - Richard Crossman, Palestine Mission, N.Y. London, Harper &; Brothers, 1974.

40 - Robert Lansing, The Big Four and others of the peace conference, London, 1922.

41 - Roberta straws feurlicht, the Fate of the Jews, N.Y. Times Books, 1983.

42 - Ruben Fink ed. America and Palestine, N.Y. American Zionist Emergency council, 1945.

43 - Sami Hadami, Bitter Harvest, N.Y. Olive Branch press, 1990.

44 - Samuele Bacchiocchi, Hal Lindsey's prophetie Puzzle predictions, Michigan, Biblical feropcetive, 1984.

45 - Sergis I. Mimerbi, Confliet in the holy Land (1895 - 1925) N.Y. Oxford university Press, 1990.

46 - Shloma Aronson, Confliet and Bargaining in the Middle East, Baltimore, Johns Hopkins university press, 1978.

47 - Theodore Winston Pike, Israel our Duty, Our Dilemma, Bregon city, Big sky press, 1988.

48 - William Quandt, Decade of Decisions Berbely University of california press, 1977.

49 - Walit Khalidit ed. From Hanen to conquest Beirut, The I institute for palestine studies 1972.

الفهرس

الفصل الثالث: الفاتيكان واليهود بين الماضي الغابر والزمن الحاضر 5

الردة الڤاتيكانية 9

مواقف الڤاتيكان من الصهيونية قبل قيام دولة إسرائيل 10

الاتصالات الصهيونية المبكرة بحاضرة الڤاتيكان غير المجدية 13

هرتسل في الڤاتيكان 15

ناحوم سوكولوف في الڤاتيكان 17

موقف الڤاتيكان من وعد بلفور 20

المواقف الڤاتيكانية من الصهيونية إبان ولاية البابا بيوس الحادي عشر (1922 ـ 1939) 27

مواقف الڤاتيكان من المشروع الصهيوني في الثلاثينات 29

مواقف الڤاتيكان من اليهود خلال الحرب العالمية الثانية 32

موقف الڤاتيكان تجاه عرب فلسطين في هذه المرحلة 35

توطيد علاقات الڤاتيكان بالولايات المتحدة 35

مواقف الڤاتيكان تجاه ولادة إسرائيل وتجاه الشعب الفلسطيني 1945 ـ 1949 36

سياسية الڤاتيكان في هذه المرحلة 40

مواقف الڤاتيكان تجاه إسرائيل وعرب فلسطين بين عامي 1950 ـ 1967 42

مواقف الڤاتيكان من الصراع العربي الإسرائيلي بين عامي 1967 ـ 1978. 54

مواقف الڤاتيكان تجاه عرب فلسطين بين عامي 1967 ـ 1974 59

التباين بين الكنائس الكاثوليكية الشرقية والغربية 60

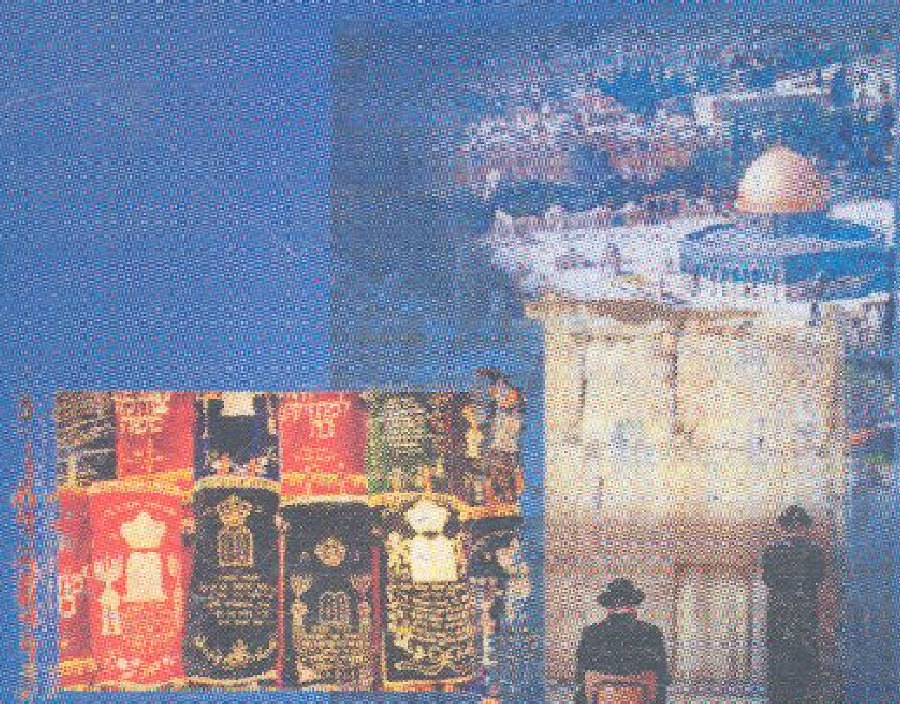
مواقف الڤاتيكان من الصراع العربي/ الإسرائيلي بين عامي 1973 ـ 1978 62

مواقف الفاتيكان: من اتفاقية كامب ديفيد إلى التبادل الدبلوماسي مع

إسرائيل 1978 ـ 1993 64
الانتقال من التأرجح إلى اتخاذه قرار الاعتراف بإسرائيل 66
العبث الإسرائيلي بالمقدسات المسيحية في الأراضي المقدسة 71
غيض من فيض من الانتهاكات الإسرائيلية للمقدسات المسيحية ولرجال الدين 73
لاجئون مسيحيون في وطنهم وإغضاء الڤاتيكان عن محنتهم 77
اعتراف الڤاتيكان رسمياً بإسرائيل وصداه 79
أبعاد الاعتراف الڤاتيكاني بإسرائيل 79
الكنائس الشرقية في واد والكنائس الغربية في واد آخر 81
مناقشة مضمون الوثيقة 89
الفصل الرابع: تهافت الادعاءات بالحقوق الدينية لليهود في فلسطين 95
ملكية الأرض 96
أسطورة «الوعد» وأسطورة «أرض الميعاد» 98
لمن الوعد السماوي بأرض الميعاد 100
شبه الجزيرة العربية منبت اليهود واليهودية 103
من هم نسل إبراهيم 105
التهود: قديمه وحديثه 107
التهود تاريخياً في القرون المسيحية الأولى 113
حقيقة «الوعد» وحقيقة «الموعودين» لاهوتيا 116
أبناء الجسد وأبناء الإيمان 124
عدد النسل وحقيقة الموعد 125
الوعد المشروط ومخالفة اليهود له 128
العودة والخلاص بقدرة إلهية لا بقدرة بشرية مادية 131
تبديد أسطورة «الشعب المختار» 135
حقيقة «الاختيار» والمقصد الإلٰهي منه 141
المسيحيون والنصارى 151
انتشار المسيحية 153
بولس المسيحي وبطرس النصراني 155
عالمية الإنجيل 156
الأناجيل الأربعة 158
المسيح ليس لليهود دون سواهم 161
المسيحية ليست تتمة لليهودية 162
فرادة إنجيل يوحنا عن بقية الأناجيل 163

تهافت أطروحات الصهيونية/ المسيحية	164
هل يمكن اعتبار قيام دولة إسرائيل تحقيقاً لنبوءات توراتية؟	168
المرتكزات العقدية للأصولية المسيحية	173
أطروحات الصهيونية المسيحية حول المجيء الثاني للمسيح.	176
من هم أبناء الله وشعب الله في الوقت الحاضر	177
نظريات الملك الألفي السعيد	187
الخرافة اللاهوتية المسماة هرمجدون	204
نظرة نقدية لنظرية هرمجدون	207
المسيح يوضح مؤشرات الآخرة	212
الهيكل الثالث	214
مؤسسة جبل المعبد (الهيكل)	215
بعض مظاهر نشاط الصهيونيين المسيحيين في دعم إسرائيل	219
انفصال المسيحية عن اليهودية	225
لماذا ثار المسيح على اليهود	228
العهد الجديد حسم فصل المسيحية عن اليهودية	231
حوار الإنجيليين والرسل العقيم مع اليهود	232
أعمال الرسل	243
رسائل الرسل:	245
رسائل الرسل الآخرين	253
رؤيا يوحنا اللاهوتي	254
قراءة فاحصة لرؤيا يوحنا اللاهوتي	255
هوية يوحنا والباعث على كتابة الرؤيا والهدف من وراء ذلك	255
مضمون الرؤيا	259
شيوع الرقم سبعة وسواه	265
العصر الألفي السعيد ونهاية التاريخ	271
جوهر العقيدة «الألفية»	274
دور يوحنا اللاهوتي في عبرنة المسيحية	282
الاستلهامات التوراتية	287
استلهامات اللاهوتي من العهدين القديم والجديد	289
الخاتمة الأولى	290
الفصل الخامس: نقض الادعاء بالحق التاريخي	305
دحض الادعاءات بالحق التاريخي	307

العودة إلى التاريخ 313
الخاتمة الثانية 319
التاريخ اليهودي 327
المصادر والمراجع 331
المصادر العربية 331
الدوريات 336
الصحف 336
المصادر الأجنبية 337



هل لليهود
حق ديني أو تاريخي
في فلسطين





